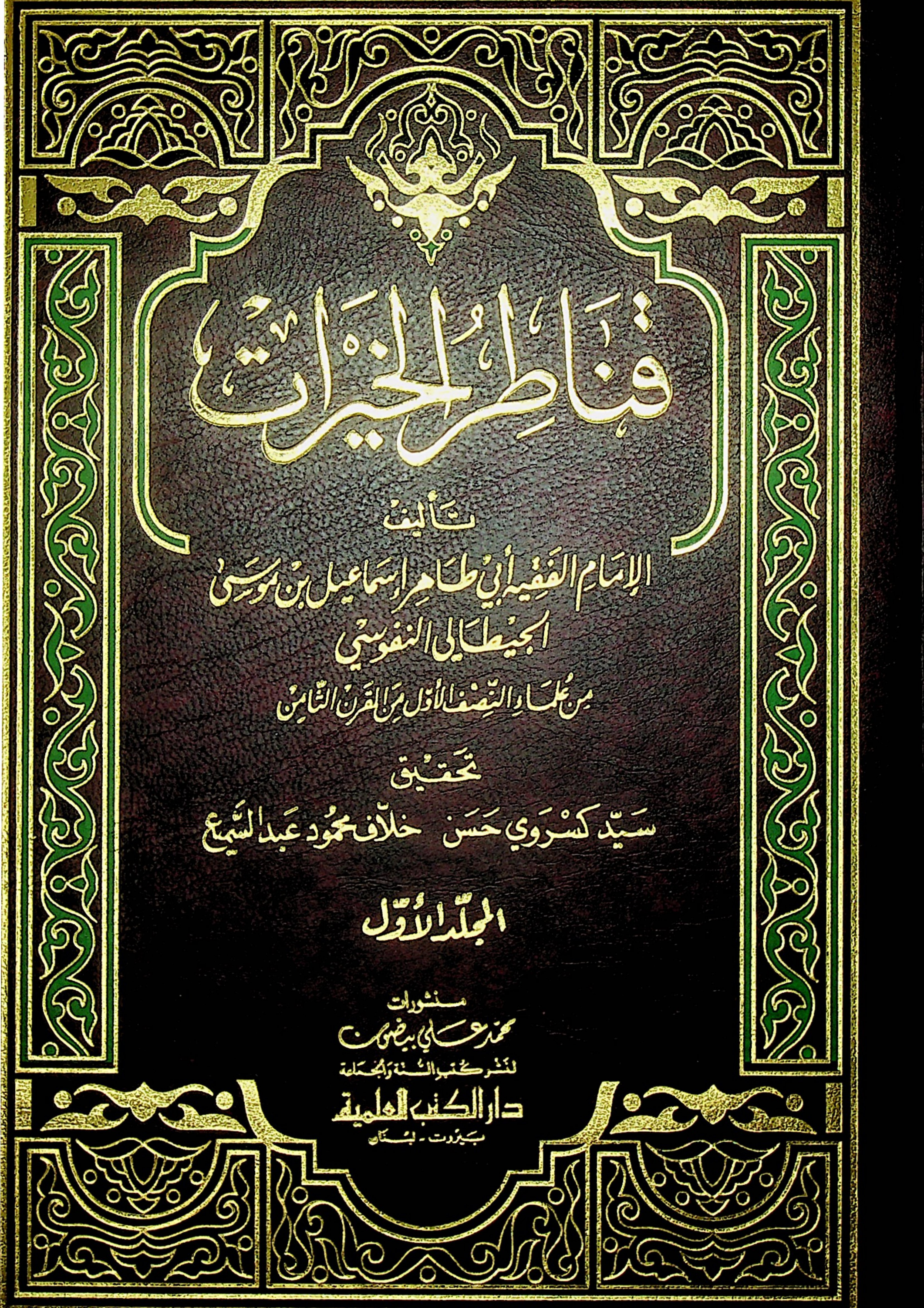

قناطر الخيرات
تأليف
الإمام الفقيه أبي طاهر إسماعيل بن موسى
الجيطالي النفوسي
من علماء النصف الأول من القرن الثامن
تحقيق
سيد كسروي حسن خلاف محمود عبد السميع
المجلد الأول
منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



قناطر الخيرات

تأليف

الإمام الفقيه أبي طاهر إسماعيل بن موسى
الجيطالي النفوسي

من علماء النصف الأول من القرن الثامن

تحقيق

سيد كسروي حسن خلاف محمود عبد السميع

الجزء الأول

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



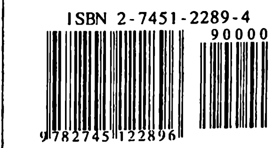
الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-2289-4



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، الحمد لله منْ رب كريم منان على عباده الصالحين بحياة قلوبهم مع حياة أجسادهم وأعظم بها من نعمة يحمد عليها رب العباد. وأشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الفضل العظيم. وأشهد أن محمداً رسول الله بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في ربه حتى أتاه اليقين فصلاةً وسلاماً عليه من رسول كُمل خُلقه وعظم بالرسالة قدره.

وبعد: فالحمد لله الذي جعل من أمة محمد أئمة يهدون الناس من الضلال إلى النور ويأخذون بأيديهم إلى طريق الآخرة راجين من ربهم عفواً وغفراناً زاهدين في الدنيا وما فيها من عوارض زائلة ثم إننا نسأل الله تعالى أن يحيي قلوبنا حال موت القلوب، وأن يقينا شرور أنفسنا وأن يجعل لمكروبنا فرجاً وأن يزيل عنا وعن جميع عباده المسلمين مصائب الدهور، وأن يجعل لنا في هذه الدنيا حياة فيها رضاه وأن يكتب لنا في الآخرة جنة ورضواناً، وأن يحشرنا وسائر عباده المسلمين تحت لواء سيدنا محمد وصلي اللهمّ عليه وعلى آله وصحابته أجمعين آمين..

أما بعد فكتاب قناطر الخيرات كتاب جمع الكثير من الآيات والأحاديث والآثار التي تربي النفس على تصويب النظرة إلى الحياة الدنيا وبيان أنها فانية لا محالة. وهو كتاب طيب نفيس لما فيه، وإن كان مؤلفه سطر أغلب الآيات والأحاديث فيه من حفظه وذاكرته فخانته أحياناً كثيرة وهذا طبع بشري لا يسلم منه إلاَّ من رحم الله والدليل على ذلك كلامه في «باب حكايات الأسخياء» ص ١٣٥ مخ، حيث يقول: وهذه الحكايات قرأتها قديماً فحفظي فيها مضطرب ولعلي إن لم آت بصريح ألفاظها فقد أتيت بمعناها وأنا أستغفر الله على ما بدلت من الألفاظ وغيرها.

أما الآيات: فكثير ما نسي الشيخ ولعله خطأ الناسخ والله أعلم.

وأما الأحاديث: فأدخل الشيخ كلامه مع متن الحديث فساق الحديث وكأنه بمعناه أو شرحاً له مع نسبة ذلك للنبي. ولقد راعينا تصويب ما استطعنا تصويبه وما بدا لنا بهذه الحالة والله نسأل القبول والسداد، ثم إن الشيخ قد نقل من بعض الكتب نقلاً بالنص دونما تصرف فيه مثل كتاب إحياء علوم الدين، وعزا ذلك في أحيان قليلة للإمام الغزالي وفي الغالب لم يعزو إليه حتى إنه ليخيل للقارىء أنه من كلام المؤلف وقد حاولنا التنبيه عليه في مواضعه ومن أمثلة ذلك ما جاء ص ٦٨، ٦٩ يرد فيه على الشيخ الغزالي في إجازته شد الرحال إلى قبول الصالحين ويطعن في تدليله بحديث شد الرحال. وهذا الإنكار وهذا الطعن هو كلام الإمام الغزالي في الإحياء (١/ ٢٤٥) «طبعة دار إحياء التراث العربي». كما اعتمد الشيخ في كتابه هذا على ما نقله في أغلب الأحيان كما سبق الإشارة إلى ذلك على بعض الكتب منها: كتاب الإحياء، وكتاب سراج الملوك، كتاب قوت القلوب، كتاب الجواهر، وكتاب منثور الحكم، وكتاب محجة السعادة.

بين يدي الكتاب

قسم المؤلف كتابه قناطر الخيرات إلى عدة قناطر كل قنطرة لعدة أبواب وقد تحتوي الأبواب على عدة فصول، كما أن الكتاب احتوى على كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار والحكايات التي تخدم مواضيع الكتاب، كما أخذ الكتاب عديداً من فصول وأبواب كتاب الإمام الغزالي إحياء علوم الدين بالنص ولم يتصرف فيها المؤلف إلاّ في أحيان قليلة.

ترجمة المؤلف

اسمه: إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي.

كنيته ولقبه وشهرته: أبو طاهر، ولقبه الجيطالي.

ميلاده: لم نعرفه غير أن الشيخ سالم بن محمود السيابي قال بأنه من علماء الخمسين الثانية للقرن السابع والأول في القرن الثامن وقال: وإن لم نستطع تحقيق سن ميلاده على التحقيق.

حياته العلمية: أخذ العلم من أكبر علماء عصره أمثال أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسي المتوفى سنة ٧٢٢ هـ. صاحب المدرسة العظيمة. كما صاحب الشيخ أبا عزيز. وكان رحمه الله قوي الحافظة حفظ ديوان الدعايم لابن النضر، ومقامات الحريري في الأدب العربي والأشعار والسنة، وكان يحفظ كتاب العدل والإنصاف للإمام أبي يعقوب الوارجلاني وجمل الزجاج في النحو.

اشتغل الشيخ الجيطالي بالتنقل والترحال لنشر الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسافر إلى طرابلس لكن عامل طرابلس عقد له مناظرة فظهر فيها على العلماء فكادوا له حتى سجن فكتب شعراً يمدح فيه صاحب القيروان ابن مكي فأطلق سراحه وخرج إلى جربة وتلقاه علمائها في أحسن لقاء واجتمع عليه الطلبة فقرأ وصنف هكذا إلى آخر حياته.

مؤلفاته: ألف الشيخ تآليف جليلة منها:

١ ـ القواعد.

٢ ـ شرح النونية ـ أي نونية أبي ساكن في أصول الدين ـ للشيخ أبي نصر فتح بن نوح القملوشاي.

٣ ـ كتاب الفرائض، الذي وضع فيه الحساب بالضرب والتقسيم.

٤ ـ كتاب الحج والمناسك.

٥ ـ مجموع فتاوى الأئمة في ثلاثة أجزاء.

٦ ـ كتاب مجموع في الرسائل.

٧ ـ قصائد فقهية تدل على ملكته الشعرية.

٨ ـ كتاب قناطر الخيرات.

٩ ـ كتاب قواعد الإسلام.

وصف المخطوط

اسم المخطوط: قناطر الخيرات.

اسم المؤلف: أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي.

إجمالي عدد الأوراق:

مكان وجود المخطوط حالياً: مكتبة المصطفى ﷺ بالقاهرة.

مصدر مصورته: مكتبة المصطفى ﷺ بالقاهرة.

تقسيم المخطوط: يقسم إلى ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: ٤٩٤ صفحة.

الجزء الثاني: ٤٦٧ صفحة.

الجزء الثالث: ٥٦٦ صفحة.

مقاس الصفحات: ١١ × ١٨ سم.

عدد الأسطر: ٢٣ سطراً في كل صفحة.

نوع الخط: نسخي جيد منقوط مشكول في بعض الأحيان.

منهج تحقيق الكتاب

١ ـ قمنا بنسخ المخطوط وترتيبه.

٢ ـ جعلنا لكل صفحة رقم ولم نقسم الصفحات إلى حروف.

٣ ـ ذكرنا بعض أطراف الحديث من موسعة أطراف الحديث للشيخ محمد السعيد زغلول.

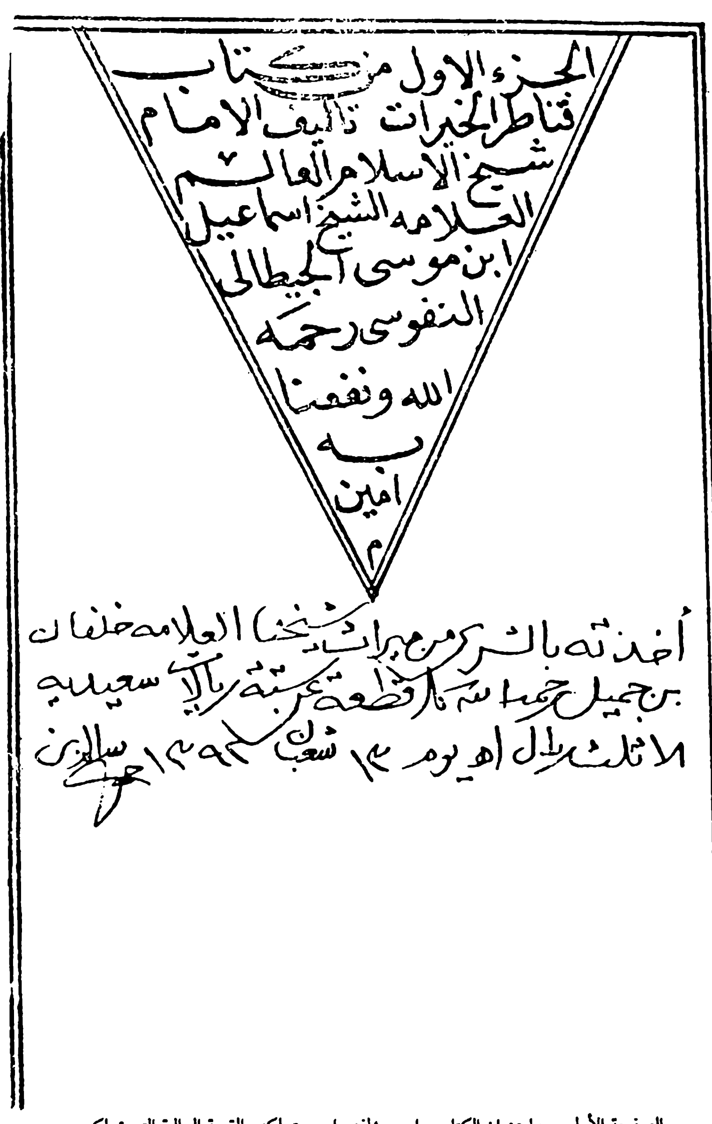
٤ ـ اعتمدنا على بعض طبعات كتاب إحياء علوم الدين لإثبات الفوارق. كطبعة دار الحديث وطبعة دار إحياء التراث العربي.

٥ ـ اعتمدنا في أغلب حكمنا على الأحاديث على كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار للحافظ العراقي.

٦ ـ قمنا بترجمة لبعض الأعلام من كتاب معجم المؤلفين.

٧ ـ قمنا بضبط الآيات القرآنية بالشكل.

والله نسأل التوفيق والسداد.



الجزء الاول من كتاب
قناطر الخيرات تأليف الامام
شيخ الاسلام العالم
العلامه الشيخ اسماعيل
ابن موسى الجيطالي
النفوسي رحمه
الله ونفعنا
به
امين

أخذته بالشرى من ميراث شيخنا العلامه خلفان
بن جميل رحمه الله [illegible] قطعة عشرة ريالا سعيدية
[illegible] يوم ١٣ شعبان سنة ١٢٩٢ [illegible]

الصفحة الأولى وبها عنوان الكتاب واسم مؤلفه واسم متملكه والقيمة المالية التي تملكه بها والسنة التي تملكه فيها



الحمد لله المتوحد بالالوهية والكبرياء المنفرد بالديمومية والبقاء
المتقدس عن نقائص العاهات تعالى عن العيوب والآفات
خلق كل شيء فقدره واخترع الانسان وصوره خضع كل شيء
لهيبته وتواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته واستسلم
كل شيء لجبروته لم يزل عالما بجميع المحدثات على ما هي عليه من
الصفات من تفاصيل اجناسها ومجاري انفاسها قبل وجود
اعيانها وجريان ازمانها شاءها الحكيم في ازليته فظهرت على
وفق مشيئته ليس له شريك في انشائها ولا ظهير في ايجادها انشاها
لا من شيء معه موجود واتقنها على غير مثال معهود اخترعها
دلالة على قدرته وتحقيقا لما سبق من ارادته وما خلق الجن
والانس الا لعبادته عالم في الازل بما هم عاملون وباجالهم التي
اليها ينتهون وبارزاقهم التي هم لها اكلون فهم لما علم منهم
منقادون وعلى ما سطر في كتابه المكنون ماضون فجميع ما وجد

الصفحة الأولى من الجزء الأول ويظهر بها خطبة الكتاب

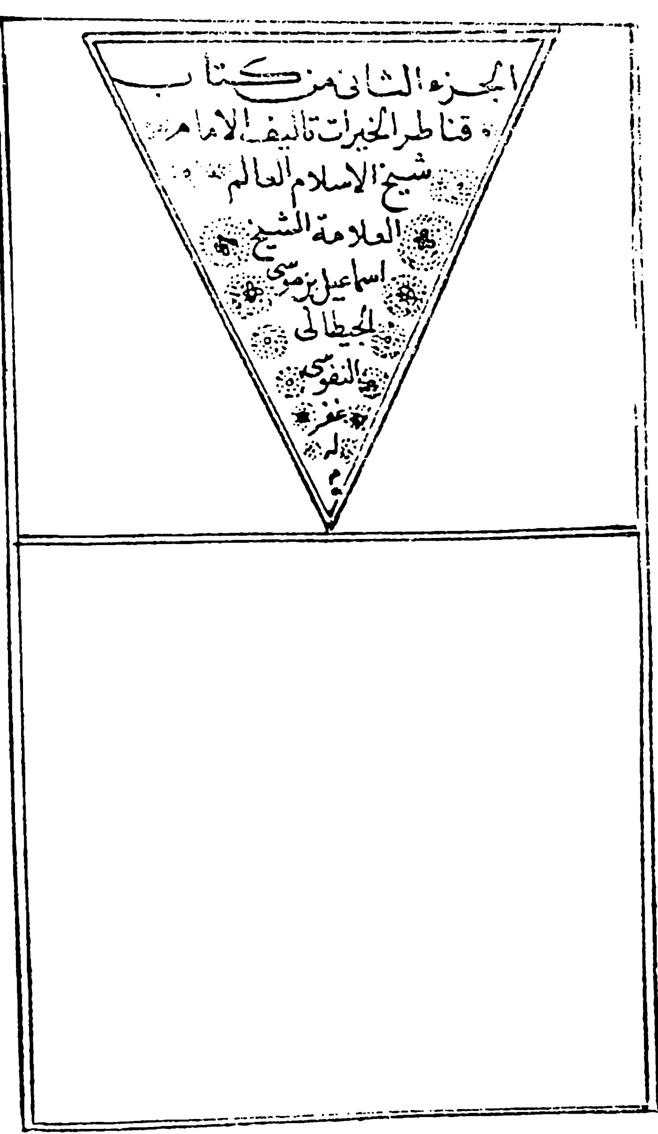
ممن آمن بالنبي عليه السلام واتبعه ان يكون
معه في درجته ومثل ذلك قول الله تعالى
ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم
الله عليهم من النبيين والصديقين الآية فلو
كان المعنى على ظاهر الآية لاقتضى انهم في درجة
الانبياء ولهذا قال عليه السلام حين وصف كتاب
الله تعالى ان لكل آية ظاهرا وباطنا وقال لن يتفقه
احدكم كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة
فالتاويل المتقدم من الباطن الذي هو على غير تاويل
مدعي الظاهر وكذلك حديث الرسول عليه السلام
له ايضا ظاهر وباطن ووجه وقفا وانما هلك من
هلك باتباع الظواهر وبالله التوفيق وهو حسبنا
ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

كملت قنطرة اسرار
الصوم وتتلوه قنطرة
الزكاة

م

م

الصفحة الأخيرة من الجزء الأول ويظهر بها نهايته

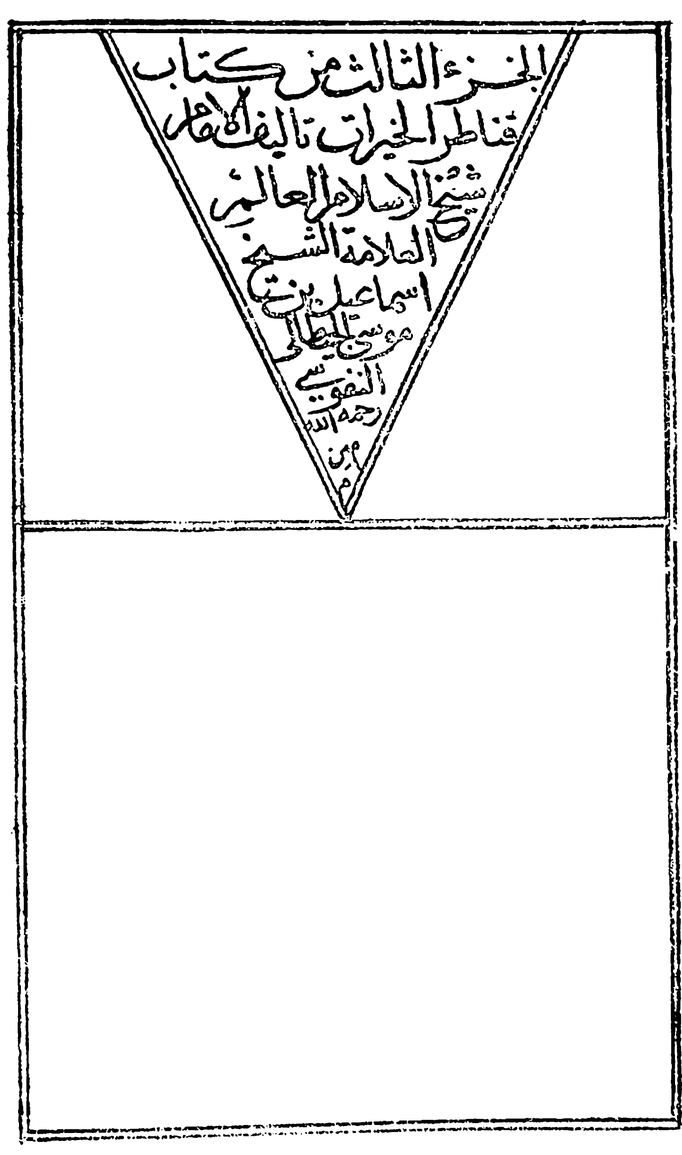


غلاف الجزء الثاني ويظهر به اسم الكتاب واسم المؤلف



(القنطرة الخامسة في الزكاة المشروعة)
(في الاموال منقولة من كتاب الغزالي وغيره)

الحمد لله الغني الحميد الواسع المجيد المبدئ المعيد
ذي البطش الشديد الفعال لما يريد احمده حمدا
استوجب به من نعمه المزيد واصلي على رسوله صلاة
ارجو بها من الله العون والتاييد والعصمة والتسديد
(اما بعد) فان الله تعالى شرع الزكاة في الاموال بعد
فروض الابدان وجعلها حقا واجبا للفقراء في اموال الاغنياء
حكمة الف بها بين قلوبهم لتبعثها على التعاون في ادراك
مطلوبهم ونيل محبوبهم لان الراجي لغيره هائب له
وصول والمرجو ما لديه مهيب موصول اذ لو انقطعت
رغبة الفقراء من ذوي الاموال لسقطت بذلك من
قلوبهم هيبة الاجلال فيفضي ذلك الى التقاطع والتدابر


الجزء الثالث من كتاب
قناطر الخيرات تأليف الإمام
شيخ الإسلام العالم
العلامة الشيخ
إسماعيل بن
موسى الجيطالي
النفوسي
رحمه الله
آمين

غلاف الجزء الثالث ويظهر به اسم الكتاب واسم المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

القنطرة الحادية عشرة
قنطرة النفس

وبالله التوفيق قال الله سبحانه حكاية عن يوسف عليه السلام
وما ابرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي الآية وفي
الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعدا عدوك نفسك
التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك وروى أن أعرابية دعت لرجل
فقالت كبت الله كل عدو لك إلا نفسك فأخذه بعض الشعراء فقال

قلبي إلى ما ضرني داعي * يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا * كان عدوي بين أضلاعي

وإذا كانت النفس أضر أعداء الإنسان وبلاؤها عليه أشد بلاء يجري به الزمان
فحق على الإنسان أن يشتغل بمعالجتها وقمعها عن الانهماك في
شهواتها وأن يسيء الظن بها في جميع حالاتها لأن جنس الظن

الصفحة الأولى من الجزء الثالث



تأليف

الإمام الفقيه أبي طاهر إسماعيل بن موسى
الجيطالي النفوسي

من علماء النصف الأول من القرن الثامن

تحقيق

سيد كسروي حسن خلاف محمود عبد السميع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتوحد بالألوهية والكبرياء، المنفرد بالديمومة والبقاء، المتقدس عن نقائص العاهات، تعالى عن العيوب والآفات، خلق كل شيء فقدره، واخترع الإنسان وصوره، خضع كل شيء لهيبته، وتواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لعزته، واستسلم كل شيء لجبروته، لم يزل عالماً بجميع المحدثات، على ما هي عليه من الصفات: من تفاصيل أجناسها، ومجاري أنفاسها، قبل وجود أعيانها، وجريان أزمانها، شاءها الحكيم في أزليته، فظهرت على وفق مشيئته، ليس له شريك في إنشائها، ولا نظير في إيجادها، أنشأها لا من شيء معه موجود، وأتقنها على غير مثال معهود، اخترعها دلالة على قدرته، وتحقيقاً لما سبق من إرادته، وما خلق الجن والإنس إلا لعبادته، عالم في الأزل بما هم عاملون، وبآجالهم التي إليها ينتهون، وبأرزاقهم التي هم لها آكلون، فهم لما عَلِمَ منهم منقادون، وعلى ما سطر في كتابه المكنون ماضون، فجميع ما وجد / بعد العدم من جميع الأشياء، والأمم فقد سبق به [٣/ب] من الله القضاء، وجفَّ به القلم، فالآجال محدودة، والأنفاس معدودة، والأرزاق مقسومة، والأعمال محتومة، والآثار محسوبة، وفي اللوح مكتوبة، لا يستأخر شيء عن أجله، ولا يسبقه قبل حلول محله، ولا يفوت أحداً رزقه المقسوم، ولا يتعدى ما قدر له من أمره المحتوم، فقد سبقت كلمته الحسنى لعباده المرسلين، وأوليائه المخلصين، كما حق القول منه لأعدائه الغاوين، كل ميسر لما خلق له، ولا يتجاوز ما وقت له، يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[١].

أحمده حمد من أخلص له الإنابة، وأدعوه دعاء مؤمل منه الإجابة، وأشهد أن لا إله إلا الله، الملك المحمود الذي ليس بوالد ولا مولود.

وأشهد أن محمداً عبده المرتضى، ورسوله المصطفى، أرسله إلى الثقلين بشيراً ونذيراً،

---

(١) سورة البقرة الآية: ١١٧، سورة آل عمران الآية: ٤٧.

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلغ رسالة ربه ناصحاً لأمته، حتى أتاه من ربه اليقين بعد كمال الدين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأخيار، وأصحابه المهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان إلى يومٍ تشخص فيه الأبصار.

أما بعـد:

فقد انكشف لأرباب القلوب بحقائق الإيمان، وأوضح محكمات القرآن، أن لا وصول للعبد إلى السعادة الأبدية، إلا بالعلم وامتثال العبادة الدينية، وهما بضاعة الأولياء، ومنهاج الأقوياء، وهما دين الله القويم، وصراطه المستقيم، لأجله خلق الموت والحياة، وبسببه تنال عنده النجاة، ولكنه طريق صعبة المسالك، مخيفة المهالك، كثيرة العوائق والموانع، غزيرة الأعداء والقواطع، بعيدة المسافات، كثيرة الآفات، ذات شعاب وأودية وعقبات، وأهوية محفوفة باللصوص والقطّاع، مشحونة بالأفاعي والسباع / تنبعث فيها الشياطين الموسوسة [٤/أ] والعقبان المختلسة، قد تشبكت بالأشراك الخاتلة ومزجت بالسموم القاتلة، وهكذا يجب أن تكون لأنها طريق إلى الجنة ذات الحور، والجوهر المكنون تصديقاً لقول رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»(١).

ومع ذلك فإن الله سبحانه خلق الإنسان ضعيفاً، فحمَّلَهُ ثقل الأمانة تكليفاً، وأوجب عليه إتقان حمل تلك الأمانة بالعلم والعمل والتشمير في أداء حقها بالجد لا بالكسل، فعمر الإنسان قصير والناقد لأعماله بصير، والجهل مع اتباع الهوى عليه غالب، والآفات محدقة به من كل جانب والأجل قريب غير مديد، والسفر بعيد صعب شديد، والطاعة هي الزاد، فلا بد منها، والدنيا منصرفة فلا مَردَّ لها فمن ظفر بالزاد منها سهل عليه على الصراط الجواز ومن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، ومن حرم من الطاعة نصيبه، طال عليه في سفره النصب والتعب، ودام عليه في النار الوصب واللهب.

فلهذا الخطب الفظيع والهول الشنيع، قَلَّ السالكون للطريق، بالجد والتحقيق، ومنهم من بذل في بدء أمره من النفس بعض المجهود، فطال عليه التعب، فانقطع ولم يصل إلى المقصود إلا الأصفياء المخلصين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

قلت: فلما كان الطريق على ما وصفنا من المشقة، والمخافة، وكثرة العوائق، وبعد

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

المسافة من الآفات المانعة والمفازات الشاسعة، والشعاب والأودية، والعقبات المؤذية، رأينا أن نرتب عليها قناطر لكي يمكن للسالكين عليها العبور، حتى تقضي بهم إن شاء الله تعالى إلى درجات السرور، وذلك أن الله سبحانه نقل بني آدم من أصلاب الرجال إلى بطون الأمهات، فخلقهم فيها خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث فأخرجهم / إلى الدنيا جهالاً، فأحياهم [٥/أ] بالعقول بلغاء، ورجالاً فامتازوا بالعقول عن البهائم، فصاروا من جملة العقلاء، وهم الملائكة الفضلاء فألزمهم عند كمال العقول طريقة التكليف، وتقدم إليهم على ألسنة رسله بالإنذار والتخويف، وجعل لهم الأرض ذلولاً، وفراشاً، ونباتها معاشاً، ليستقروا فيها بل ليتخذوها منزلاً، ويتزودوا منها زاداً وعملاً متحرزين من مصايدها ومعاطبها، ويتحققوا أن الأعمار تسير بهم سير السفن بركبانها، فهم في الدنيا سُفَّار وبأعمالهم تجار، فأول منازلهم المهد، وآخرها اللحد، والوطن الجنة أو النار، والعمر مسافة السفر، والسنون مراحله، والشهور قطّاع طريقه، والأيام أمياله، والأنفاس خطواته، والطاعة بضاعته، والأوقات رؤوس أمواله، والشهوات قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله في دار النعيم المقيم، وخسرانه البعد من الله تعالى في دركات الجحيم والعذاب الأليم، وأن ما دون الجنة من قناطر جهنم والفزع الأكبر، إلى القبر الذي فيه هول المطلع، مفازة محفوفة بالأهوال الفظيعة، والأفزاع الهائلة الشنيعة: من صحف تنشر، ونار تزفر، وأعمال توزن، فترجح أو تخف، وقلوب تفزع وترجف، وعَقَارب في القبر تلدغ وحيات تلسع، وملائكة تختبر، وجوارح تنشر، فتحقق بهذا الترتيب العجيب، أن البطون للخلق، والدنيا لهم مفازات، وما بعد الموت، إلى الفراغ، من الحساب أخطار مهولات.

ثم إن الله سبحانه شرع ملة الإسلام طريقة سهلة حنيفية سمحة، ورتب فيها فرائض من التوحيد، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وغير ذلك فكأنها قناطر مقنطرة، وحَرَّم فيها أشياء من الشرك، والظلم، والفواحش، والربا، والقذف، وغير ذلك مما يطول ذكره فكأنها للعبد صواعق مهلكة، وأمر عباده بقمع الشهوات، ودفع العلائق الشاغلة عن طاعته من / أصناف الخلق والهوى والنفس والدنيا فكأنها عقبات وأودية وشِعَابٌ ملتفة عائقة للعبد عن [٦/أ] سلوك الطريق إلى الله تعالى، قاطعة له عن المسير وأمرهم بالاستعاذة به تعالى من الشياطين الموسوسة من الجن والإنس، فكأنها لصوص مسترقة، وعقبان مختلسة، وأوجب عليهم تطهير القلوب من مغارس الفواحش والذنوب: من الشك، والشرك وسخط المقدور، والغل، والحسد، والكبر، والرياء والغضب، والعداوة، والبغضاء، والطمع، والبخل، والرغبة، والبذخ والأشر، والبطر وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، والمكر، والخداع، والغش،

وسوء الظن، والخيانة، والفخر، والخيلاء، والتنافس، والمهابات، والاستكبار عن الخلق، والأنفة عن قبول الحق، والعصبية والمداهنة، والعجب، وحب الرئاسة والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس، وزوال الحزن من القلب، وخروج الخشية منه، وشدة الانتصار للنفس، إذا نَالَها إذلال، وضعف الانتصار للحق، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السريرة، والأمن من مكر الله في سلب ما أعطوا، والاتكال على الطاعة، وطول الأمل، والقساوة، والفظاظة، والفرح بالدنيا، والأسف على فراقها، والأنس بالمخلوقين، والوحشة لفراقهم، والجفاء، والطيش، والعجلة، وقلة الرحمة، والإصرار على المعصية إلى غير ذلك.

فهذه وأمثالها: كأنها سموم قاتلة، وإشراك لإبليس وخاتله، وأمر بحفظ اللسان من الكذب، والغيبة، والنميمة، والهمز، والغمز، واللمز، والطعن في الدين، واللعن لمن لا يستحق، والشتم، والإزراء، والقذف، وبهتان البريء، والحكم بغير ما أنزل الله، وقول الزور، والنطق بالفحشاء، والتغني، والنياحة، والخوض فيما لا يعني، وأشباه ذلك مما كان للأعمال نيراناً مشتعلة.

[٧/ب] ونبَّه عن التيقظ، وأخذ الحذر من مكايد النفس، وغرور الشيطان، وتزكية / النفس والرضا عنها إلى غير ذلك مما كأنها حبائل غائلة للإنسان، وأمر بغمض البصر عن الحرام، وحفظ الفروج عن الزنا، وصيانة النفس عن جميع ما لا يجوز التكلم به، وحفظ البطن عن جميع ما لا يحل أكله ولا شربه إلى غير ذلك من المناهي، وأمر بعمارة القلب، واللسان بذكره عز وجل، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والرضا، والزهد، والتقوى، والقناعة، ومعرفة مَنِّهِ تعالى في جميع الأحوال والإحسان، وحسن الظن واليقين، والمعرفة، وحسن المعاشرة، والصدق، والإخلاص، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والقول بالحق وأشباه ذلك: من جميع الآفات المتقدمة وذكر الله تعالى فرائض الإسلام فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ، وَٱلْمَلاَئِكَةِ، وَٱلْكِتَابِ، وَٱلنَّبِيِّينَ، وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ، وَٱلْيَتَامَىٰ، وَٱلْمَسَاكِينَ، وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ، وَٱلسَّائِلِينَ، وَفِي ٱلرِّقَابِ، وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ، وَآتَى ٱلزَّكَوٰةَ، وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ، وَٱلضَّرَّاءِ، وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[١].

ثم ذكر المحارم فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ،

(١) سورة البقرة الآية: ١٧٧.

أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلاَ تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلاَّ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾[١].

فأوجب على العبد امتثال أوامره الأول فالأول واجتناب محارمه / [٨/أ] والسؤال عنها حتى تعرف، وتجتنب، ولا تتمثل وحرضهم على كف الألسنة وتطهير الأفئدة لكي تصح الأعمال، ولا تبطل فقال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[٢] الآية.

وقال: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِٱلْمَنِّ وَٱلأَذَىٰ﴾[٣].

وقال: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٤].

وقال: ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[٥] الآية.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلإِحْسَانِ﴾[٦] الآية.

وقال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[٧] الآية.

وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. إلى قوله: ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٨].

فلما كان الأمر على ما وصفنا، كان ينبغي لنا أن نرتب على طريق الإسلام قناطر كما قدمنا؛ ليسلك المسترشدون عليها ونهيىء لهم سلاحاً من العلم ليقاتلوا به، وندلهم على عقاقير من الصبر ونظام النفس، والحلم، والقناعة إلى غير ذلك حتى يتجرعوا مرارة الدنيا بالزهد فيها.

---

(١) سوة الأنعام الآيات: ١٥١، ١٥٣.
(٢) سورة الأحزاب الآية: ٧٠.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٦٤.
(٤) سورة الشعراء الآيتان: ٨٨، ٨٩.
(٥) سورة المائدة الآية: ٤١.
(٦) سورة النحل الآية: ٩٠.
(٧) سورة الأنعام الآية: ١٢٠.
(٨) سورة الأعراف الآية: ٣٣.

ونوقظ قلوبهم بهيجان الخوف والحذر والإشفاق حتى يتمكنوا من الهروب من النار وزقومها، ونزعجهم بإزعاج الرجاء والشوق إلى الجنة ونعيمها إلى غير ذلك مما يطول به الكتاب.

ولهذا الخطر العظيم، والخطب الهائل الجسيم، شمر الموفقون عن ساق الجد والاجتهاد ودعوا بالكلية ملاذ النفس، واغتنموا بقايا الأعمار قبل أن يزعجوا عن هذه الدنيا، جعلنا الله وإياكم من الموفقين لعلم دينه العالمين به إنه أرحم الراحمين.

فصل في ترتيب قناطر الإسلام

اعلم أنه سبحانه خلق ابن آدم أطواراً في الأرحام، ونفخ فيه الروح، والشَّمَ، فمكث هناك مدة ليس له علم بشيء من الأمور إلاَّ الحس، به يستلذ، وبه يتألم، فلما خرج من بطن أمه، وجرت الحركة في مفاصله، أبصر، وذاق، وشمَّ، وسمع وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ / لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[1]. [٩/ب]

فقرن الله تعالى به المَلَكَ صاحب اليمين فيرشده ويسدده ويقويه ويؤيده، فعند تمام سبع سنين، قرن به المَلَك صاحب الشمال يلهمه، ويلقنه، ويعلمه، ويلسنه إلى تمام أربع عشرة سنة، فلما ظهر على الكلام استقبلته القياسات الخيالية، واختلطت له بالعقلية، فإذا نظر إلى السماء توهمها بساطاً أخضر نثرت عليه دنانير صفر، فلما قويت نفسه وبلغ حسّه ذهب الخيال هباءً منثوراً، وبقي العقل أميراً مأموراً وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[2].

فتعين حينئذٍ عليه التكليف ووجب عليه معرفة خالقه الرحيم اللطيف، نظر بعقله الذي هو من حجج الله تعالى على المكلفين مع سائر حججه من الأنبياء والمرسلين وأصناف الخلق أجمعين، فتأمل فإذا الدنيا بين يديه كأنها مفازة مظلمة، وبالجهالة مدلهمة، فإذا فيها أصناف الحيوانات المؤذية قد استقبلته.

فقال: لا يصح لي سلوك هذه المفازة الظلماء، إلا بمصباح نور يكون لي دليلاً لأعرف ما آتي، وما أتقي فتستقبله هاهنا:

---

(١) سورة النحل الآية: ٧٨.

(٢) سورة فاطر الآية: ٣٧.

قنطرة العلم بخالقه وهي القنطرة الأولى

ولن يصل إلى ذلك إلا بتنبيه مخبر أو إلهام ملهم يبعث عقله على التفكر، والبحث، والنظر فيتفكر في الدليل من خلق السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما من خفض، ورفع، وجوهر، وعرض ويتفكر في اختلاف الليل والنهار، وما يجري به الدهر من الأكوان، والأحداث من الخير، والشر، والنفع، والضر والشدَّة، والرخاء، وغير ذلك.

ويستدل بالصنعة على الصانع فيعلم يقيناً أن الصنعة لا بد لها من صانع، وأن الخلق لا بد له من خالق، ثم يمعن النظر في خلقه نفسه، وتسوية جوارحه، وما أفاض عليه الرب سبحانه من أصناف النعم من الحياة والعقل، والفهم، والسمع، والبصر، والشم، وغير / ذلك [١٠/أ] مما لا يحصى كثرة من المعاني الشريفة، واللذات العجيبة، وما صرف عنه من أصناف المضار، والآفات.

فإذا أمعن النظر بعين البصيرة لا عين البصر، عَلِم أن لهذه الصنعة صانعاً، ولهذه النعمة منعماً حيّاً رزاقاً عالماً بأسراره، وما يختلج في أفكاره قد وعد على شكر النعمة ثواباً، وعلى كفرانها عقاباً وأنه إن غفل عن شكره وخدمته أزال عنه تلك النعمة، وأذاقه البأس والنقمة، عاجلاً وآجلاً فيهتاج حينئذٍ لا محالة في قلبه خاطر الفزع الذي ينبهه عليه في عقله، وتلزمه الحجة، وينقطع له العذر من أجله مع سائر الحجج من كتاب الله ورسوله.

فعند ذلك تستقبله:

القنطرة الثانية وهي قنطرة الإيمان بهذا الصانع

الخالق المنعم الرزاق، إنه خالقه ورازقه طلبه فوجده، وعرفه بعد ما جهله فيؤمن به إيماناً يقيناً بالقلب واللسان.

ويدوم على ذلك إلى الممات، ويوحده توحيداً خالصاً يرى به الأمور كلها من الخير، والشر، والنفع والضر، رؤية يقطع بها التفاته إلى الوسائط، والأسباب، وهذا التوحيد، والإيمان، والعلم هي العصا التي يضرب بها سيد السباع التي استقبلته حين أشرف على مفازة الدنيا المظلمة بالجهل فيقتله، فتفترق عنه سائر الدواب المؤذية التي هي ما دون الشرك من الذنوب تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[١].

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٣٨.

فلما عرف العبد سيده، ووحده، وآمن به وعلمه بعد ما جهله، تيقن أنه قد أوجب عليه خدمته وكلفه شكر نعمته، ولكنه لا يدري، كيف يعبده؟ وماذا يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه؟

[١١/أ] بعد حصول هذه المعرفة به / استقبلته:

القنطرة الثالثة وهي قنطرة الصلاة

مُقدَّم فرضها على الصيام في نزول الوحي أول الإسلام، لا في حالة التكليف والإلزام؛ لأن العبد مأمور بجميع الفرائض منهيٌّ عن جميع المعاصي في حالة البلوغ، فوجب عليه عند دخول وقتها الإتيان بجميع وظائفها علماً وعملاً؛ لأنه لما عرف سيده، وجب عليه أن يخضع له، ويخشع، ويذعن له بجميع العبودية.

فلا عبادة تجمع الخضوع، والخشوع، والابتهال إلى الله سبحانه، والتضرع إليه مثلها.

فيجب على العبد الوقوف بين يدي سيده للخدمة بالطهارة الكاملة، والخشوع التام، فبذلك يحظى عنده، ويرضى عنه، فإذا واظب على الصلاة، أورثه ذلك لين الفؤاد، وتمرين الجسد، وتذلل النفس إجلالاً لخالقها، وانذلالاً لرازقها، فإذا أتى بالصلاة راغباً راهباً استقبلته:

القنطرة الرابعة وهي قنطرة الصوم

عند حلول شهره، ووجوب فرضه، مقدماً فرضه في النزول على الزكاة أيضاً؛ لأن النفوس على الأموال أشح، وفيما يتعلق بالأبدان أسمح وذلك الصلاة والصيام؛ لأن في إيجاب فرض الصيام حثاً على رحمة الفقراء، وإطعامهم، وسد جوعاتهم بما قد عاناه العبد، وقاساه من شدة المجاعة؛ ولأن الصوم يقهر النفس ويكسر شهوتها المستولية عليها. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «معاشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء»[١].

فوجب على العبد إحكام الصوم بجميع شروطه، وكف جوارحه عن المحرم عليه ظاهراً وباطناً؛ لأن المقصود من الصوم عند أهل التحقيق التخلق بخلق من أخلاق الملائكة، في [١٢/أ] الكف عن الشهوات بحسب الإمكان؛ لأنهم منزهون / عن الشهوات والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم، بقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة؛ لاستيلاء الشهوات عليه، وكونه مبتلاً بمجاهدتها، فكلما انهمك في الشهوات انحط في أسفل سافلين والتحق بأغمار

(١) هو حديث صحيح ذكره البخاري ومسلم، والنسائي وابن ماجه وغيرهم، غير أنه ذكره بالمعنى لا بالنص.

البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين، والتحق بأفق الملائكة المقربين إلى الله تعالى، قرب صفات لأقرب مكان. والذي يتشبه بأخلاقهم يقرّب من الله بقربهم[١].

فهذه حقيقة الصوم عند أهل التحقيق، فإذا أتى العبد بفريضة الصوم على الكمال استقبلته:

القنطرة الخامسة وهي قنطرة الزكاة

كما ورد في الخبر: الزكاة قنطرة الإسلام قدّم الله تعالى فرضها على فرض الحج؛ لأن في الحج مع إنفاق المال سفراً شاقاً، فكانت النفس إلى الزكاة أسرع إجابة منها إلى الحج، فكان في إيجابها مواساة للفقراء، ومعونة لذوي الحاجة تكفهم عن البغضاء، والتقاطع، وتبعثهم على التواد، والتواصل مع ما في أدائها من تمرين النفس على السماحة، ومجانبة الشح المذموم؛ لأن السماحة تبعث على أداء الحقوق، والشح يصد عنها؛ لأن الله تعالى امتحن عباده حين ادَّعوا محبته، أن ينفقوا من أموالهم المحبوبة عندهم، فيكون ذلك تصديقاً لدعواهم، ولذلك قال: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢] فاستنزالهم عن المال الذي هو معشوقهم وعن النفس التي هي غاية محبوبهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[٣].

وذلك بالجهاد، وهو مسامحة النفس بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله تعالى، ، المسامحة بالمال أهون.

فإذا أخرج العبد من ماله فريضة الزكاة بكمال حقوقها إلى المستحقين لها استقبلته:

القنطرة السادسة وهي قنطرة / الحج [١٣/ب]

أخرَّ الله سبحانه فرضه على العباد، لأنه يجمع عملاً على بدن، وحقاً في المال، جعل فرضه بعد استقرار فرائض الأبدان، وفرائض الأموال ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة إلى تسهيل الجهاد عليهم؛ لأنه يجمع النفس، والمال كالحج، وكأن في إيجابه الحج

---

(١) حديث ضعيف أطرافه عند: ابن عدي في الكمال (١٤١٧/٤)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٢)، المنذري في الترغيب والترهيب (٥١٧/١)، والعجلوني في كشف الخفا (١/ ٥٣٠)، والمتقى الهند في كنز العمال (١٥٧٥٨).

(٢) سورة آل عمران الآية: ٩٢.

(٣) سورة التوبة الآية: ١١١.

تذكيراً لسفر الآخرة، في مفارقة المال، والأهل، وخضوع العزيز، والذليل في الوقوف بالحشر بين يديه، واجتماع المطيع والعاصي في الرهبة منه، والرغبة إليه، وإقلاع أهل المعاصي عما اجترحوه، وندم المذنبين على ما قدموه، لأنه قَلَّ من حجٍّ، وأحدث توبة من ذنب، وإقلاعاً من معصية. فإذا أدى العبد فريضة الحج على الكمال، خرج من ذنوبه، كيوم ولدته أمه.

فهذه الخمس قناطر: قواعد الإسلام كما صح في الخبر: «بني الإسلام على خمس....»[1] الحديث. وهي أصل العبادة، والإتيان بهن على الكمال، علامة السعادة، فلسنا نتعرض هاهنا لذكر قنطرة الجهاد؛ لأنه من فروض الكفاية داخل في فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على قدر درجاته الثلاث.

وهذه الفرائض الخمس أصلها، وأساسها الذي تبنى عليه هو: التوحيد، والإيمان، والإخلاص؛ لأنه لا تصح العبادة إلا بالإيمان، ولا يصحان إلا بالعلم، ولا يصح العلم إلا بالطلب، ولا يصح الطلب إلا بالإرادة، ولا تصح الإرادة إلا بباعث يبعث عليها، والباعث هو الرغبة في ثواب الله، والرهبة من عذابه، ولا يصح ذلك إلاّ بالوعد والوعيد، ولا يصحان إلا بالشرع، ولا يصح الشرع إلا بصدق الرسول عليه السلام، وصدق الرسول يصح بالمعجزة؛ لأن ظهور المعجزة إنما هو بإذن الله سبحانه وتعالى مالك الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

فصــل

فلما استكمل العبد هذه الفرائض، وتحقق له الطريق كما وصفنا، انبعث قلبه ليتجرد للعبادة، فنظر فإذا هو صاحب ذنوب وتبعات.

[١٤/أ] فيقول: / كيف أقبل على العبادة وأنا مُصرٌّ على المخالفة والمعاندة؟ فيجب عَليَّ أولاً: أن أتوب إلى الله تعالى؛ ليطهرني من أقذار الذنوب فأصلح لخدمة علاّم الغيوب، فتستقبله هاهنا:

قنطرة التوبة وهي القنطرة السابعة

فيحتاج لا محالة إلى قطعها ليصل إلى المقصود من العبادة، فيأخذ في ذلك بإقامة التوبة

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١/٩)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ٢٠، ٢١)، والترمذي في الجامع الصحيح (٢٦٠٩)، أحمد بن حنبل في المسند (٢/٢٦)، والبيهقي في السنن (١/٣٥٨).

في حقوقها وشروطها، إلى أن قطعها بجميع وظائفها كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ فلما فرغ من هذه القنطرة حَنّ إلى العبادة ليأخذ فيها، فنظر فإذا حوله عوائق محدقة به، كل واحدة منهن تعوقه عما قصد من العبادة، وتشغله بضرب من الشواغل فتستقبله هاهنا:

قنطرة العوائق

فتأمل فإذا هي أربع: إحداهن:

(قنطرة الدنيا)

المتعلقة به، فيحتاج إلى قطعها بالتجرد عنها والزهد فيها؛ لأن الدنيا والآخرة ضرتان، إن أسخط[1] إحداهما أرضى الأخرى، وإنهما كالمشرق، والمغرب، بقدر ما يميل إلى إحداهما يعرض عن الأخرى، ويبعد عنها فاحتاج إلى قطعها بالزهد فيها، والتجرد عنها إلاّ قدر الزاد، فلا بد له منه كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(الثانية قنطرة الخلق)

أهل الرغبة والبطالة، وأهل الشر والجهالة، فيحتاج إلى قطعها بالتفرد عنهم، والهرب من لقائهم إنْ عمَّ البلاء، أو خشي هلاك دينه أو يعتزل أعمالهم بقلبه وفعله.

ويحضر الجماعة والجمعة معهم، ويوفيهم حقوقهم من صلة وزيارة وحضور ميت كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(الثالثة قنطرة الشيطان)

فيحتاج إلى قطعها بالقهر، والمحاربة، والاستعاذة بالله منه، والمخالفة له؛ لأنه عدو، ولا مطمع فيه لمصالحة وإبقاء؛ لأنه لا يقنعه إلاّ إهلاك العبد أصلاً، فلا وجه إلى الأمن من هذا العدو والغفلة عنه.

(الرابعة قنطرة النفس)

وهي أعدا / الأعداء وأشدها على العبد إذْ هي بين جنبيه، ولا يمكنه التجرد عنها مرة [١٥/ب] لأنها المطية، ولا مطمع أيضاً في موافقتها على ما يقصده من الإقبال على العبادة، إذ هي مجبولة على ضد الخير، أمّارة بالسوء والشر، فاحتاج إلى أن يلجمها بلجام التقوى لتبقى له فلا تنقطع وتنقاد له فلا تطغى فيستعملها في المصالح، والرشاد ويمنعها عن المهالك، والفساد.

---

(١) في الأصل: سخط. وقد سقطت الألف من أول الكلمة سهواً من الناسخ.

فيأخذ في قطع هذه القنطرة بالسياسة، والاعتدال فيقمع من شهوات النفس ما خرج عن طاعة الشرع والعقل، ويترك لها ما لا يخرج من الشرع، والعقل، فلا يترك لكل شهوة، ولا يتبع كل شهوة، فلما فرغ من هذه القنطرة وقطعها بحسن عونه وتوفيقه، رجع إلى العبادة فنظر، فإذا عوارض تعترضه عن العبادة، وتشغله عنها كما ينبغي فتستقبله هاهنا:

(قنطرة العوارض)

فتأمل فإذا هي أربعة:

أحدها الرزق: تطلبه النفس به، ويقول لا بد لي من رزق وقوام وقد تجردت عن الدنيا، وتفردت عن الخلق فمن أين يكون قوامي ورزقي؟

الثاني الأخطار: من شيء تخافه وترجوه أو تريده أو تكرهه، ولا يدرى الصلاح في ذلك من الفساد، فإن عواقب الأمور مبهمة؛ لأنه ربما يقع في فساد أو مهلكة.

الثالث الشدائد والمصائب: تنصب عليه من كل جانب، لا سيما وقد انتصب لمخالفة الخلق، ومحاربة الشيطان، ومجاهدة النفس، فكم من غصّةٍ يتجرعها، وكم من شدةٍ تستقبله، وكم من هم وحزن يتعرضه وكم من مصيبة تتلقاه.

الرابع القضاء: من الله سبحانه بالخلق، والأمر يردُّ عليه حالاً فحالاً، والنفس تسارع السخط، وتبادر الفتنة، فيحتاج إلى قطع قنطرة هذه العوارض الأربعة بأربعة أشياء:

[١٦/أ] بالتوكل على الله سبحانه في موضع الرزق، وبتفويض / الأمور إليه في موضع الأخطار، وبالصبر عند نزول الشدائد، وبالرضا عند نزول القضاء.

فلما قطع هذه القنطرة بما ذكرنا ـ بإذن الله وحسن عونه ـ رجع إلى العبادة فنظر، فإذا النفس فاترة كسلاً، لا تنشط، ولا تنبعث للخير والعبادة كما يجب وينبغي، وإنما ميلها أبداً إلى غفلة وراحة وبطالة، بل إلى شر وفضول وبلية وجهالة، فاحتاج معها هاهنا إلى سائق يسوقها إلى الخير والطاعة وينشطها له، وإلى زاجر يزجرها عن الشر والمعصية، ويفترها عنه، وهما الرجاء في ثواب الله تعالى، والخوف من عذابه، مع توابعهما من الحذر والإشفاق والشوق، والمحبة فتستقبله هاهنا:

قنطرة البواعث

فاحتاج إلى قطعها بالخوف، والرجاء كما قدمنا فلما قطعها بحسن عون الله تعالى، وتأيينه رجع إلى العبادة فتستقبله هاهنا:

قنطرة العبادة

بالكمال فيعانقها بالشوق والاجتهاد إذ لم ير شيئاً شاغلاً ولا عائقاً، ووجد باعثاً وداعياً فنشط في العبادة، وإقامتها بتمام الرغبة فيها.

نظر فإذا [هي][(١)] تبدو لهذه العبادة التي احتمل فيها كل ذلك آفتان عظيمتان وهما: الرياء، والعجب.

تارة يرائي الناس بطاعة الله فيفسدها، وتارة يمتنع من ذلك، ويلزم من نفسه فيعجب بها، ويحبط العبادة عليها، ويتلفها، فاستقبلته هاهنا:

قنطرة القوادح

في الأعمال المبطلة لها، فاحتاج إلى قطعها بذكر المِنَّة، والإخلاص، ونحو ذلك ليسلم له ما يعمل من خير وعبادة، فلما قطعها بجد واحتياط، وحسن عصمة الله، وتأييده، فلما فرغ من هذا كله، حصلت العبادة، وسلمت من كل آفة.

ولكنه نظر فإذا هو غريق في بحور منن الله تعالى، وكثرة أياديه من إمداد التوفيق، والعصمة، وأنواع التأييد، والحراسة فخاف أن يكون منه إغفال / للشكر، فيقع في الكفران [١٧/ب] فتزول عنه تلك النعم الكريمة، من أنواع ألطاف الله تعالى، وحسن نظره، فتستقبله هاهنا:

قنطرة الحمد والشكر

على كثير نعمة الله تعالى، فلما فرغ من هذه القنطرة نزل فإذا هو بمقصوده من العبادة بين يديه، فلم يسر إلا قليلاً حتى وقع بميدان الأنس والرضى وبساتين المحبة واللقاء، وصحراء الشوق، وعرصات المعرفة، ومجلس المناجاة فارتفع هاهنا على بساط قنطرة المناجاة فهو ينعم في لذة العبادات، وبساط المجاهدات أيام حياته وبقية عمره، تارة يتنعم بلذة الشوق والمحبة، ويتلذذ بحلاوة الرجاء، والطمع، وتارة يتقيض بخوف الخاتمة.

فبينما هو يبادر الموت راغباً، راهباً، ويتوقع القدوم على الله تعالى آمناً مطمئناً فيكابد هاهنا:

قنطرة خوف الخاتمة

قال: فبينما العبد يجتهد في الدعاء، والتضرع، وينعم في المجاهدة، والتخشع ويبادر

---

(١) ما بين المعقوفين يقتضيه السياق.

الخاتمة بالخوف، والقلق، خائفاً من حرقة الطرد والإهانة ووحشة البعد والضلالة، ومرارة العزل، والإزالة، وقد خلّف جملة القناطر، وانشرح له القلب بالعلوم والبصائر، وقد طهره سبحانه من الأوزار، والكبائر وسبق العوائق الشاغلة، ودفع عن نفسه العوارض المانعة، وظفر بالبواعث والزواجر وسلم من القوادح المبطلة فبينما هو كذلك إذ أشرف على:

قنطرة الموت

بشخص في الدنيا وأرضى، وقلب في العقبى سماوي، وقد استقذر الدنيا، وحنّ إلى الملك الأعلى واستنبط البريد، واشتاق إلى اللقاء.

فبينما هو كذلك إذا برسل رب العالمين قد وردوا عليه بالروح والريحان، والبشرى والرضوان من عند رب راضٍ غير غضبان فتلقاه / في طيبة النفس وتمام البشرى، والأنس من [١٨/أ] هذه الدار الفانية المفنية إلى الحضرة الإلّهية والجنة العالية، فيكون القبر له روضة من رياض الجنة، ويُوَفق بالصواب عند امتحان الملكين إياه بالسؤال والفتنة.

ويعرض روحه على مقعده من الجنة في كل غدوة وعشية، فإذا بعث من قبره، حُمِلَ على نجائب الكرامة آمناً من الفزع الأكبر، وأهوال يوم القيامة، ويكون وجهه كالقمر ليلة التمام مع ما يلقى من البر والإكرام.

ويأخذ بيمينه صحيفة العمل، ويكسى من فاخر الحلى، والحلل ويحاسب حساباً يسيراً. وينقلب إلى أهله مسروراً، ويجوز قناطر جهنم بنور ساطع على ذلك الظلام المدلهم.

ويساق إلى الجنة محبوراً، ويسقيه الرب سبحانه شراباً طهوراً في ملك كبير، ونعيم خطير مجاوراً للرحمن، في رياض تلك الجنان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فيا لها من سعادة ما أعظمها، وكرامة ما أدومها.

فنسأل الله البر الرحيم، المنعم الكريم أن يَمُنَّ علينا وعليكم معشر الإخوان بهذه الطريقة المستقيمة حتى يوصلنا بها إلى هذه الكرامة العظيمة والنعمة الجسيمة، وأن لا يجعلنا من الذين لا نصيب لهم في هذا السعي المشكور والجزاء الموفور إلاّ وصفاً وسماعاً، وتمنياً لا انتفاعاً، وإليه نرغب أن لا يجعل ما تعلمنا حجة علينا، وإياه نسأل أن يوفقنا جميعاً للعلم والعمل كما يحب ويرضى إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

فصــل

ثم اعلم بالتحقيق أنه ليس هذا الطريق في طوله وقصره، وقناطره المرتبة عليه مثل المسافات التي تسلكها الأنفس فتقطعها / . بأقدام الأجسام فيقطع قطعها على حسب قوة [١٩/ب] الأجسام وضعفها.

وإنما هو طريق روحاني تسلكه القلوب فتقطعه بالأفكار على حسب العقائد والبصائر أصله نور سماوي، ونظر إلهيّ يقع في قلب من سبقت له من الله العناية الأزلية فينظر العبد نظرة فيرى بها أمر الدارين بالحقيقة.

ثم هذا النور بما يطلبه العبد مائة سنة فلا يجده ويبقى في القنطرة الواحدة سبعين سنة ولا يقطعها، فكم يصيح ويصرخ ما أظلم هذا الطريق وأشكله؟! وأعسر هذا الأمر وأعظمه؟!

وذلك لخطأه في الطلب، وتقصيره في الاجتهاد، وجهله للطريق، وآخر يجده في خمسين، وآخر في عشرين، وآخر في يوم واحد، وآخر في ساعة ولحظة، على ما قُسِّمَ له من عناية رب العزة وتوفيقه، ألا ترى إلى أصحاب الكهف كان مدتهم في هذا الطريق خطرة؛ إذ رأوا التغيير في وجه ملكهم دقيانوس ـ على ما حكي في الخبر ـ فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١].

وكذلك سحرة فرعون ما كانت مدتهم إلاّ لحظة حين رأوا معجزة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[٢] الآية، فأبصروا الطريق في ساعة أو أقل، فصاروا من العارفين بالله الراضين بقضائه، الصابرين على بلائه.

فإن قلت: فَلِم اختص هؤلاء بالتوفيق وحرم غيرهم، وهم جميعاً مشتركون في ربقة العبودية فاعلم أنه لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون. لكن العبد مأمور بالاجتهاد والأمر مقسم، والحكم والعدل يفعل ما يشاء، فنسأل الله تعالى أن لا يحرمنا ذلك بمنّه وكرمه.

فصــل

ومثال هذا الطريق في الدنيا قناطر الصراط في الآخرة في عقباتها / ومقاطعها وهما [٢٠/ب] صراطان، صراط الدنيا وصراط الآخرة.

---

(١) سورة الكهف الآية: ١٤.

(٢) سورة الأعراف الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

صراط الدنيا: للقلوب، يرى أحوالها أهل البصائر.

وصراط الآخرة: للأنفس، يرى أحوالها أهل الأبصار، فاختلفت أحوال السالكين في الآخرة لاختلاف أحوالهم في الدنيا، وبالله التوفيق.

فصـــل

ثُمَّ اعلَمْ يَقِيْناً أَنَّ مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالىٰ التَّوفِيقُ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ نُورَ الْهِدَايَةِ عَلَى التَّحْقِيقِ، حَتَّى عَرفَ فَضِيلَةَ أَرْضِ نَفْسِهِ، وَرَزَقَهُ الْعِنَايَةَ لخدمتها، حتى ينظر إليها فيراها أرضاً أريضة ذات مياه نابعة، وأشجار فارعة، وأثمار يانعة، وظل ظليل، ونسيم عليل، ويفتش في غياظي شعارها، فيجدها مأوى لأسد الغضب، ونمور الجهل، وذئاب الغدر، وخنازير الشَّرَه، وكلاب الحرس، وضباع الحمق، وحيَّات الظلم، وعقارب الحسد.

فإذا تحقق ذلك منها، فليبتهل إلى الله تعالى بقلب منيب أن يرزقه مجاهدة هذه الآفات المؤذية، حتى ينقي أرض نفسه منها بالمجاهدة الحقيقية، ويزرع فيها أصناف رياحين الأخلاق المرضية، فإن الله سبحانه مرجو أن يهب له مطية التوفيق حتى يقطع بها هذا الطريق، وهذه المطية لها أربعة قوائم من غير لحم ولا عظم، فإن قلت: اشرح لي قوائم المطية. قلت: فهل ينفعك الاشتياق وأنت غير مسارع إلى اللحاق؟!

ولكن سأشرحها لك:

فالقائمة الأولى: ذكر الله تعالى على الدوام بلا ملل.

والثانية: تعلق القلب بما في كل حين وزمان.

والثالثة: صرف الهمة إليه اشتياقاً.

والرابعة: اشتغال القلب به عن كل شيء سواه.

واعلم أن بصر المطية من: العلم، والمعرفة، وأذنها من المراقبة، وظهرها من التوكل، وعنقها من الوفاء، وقلبها من الصدق مكلل / بالإخلاص، ولجامها من الهيبة، وروحها من اليقين، وطعامها من الأنس، وقائدها التوفيق، وسائقها العون والتأييد، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] وطرق التوفيق إلى الله تعالى كثيرة لا تحصى، والمطايا كذلك. [٢١/أ]

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ١٩.

ولكن هذه مطية مَنْ سَلَكَ أقرب طرق التوفيق إلى الله تعالى، فيقطعها في لحظة، وذلك بأن يجعل ما في الوجود في خطوة واحدة، وهذه المطية هي الغاية القصوى، وما سواها من المطايا تبع لها، إليها ينتهي عمل العاملين، وبفنائها تناخ مطايا العارفين، وحواليها يكون طواف الروحانيين، وبأدبها يتأدب الصديقون، وما سواها من مطايا الأولياء وطرقهم تبع لهذه المطية ولهذا الطريق.

واعلم أن هذه المطية في طرق مفازة القناطر المعمورة باللصوص والعاهات، وفيها تقع معارك الحروب فيكثر فيها ملاحم القتال.

فسلوا أيها الإخوان الموفون للطريق ـ رحمكم الله تعالى ـ سيوف المجاهدة؟ وانشروا ألوية المراقبة، واركزوا رايات التفقد، والمحاسبة ولكن لا يقطع هذه المفازة بالكمال حتى يصل إلى هذه المطية إلاّ مَنْ رزقه الله تعالى من التوفيق ما يخلص به أثير الهباء من الهواء، ولطيف الهواء من الماء مع عصمة الله تعالى وإمداده إياه بقوة اليقين، حتى لا يرى في الوجود إلاّ الله تعالى، وأفعاله من أبطال العارفين، وشجعان الروحانيين، وسيّاس الصديقين، ولكن من كان التوفيق قائده، والتيسير دليله فما أسرع إلى كل خيرٍ وصوله.

فاجتهدوا ـ رحمكم الله تعالى ـ في أخذ حظكم من مولاكم، عسى أن يهديكم لركوب هذه المطايا الحسان ويوصلكم عليها بلطفه دار الأمان والرضوان / وتناصحوا فيما بينكم، ولا [٢٢/ب] تتركوا حب الدنيا يغلق أقفال قلوبكم؛ فإنه شر محبوب، وأخطر مطلوب، جعلنا الله وإياكم ممن يستمع القول فيتبع أحسنه.

فصـــل

دعاني ـ رحمكم الله تعالى ـ إلى تمثيل الدنيا بالمفازة، وتمثيل الشريعة بالطريق فيها، وتمثيل الفرائض بالقناطر مرتبة موضوعة عليها، وتمثيل أعمالها بالمطايا؛ لأني وجدت ضرب الأمثال يرشق القلوب بسهام الموعظة، رشقاً لا يليق بغيرها؛ ولأن ذلك أبلغ في تقريب المعاني إلى العقول، كقوله عليه الصلاة والسلام فيما روي عنه أنه قال: «العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرفق والده، والبر أخوه، والصبر أمير جنوده»[١].

---

(١) أخرجه السهمي في تاريخ جرجان ص ٣١٢.

وقال بعض السلف: سألت راهباً فقلت له: ما الدنيا؟ قال: خلق كخلق المرأة، رأسها الكبر، ووجهها الفرح، وعيناها السهو، ولسانها الغدر، وأذناها النسيان، ونفسها العلو، وقلبها الطمع، وبطنها الحرص، ورجلاها الحسد، وعنقها الحزن، وظهرها الإياس من الله تعالى، وزينتها الشهوات، فهذه صفة دنياكم التي عليها تتشاجرون. فاحذروها، وقال الله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ ٱلْعَالِمُونَ﴾(١).

وفي كتاب الله تعالى من الأمثال ما يستغرق الوصف والله المستعان.

فصـــل

فإن قال قائل: إذا كان الأمر على ما وصفت والطريق على ما مثلت لقد قلَّ من الناس العابد لهذا الرب المعبود، والواصل إلى هذا المقصود. فمن ذا الذي يقوى على هذه المؤن، ويحصِّل هذه الشرائط؟

فاعلم أن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَٱتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(٣).

وقال: ﴿إِلا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾(٤).

[٢٣/أ] ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ / ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٥). و﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾، و﴿لاَ يَعْقِلُونَ﴾، و﴿لاَ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمثال هذه الآيات.

ثم إن ذلك يسير على من يسره الله تعالى عليه وصفى قلبه، ونوره فعلى العبد الاجتهاد وعلى الله سبحانه الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٦).

فإذا كان العبد الضعيف يقوم بما عليه من التكليف فما ظنك بالرب القادر العلي الكبير اللطيف؟!

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٤٣.
(٢) سورة سبأ الآية: ٢٠.
(٣) سورة سبأ الآية: ١٣.
(٤) سورة صّ الآية: ٢٤.
(٥) سورة يوسف الآية: ٤٠.
(٦) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

والشأن كله يرجع إلى أصل واحد وهو: الكلمة السابقة في الأزل بالتوفيق والسعادة ولا يدرك ذلك باجتهاد وتكليف، ولكن بقسمة أزلية وهبة واهب: ﴿لَاَ يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[١]، وليست هذه الهبة بالأنساب ولا بالأحساب.

ألا ترى إلى لقمان الحكيم ـ قيل إنه عبد مملوك نوبي ـ أعطاه الله من الحكمة ما طبق الآفاق، واشتهر في الأقطار، حتى أنزل ذلك في القرآن.

وكذلك غيره ممن يطول ذكره رجالاً ونساء مثل: تجينة المعتوقة[٢]، وغزالة الأمة المجلوبة من السودان أما تجينة: فإنها كانت تصلي في مصلى أبي عبيدة الجناوني ـ رحمه الله تعالى ـ فقصدها أبو الخير الزواغي فرأى ضوءاً ساطعاً، وأشباه رجال خلفها أو دائرين بها فشرب عندها من إناءٍ لبناً ثم توضأ من ذلك الإناء ماء في حالته تلك[٣].

وأما غزالة: فهي صاحبة كهف وادي الزير فيما قيل إذا نوّمت مواليها في بلد وبقوا حضرت المجلس في تونزيرف، فتأتي كهفها آخر الليل فتجد فيه مصباحين[٤] يقِدان فلما اعتقت انطفى مصباح واحد وبقي آخر[٥].

والله تعالى نسأل الله البر الرحيم أنْ يَمُنّ علينا وعليكم بالتوفيق.

فصل

اعلموا ـ رحمكم الله تعالى ـ أني تفكرت في أحوال أسلافنا ـ رحمهم الله تعالى ـ فوجدتهم أهل بصائر ومعرفة بالدين وأهل تواضع وخشية في قوة يقين مع ما منحهم الله من سلامة للصدور / من كل غائلةٍ واجتهادٍ في العبادةِ بتصديق الورع عن كل شبهة، فبذلوا في [٢٤/ب] إحياء دين الله تعالى أموالهم، وأهرقوا فيه دماءهم، فأصبحوا وقد اقفرت منهم الديار، ولم يبق إلّا ذكرهم في المجالس والأقطار، فآثارهم مذكورة وسيرهم في الأسفار مشهورة، فخلف من بعدهم خلف رضوا بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

عليها يتكالبون، وبها يتواصلون، ومن أجلها يتوالون ويتعادون، استعبدتهم الدنيا

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٣.

(٢) كذا في المخطوط، وفي أعلام النساء عن صفوة الصفوة: تحية النوبية (١/ ١٦٧).

(٣) لا يخفى على ذي بصيرة ما في القصة من المبالغة والمخالفة.

(٤) في الأصل: صباحين وقد سقطت الميم سهواً من الناسخ.

(٥) القول في هذه القصة كالقول على سابقتها.

فأذلتهم، والأماني فأضلّتهم، فيا ليتهم اكتسبوها من أبوابها، وأكلوها من أسبابها، ولكنهم أخذوها عوضاً عن الدين، وثمناً بخساً لسير أشياخنا الأولين.

استحوذ على أكثرهم الشيطان، واستغواهم الطغيان، فأصبح كل يعاجل حظه مشغوفاً، فصار المنكر من أجل ذلك عندهم معروفاً، حتى ضاعت حدود الدين، وامحت آثار السلف والصالحين، فأصبح منار الدين مندرساً، وصار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولقد خيلوا للخلق ألأعلم الإفتواء حكومة يستدرج بها العوام، إذا لم يروا ما سواها مصيدة للحرام وشبكة للحطام.

وأما علم طريق الآخرة، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله تعالى في كتابه علماً وفقهاً وحكمة ونوراً وهداية ورشداً، فقد أصبح بين الخلق مطوّياً وصار نسيّاً منسيّاً.

ثم إني نظرت في كتاب الله تعالى وسنة نبيّه عليه الصلاة والسلام، وما دوّنه السلف الصالح ـ رحمهم الله تعالى ـ من الآثار، والسير في الدفاتر والأسفار فوجدت في ذلك علماً اتضّح عندي برهانه وحقيقته، وأيقنت بالفوز والنجاة لمن انتحله وعمل به وهو العلم بحدود التقوى من الورع عن محارم الله عز وجل، والقيام بحدوده، وتصفية القوت والقلوب من مكارهه.

فرأيت انتحال ذلك، والعمل بحدوده واجباً عليّ والحجة العظمى قائمة من أجله عليّ وعلى جميع من فهمه إذا كان ذلك / دين الله القوي والحق المبين، وعليه مضى أسلافنا وسائر المتقين. [٢٥/أ]

ثم إني نظرت في أحوال دهرنا، فرأيته دهراً مستصعباً تبدّلت فيه شرائع الإيمان، وانتقضت فيه عرى الإسلام، واندرست فيه حدود الدين بالكلية، ورأيت فتناً متراكبة يحار فيها اللبيب، وديناً مندرساً لا داعٍ إليه ولا مجيب، وقد عميت عن الآخرة بصائرنا، وامتلأت بحب الدنيا ضمائرنا، فخشيت الانسلاخ من الأمر كله، فرأيت التمسك بالقليل خير من ذهاب الجميع وإن كان لا عذر لأحد في تضييع شيء من أوامر الله تعالى، ولا ارتكاب شيء من مناهيه ولكن سداد من عوز؛ لأنه بلغنا عن رسول الله ﷺ [أنه][1] قال لأصحابه: «سيأتي بعدكم قوم، إن تَمَسَّكُوا بعشر ما أنتم عليه نجوا».

فدعاني ما ذكرت إلى تأليف كتاب اشرح فيه ـ إن شاء الله تعالى ـ بعض شرائع الدين،

---

(١) كلمة يقتضيها السياق.

وأبيِّن فيه بعض مناهيه لعل الله تعالى يجعله تذكرة لنفسي ولمن نظر فيه من أبناء جنسي وغيرهم من الناس، وسميته: «قناطر الخيرات»، فالله سبحانه وتعالى أسأله التوفيق في القول والعمل والعصمة من الخطأ والزلل.

وهذا الكتاب يحتوي على سبعة عشر قنطرة اشرحها ـ إن شاء الله تعالى ـ بالتمام.

الأولى قنطرة العلم: وهي تحتوي على مقدمة في بيان العقل وعشرة أبواب في تفصيل العلم:

الأول: في بيان فضله.

الثاني: في فضل التعلم والتعليم.

الثالث: في فرض العين.

الرابع: في فرض الكفاية.

الخامس: في بيان حد الفقه والكلام في علم الدين وبيان علم الآخرة من علم الدنيا

السادس: في طرق العلم وتقاسيمه.

السابع: في أدب المتعلم والعالم.

الثامن: في آفات العلم والعلماء.

التاسع: في بيان جنس العلم المذموم وأسماء / العلم المحمود. [٢٦/ب]

العاشر: في العلامات المميزة بين علماء الدنيا والآخرة. وسائر القناطر تأتي على الترتيب. المتقدم ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى آخر قنطرة فيكون آخرها صفة الجنة والنار.

وهذه الأبواب تشتمل على فصول ستأتي فيما بعد ـ إن شاء الله تعالى ـ ونحن الآن مبتدئون ـ إن شاء الله تعالى ـ في أبواب العلم وتفاصيلها، اعلم أنه قد قدمنا أولاً أنا سننشرع في بيان مقدمة العقل قبل أبواب العلم.

فصـــل

في فضل العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه وإنما قدمنا بيان العقل على تفصيل أبواب العلم؛ لأن العقل آلة لدرك العلوم وأس الفضائل، وينبوع للآداب وأصل للتكليف، وعماد للدنيا فالعلم يجري منه مجرى الثمر من الشجر، والنور من الشمس، والرؤية من العين.

وشرف العقل مدرك بالضرورة، وكيف لا يشرَّف ما هو وسيلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته»[١].

أما سمعتم قول الفجّار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٢].

وعن أنس قال: كثرت المسائل يوماً على رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس إن لكل شيء مطية، وأحسنكم دلالة ومعرفة بالمحجة أفضلكم عقلاً»[٣].

وعن أبي هريرة قال: لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة أحد، سمع الناس يقولون: كان فلان أشجع من فلان، وفلان أبلى ما لم يبل غيره، ونحو هذا فقال ﷺ: «أما هذا فلا علم لكم به». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال عليه السلام: «إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل، فكانت نصرتهم ونياتهم / على قدر عقولهم، فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى، فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم»[٤]. [٢٧/أ]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أصل الرجل عقله، وحسبه دينه.

وعن الحسن البصري قال: ما استودع الله أحداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما.

وعن البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال: «جدّ الملائكة، واجتهدوا في طاعة الله سبحانه بالعقل، وجَدّ المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم، فأعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلاً»[٥].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت: يا رسول الله بم يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: «بالعقل»[٦] قلت: وفي الآخرة؟ قال: «بالعقل». قلت: أليس يجزون بأعمالهم؟ فقال ﷺ: «يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون»[٧].

---

(١) أطراف الحديث عند: ابن عدي في الكامل (١/٣٦٩)، العجلوني في كشف الخفا (٢/٣٠٦)، ابن حجر في المطالب (٢٥٧٤)، والمتقى في الكنز (٢٨٩٢٤).

(٢) سورة الملك الآية: ١٠.

(٣) نحوه في السلسلة الضعيفة للألباني (١٦٩).

(٤) أطرافه عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/٤٥٧)، ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/٢١٥).

(٥) أطراف هذا الحديث عند: الزبيدي في اتحاف السادة المتقين (١/٤٥٧)، ابن حجر في المطالب العالية (٢٧٥٠)، العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/٨٤)، ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/٢١٨).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أطرافه عند: أبي نعيم في الحلية (١/٢١)، وابن حجر في المطالب العالية (٢٧٤٥، ٢٧٧٠)، العجلوني =

وقال بعض الحكماء: العقل أفضل مرجو، والجهل انكأ عدو، وقال بعض الأدباء: صديق كل امرىء عقله، وعدوه جهله.

وقال بعض البلغاء: خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل.

وأنشد الماوردي لابراهيم بن حسان:

يزين الفتى في الناس صحة عقله ... وإن كان محذوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله ... وإن كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى في العقل إنه ... على العقل يجري علمه
وأفضل قسم الله للمرء عقله ... فليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومآربه

وعن ابن عباس أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لكل شيء آلة وعدة، وإنَّ آلة المؤمن العقل، ولكل شيء مطية، ومطية المؤمن العقل، / ودعامة المؤمن العقل، ولكل قوم [٢٨/ب] غاية، وغاية العباد العقل، ولكل أهل بيت قيم، وقيم بيوت الصديقين العقل، ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكل امرىء عقب ينسب إليه، ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون إليه، ويذكرون به العقل، ولكل شيء فسطاط، وفسطاط المؤمن العقل»(١).

وعنه ﷺ قال: «إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل مَنْ نصب في طاعته تعالى، ونصح لعباده، وكمل عقله، ونصح نفسه فما بصر وعمل به أيام حياته فافلح وأنجح»(٢).

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «أتمكم عقلاً، أشدكم لله عز وجل خوفاً، وأحسنكم فيما أمر به، ونهى عنه نظراً، وإن كان أقلكم تطوعاً»(٣).

واعلم أن بالعقل تعرف حقائق الأمور، ويفصل بين الحسنات والسيئات، وهو ينقسم قسمين: غريزي ومكتسب.

فالغريزي هو: العقل الحقيقي وله حد يتعلق به التكليف، لا يتجاوزه إلى زيادة، ولا

= في كشف الخفا (١/٢٧٦)، ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/٢١٧).

(١) أطرافه في: اتحاف السادة المتقين (١/٤٥٧)، المطالب العالية (٢٧٤٦)، السيوطي في الحاوي (٢/٩٥).

(٢) أطرافه في: المغني عن حمل الأسفار (١/ ٨٤)، إتحاف السادة المتقين (١/٤٥٨).

(٣) ونحو هذا الطرف ذكره الزبيدي في اتحاد السادة المتقين (١/ ٤٢٢).

يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان من سائر الحيوان، فإذا تمَّ في الإنسان سُمِّي عاقلاً وخرج به إلى حد الكمال.

كما قيل عن صالح بن عبد القدوس أنه قال:

إذا تم عقل المرء وتمت أموره وتـمّ إيـاديـه وتـم بنـاؤه

وروي عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾[١].

أي من كان عاقلاً.

واختلف الناس فيه وفي صفته على مذاهب شتى: فقال قوم: هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات.

واختلف من قال بهذا في محله. فقالت طائفة: محله الدماغ؛ لأن الدماغ محل الحس.

وقال آخرون: محله القلب، لأن القلب معدن الحياة، ومادة الحواس.

وفي آثار قومنا عن علي بن أبي طالب يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله سبحانه العقل / من نور مكنون في غامض علمه من حيث لا يطّلع عليه ملك مقرّب، ولا نبي مرسل، فجعل الزهد رأسه والخير سمعه، والحياء عينه والرأفة قلبه، والعلم فهمه، والبصر طبعه، ثم قال له: أقبل فأقبل فكان إقباله إقبالاً، ثم قال له: ادبر فأدبر فكان إدباره إدباراً فقال له عز وجل: فوعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً قط أكرم عليّ منك ولا أحسن منك ولا أحب إليَّ منك، بك آخذ وأعطي، وبك أعبد وبك أعرف ولك الثواب وعليك العقاب. قال: فخرَّ العقل ساجداً، فمكث في سجوده ألفي عام، فقال له عز وجل: ارفع رأسك، واسأل تعط، واشفع تشفع، قال: اللهم سيدي بحقك على خلقك ألا شفعتني فيمن خلقتني فيه؟ قال: فذلك لك»[٢]. [٢٩/أ]

وقال ﷺ: «من أُتي العقل فقد أُتي خيراً كثيراً، وإنما العاقل من عقل عن الله تعالى أمره ونهيه، ومن لم يكن كذلك فليس بعاقل» حتى قال بعض العلماء فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل الناس أن يصرف في الزهاد؛ لأنهم انقادوا للعقل، ولم يغتروا بالأمل.

وعنه عليه السلام قال: «أكمل الناس عقلاً أطوعهم لله، وأعلمهم بطاعته، فلا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا عقله»[٣].

---

(١) سورة يّس الآية: ٧٠.
(٢) بنحو هذا الطرف ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/ ٤٥٥).
(٣) أطرافه في: إتحاف السادة المتقين (١/ ٤٥٨)، تاريخ بغداد (١٣/ ٤٠)، الفوائد المجموعة (٤٧٨).

وقال: «أمرنا معشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم»[١].

فإن قيل: إن كان العقل عرضاً فكيف خلق قبل الأجسام؟ وإن كان جوهراً فكيف يكون جوهراً قائماً بنفسه لا يتخير؟

قيل له: إن هذا من العلم الغامض الذي لا يطلع عليه إلاَّ الأنبياء، أو الروحانيون[٢]، وقد أبطل الماوردي في كتابه هذا القول بهذه العلة.

وقال قوم: العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية حكي هذا عن / الحارث المحاسبي، فكأنه أشار إلى أن العقل نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك [٣٠/ب] الأشياء.

ونسبة هذه الغريزة إلى العلوم، نسبة العين إلى الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في انكشاف العلوم نسبة نور الشمس إلى البصر، وهذا الوصف هو الذي يفارق الإنسان.

وقال آخرون: العقل بعض العلوم الضرورية أراد العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل الصغير المميز بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكبر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين.

وقالت الطائفة: العقل هو جملة العلوم الضرورية: من وجوب الواجبات، وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات.

وقال بعضهم: العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان:

أحدهما ما وقع عن درك الحواس الخمس:

كالمدركات بالبصر، والأصوات المدركة بالسمع، والطعوم المدركة بالذوق، والروائح المدركة بالشم، والأجسام المدركة باللمس، فإذا كان الإنسان ممن يدرك بحواسه هذه الأشياء ثبت له هذا النوع من العلم، وكان عاقلاً، لأن خروجه في حال تغميض عينيه من أن يدرك بها، ويعلم لا يخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم.

---

(١) طرفه في: إتحاف السادة المتقين (١/ ٣٤٢).

(٢) من المعلوم أن هناك علوماً لا يطلع عليها إلاّ الأنبياء كقوله ﷺ: «لو علمتم ما أعلم....» وليس هناك ما يطلع عليه أحد سواهم غير ما هو علم لدني كعلم الخضر ولكن لهذا العلم اللدني حدود يجب أن لا يتعدى فيه ما شرع في الظاهر، فلا يتعلق متعلق بمثل هذه العبارة.

والنوع الثاني ما كان مبتدىء في النفوس:

كالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وكالعلم بأن من المحال اجتماع ضدين، وأن الواحد أقل من الاثنين، وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينفى(١) عن العاقل مع سلامة حاله، وكمال عقله، فإذا كان عالماً بالمدركات الضرورية فهو كامل العقل، وإلى هذا القول ذهب الماوردي في كتابه قال: فكل من نفى(٢) أن [٣١/أ] يكون العقل جوهراً أثبت محله القلب؛ لأن القلب محل العلوم كما قال تعالى: ﴿/ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾(٣).

فدتل هذه الآية على أمرين: أحدهما أن العقل علم، والثاني أن محله القلب، وفي قوله: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ تأويلان: أحدهما: معناه يعلمون بها، والثاني: يعتبرون، فهذه جملة القول في العقل الغريزي.

وأما العقل المكتسب: فهو نتيجة العقل الغريزي وذلك علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حكمته التجارب، يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف به يقال إنه غمر جاهل، وهذا العقل ينمى إن استعمل، وينقص إن أهمل؛ لأنه من قوة ثقابة المعرفة وإصابة الفكرة ما لم يمنعه مانع من هوى ولا صاد من شهوة لأنه يحصل ذلك بكثرة التجارب وممارسة الأمور، ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ فقالوا: عليكم بآراء الشيوخ؛ فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع فقد مرّت على عيونهم وجوه العبر، وتصدّت لأسماعهم آثار الغير.

وقال: التجربة مرآة العقل، والغمرة ثمرة الجهل.

وقيل في منثور الحكم: من طال عمره نقصت قوة بدنه، وزادت قوة عقله.

وقال بعض البلغاء: كفى بالتجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عظة. وينشد:

ألم تر أن العقل زين لأهله ... ولكن تمام العقل طول التجارب

فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً، وقد يكون هذا أيضاً لفرط الذكاء وحسن الفطنة، وذلك جودة الحدس.

---

(١) في الأصل: «يكتفي» وهو تحريف.
(٢) في الأصل: «بقي» وهو تحريف.
(٣) سورة الحج الآية: ٤٦.

وإذا مزج بالعقل الغريزي صارت نتيجتها هو العقل المكتسب، كالذي يكون في الأحداث من وفور العقل وجودة الرأي، ولذلك قالوا: عليك بالحديث السن الحديد الذهن.

وقالت العرب: عليكم بمشاورة الأحداث فإنهم ينتجون رأياً لم يفله طول القدم، ولا استولت عليه رطوبة الهرم.

وأنشد الماوردي لبعض الشعراء:

رأيت العقل لم يكن انتهاباً ... ولم يقسم على عدد السنينا

/ ولو أن السنينا تقاسمته ... حوى الآباء انصبت البنينا [٣٢/ب]

وروي عن الأصمعي أنه قال: قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحادثني فامتنعني بفصاحته وملاحته: أيسرك أن تكون لك مائة ألف درهم وإنك أحمق؟

قال: لا والله. قلت: ولِمَ؟ قال: أخاف أن يجني عَلَيَّ حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى عليَّ حمقي.

فانظر إلى هذا الصبي، كيف استخرج بفرط ذكائه ما لعله يدق على من هو أكبر منه سناً وأكثر منه تجربة.

وحكي عن ثمامة بن أشرس أنه أخبر أن: المأمون تفرد يوماً في بعض تصيده، فانتهى إلى بعض بيوت أهل البادية، فرأى صبياً يربط[1] قربة، وقد غلبه وكاؤها وهو يقول: يا أبت اشدد فاها فقد غلبني فوها لا طاقة لي بفيها.

قال: فوقفت عليه المأمون. فقال: ممن تكن؟ فقال: من قضاعة. قال: من أيِّها؟ قال: من كلب؟ قال: وإنك من الكلاب؟ قال: لسنا هم ولكن قبيل يدعى كلبا. قال: فمن أيِّهم أنت؟ قال: من بني عامر. قال: من أيِّها؟ قال: من الأجداد ثم من بني كنانة. قال: فمن أنت يا خالي فقد سألتني عن نسبي؟ فقال: ممن تبغضه العرب كلها. قال: فأنت إذاً من نزار؟ قال: أنا ممن تبغضه نزار كلها. قال: فأنت إذاً من قريش؟ قال: أنا ممن تبغضه قريشاً كلها. قال: فأنت إذا من بني هاشم؟ قال: أنا ممن تحسده بنو هاشم كلها. قال: فأرسل فم القربة، فقام إليه فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى وبركاته، وضرب بيده إلى شكيمة الدابة وهو يقول:

---

(١) في الأصل: يضبط. والسياق يقتضي ما أثبت.

مـأمـون يـا ذا المنـن الشـريفـة	وصـاحـب الكتبـة الكتيفـة
هـل لـك فـي أرجـوزة ظـريفـة	أظـرف مـن فقـه أبـي حنيفـة
لا والـذي أنـت لـه خليفـة	مـا ظلمـت بـأرضنـا ضعيفـة
عـاملنـا مـؤنتـه خفيفـة	ومـا جبـا فضـلاً علـى الـوظيفـة
فـالـذئـب والنعجـة فـي السقيفـة	واللِّـص والتـاجـر فـي القطيفـة

قـد سـار فيـنا سيـرة الخـليـفـة

فقال له المأمون: أحسنت أيّما أحَبُّ إليك عشرة آلاف درهم معجلة أو مائة ألف مؤجلة؟

فقال: بل أدخرك يا أمير المؤمنين ـ وفي خبر آخر: لأنك أنت الغني الوفي ـ. قال: فما لبث أن أقبلت الفرسان. فقال: احملوه فمضى به حتى كان أحد مسامريه.

انظر إلى جودة قريحة هذا الغلام ومجاوبته فسبحان الفعَّال لِما يشاء.

وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن تيبة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَرَّ بصبيان يلعبون، وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه إلا عبد الله، فقال له عمر: ما لك لم تهرب مع أصحابك؟ فقال يا أمير المؤمنين لم أكن على ريبة فأخافك ولم يكن بالطريق ضيق فأوسّع لك.

انظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنّة وحُسن البديهة، فليس للذكاء غاية، وليس لجودة القريحة نهاية.

ولمثل هذا قالت الحكماء: غاية العقل سرعة الفهم، وغايته إصابة الوهم، وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وإن أعضل.

كما قيل لعليّ بن أبي طالب: كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم؟ فقال: كما يرزقهم على كثرة عددهم. وقيل له: كم بين السماء والأرض؟ فقال: دعوة مستجابة.

وقيل لابن عباس: أين تذهب هذه الأرواح إذا فارقت الأجساد؟ فقال: أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان؟

وهذان الجوابان، جوابا إسكات تضمنا دليلي إذعان وحجة قهر.

وقيل لعليّ أيضاً: كم بين المشرق والمغرب؟ قال: يوم طراد الشمس.

ومن غير هذا الفن وإن كان مسكتاً حكي أن: إبليس لعنه الله حين ظهر لعيسى ابن مريم / عليه الصلاة والسلام. [٣٤/ب]

فقال: ألست تقول لن يصيبك إلاّ ما كتب الله لك؟ قال: نعم. قال: فارم نفسك إذاً من ذروة هذا الجبل فإنه إن قدّرت لك السلامة تسلم. فقال له: يا ملعون، إنّ الله يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر رَبَّه.

ومثل هذا الجواب لا يستغرب من أنبياء الله الذين أمدّهم بوحيه، وأيّدهم بنصره، وإنما يستغرب ممن يلجأ إلى خاطره، ويعوّل على بديهته.

فإذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الاستعمال بطرق التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار، فهو العقل الكامل على الإطلاق من الرجل الفاضل بالاستحقاق؛ وذلك أن تنتهي قوة الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوات الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة، سمي صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة.

فهذا أيضاً من خواص الإنسان التي بها يتميز من الحيوان:

فالأول: هو الأصل ـ أعني الغريزة ـ.

والثاني: هو فرع ـ أعني العلوم الضرورية ـ.

والثالث: هو فرع الأول والثاني ـ أعني علوم التجارب، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب.

والرابع: هي الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى، فالأولان بالطبع، والأخيران بالاكتساب.

وحكي عن سابور بن أزدَشير[1] أنه قال: العقل عقلان: أحدهما: مطبوع، والآخر

---

(١) في الأصل: سابور بن أزدشير، والتصويب من سير أعلام النبلاء وقال مؤلفه: الوزير الأوحد البليغ بهاء الدولة أبو نصر، وزر لبهاء الدولة ابن عضد الدولة، وكان شهماً مهيباً كافياً، جواداً ممدحاً، له ببغداد دار علم [أي دار كتب] توفي سنة ست عشرة وأربع مائة عن ثمانين سنة..... وقد مدح سابور الببغاءُ وطائفة.

مسموع، ولا يصلح واحد منهما إلاّ بصاحبه، فنظم ذلك عليّ بن أبي طالب فيما حكي عنه فقال:

رأيـت العقـل نـوعيـن　　فمسمـوع، ومطبـوع
فـلا ينفـع مطبـوع　　إذا لـم يكـن مسمـوع
/كمـا لا تنفـع الشمـس　　وضـوء العيـن ممنـوع[١]　　[٣٥/أ]

فالأول: هو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «أول ما خلق الله العقل.....» الحديث.

والأخير: هو المراد بقوله ﷺ لعليٍّ بن أبي طالب: «إذا تقرب الناس إلى الله عز وجل بأبواب البر، فتقرّب إليه بعقلك»[٢].

وقوله لأبي الدرداء: «ازدد عقلاً تزدد من الله تعالى قرباً».

فقال بأبي أنت وأمي كيف لي بذلك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «اجتنب محارم الله تعالى، وأدّ فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً، وتَنَفَّل بالصالحات من الأعمال، تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة، وتنل من ربك بها القرب والعز»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردىً»[٤].

وعن سعيد بن المسيب: أن عمر وأُبَيّ بن كعب رضي الله تعالى عنهما، وأبا هريرة

---

(١) قلت: جاء هذا الشعر في إحياء علوم الدين على النحو التالي:

رأيـت العقـل عقليـن　　فمطبـوع ومسمـوع
ولا ينفـع مسمـوع　　إذا لـم يـك مطبـوع
كمـا لا تنفـع الشمـس　　وضـوء العيـن ممنـوع

(٢) ذكره بنحوه العراقي في حمل الأسفار (١/ ٨٥) وقال: أبو نعيم في الحلية من حديث علي: إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عزوجل، فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب. وإسناده ضعيف.

(٣) بنحوه ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ٨٥، ٨٦) وقال العراقي تعليقاً: رواه ابن المحبر ومن طريقه الحارث بن أبي أسامة، والترمذي الحكيم في النوادر. قلت: وذكره ابن عدي في الكامل (١/ ٨٦)، والفتني في تذكرة الموضوعات (٢٩).

(٤) أطرافه عند الزبيدي في الإتحاف (١/ ٤٥٧)، وابن حجر في المطالب (٢٧٦٥)، والعراقي في حمل الأسفار (١/ ٨٣)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٢١٢).

دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله: من أعلم الناس؟ فقال عليه السلام: «العاقل». فقالوا: من أعبد الناس؟ فقال: «العاقل». قالوا: من أفضل الناس؟ قال: «العاقل». قالوا: أليس العاقل من تمت مروءته، وظهرت فصاحته، وجادت كفه، وعظمت منزلته؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين، وإنما العاقل: هو المتقي وإن كان في الدنيا خسيساً دَنِيّاً[1]»[2].

وعن أنس بن مالك أنه قال: أُثنِيَ على رجل عند رسول الله ﷺ بخير فقال: «كيف عقله»؟ فقالوا: يا رسول الله إن من عبادته، إن من فضله، فقال: «كيف عقله»؟ فقالوا: يا رسول الله - ﷺ - يثنى عليه بالعبادة وأصناف البر وتسألنا عن عقله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، وإنما يُقَرَّب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقلهم»[3].

وبالجملة من لم تكن بصيرة عقله ثاقبة لم يعقل به من الدين إلا قشوره، وأمثلته دون لبابه وحقائقه.

واختلف الناس في العقل المكتسب إذا تناها وزاد هل يكون فضيلة أم لا؟ فقال قوم: لا يكون فضيلة؛ لأن الفضائل هبات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين فما جاوز التوسط خرج من حد الاعتدال لقوله عليه الصلاة والسلام: «خير الأمور أوساطها»[4].

وقال: «إن زيادة العقل تفضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه مذموم».

وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري أن يعزل زياداً عن ولايته، فقال زياد: يا أمير المؤمنين أعن موجدة أم خيانة؟ فقال: لا عن واحدة منهما، ولكن خفت أن أحمل على الناس فضل عقلك.

---

(١) طرف الحديث عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/٤٥٧)، وابن حجر في المطالب العالية (٢٧٥٣)، ابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ٢١٥، ٢٢٢)، والعراقي في حمل الأسفار (١/ ٨٦) وقال: رواه ابن المحبر.

(٢) في الأحياء: «ذليلاً» بدل: «دنيًا».

(٣) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٨٣): رواه ابن المحبر [وهو ضعيف] في العقل بتمامه، والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً.

(٤) أطراف الحديث عند البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٧٣)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٢٤٦)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٦٥)، الفتني في تذكرة الموضوعات (١٨٩).

وقالت الحكماء للإسكندر: أيها الملك عليك بالاعتدال في كل الأمور؛ فإن الزيادة عيب والنقصان عجز.

وقال بعض الحكماء: كفاك من عقلك ما دلّك على سبيل رشدك.

وقال آخرون وهو أصح القولين: زيادة العقل فضيلة؛ لأنه زيادة علم بالأمور، وحسن إصابة بالظنون، ومعرفة ما لم يكن إلى ما يكون، وذلك فضيلة لا نقص.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «العقل حيث كان الوفاء مألوف».

وقال القاسم بن محمد: كانت العرب تقول: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه.

وقد قيل في منثور الحكم: كل شيء إذا كثر رخص إلاّ العقل؛ فإنه إذا كَثُر غلا.

وأما الدهاء والمكر فهو مذموم؛ لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر ولو صرفه إلى الخير لكان محموداً.

وقد ذكر المغيرة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال: كان والله أفضل من يخدع، وأعقل من يخدع.

[٣٧/أ] وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: / لست بالخِبِّ[١] ولا يخدعني الخِبُّ[٢]، والله أعلم.

فصل

واعلم أنَّ العقل المكتسب لا ينفعك عن العقل الغريزي؛ لأنه نتيجة منه، وقد ينفعك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل، كالأنوك الذي لا توجد منه فضيلة، والأحمق الذي قلّ ما تخلو منه رذيلة.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الأحمق: أبغض خلق الله إليه؛ إذ حرمه أعز الأشياء إليه».

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «الأحمق كالفخار؛ لا يرقع، ولا يشعب».

---

(١) الخِبُّ: الخِدَاع، والخُبْثُ، والغِشُّ.

(٢) وقيل عن ابن سيرين أيضاً.

وروى عطاء عن جابر قال: كان في بني إسرائيل رجل له حمار، فقال: يا رب لو كان لك حمار لعلفته مع حماري هذا، فَهَمَّ به نبيٌّ من الأنبياء فأوحى الله تعالى إليه: إنما أثيب كل إنسان على قدر عقله.

قال: وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل.

ويقول: إن الأحمق يحتفظ من كل شيء إلا من نفسه؛ ولذلك قال بعض الحكماء: الحاجة إلى العقل أكثر من الحاجة إلى المال.

وقال بعض البلغاء: دولة الجاهل عبرة العاقل. وقال أنوشروان لبزرجمهر: أيُّ شيء للمرء خير. قال: عقل يعيش به. قال: فإن لم يكن؟ قال: فإخوان يسترون عليه. قال: فإن لم يكن؟ قال: فمالٌ يتحبب به إلى الناس. قال: فإن لم يكن؟ قال: فعي صامت. قال: فإن لم يكن؟ قال: فموت جارف.

وفي كتاب العقد قال: خطب وكيع ابن أبي سويد ـ وهو والي خراسان ـ فقال: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أشهر قيل: إنما هي ستة أيام، قال والله لقد قلتها وأنا استقلها. قال: وخطب والي اليمامة فقال: إن الله لا يغار عباده على المعاصي، وقد أهلك أمة عظيمة في ناقة تساوي مائتي درهم فَسُمِّي مُقَوِّم الناقة.

قال: ودخل قوم على تردم / الدوسي فقالوا له: أين القِبلة في دارك هذه؟ فقال: إنما [٣٨/ب] دخلنا إليها منذ ستة أشهر. وقال: ونسي عامر بن عبد الله بن الزبير[١] عطاءه في المسجد وكان قد أوتي به هناك، فلما صار إلى بيته قال: يا غلام ائتني بعطائي الذي نسيت في المسجد. فقال: وأين يوجد وقد دخل في المسجد بعدك جماعة؟! قال: أوَيبقى أحد يأخذ ما ليس له؟ قال: وسرق نعله، فلم يلبس بعد ذلك نعلاً حتى مات. وقال: أكره أن يجيء من يسرقه فيأثم.

قال: وفي هذا الضرب من الناس يقول أيوب السختياني: من أصحابي ما أرجو بركة دعائه، ولا أقبل شهادته.

الأصمعي قال: كان الشعبي يحدث أنه كان بين بني إسرائيل عابد جاهل، قد ترهب في

(١) هو تابعي ثقة عابد، قال معن عن مالك قال: ربما انصرف عامر من العتمة فيعرض له الدعاء فلا يزال يدعو إلى الفجر. وقال أحمد بن حنبل: حدثنا سفيان: أن عامر بن عبد الله أشترى نفسه من الله ست مرات. يعني تصدق كل مرة بديته. (سير أعلام النبلاء ٥/ ٢١٩).

صومعته، وكان له حمار يرعى حولها، فاطّلع من الصومعة فرآه يرعى، فرفع يديه إلى السماء فقال: يا رب لو كان لك حمار كنت أرعاه مع حماري.

وما كان يشق عليَّ فَهَمَّ به نبي في ذلك الزمان، فأوحى الله تعالى إليه: دعه فإنما سأل، وإنما أثيب كل إنسان على قدر عقله.

هشام بن حسان قال: أقبل رجل إلى محمد بن سيرين فقال: ما تقول في رؤيا رأيتها؟ قال: وما رأيت؟ قال: كنت رأيت أن لي غنماً فأعطيت بها ثمانية دراهم فأبيت من البيع، ففتحت عيني ولم أر شيئاً فأغلقتهما ومددت يدي فقات: هاتوا أربعة، فلم أعط شيئاً. قال ابن سيرين: لعلَّ القوم اطلعوا على عيب في الغنم فكرهوها. قال: يمكن الذي قلت. وفي كتاب الماوردي قال: وولى الربيع العامري وكان من النوكى[1] منابر اليمامة فأقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر:

شهدت بأن الله حق قضاؤه ... وأن ربيع العامري رقيع
أقاد لنا كلبا بكلب فلم يدع ... وما كلاب المسلمين تضيع

[٣٩/أ] / ومثل هذا من رذائل النوكى ما لا يحصى كثرة؛ إذ لا معنى للإكثار منها؛ لأنه بحسب ما ينشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلاً في الغابرين، وحديثاً في الآخرين وقد وصف بعض البلغاء العاقل بما فيه من الفضائل فقال: العاقل إذا والى بذل في المودة نصره، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره، فيسعدُ مواليه بعقله، ويعتصم معاديه بعدله، إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بشكره، وإن أساء إليه مُسيء سبّب له أسباب العِذار أو منح له الصفح والعفو.

والأحمق ضَالٌّ مُضِلٌّ، إنْ أونس تكبَّر، وإنْ أوحش تكدَّر، وإن استنطق تخلّف، وإن ترك تكلف، مجالسته مهنة، ومعاينته محنة، ومحاورته غرر، ومموالاته ضرر، ومقاربته عمى، ومفارقته شفاء.

وقال بعض البلغاء: إن الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق، وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق، فإن اتتك منها سهمة مع جهلٍ أو فاتتك بغية مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة في الجهل والزهد في العقل، فدولة الجهل من الممكنات، ودولة العاقل من الموجبات.

---

(١) النُّوكُ: الحمق، والجهل، والعجز.

وليس مَنْ أمكَنَهُ شيء من ذاته كَمَنْ استوجبه بآلاته وآداته، ويعد فدولة الجهل كالغريب الذي يحن إلى الغفلة والرجوع، ودولة العاقل كالنسيب الذي يَحِن إلى الوصلة.

فلا يفرح المرءُ بحالة نالها بغير عقل، ومنزلة رفيعة حَلَّها بغير فضل؛ فإن الجهل يزيله منها ويزيله عنها، ويَحُطُّه إلى رتبته ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه، وتكثر ذنوبه، ويصير مادحه هاجياً وواليه معادياً.

وأما العاقل: فهو أبدا من عقله في إرشاد، ومن وراءه في امداد، فقوله سديد وفعله حميد، فالعقل ينبوع / الأخلاق الفضيلة وأس الفضائل الكاملة، وأنشد بعض أهل الأدب [٤٠/ب] وذُكر أنها لعَلِيّ بن أبي طالب:

إن المكـــارِم أخـــلاق مطهـــرة ... فـالعقـل أولهـا والـديـن ثـانيهـا
والعلـم ثـالثهـا والحلـم رابعهـا ... والجـود خامسها والصدق ساديها
والبـر سـابعهـا والصبـر ثـامنهـا ... والشكـر تـاسعهـا واللين عـاشيهـا
والنفـس تعلـم أنـي لا أصـدقهـا ... ولسـت أرشـد إلاّ حيـن أعصيهـا
والعيـن تعلـم فـي عيـن محـدثهـا ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

فصـــل

وفي كتاب الغزالي: اختلف الناس في تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قد قلّ تحصيله، بل [الأولى والأهم][1] المبادرة إلى التصريح بالحق. قال: والحق الصريح [فيه][2] أن [يقال إن][3] التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة المتقدمة[4] سوى القسم الثاني وهو العلوم الضرورية[5].

من جوازات الجائزات[6] واستحالة المستحيلات فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد، عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين في أمثالها من النظائر فالتفاوت يتطرق

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء.
(٢) ما بين المعقوفين من الإحياء.
(٣) ما بين المعقوفين من الإحياء.
(٤) ليست هذه الكلمة في الإحياء.
(٥) في الإحياء: وهو العلم الضروري.
(٦) في الإحياء: بجواز الجائزات.

إليها[١]، وإلى هذا أشار عمروس بن فتح رحمه الله تعالى في كتابه.

وزعم أحمد بن الحسين مع من وافقه ـ هم الذين ذهبوا إلى ـ أن: العقول متساوية.

وعلتهم في ذلك تساويهم في التكليف، ولا معنى للاشتغال باحتجاجهم في ذلك. إذ من أنكر التفاوت في غريزة العقل فكأنه منخلع من ربقة العقل، ومن ظن أن عقل النبي ﷺ مثل عقل بعض الجهال فهو أخس عقلاً من أولئك الجهال، وكيف ينكر تفاوت الغريزة العقلية، ولولا ذلك لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا / بعد [٤١/أ] تعب طويل من المعلم وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور دون التعليم. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[٢].

وذلك مثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ إذ تتضح لهم في باطنهم أمور غامضة من غير تعلم ولا سماع ويعبر عن ذلك بالإلهام[٣].

وكمثل المحدثين والمروعين كقوله عليه الصلاة والسلام: «إن لكل أمة محدثاً ومروعاً، فإن يكن فيكم فعمر».

والمحدث، والمروع: هو الذي يلقى في روعه وقلبه كأنه يحدث.

وعن مثله عبّر النبي ﷺ في قوله: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها».

وقوله: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب ما شئت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به»[٤].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «احذروا فراسة المؤمن؛ فإنه بنور الله يبصر»[٥] والفراسة معناها: الظن الصادق، وفي مثل ذلك يقول الشاعر:

---

(١) العبارة الأخيرة مختصرة عن ما في الإحياء (١/٨٧) باب بيان تفاوت النفوس في العقل.

(٢) سورة النور الآية: ٣٥.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/٨٨).

(٤) قال العراقي في حمل الأسفار: رواه الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه، والطبراني في الأصغر، والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف (١/٨٨).

(٥) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في الحلية (١٠/٢٨١)، العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٣)، السيوطي في اللآلىء المصنوعة (٢/١٧٧)، وفي الدر المنثور له أيضاً (٤/١٠٣).

الألمعي الذي ظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
بصير بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأي ما قد وقعا

الألمعي: الذي تلمع في عقله الأمور قبل أن تكون. وهذا أمر ظاهر لا يخفى عن ذوي عقل.

وذكر الغزالي في كتابه: أن غريزة العقل في أول مبادئها مثل: نور يشرق على النفس عند سن التمييز، فلا يزال ينمو ويزداد إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، ومثاله نور الصبح فإن أوائله يخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج في الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس.

قال: وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر، والفرق في ذلك مدرك بين الأعمش[١] وبين الحاد البصر، بل سنة الله عز وجل جارية في جميع ما خلق بالتدريج في الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تركز في الصبي دفعة، بل تظهر شيئاً فشيئاً / على التدريج وكذلك جميع [٤٢/ب] القوى والصفات[٢].

قال: ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روي أن ابن سلام سأل رسول الله ﷺ في حديث طويل فيه وصف عظم العرش، وأن الملائكة قالت: يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش؟ قال: نعم، العقل، قالوا: وما بلغ من قدره؟ قال: هيهات لا يحاط بعلمه، هل لكم علم بعدد الرمل؟ قالوا: لا، قال عز وجل: فإني خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل، فمن الناس من أعطي حبة، ومنهم من أعطي حبتين، ومنهم من أعطي الثلاث، ومنهم من أعطي الأربع ومنهم من أعطي فرقاً، ومنهم من أعطي وسقاً ومنهم أكثر من ذلك[٣]، وبالله التوفيق.

وتذكرنا العقل وأقسامه وحقيقته فلنرجع إلى ذكر العلم وتفاصيل أبوابه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في الأصل: الأعمى، والتصويب من الإحياء.
(٢) راجع الإحياء (١/ ٨٧) بتصرف.
(٣) حديث ضعيف قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٨٨) رواه ابن المحبر من حديث أنس بتمامه، والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً.

ذكر قنطرة العلم وتفاصيل أبوابها العشر

الباب الأول

في بيان فضل العلم

فأما بيان فضله فعلى خمسة أقسام: من الكتاب، والسنة، والآثار، والمعاني، والحسّ.

أما الكتاب: فآي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[1].

فبدأ بنفسه، وثنى بملائكته، وثَلَّث بأولي العلم من عباده، فساواهم بنفسه وملائكته بواو التشريك تشريفاً وتعظيماً، فناهيك بهذا شرفاً، وفضلاً، وجلالاً، ونبلاً وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ. . . .﴾ الآية، والشهادة لا تكون إلاّ بالعلم دون الجهل والشك والظن قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[3].

فقال أهل العلم: لحن الخطاب يرفع الله الذِينَ آمنوا مِنكم درجة والذين أوتوا العلم درجات.

[٤٣/أ] وروي عن ابن عباس رضي الله / تعالى عنه أنه قال: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ، وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[4].

فقوله تعالى: من يشاء ولم يكتف بقوله: (خَيْراً) حتى قال (كَثِيراً) وهذا نهاية في الفضل والتعظيم.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨.

(٢) سورة الزخرف الآية: ٨٦.

(٣) سورة المجادلة الآية: ١١.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٦٩.

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١] فمنع من المساواة بين العالم والجاهل؛ لما خص به العالم من فضيلة العلم.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[٢].

فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً أو يفهم عنه زجراً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٣].

فأخبر سبحانه أنما يحصل له الخوف في قلوب العلماء خاصة لأنهم أعلم به دون الجهال.

وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[٤].

وقال جل وعلا: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾[٥].

تنبيهاً على أنه اقتدر عليه بقوة العلم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[٦] بيّن تعالى أن عظم قدرة الآخرة إنما يعلم بالعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[٧].

رد تعالى حكمه في الوقائع إلى استنباط أهل العلم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله تعالى، وقيل في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ ـ يعني العلم ـ ﴿وَرِيشاً﴾ يعني اليقين ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾[٨] يعني: الحياء.

وقال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾[٩].

---

(١) سورة الزمر الآية: ٩.
(٢) سورة العنكبوت الآية: ٤٣.
(٣) سورة فاطر الآية: ٢٨.
(٤) سورة الرعد الآية: ٤٣.
(٥) سورة النمل الآية: ٤٠.
(٦) سورة القصص الآية: ٨٠.
(٧) سورة النساء الآية: ٨٣.
(٨) سورة الأعراف الآية: ٢٦.
(٩) سورة الأعراف الآية: ٧.

وقال: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾[١].

وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ خَلَقَ ٱلإِنسَانَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٢] وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان.

[٤٤/ب] وقال سبحانه لنبيه عليه الصلاة / والسلام: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[٣].

وقال: في الدنيا تحقيراً وتزهيداً فيها ﴿قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٤].

وقال: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً. . . .﴾[٥] أراد أصنافاً من المال ﴿مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٦] أي زينتها.

نهى نبيه عليه الصلاة والسلام أن ينظر إلى الدنيا بعين الرغبة.

وقال له في العلم آمراً بالرغبة فيه والزيادة منه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[٧].

فلو كان معنى أفضل من العلم لأمره بالرغبة فيه والزيادة منه، فلما كان النبي عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق عليه وأفضلهم لديه؛ اختار له أفضل المعاني وأعزها وأشرفها وهو العلم.

وقال تعالى في فضل العلم في قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾[٨] مع ما انطوت عليه القصة من قطع البلاد في طلبه وركوب المشاق ولقاء النصب في سفره إلى علم يتعلمه بعد أن قال: أنا أعلم أهل الأرض.

فلما بلغ مجمع البحرين وجد الخضر عليه السلام فقال له موسى مستلطفاً: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ

(١) سورة العنكبوت الآية: ٤٩.
(٢) سورة الرحمن الآيات: ١، ٤.
(٣) سورة النساء الآية: ١١٣.
(٤) سورة النساء الآية: ٧٧.
(٥) سورة طه الآية: ١٣١.
(٦) سورة طه الآية: ١٣١.
(٧) سورة طه الآية: ١١٤.
(٨) سورة الكهف الآية: ٦٠، ٦٧.

عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾[١] فكان من قصتهما ما ذكره الله تعالى في كتابه.

وقال أيضاً في فضله في قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد وتفقد الطير فقال: ﴿مَا لِيَ لاَ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ. . . . ﴾[٢] إلى قوله: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ. . . . ﴾[٣] إلخ.

القصة توعده لما تفقده بالعذاب الشديد أو بالذبح فلما أتاه قال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ. . . . ﴾[٤]. إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾[٥].

فلا معنى أعز وأشرف من العلم فلا يختاره الله إلا لأحب الخلق إليه وأكرمهم عليه، وغير ذلك من الآي كثير في كتاب الله تعالى ـ تركناها مخافة التطويل[٦] ـ.

فصــل

/ وأما من السنة: فأحاديث كثيرة منها: ما رواه جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ [٤٥/أ] أنه قال: «طلب العلم عند الله أفضل من الصلاة، والصيام والحج، والعمرة، والجهاد في سبيل الله».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا حضرت الجنازة وحضر مجلس العلم فإذا كان للجنازة من يحضرها ويدفنها فإن حضور مجلس العلم أفضل من حضور ألف جنازة، وعيادة ألف مريض، ومن صلاة ألف ركعة، ومن قيام الليل، ومن صيام ألف يوم، وصدقة ألف درهم، ومن ألف حجة سوى حجة الفريضة، ومن ألف غزوة سوى غزوة الفريضة تغزوها في سبيل الله تعالى بمالك ونفسك، فأنفع من هذه المشاهد مَنْ شهد مجلس العلم، أما علمت أن الله يطاع بالعلم ويعبد بالعلم، فخير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل». فقال رجل: وقراءة القرآن يا رسول الله.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ويحك ما قراءة[٧] القرآن بغير علم، وما الحج بغير علم، وما الجهاد بغير علم، أما بلغك أن السنة تقضي على القرآن والقرآن لا يقضي على السنة».

---

(١) سورة الكهف الآية: ٦٦.
(٢) سورة النمل الآية: ٢٠.
(٣) سورة النمل الآيات: ٢١، ٢٢، ٢٧.
(٤) سورة النمل الآيات: ٢١، ٢٢، ٢٧.
(٥) سورة النمل الآيات: ٢١، ٢٢، ٢٧.
(٦) راجع إحياء علوم الدين (١/٥: ٦).
(٧) في الأصل: «قرأت» وهو خطأ. أما بالنسبة للحديث فعلامات الوضع عليه بادية لائحة لا تحتاج إلى بحث. =

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «العلم بالتعلم، والخير عادة، والشر لجاجة، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ويلهمه رشده».

وعنه ﷺ أنه قال: «العلماء ورثة الأنبياء».

ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة وعنه عليه الصلاة والسلام من طريق جابر بن زيد أنه قال: «ليوم واحد من العالم الذي يعلم الناس العلم، أفضل عند الله من عبادة العابد مائة سنة، وأن العالم الذي يعلم الناس يستغفر له أربعة أشياء: الملائكة في السماء، والطير في الهواء، والهوام في البر والحيتان في البحر، وأن / العالم [٤٦/ب] الواحد أشد على إبليس من ألف مؤمن عابد» وأي شرف يزيد على شرف من تشتغل ملائكة السماء، ودواب الأرض به فهو مشغول بنفسه، وهم مشغولون بالاستغفار له.

ومن طريق أبي هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «للأنبياء على العلماء فضل درجتين، وللعلماء على الشهداء فضل درجة».

وروي عن أنس عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك».

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «التفقه في الدين حق على كل مسلم ألا تتعلموا أو عَلِّموا أو تفقهوا أو لا تموتوا جهالاً».

وروى سلمان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما عُبد الله بشيء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد، وعماد الدين الفقه».

وروى أبو أمامة قال: فسئل النبي عليه الصلاة والسلام عن رجلين: أحدهما عالم والآخر عابد فقال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم على العباد كفضلي على أدناكم رجلاً».

أبو أيوب الأنصاري قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: «باب واحد يتعلمه المؤمن خير له من عبادة سنة، وخير له من عتق رقبة من ولد إسماعيل عليه السلام، وأن طالب العلم، والمرأة المطيعة لزوجها، والولد البار لوالديه يدخلون الجنة مع الأنبياء بغير حساب».

وعن الوضاح بن عقبة قال: حفظ مسألة خير من عبادة ألف سنة.

ومن كتاب الضياء قال: حفظ مسألة من سائر مسائل العلوم خير من عبادة سنة.

وقال أبو محمد: حفظ مسألة تعدل عبادة ستين سنة، وهي التي على الإنسان فرض مثل التوحيد، وما لا يسع جهله.

قال: ومن نسخ العلم ليتعلمه ويحفظه فهو أفضل من الصوم والصلاة بعد أداء الفرض وتعليم / باب أفضل من مائة ركعة. [٤٧/أ]

ومن كتاب حياة القلوب قال: وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا لو كانت لقمة في كفه فوضعها في الآخرة»[١].

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «خير دينكم أيسره، وخير عبادتكم الفقه».

وعنه عليه الصلاة والسلام من طريق جابر بن زيد رضي الله عنه أنه قال: «خصلتان لا تجتمعان في منافق: حسن سمت و[لا][٢] فقه في الدين»[٣].

ولا تشكن في الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان فإنه ما أراد به الفقه الذي ظننت وسيأتي معنى الفقه ـ إن شاء الله تعالى ـ وأدنى درجات الفقه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا.

وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برَّأته من النفاق والرياء ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «أفضل الناس المؤمن العاقل الذي إذا احتيج إليه نفع، وإن استغنى عنه أغنى نفسه».

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «الإيمان عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم»[٤].

---

(١) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٩/١): رواه ابن حبان في روضة العقلاء، وابن عبد البر موقوفاً على الحسن البصري ولم أره مرفوعاً إلا بلفظ: «خير له من ألف ركعة» رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر.

(٢) ما بين المعقوفين من الترمذي.

(٣) قال الترمذي (٢٦٨٤): هذا حديث غريب، ولا نعرف هذا الحديث من حديث عوف إلاَّ من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامري، ولم أر أحداً يروي عنه غير أبي كريب محمد بن العلاء ولا أدري كيف هو. قلت: هو ضعيف، ضعفه يحيى بن معين. وقال ابن حجر في التقريب: فقيه من أهل الرأي ضعفه يحيى بن معين، ورمي بالإرجاء (٢٢٥/١).

(٤) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٦/١): رواه الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف.

وقيل أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: أتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد واطلب العلم حتى تنكسر العصا وتنخرق النعلان.

وعنه ﷺ أنه قال: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد فأما أهل العلم فدَلُّوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل»[(١)].

وعنه ﷺ قال: «موت قبيلة أيسر من موت عالم»[(٢)].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حظه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله فيها حيث قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٣)]».

[٤٨/ب] وقال عليه الصلاة / والسلام: «فضل العلم خير من فضل العبادة».

وإنما كان كذلك، لأن العلم يبعث على فضل العبادة، وأما العبادة لا تكون عبادة مع خلوها من العلم.

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[(٤)].

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء، ودم الشهداء»[(٥)].

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَنْ حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السُّنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة، ومن حمل على أمتي أربعين حديثاً لقي الله عز وجل فقيهاً عالما»[(٦)].

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب»[(٧)].

---

(١) قال العراقي في المغني (٦/١): رواه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.
(٢) قال العراقي في المغني (٦/١): رواه الطبراني، وابن عبد البر من حديث أبي الدرداء، وأصل الحديث عند أبي الدرداء.
(٣) سورة الإسراء الآية: ٨٥.
(٤) قال العراقي في المغني (٦/١): متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(٥) قال العراقي في المغني (٦/١): رواه ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.
(٦) قال العراقي في المغني (٧/١): رواه ابن عبد البر في العلم من حديث ابن عمر، وضعفه.
(٧) قال العراقي في المغني (٧/١): رواه الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الزبيدي بإسناد ضعيف.

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[١].

فأعظم برتبة تتلو النبوة وتعلو فوق الشهداء مع ما ورد من فضل الشهادة.

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «يبعث العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء، ثم يقول: يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم إلاّ لعلمي بكم، ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم»[٢] رواه الغزالي في كتابه.

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قيل له: يا رسول الله: أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «العلم بالله سبحانه». قيل: أي الأعمال تريد يا رسول الله؟ قال: «العلم بالله سبحانه». فقيل: نسأل عن العمل وتجيب عن العلم؟ فقال ﷺ: «إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «عمل قليل في علم، خير من عمل كثير في جهل».

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «أوحى الله إلى إبراهيم / عليه السلام أني عليم أحب [٤٩/أ] كل عليم»[٤].

وعنه ﷺ أنه قال: «العالم أمين الله في الأرض»[٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: «صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء»[٦].

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا أتى عليّ يوم لا ازداد فيه علماً يقربني إلى الله عز وجل، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»[٧].

---

(١) قال العراقي في المرجع السابق: رواه ابن ماجه من حديث ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف.
(٢) قال العراقي في المرجع السابق (٨/١): رواه الطبراني من حديث أبي موسى بسند ضعيف.
(٣) قال العراقي في الموضع السابق: رواه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف.
(٤) قال العراقي في المغني (٧/١): رواه ابن عبد البر تعليقاً، ولم أظفر له بإسناد.
(٥) وفي المرجع والموضع السابق: قال رواه ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف.
(٦) وقال في الموضع والمرجع السابق: رواه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف.
(٧) وقال في الموضع والمرجع السابق: رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، وابن عبد البر في =

وعنه عليه السلام قال: «فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وفضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»[(١)].

فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة؟! وكيف حطّ رتبة العقل المجرد عن العلم؟! وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة.

وعنه عليه السلام أنه قال: «فضل المؤمن العالم، على المؤمن العابد، سبعون درجة»[(٢)].

وفي حديث آخر: «بين العالم والعابد مائة درجة ما بين كل درجتين حضر أسرع الجواد المضمر سبعين سنة»[(٣)].

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه، قليل سائلوه، كثير معطوه، وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، قليل معطوه، كثير سائلوه، العلم فيه خير من العمل»[(٤)].

وروى الغزالي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «نظرة إلى العالم أحب إليّ من عبادة سنة».

وعنه عليه السلام أنه قال: «ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة»؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «هم علماء أمتي». وأمثال هذا الحديث كثيرة.

وأما الآثار: فروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: عليكم بالعدل قبل أن يرفع، ورفعه أن تهلك رواته فوالذي نفسي بيده ليؤذن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء، أن يبعثهم / الله علماء لما يرون من كرامتهم، وأن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم[(٥)]. [٥٠/ب]

= العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

(١) وقال في الموضع والمرجع السابق: رواه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح.

(٢) وقال في الموضع والمرجع السابق: رواه ابن عدي من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف، ولأبي يعلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف.

(٣) قال العراقي في المغني (٨/١): رواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر، عن أبيه، وإسناده ضعيف.

(٤) وقال في المصدر السابق: رواه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه وقيل: عن أبيه وإسناده ضعيف.

(٥) راجع إحياء علوم الدين (٩/١).

وعن الحسن أنه قال: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء وقال الحسن في قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[١].

قال: هي العلم والعبادة، ﴿وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[٢] قال: هي الجنة.

وقال مصعب بن الزبير لابنه: تعلم العلم فإن كان لك مال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً[٣].

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بني تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم.

وقيل لبعض الحكماء: أي الأشياء يقتنى؟ قال: الشيء الذي إذا غرقت سفينتك سبح معك ـ يعني العلم ـ وقيل: أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت[٤].

وقال بعض الحكماء: العلم شرف لا نديم له، والأدب مال لا خوف عليه.

وقال بعضهم: من اتخذ الحكمة لجاماً، اتخذه الناس إماماً، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار[٥].

وقال بعض البلغاء: تعلم العلم فإنه يقوِّمك، ويسددك صغيراً، ويقدمك ويسودك كبيراً، ويصلح زيغك وفسادك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك.

وقال بعض العلماء: من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء صغير فرح، ومن دفع عنه حزن.

وقال كميل بن زياد: أخذ بيدي عليّ بن أبي طالب فأخرجني إلى ناحية الجبانة، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال لي: يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير.

يا كميل احفظ مني ما أقول: لك الناس ثلاثة عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠١.
(٣) راجع الإحياء (١/٩).
(٤) راجع الإحياء (١/٩).
(٥) راجع الإحياء (١/٩).

وقال: إن هاهنا لعلماً جمّاً ـ أي كثير ـ وأشار بيده إلى صدره، لو أصبت له حملة بلى قد أصبت لفناء غير مأمون، ويستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستظهر بحجج الله / [٥١/أ] وبكتابه وبنعمه على معاصيه، أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له في إنجانه، يقتدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا يدري أين الحق؟ إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدر، مشغوف بكلام بدعته، بدله فيها بالصوم والصلاة، فهو فتنة لمن افتتن بعبادته، وأن من الخير كله من عرّفه الله دينه، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف دينه، وإن من أبغض خلق الله إليه: عبداً وكّله الله إلى نفسه إلا لا ذا ولا ذاك، أو من هو متهوم باللذات سلس القيادة إلى الشهوات، أو مغرماً بجمع الأموال والإدخار، منقاداً لهواه، وليس من دعاة الدين أقرب شبهاً به الأنعام السائمة.

كذلك يموت العلم بموت حامله ثم قال: اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله عز وجل بحججه، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خفيّاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وميثاقه بكم، وأين أولئك الأقلون عدداً الأعظمون قدراً؟ بهم يحفظ الله حججه حتى يؤديها في قلوب أشباههم، يا كميل: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، المال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق، يا كميل: صحبة العالم دين يدان الله به تكسبه الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، ومنفعة المال تزول بزواله، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

يا كميل: مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم من الأرض مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستأذنوا ما استودعوه منه المترفون، وأَنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون.

صحبوا الدنيا بإدبار بل بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى.

يا كميل: أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه هاه شوقاً إلى رؤيتهم[١].

[٥٢/أ] وقال أيضاً: العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد وإذا مات العالم / ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلّا خلف مثله.

وقال أيضاً نظماً هو أو غيره:

النـاس مـن قبـل التمثيـل أكفـاء … أبـــوهــــم آدم والأم حـــــواء
نفـس كنفـس وأرواح مشـاكلـة … وأعظـم خلقـت فيهـم وأعضـاء

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء مختصراً (٨/١).

وإن يكن لهم في أصلهم نسب　　يتفاخرون به فالطين والماء
لا فخر إلا لأهل العلم إنهم　　هم الهداة لمن استهدى أدلاء
الناس موتى وأهل العلم أحياء　　الناس مرضى وهم فيهم أطباء
الناس أرض وأهل العلم فوقهم　　سنا ونوراً فما في النور ظلماء
قل للذي يدعي في العلم معرفة　　علمت شيئاً وغابت عنك أشياء
ووزن كل امرىء ما كان يحسنه　　والجاهلون لأهل العلم أعداء
وضد كل امرء ما كان يجهله　　وللرجال على الأفعال أسماء(١)

وقال أبو الأسود الدؤلي: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك(٢).

وقال علي: قيمة كل امرىء ما كان يحسنه، وقيل لبزرجمهر: العلم أفضل أم المال؟ فقال: بل العلم. قيل: ما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنعفة المال وجهل الأغنياء بفضل العلم.

وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال قال: لعز الكمال.

وقال ابن المعتز في منثور الحكم: العالم يعرف الجاهل؛ لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم؛ لأنه لم يكن عالماً.

وهذا صحيح، ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه انحراف المعاندين لأن من جهل شيئاً عاداه، قال الله سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾(٣). وقال: ﴿إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾(٤).

ولذلك قال يحيى بن خالد لابنه: يا بني عليك بكل نوع من العلم فإن المرء عدوٌّ ما جهل وأنا أكره / أن تكون عدو الشيء من العلم. [٥٣/ب]

تفنن وخذ من كل علم فإنما　　يفوق امرؤ في كل فن له علم
فأنت عدو للذي أنت جاهل　　وبه وبالعلم أنت تتقنه سلم

(١) ذكره الغزالي في الإحياء مختصراً (١/٨).
(٢) راجع المرجع السابق.
(٣) سورة يونس الآية: ٣٩.
(٤) سورة الأحقاف الآية: ١١.

وسئل ابن المبارك: مَن الناس؟ فقال: العلماء. فقيل: من الملوك؟ قال: الزهاد. قيل: من السفلة؟ قال: الذي يأكل بدينه، ولم يجعل غير أهل العلم من الناس[١].

وقال بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم.

وقال فتح الموصلي: أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: بلى. قال: كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة ثلاثة أيام يموت.

ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبه حياته كما أن غذاء الجسد الطعام، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم، ولكنه لا يشعر به، إذ حُب الدنيا وشُغله بها أبطل إحساسه، كما أن غلبة الخوف قد تبطل إحساس ألم الجرح في الحال، وإن كان واقعاً، فإذا حطّ الموت عنه أثقال الدنيا أحس بهلاكه وتحسر تحسراً لا ينفعه، كإحساس المفيق عن سكر بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء؛ فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتهبوا[٢].

وأنشد يقول:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فـأجسـامهـم قبـل القبـور قبـورُ
وإن امـرء لـم يحـي بـالعلـم ميـت فليـس لـه حتـى النشـور نشـور

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: خُيِّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والمُلك، فاختار العلم، فأعطي المال والملك معه[٣].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحبه فمن يطلب باباً من / العلم رداه الله بردائه فإن أذنب ذنباً استعتبه [ثلاث مرات][٤] لئلا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب [حتى يموت][٥]. [٥٤/أ]

---

(١) في الإحياء: قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين، ولم يجعل غير العالم من الناس (٨/١).
(٢) راجع الإحياء مختصراً (٨/١، ٩) بتصرف.
(٣) راجع المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق وما بين المعقوفين منه.
(٥) المصدر السابق وما بين المعقوفين منه.

وعن الأحنف بن قيس قال: كاد العلماء أن يكونوا أرباباً فكل عز لم يؤكده[١] علم فإلى ذل يصير[٢].

وفي وصايا لقمان لابنه قال: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله سبحانه يُحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء[٣].

وقال بعض العلماء: إذا مات العالم بكى[٤] الحوت في الماء والطير في الهواء، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره[٥].

قال: ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى: تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرساً، ولا يسقم نفساً، فأخرج له طعاماً ونفقة. فقال: فاقتي إلى كلامكم أشد من حاجتي إلى طعامكم إني طالب هدى لا سائل ندا، فأذن له العالم وأفاده من كل ما سأل، فخرج جذلاناً فرحاً وهو يقول: علماً أوضَحَ لَبْساً خير من مال أغنى نفساً.

فصــل

وأما فضل العلم من جهة المعاني والعقل، أما من جهة المعاني فوجوه كثيرة أيضاً وذلك أنّ الله سبحانه قال في كتابه: ﴿قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٦].

فقللها وصغّرها مع أن العقلاء والناس عليها يقتتلون كل القتال وفيها يتنافسون كل التنافس، وعَظَّم العلم وجعله خيراً كثيراً، فإذا كان هذا القليل الفاني يتنافسون فيه الناس هذا التنافس، ويقتتلون عليه هذا القتال ويطلبونه هذا الطلب.

فهذا المعنى الذي شرفه الله وعظّمه وجعله خيراً كثيراً أولى بالتنافس فيه وشدة الحرص عليه والطلب له إذ فيه عز الدنيا والآخرة والحياة الأبدية والنجاة في العاجل والآجل وأيضاً فإنه سبب النجاة من المهلكات في الدنيا والآخرة؛ لأن المعاصي فيها الهلاك في الدنيا والآخرة والطاعة / فيها النجاة في الدنيا والآخرة، ولا يتوصل إلى معرفة الطاعة والمعصية إلاّ بالعلم. [٥٥/ب]

---

(١) في الإحياء: يوطد بعلم.
(٢) في الإحياء: مصيره، راجع (٩/١).
(٣) راجع المصدر السابق.
(٤) في الإحياء: بكاه.
(٥) المصدر السابق.
(٦) سورة النساء الآية: ٧٧.

والدليل على فضل العلم من جهة العقل أيضاً أن العلم سبب سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى أن أغنياء جهال العرب والعجم يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لمشايخهم لإختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان؛ لشعورها بتمييز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها.

وأما في الآخرة فمعلوم أن العلم وسيلة إلى السعادة الأبدية، وذريعة إلى القرب من رب العالمين وأعظم الأشياء في حق الآدمي ما هو وسيلة إلى ذلك، ولن يتوصل إلى القرب منه عز وجل إلاّ بالعمل والعلم ولا يتوصل إلى كيفية العمل إلاّ بالعلم؛ فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال.

وسئل ابن المبارك عن الناس فقال: العلماء، ولم يجعل غيرهم من الناس؛ لأن الخاصية التي يميز بها الإنسان عن سائر البهائم هو العلم.

فقيل للإنسان إنسان بما هو شريف من أجله وليس ذلك بقوة شخص؛ فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمة؛ لأن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعة فإن السبع أشجع منه ولا بكثرة الأكل، فإن الجمل أوسع بطناً منه، ولا بقوة شهوة الجماع فإن أخس الطيور أقوى سفاداً منه بل لم يخلق إلاّ للعلم وبالله التوفيق.

وأما من جهة المحسوس فإن هذه الصنائع كلها التي جعل الله فيها قوام النفوس والأبدان من: بناء وحراثة وخياطة إلى غير ذلك من أسباب المنافع لو جهل الناس ذلك كله لاختل أمرهم ومعاشهم وانعدمت المنافع وهلك الجميع / ثم رأينا هذا الإنسان العالم بالصنعة يكتسب [٥٦/أ] منها الخير ويجلب بها منافع كثيرة والجاهل بالصنعة لا يجلب منفعة قد تعطل من جميع المنافع وضاع واحتاج واختل أمر معيشته ودينه فلا يستوي مَنْ علم شيئاً مع من جهله قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(١).

وأيضاً فإن الكلب المعلم قتله للصيد ذكاة له وإباحة لأكله، وغير المعلم يجيف الصيد ويفسده فيحرم أكله.

وكذلك العالم العامل إنما تصح عبادته بعلمه والجاهل لا تصح عبادته، لإنه عمل

(١) سورة الزمر الآية: ٩.

بالجهل فأجاف العبادة وأفسدها كما أن الكلب غير المعلم أجاف الصيد وأفسده فحرم أكله، وغير ذلك من المعاني المحسوسة في فضل العلم كثير وبالله التوفيق.

الباب الثاني
في فضل التعلم والتعليم

وفي هذا الباب فصلان:

الأول: في فضل التعلم، أما الآيات فقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾[(١)] إلى قوله: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾[(٢)] الآية. وذلك فيما وجدت في الأثر: أن الناس في عهد النبي عليه السلام يخرجون جميعاً في الجهاد فنزلت هذه الآية حثاً منه تعالى في التعلم أن يقيم بعضهم بعضاً، ويغزوا بعضهم فتقدم الغزاة فيخبرهم القاعدون بما أحدث الله على نبيه عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ. . . .﴾[(٣)] الآية.

وقال تعالى أيضاً: ﴿فَٱسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٤)] وأما الأحاديث الواردة في التعلم فكثيرة كقوله عليه السلام من طريق جابر بن زيد عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[(٥)].

والصين أقصى بلاد التوحيد فلما / أوجب طلب العلم بالصين دلَّ أن طلبه فيما دون [٥٧/ب] ذلك آكد وأوجب.

ومن طريقه عنه عليه السلام أنه قال: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا لِما يطلب»[(٦)].

قال الربيع عن أبي عبيدة رحمهم الله: وضع الأجنحة من الملائكة بدل من رفع الأيدي في الدعاء.

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٢.
(٢) سورة التوبة الآية: ١٢٢.
(٣) سورة التوبة الآية: ١٢٢.
(٤) سورة النحل الآية: ٤٣.
(٥) قال العراقي في حمل الأسفار (٩/١): رواه ابن عدي والبيهقي في المدخل والشُّعب من حديث أنس. وقال البيهقي: متنه مشهور وأسانيده ضعيفة.
(٦) وفي المرجع السابق: رواه أحمد، وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال.

ومن طريق أبي هريرة عنه عليه السلام قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سَهَّل الله له طريقاً إلى الجنة»[١].

وعنه عليه السلام من طريق جابر بن زيد أنه قال: «من تعلم العلم لله عز وجل وعمل به حشره الله يوم القيامة آمناً ويرزقه الورود على الحوض».

وعنه عليه السلام قال: «لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة»[٢].

وعنه عليه السلام قال: «باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم بالغ».

وعنه عليه السلام قال: «العلم خزائن ومفاتحه السؤال [ألا][٤] فاسئلوا فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل، والعالم، والمستمع والمُحب لهم»[٥].

وعنه عليه السلام قال: «لا ينبغي للعالم أن يسكت عن علمه»[٦].

وفي حديث أبي ذر: «حضور مجلس العلم أفضل من صلاة ألف ركعة وعيادة ألف مريض وشهود ألف جنازة»[٧]. فقيل يا رسول الله: ومن قراءة القرآن؟ فقال ﷺ: «وهل ينفع القرآن إلا بالعلم»؟.

---

(١) المصدر السابق بنحوه قال: رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) المصدر السابق وقال: رواه ابن عبد البر من حديث أبي ذر، وليس إسناده بذاك، والحديث عن ابن ماجه بلفظ آخر.

(٣) المصدر السابق وقال: رواه ابن حبان في روضة العقلاء، وابن عبد البر موقوفاً على الحسن البصري ولم أره مرفوعاً إلا بلفظ: خير له من مائة ركعة. رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر.

(٤) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (١/ ١٠) وعلق عليه العراقي بقوله: رواه أبو نعيم من حديث علي مرفوعاً بإسناد ضعيف.

(٥) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (١/ ١٠) وعلق عليه العراقي بقوله: رواه أبو نعيم من حديث على مرفوعاً بإسناد ضعيف.

(٦) قال العراقي في المغني (١/ ١٠): رواه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه في التفسير، وابن السني، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف.

(٧) قال العراقي في المغني (١/ ١٠): ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر، ولم أجده من طريق أبي ذر.

وعنه عليه السلام قال: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحي به الإسلام فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة»[١].

وأما الآثار فروي عن أبي الدرداء أنه قال: لئن أتعلم مسألة أحب إلي من قيام ليلة[٢].

وقال أيضاً: العالم والمتعلم شريكان في الأجر[٣]، وسائر الناس همج لا خير فيهم[٤].

وقال أيضاً: كن في الدنيا عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك[٥].

وقيل لكسرى / أنوشروان: ما بالكم لا تستفيدون من العلم شيئاً إلاّ زادكم عليه حرصاً؟ [٥٨/أ]

قال: لأنا لا نستفيد منه شيئاً إلاّ ازددنا بعظم منفعته علماً. قيل: ما بالكم لا تأنفون من التعلم من كل أحد؟ قال: لعلمنا أن العلم نافع من حيث أخذ.

وعن سعيد بن جبير قال: كنت عند ابن عباس جالساً إذ آتاه أهل التفسير فسألوه، وآتاه أهل القرآن فقرأوا عليه فأخذ عليهم بالإعراب.

ثم جاءه أهل الحلال والحرام فسألوه، ثم جاء أهل العربية فسألوه فأخبرهم، حتى جاءه قوم من أهل فارس فسألوه عن رستم واستبندياد فأخبرهم بحديثهم، فقمت إليه فقبلت رأسه فقلت: يا ابن عم رسول الله عليه السلام: ما على الأرض أعلم منك! فتبسم.

وعن ابن عباس قال: ذللت طالباً فعززت مطلوباً.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: سمعت ابن عباس يقول: والله لربما مررت بالآية من كتاب الله عز وجل في جوف الليل فلا أعرف فيمن نزلت، فآخذ ثوبي، ثم آتي المسجد وأصحاب رسول الله ﷺ وأوقظ الرجل منهم وأسأله فيمن نزلت آية كذا وكذا؟ فإن لم أجد عند واحد منهم أتيت آخر، كذلك حتى أمر عليهم جميعاً، وربما غدوت علهيم فأمُرّ بالمهاجرينَ فأسألهم، فإنَّ لم أجد عندهم أتيت الأنصار فأتّبعهم رجلاً رجلاً حتى أجد حاجتي.

---

(١) وفي المرجع السابق قال: رواه الدارمي، وابن السني في رياضة المتعلمين من حديث الحسن، فقيل هو ابن علي، وقيل هو ابن يسار البصري، فيكون مرسلاً.
(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٠).
(٣) في الإحياء الموضع السابق: «الخير».
(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٠).
(٥) راجع المصدر السابق.

وكان فيما بلغنا: ينام على أبواب الصحابة في الهواجر حتى يلفح وجهه للتعلم منهم، وكان له قلب عقول ولسان سئول حتى فاق أهل زمانه علماً وفقهاً ويسمونه البحر لما فيه من كثرة فنون العلم.

ويقال أنه قعد ذات يوم مع أصحابه فقال لهم: اسألوني ما دون السماء السابعة والأرضين السفلى فأخبركم به؛ ولذلك قال ابن أبي مليكة: ما رأيت مثل ابن عباس إذا رأيته / رأيت أحسن الناس وجهاً فإذا تكلم فأعرب الناس لساناً وإذا أفتى فأكثر الناس علماً. [٥٩/ب]

ولما مات قال جابر بن زيد: دفن اليوم ربّاني هذه الأمة.

وقال بعض العلماء: تعلموا فإذا تعلمتم فاعملوا وعلموا، وقال: فإذا تعلمتم علماً فأكظموا عليه ولا تخلطوه بضحك ولا بباطل فتمجه القلوب.

وقال بعض الحكماء لبنيه: تعلموا العلم؛ فإن لم تنالوا به في الدنيا حظاً فلإن يذم الزمان لكم خير من أن يذم بكم.

وعن الأصمعي أنه قال: رآني أعرابي في البادية وأنا أطلب العلم، فقال: يا أخا الحضر عليك بلزوم ما أنت فيه؛ فإن العلم زين في المجالس وصلة للإخوان وصاحب في الغربة ودليل على المروءة ثم أنشأ يقول شعراً:

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو العلْم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

الأبيات المشهورة، قال: ورآني أعرابي أكتب كل ما أسمع فقال: ما أنت إلا الحفظة، تكتب لفظ اللفظة.

قال ورآني أعرابي آخر، وأنا أكتب كل ما أسمع، فقال: أنت حتف الكلمات الشاذة.

قال بعضهم: رأى رجلٌ أعرابي: رجلاً من قريش يطلب الأدب، فقال له: اطلب الأدب؛ فإنه دليل على المروءة، وزيادة في العقل، وصلة في المجلس وأنشد شعراً:

من كان للدهر خدنا في تصرفه أهدت له صفوة الأيام تجريباً
من كانوا خلوا من الآداب سربله كر الليالي مع الأيام تدريباً

ويقال الأدب نوعان: أدب درس، وأدب نفس وهو أفضلهما وأنشد يقول:

أدب المـــــرء كلحـــــم ودم مـــا حـــواه جســـد إلاّ صلـــح
لـــو وزنتـــم تـــأديـــب واحـــد ألـف ألـف من ذوي الجهل رجح

فصـــل

ويروى أن النبي عليه السلام جاءه رجل من مراد يقال له: صفوان بن غسان المرادي وهو متكيء على مرد له أحمر في المسجد فقال له: يا رسول الله جئت اطلب العلم، فقال: «مرحباً يا طالب العلم إن طالب العلم لتحف به الملائكة، وتسكنه بأجنحتها، يركب بعضهم بعضاً حتى تبلغ قوائم العرش، يستغفرون له، ويصلون عليه، ويترحمون عليه لفرحهم بما يطلب، صلوات الله عليهم».

أبو أمامة الباهلي عنه عليه السلام قال: «يا أيها الناس عليكم بالعلم قبل أن يرفع وقبل أن يقبض، فالعالم والمتعلم كهذه وهذه» ـ وجمع بين أصبعيه الوسطى والتي تليهاـ «شريكان في الأجر».

وعنه عليه السلام قال: «مَنْ خرج من بيته يريد مسجدي هذا لا يريد إلاّ ليتعلم خيراً أو يعلمه كان كمنزلة المجاهد في سبيل الله».

قال: وسمعنا عنه عليه السلام أنه كان يقول: «إن الموت إذا جاء طالب العلم على هذه الحالة مات شهيداً».

وعنه عليه السلام قال: «إذا جلس العالم على فراشه فنظر في علمه ساعة كان أفضل من عبادة المؤمن عاماً».

وعنه عليه السلام قال: «كونوا علماء صالحين، فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علماً يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى».

وعن معاذ بن جبل أنه قال في التعلم والتعليم: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح والبحث عليه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على [الدين والمصبر على][1] السراء والضرّاء، والوزير عند الأخلاَّء، والقريب عند الغرباء[2]، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله تعالى به

(١) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (١/ ١٢).
(٢) في الأصل: «النساء» والتصويب من المصدر السابق.

[٦١/ب] أقواماً فيجعلهم في الخير / قادة [سادة][١] هداة يقتدى بهم، أدلة في الخير تقتفى[٢] آثارهم، وترمق أعمالهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس يستغفرون لهم، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها؛ لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلمات[٣] وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار، ومجالس الملوك، والدرجات العُلى في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته تعدل[٤] بالقيام، به يطاع الله عز وجل، وبه يعبد، وبه يوحد، وبه يعمل له[٥]، وبه يحمد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام ويعرف الحلال والحرام وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه الله تعالى السعداء ويحرمه الأشقياء[٦].

الفصل الثاني: في التعليم

أما الآيات: قال الله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[٧] والمراد بذلك هو التعليم والإرشاد.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾[٨] في هذه الآية إيجاب التعليم.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٩] وهو تحريم الكتمان.

كما قال تعالى في الشهادة: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[١١].

---

(١) في الأصل: «النساء» والتصويب من المصدر السابق.
(٢) في الإحياء: «تقتص» «أفعالهم».
(٣) في الإحياء: الظُلم.
(٤) هذه العبارة ليست في الإحياء، وكذا قوله: في الدنيا والآخرة.
(٥) لم ترد هذه الكلمة في الإحياء.
(٦) الأثر في إحياء علوم الدين (١/١٢، ١٣) مرفوع، وقال العراقي بهامشه: رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب، وابن عبد البر، وقال: ليس له إسناد قوي.
(٧) سورة التوبة الآية: ١٢٢.
(٨) سورة آل عمران الآية: ١٨٧.
(٩) سورة البقرة الآية: ١٤٦.
(١٠) سورة البقرة الآية: ٢٨٣.
(١١) سورة فصلت الآية: ٣٣.

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[١] الآية.

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾[٢] الآية.

وأما الأحاديث: فروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما آتى الله سبحانه عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذه من النبيين أن يبينه للناس ولا يكتمه»[٣].

وعنه عليه السلام لما بعث معاذ رضي الله تعالى عنه إلى اليمن قال: «لأن يهدي الله سبحانه بك رجلاً، / واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»[٤]. [٦٢/أ]

وقال عليه السلام فيما حكي عنه: «من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطي ثواب سبعين صديقاً»[٥].

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: من علم وعمل وعلّم[٦] فذلك الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماوات والأرض.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «إذا كان يوم القيامة، يقول الله عز وجل للعابدين والمجاهدين: ادخلوا الجنة، فيقول العلماء: بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا، فيقول الله عز وجل: أنتم عندي كبعض ملائكتي اشفعوا تشفعوا، وفيشفعون[٧] ثم يدخلون الجنة». وهذا إنما يكون للعالم المتصدي للتعليم لا اللازم الذي لا يتصدى[٨].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس بعد أن يؤتيهم إياه، ولكن يُقبض العلم بقبض العلماء، وكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم، حتى إذا لم

---

(١) سورة الجمعة الآية: ٢.

(٢) سورة النحل الآية: ١٢٥.

(٣) قال العراقي في حمل الأسفار (١/ ١٠): رواه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه، وفي الخلعيات نحوه من حديث أبي هريرة.

(٤) المصدر السابق (١/ ١٠، ١١) وقال: رواه أحمد من حديث معاذ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلي.

(٥) المصدر السابق وقال: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٦) في الأصل: «أو». والتصويب من إحياء علوم الدين (١/ ١١).

(٧) في الأصل: «اشفعوا فيشفعوا ويشفعون». والتصويب من إحياء علوم الدين (١/ ١١)، وقال العراقي في المغني بهامشه: رواه أبو العباس الذهبي في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(٨) في الإحياء: بالعلم المتعدّي بالتعليم لا العلم اللازم الذي لا يتعدى به.

يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً، إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون»[١].

وعنه عليه السلام قال: «من كتم علماً علمه الله إياه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[٢].

وعنه عليه السلام: «نعم العطية، ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتنطوي عليها، ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها، تعدل عبادة سنة»[٣].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير»[٤].

وعنه عليه السلام قال: «ما أفاد المسلم أخاه فائدة أحسن[٥] من حديث حسن بلغه فبلغه إياه».

وعنه عليه السلام قال: «كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها خير له من عبادة سنة»[٦].

وروي أنه عليه السلام خرج ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما: يدعون الله عز وجل / ويرغبون إليه، والثاني: يعلمون الناس، فقال: أما هؤلاء فيسألون الله تعالى، فإن شاء [٦٣/ب] أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلماً». ثم عدل إليهم فجلس معهم[٧].

وعنه عليه السلام أنه قال: «مثل ما بلغني بل بعثني الله عز وجل به من العلم والهدى،

---

(١) قال العراقي في المغني (١/١١): متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) قال العراقي في الموضع والمصدر السابق: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة، قال الترمذي حديث حسن.

(٣) المصدر السابق وقال: الحديث رواه الطبراني من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف.

(٤) المصدر السابق وقال: رواه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: غريب وفي نسخة حسن.

(٥) في الإحياء، والمغني: «أفضل»، وقال العراقي في المصدر السابق: الحديث ـ ذكره ـ ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلاً نحوه، ولأبي نعيم من حديث عبد الله بن عمرو: «ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردي».

(٦) قال العراقي في المغني (١/١١): رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسلاً نحوه، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: «كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة».

(٧) وقال العراقي في المصدر والموضع السابق: رواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف.

كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله سبحانه به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة قيعاناً لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً»[١].

فالأول: ذكره. مثلاً، للمنتفع بعلمه. والثاني: للنافع، والثالث: للمحروم منه.

وعنه عليه السلام قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: علم ينتفع به....»[٢] الحديث.

وعنه عليه السلام قال: «الدال على الخير كفاعله»[٣].

وقال ﷺ: «على خلفائي رحمة الله» قيل: ومن خلفاؤك؟ قال: «الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله»[٤].

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا تمنعوا العلم أهله؛ فإن في ذلك فساد دينكم، والتباس بصائركم، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ......﴾[٥] الآية».

وعنه عليه السلام قال: «إذا ظهرت البدع في أمتي فعلى العالم أن ينشر علمه، فإن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

النطـــق ينهـــض بـــالفتـــى ... مـــا لـــم يكـــن عـــيّ يشينـــه
والعلـــم أجمـــل بـــالفتـــى ... مـــن كـــل منفعـــة تـــزينـــه

وأما الآثار: فروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: من حدَّث بحديث فعمل به فله مثل أجر ذلك العمل[٦].

---

(١) وقال في المصدر السابق (١/ ١٢): متفق عليه من حديث أبي موسى.
(٢) وقال فيه أيضاً: رواه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٣) وفيه أيضاً: رواه الترمذي من حديث أنس وقال غريب، ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وصححه عن أبي مسعود البدري بلفظ من دل على خير فله مثل أجر فاعله.
(٤) وفيه أيضاً: رواه ابن عبد البر في العلم، والهروي في ذم الكلام من حديث الحسن، فقيل: هو ابن علي، وقيل: ابن يسار البصري فيكون مرسلاً ولابن السني، وأبي نعيم في رياضة المتعلمين من حديث عليّ نحوه.
(٥) سورة البقرة الآية: ١٥٩.
(٦) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه: معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر[١].

[٦٤/أ] وقال بعض / العلماء: العالم يدخل بين الله تعالى وبين خلقه فلينظر كيف يدخل[٢].

وقال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي، فقلت له: ما أبكاك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء[٣]. وقال بعض السلف: العلماء سرج الأزمنة، كل واحد منهم مصباح زمانه، يستضيء به أهل عصره[٤].

وقال الحسن: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم، يعني يخرجون الناس بالتعليم من حد البهيمة إلى حد الإنسانية[٥].

وقال بعض مشايخنا رحمهم الله: مَنْ مشى إلى العالم، فإنه يوزن له سبعة أميال من ستة جهات، فإن مات في ذلك مات شهيداً. قال: والنفقة في طلب العلم أفضل من النفقة في الجهاد. وقال: والنظر في الكتاب عبادة. قال: وإن وقف له حرف فكان في ترديده فإنه في ذلك الوقت كالمتشحط بدمه في سبيل الله، ونفسه في ذلك الوقت تسبيح، وتقليبه الورقات كالمتقلب من نزعة إلى نزعة في سبيل الله.

وحكي عن عكرمة قال: إن لهذا العلم ثمناً. قيل: وما هو؟ قال: أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه.

وعن يحيى بن معاذ قال: العلماء أرحم بأمة محمد عليه السلام من آبائهم وأمهاتهم. قيل: كيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة[٦]. وبالله التوفيق.

فصـــل

وينبغي للإنسان بل يجب عليه فرضاً أن يتعلم دينه؛ لأن بمعرفة دينه والعمل به يستوجب

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٢).
(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٢).
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٢).
(٤) راجع المصدر السابق.
(٥) راجع المصدر السابق.
(٦) راجع المصدر السابق.

الرضوان من ربه ويجهله يستوجب النيران من خالقه، إذ لا تصح عبادة وفاعلها يجهل صفة أدائها ولم يعلم شروط أجزائها، ولذلك قال عليه السلام: «عمل قليل في علم خير من عمل كثير في جهل».

ويقال: ركعتان من عالم أفضل من / عبادة الجاهل سنة، ومسألة من العالم خير من عبادة الجاهل سنة. [٦٥/ب]

وذكر عن أبي محمد خصيب بن إبراهيم رحمه الله أنه اجتاز على معلم في بلد تنومات، وهو يريد التعلم عند أبي الربيع سليمان اللالوتي رحمه الله فقال له المعلم: أين تريد؟ فأخبره فقال له: جيد يا بني جيد، الدنيا كلها ظلمة إلا العلم والعالم، فيها ركعتان من عالم خير من عبادة الجاهل ستين سنة، وعبادة الجاهل كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح.

وقال بعض مشايخنا رحمهم الله: من لم تكن فيه خصلة من خصال ثلاث فحياته كسائر الناس، والبهائم: توطين النفس على الحج، كفعل جابر بن زيد رحمه الله، واظب عليه حتى حج أربعين حجة.

وتوطين النفس على الشرى في سبيل الله كفعل أبي بلال مرداس بن جدير رحمه الله.

والثالث: توطين النفس على طلب العلم وإفادته كفعل أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة رحمه الله مكث في التعليم أربعين سنة ثم مكث بعد ذلك في تعليمه أربعين سنة أخرى.

وروي عن أبي يوسف مجدول التنزغتي أنه مكث في التعلم بعدما ولد خليل ابنه ثمان عشرة سنة، ويقال: أنه فقد في طلب العلم اثنتين وثلاثين سنة، خمس عشرة سنة عند أبي محمد الكباوي وسبع عشرة سنة عند أبي محمد الدرفي.

وأن أبا زكريا الجناوي رحمه الله: مكث في التعلم اثنتين وثلاثين سنة، والله أعلم.

وقال بعض الحكماء: الناس ثلاثة: قدوة، ومقتد، والثالث لا يفلح.

وقال الأزدي: الناس ثلاثة عالم مرتفع، ومتعلم منتفع وما سواهما متقع.

وعن علي عن النبي عليه السلام قال: «ما انتعل عبد قط ولا تخفف، ولا لبس ثوباً ليغدو في طلب العلم إلا قد غفر له حيث يخطو عتبة باب بيته».

ويقال: اطلبوا العلم فإن نعمة الجاهل كروضة على مزبلة.

وقال / بعض العلماء: كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد فيها قبحاً. [٦٦/ب]

وقال: اطلبوا العلوم[١] من مظانها، أي من مواضعها التي يظن بها.

ويقال: أول العلم الصمت ثم الاستمتاع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره[٢].

وقال: علّم علمك من يجهله، وتعلّم ممن يعلم، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت[٣].

وقال عطاء: مجلس الذكر يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه.

وقال بعض العلماء: طلب العلم أفضل من النافلة.

وقال أبو الدرداء: من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها، ويعلمها [الناس][٤] ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق»[٥].

وأما الدليل على فضيلة التعلم والتعليم من شواهد العقل، ومن كتاب الغزالي: فإنه لما كان العلم أفضل الأشياء كان تعلمه طلباً للأفضل، وكان تعليمه للغير إفادة الأفضل لغيره.

وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام في الدين إلا بنظام الدنيا، لأن الدنيا مزرعة للآخرة، وهي المطية والآلة الموصلة إلى الله تعالى لمن اتخذها آلة ومطية، ومنزلاً لمن اتخذها مستقراً ووطناً وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام:

أحدها: أصول لا قوام للخلق إلا بها وهي أربعة:

أحدها: الزراعة للمطعم.

والثاني: الحياكة وهي للملبس.

---

(١) في الأصل: العلم. فاستبدلت الكلمة بما يناسب السياق.

(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/١٢).

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/١٢).

(٤) ما بين المعقوفين من المصدر السابق.

(٥) قال العراقي في المغني (١/١٢): الحديث متفق عليه من ابن مسعود.

والثالث: البناء وهو للمسكن.

الرابع: السياسة وهي / للتآلف والاجتماع والتعاون. [٦٧/أ]

الثاني: ما هي مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كـ:

الحدادة تخدم الزراعة، وجملة من الصناعة، وكالحلاجة، والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها.

الثالث: ما هي متممة للأصول ومزينة كـ:

الطحانة والخبز للزراعة، وكالقصارة، وكالخياطة للحياكة.

وذلك بالإضافة إلى قوام الحيوان الأرضي مثل أجزاء الشخص بالإضافة إليه فإنها ثلاثة:

إما أصول: كالقلب والكبد والدماغ.

وإما خادمة له: كالمعدة والعروق والشريانات والأعصاب.

وإما مكملة لها ومزينة: كالأظفار والأصابع والحاجبين.

وأشرف هذه الصناعات أصولها، السياسة بالتأليف والاستصلاح، ولذلك يستخدم لا محالة صاحب صناعة السياسة سائر الصنّاع.

والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والآخرة تنقسم على أربعة مراتب:

الأولى: وهي العليا سياسة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وحكمهم على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم.

الثانية: سياسة الخلفاء والملوك والسلاطين على الخاصة والعامة جميعاً ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم.

الثالثة: سياسة العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء وحكمهم على باطن الخاصة فقط ولا يرتفع فهم العامة إلى الاستفادة منهم ولا تنتهي قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالإلزام والمنع.

الرابع: سياسة الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط.

وأشرف هذه السياسات الأربع بعد سياسة النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن

[٦٨/ب] الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى / الأخلاق المحمودة السعيدة المنجية وهو المراد بالعلم. قال: وإنما قلنا إن هذا شرف من سائر الصناعات، لأن شرف الصناعات يدرك بثلاثة أمور. إما بالإلتفات إلى غريزة العقل التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية. إذ تدرك الحكمة بالعقل، واللغة بالسمع والعقل أشرف من السمع.

وأما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة، وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة، إذ محل أحدها الذهب ومحل الآخر الميتة.

وليس يخفى أن العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما يدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء، والعقل أشرف صفات الإنسان؛ إذْ به قَبِل العبد أمانة الله عز وجل، وبه يصل إلى جوار الله سبحانه وأما عموم النفع فلا يستراب فيه، إذ ثمرة منفعته سعادة الآخرة.

وأما شرف المحل فكيف يخفى، والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنسان وأشرف جزء من شخص الإنسان قلبه، والمعلم مشتغل بتكميله وتحليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من جوار الله سبحانه فتعليم العلم من وجه عبادة الله تعالى، ومن وجه خلافة لله عز وجل وهو أجل خلائفه؛ لأن الله سبحانه قد فتح على قلب العالم خزانة العلم الذي هو أخص صفاته فهو كالخازن لأنفس خزائنه ثم هو مأذون في الإنفاق على كل محتاج إليه[١].

فأي رتبة أجلُّ من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين كل خلقه في تقريبهم إلى الله عز وجل وسياقتهم إلى جنة المأوىٰ. وبالله التوفيق.

الباب الثالث
في فرض العين

[٦٩/ب] اعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والإحاطة بجميعها محال / ولذلك قال النبي عليه السلام: «من ظن أن العلم غاية بخسه حظه ووضعه في غير منزلته التي وصفه الله تعالى بها حيث يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢]».

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/١٣، ١٤) بتصرف يسير.
(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ إلى قوله: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ﴾[١].

وقال بعض الحكماء: ولو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالنقيصة، ولكننا نطلبه لننقص كل يوم من الجهل ونزداد كل يوم من العلم.

وقال بعض البلغاء: المتغمق في العلم، كالسابح في البحر ليس يرى أرضاً ولا يعرف طولاً ولا عرضاً، وينشد:

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي ... والناس ما بين معموم ومخصوص

لا شيء في هذه الدنيا تحيط به ... إلا إحاطة منقوص بمنقوص

فإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها والعناية بأولاها، وأفضلها وأولى العلوم وأوجبها على الإنسان علم دينه؛ لأن الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون لقوله عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل محتلم».

وفي حديث آخر: «على كل مسلم».

وقوله: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

وفي كتاب الغزالي قال: اختلف الناس في العلم الذي هو فريضة على كل مسلم وتحزبوا فيه أكثر من عشرين فرقة.

قال: ولا نطول فيه بذكر التفصيل ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده[٢]. فقال المتكلمون: هو علم الكلام؛ إذ به يدرك التوحيد وتُعلم ذات الله وصفاته.

وقال الفقهاء: هو علم الفقه؛ إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام، وما يحرم من المعاملات وما يحل، وعُنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة.

وقال المفسرون والمحدثون: هو علم القرآن، والسنة؛ إذ بهما / يتوصل إلى العلوم [٧٠/أ] كلها.

---

(١) سورة لقمان الآية: ٢٧.

(٢) في الأصل: بصددها. والتصويب من الإحياء.

وقال بعض المتصوفة: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل.

وقال بعضهم: هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان.

وقال بعضهم: هو علم الباطن وذلك على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه.

وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام[(١)].

وهو قوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس»[(٢)].

لأن الواجب هذه الخمس، فيجب العلم بكيفية العمل فيها وكيفية الوجوب والحق في هذا أن العلم المفروض على الإنسان الذي هو القطب وعليه المدار وهو في الجملة ينقسم إلى ثلاثة أقسام: اعتقاد وفعل وترك.

أما علم الاعتقاد: وهو علم التوحيد، وجميع ما لا يسع جهله كل عاقل عند حال بلوغه بالاحتلام أو بالسنين، ومعرفة فرائض القلب من الإخلاص والنية والتوبة والخوف والرجاء والتوكل والتفويض والرضا والصبر، وما يسلم به العمل على ما سيأتي إن شاء الله.

ومعرفة الشرك وما ينفي به عن الله تعالى ما لا يليق من صفات خلقه، إذ أورد ذلك على قلبه أو سئل عنه.

وكذلك يجب عليه معرفة دواعي الشر من الرياء والحسد والعجب والكبر وغير ذلك من مذموم أحوال القلب فإزالتها فرض عين ولا يمكن ذلك إلا بمعرفة حدودها وأسبابها، ومعرفة علاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه.

وأما الفعل: فنعني به فعل الفرائض البدنية: كالطهارة والصلاة والصوم، والفرائض المالية: من الزكاة، والكفارات والنفقات وغيرها، وما لا يمكن فعله منها إلا بالبدن والمال كالحج والجهاد فهذه الفرائض إذا تعين فعلها / على العبد بدخول أوقاتها والتمكن لأدائها [٧١/ب] وجب عليه معرفة كيفية الإتيان بها.

مثل أن يعيش من ضحوة النهار إلى دخول وقت الظهر فيتجدد عليه معرفة الطهارة والصلاة.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٤، ١٥).

(٢) قال العراقي في المغني (١/ ١٥): متفق عليه من حديث عمر.

وهكذا بقية الصلوات، فإن عاش إلى رمضان تجدد بدخول وقته تعلم الصوم وهو أن يعلم أنّ وقته من الصبح إلى غروب الشمس، وأنّ الواجب فيه النية والإمساك عن جميع ما ينقض الصوم واستكمال طرفي المفترض عنه، وهو أن يصام لرؤية الشهر ويفطر لرؤيته.

فإن كان له مال عند بلوغه أو دخل في ملكه ما تجب فيه الزكاة لزمه معرفة ما يجب عليه عند تمام الحول وأدائه إلى أهله.

وكذلك الحج إذا وجب عليه بشروطه، لكن لا تجب عليه المبادرة عند دخول أشهر الحج؛ لأنه على التراخي في قول بعضهم فلا يكون علمه على الفور.

ولكن ينبغي للعلماء أن ينبهوه على أن الحج فرض على من ملك الزاد والراحلة وحصلت له الاستطاعة بالكمال.

وأنه على التراخي في قول بعضهم حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة.

فعند ذلك إذا عزم عليه، لزمه تعلم كيفية الحج، وأركانه، وواجباته دون نوافله، فإن تعلم ذلك، وتعلم النفل [فعلمه أيضاً][١] نفل[٢].

وكذلك الجهاد إذا تعين عليه وذلك بأن يكون إماماً ومنظوراً إليه، لا يقوم فرض الجهاد إلاّ به، وهكذا بالتدريج في تعلم سائر الأفعال التي هي فرض عين.

وأما الترك: فنعني به ترك المعاصي بجميعها ظاهراً أو باطناً فيجب عليه تركها، ولا تضيق عليه معرفتها، أما خلا الشرك فإنه مضيّق عليه علمه ولا يسعه جهله. وأما غير الشرك من جميع الحرام فإنه يسعه جهله ما لم يرتكبه أو يتولى من ركبه، أو يتبرأ ممن تبرأ منه أو وقف فيه.

وهذا معنى قول أصحابنا رحمهم الله: العلوم ثلاثة:

علم لا يسع جهله طرفة عين: كالتوحيد والشرك.

وعلم يسع جهله إلى الورود: مثل صفة من / صفات الله تعالى إذا وردت عليه أو نبيّ [٧٢/أ] أو ملك قامت به الحجة عليه.

ومثل الفرائض الموسومات الأوقات: كالصلاة والصوم وما قدمنا ذكره.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من الإحياء لاستقامة وتوضيح السياق.

(٢) راجع الإحياء (١/١٥) وهو بتصرف كبير.

والثالث: علم ما يسع جهله أبداً: كقسمة المواريث ودقائق الربا وأرش الجراحات، وما أشبه ذلك. يسع جهل ذلك ما لم يبتلى بالعمل ويتقول على الله فيه الكذب. وبالله التوفيق.

وأما إذا أتى بالتوحيد فمات قبل أن يجب عليه فرض أو يرتكب محرماً أو يعتقد بدعة فقد مات على الإسلام إجماعاً فتبين بما قلنا أن: قوله عليه السلام: «اطلبوا العلم. . .».

أن المراد به العلم بالله والإيمان به وملائكته، وكتبه ورسله والحشر والجنة والنار في سائر ذلك من وظائف التوحيد والعلم بالعبادات والفرائض حتى تؤديه بالكمال، والعلم بالمعاصي حتى لا تمتثل؛ لأن الإنسان في مجاري أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عبادته ومعاملاته.

فيلزمه السؤال عن كل ما يقع من النوازل، والمبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً. فإذن إنما أراد بالعلم المعرف بالألف واللام في قوله عليه السلام: «طلب العلم فريضة. . . . .».

أنه علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المكلف لا غير، وقد اتضح وقت التدريج في وقت وجوبه. وبالله التوفيق.

فصـــل

اعلم أن العلم والعمل جوهران لأجلهما كان جميع ما ترى وما تسمع من تصنيف المصنفين، وتعليم المعلمين.

بل لأجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل، بل لأجلهما خلقت الدنيا والآخرة. قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[1]. فكفى بهذه الآية دليلاً على أشرف العلم لا سيما علم التوحيد.

وقال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ﴾[2]. فكفى بهذه الآية [٧٣/ب] / دليلاً على شرف العبادة ولزومها.

فَاعْظِمْ بأمرين هما المقصود من خلق الدارين فحق على العبد ألا يشتغل إلا بهما ولا يتعب إلا لهما ولا ينظر إلا فيهما واعلم أن ما سواهما من الأمور باطل لا خير فيه ولغو لا

---

(١) سورة الطلاق الآية: ١٢.

(٢) سورة الذاريات الآية: ٥٦.

حاصل له، فإذا علمت ذلك فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما ولذلك قال عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي».

وعنه عليه السلام قال: «ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هم علماء أمتي».

وعنه عليه السلام قال: «نظرة إلى العالم أحب إليَّ من عبادة سنة صيامها وقيامها».

وروى هذا الحديث الغزالي في كتابه: وقد ذكرنا في فضل العلم ما فيه كفاية، فبان لك أن العلم أشرف جوهراً من العبادة، ولكن لا بد للعبد من العبادة، وإلاّ كان عمله هباء منثوراً؛ فإن العلم بمنزلة الشجرة، والعبادة ثمرة من ثمارها والشرف للشجرة إذ هي الأصل، لكن الانتفاع إنما يكون بالثمرة فإذن فلا بد للعبد من كلا الأمرين يكون له منهما حظ ونصيب.

كما قيل عن الحسن البصري أنه قال: اطلبوا هذا العلم طلباً ولا تضروا بالعبادة، واطلبوا هذه العبادة طلباً لا تضروا بالعلم.

ولما استقر أنه لا بد للعبد منهما جميعاً فالعلم أولى بالتقديم لا محالة؛ لأنه الأصل والدليل ولذلك قال عليه السلام: «العلم إمام العمل، والعمل تابعه».

وإنما صار العلم أصلاً متبوعاً فيلزمك تقديمه على العبادة لأمرين:

أحدهما لتحصل لك العبادة وتسلم، فإنه أحق من يجب أن تعرفه أولاً المعبود عز وجل ثم تعبده فكيف تعبد من لا تعرفه باسمه وصفات ذاته، وما يجب له وما يستحيل عليه في صفاته عز وجل؛ لأنه ربما تعتقد فيه شيئاً مما خالف الحق فتكون عبادتك هباءً منثوراً، ثم يجب عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات الشرعية لتفعل ذلك على ما أمرت به وتعلم ما يلزمك تركه من المناهي / لئلا تقع في شيء من ذلك وأنت جاهل بتحريمه فتكون غير [٧٤/أ] معذور؛ لأنه كيف تقوم بطاعات لا تعرف ما هي؟ وكيف هي؟ وكيف يجب أن تفعل؟ وكيف تتجنب المعاصي وأنت لا تعلم أنها معاصي حتى لا توقع نفسك فيها؟ ولذلك قال عليه السلام: «عمل قليل في علم خير من عمل كثير في جهل».

فاعلم أن بناء أمر العبادة كلها على العلم، ولا سيما علم التوحيد والعبادة الباطنة.

وفي الخبر: أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام فقال: يا داود تعلم العلم النافع.

فقال: إلٓهي وما العلم النافع؟ قال: أن تعرف جلالي وعظمتي وكبريائي وكمال قدرتي على كل شيء؛ فإن هذا هو الذي يقربك إليَّ.

واعلم أن الخطر العظيم فيمن طلب العلم ليصرف به وجوه الناس إليه، ويجالس به الأمراء، أو يباهي به النظراء ويتصيد به الحطام، فمن كان كذلك فتجارته بائرة وصفقته خاسرة.

وقال بعض السلف: عملت بالمجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشد من العلم وخطره.

وإياك أن يزين لك الشيطان فتقول: إذا كان العلم بهذه الحالة من الشدة والخطر فتركه أولى وإياك أن تظن ذلك.

فقد ذكر الغزالي في كتابه عن النبي عليه السلام قال: «اطلعت ليلة المعراج عن النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء». قالوا: يا رسول الله من المال؟ قال: «لا، بل من العلم».

فمن لم يتعلم العلم لا يتأتى له أحكام العبادة والقيام بحقوقها، ولو أن رجلاً عَبَدَ الله تعالى بعبادة الملائكة بغير علم لكان من الخاسرين.

هكذا ذكرت العلماء وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً.....﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ﴾[3] الآية.

[٧٥/ب] فشمّر أيها المسترشد ـ أيّدك الله ـ في طلب العلم / بالبحث والجد، والاجتهاد، واجتنب الكسل، والملال، والإقامة على خطر الضلال، ووفقنا الله سبحانه وإياك للعلم النافع والعمل به. وبالله التوفيق.

الباب الرابع
في العلم الذي هو فرض كفاية

ذكر الغزالي في كتابه فقال: اعلم أن الفرض لا يتميز من غيره إلا بذكر أقسام العلم، ثم

---

(١) سورة الكهف الآية: ١٠٤.
(٢) سورة الزمر الآية: ٤٧.
(٣) سورة المجادلة الآية: ١٨.

قال: والعلوم بالإضافة إلى الفرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى: شرعية، وغير شرعية.

قال: وأعني بالشرعية: ما يستفاد من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ولا يرشد العقل إليه، وذلك مثل الحساب ولا ترشد التجربة إليه: مثل الطلب، ولا السماع مثل: اللغة.

قال: والعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى: ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح.

فالمحمود: ما يرتبط به مصالح الدنيا كالطب والحساب. قال: وذلك ينقسم إلى: ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

قال: وأما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في أمر قوام الدنيا، كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الإنسان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها، فهذه هي العلوم التي لو خلا بها البلد عن من يقوم بها خرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين.

قال: ولا تتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفاية.

قال: فإن أصول الصناعات من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فإنه لو خلا البلد عن الحجام لسارع الهلاك إليهم وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعدّ الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله.

قال: وأما ما يعد فضيلة لا فريضة، فالتعميق في دقائق الحساب ودقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه / ولكنه يفيد زيادة قوة[1] في القدر المحتاج إليه. [٧٦/أ]

قال: فأما المذمومة: فعلم السحر والطلسمات، وعلم الشعوذة، والتلبيسات.

قال: وأما المباح منه: فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه.

وقال: وأما العلوم الشرعية: وهي المقصودة بالبيان فهي محمودة كلها.

قال: ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية، وتكون مذمومة، وتنقسم إلى:

---

(١) في الأصل: «قبره» والتصويب من الإحياء.

المحمودة، والمذمومة. قال: فأما المحمودة: فلها أصول، وفروع، ومقدمات، ومتممات فهي أربعة أضرب:

الضرب الأول: الأصول وهي أربعة: كتاب الله، وسنة نبيه، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة رضي الله عنهم، فالإجماع أصل من حيث أنه يدل على السنة، وهو أصل في الدرجة الثانية، وكذلك الأثر: فإنه يدل أيضاً على السنة؛ لأن الصحابة قد شاهدوا الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم، وذلك بشرط موجود على وجه مخصوص.

الضرب الثاني: الفروع وهو ما فهم من هذه الأصول، لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبهت لها العقول فاتّسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره، كما فهم من قوله عليه السلام: «لا يقضي القاضي وهو غضبان»[1]. إنه لا يقضي إذا كان حاقناً أو جائعاً أو متألماً بمرض، وهذا على ضربين:

أحدهما: أن يتعلق بمصالح الدنيا، ويحويه فن الفقه، والمتكفل به الفقهاء، وهم من علماء الدنيا.

والثاني: ما يتعلق بالآخرة: وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المذمومة والمحمودة، وما هو مَرْضِيٌّ عند الله وما هو مكروه، وكنحو العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها.

الضرب الثالث المقدمات: وهو الذي يجري مجرى الآلات، كعلم اللغة والنحو فإنهما آلة لعلم كتاب الله سبحانه وسنة نبيه عليه السلام، وليس اللغة والنحو من العلوم الشرعية ولكن لزم الخوض فيهما بسبب الشرع؛ إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب، وكل شريعة فلا تظهر إلاّ بلغة، فيصير تعلم تلك اللغة آلة.

ومن الآلات: علم الكتابة والخط، إلاّ أن ذلك ليس ضرورياً، إذ كان النبي أُمّيًا، ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغني عن الكتابة، ولكنه صار بحكم العجز في الغالب ضرورياً.

الضرب الرابع المتممات: وذلك في علم القرآن تنقسم إلى ما يتعلق باللفظ، كعلم

---

(١) قال العراقي في المغني (١/١٧): متفق عليه من حديث أبي بكرة.

القراءات، ومخارج الحروف، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير، فإن اعتماده أيضاً على النقل إذ اللغة بمجردها لا تستقل به، وإلى ما يتعلق بأحكامه: كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والباطن والظاهر في أمثال ذلك، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً.

وأما المتممات في الآثار والأخبار: فالعلم بالرجال وأسمائهم ولا سيما في الصحابة وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواة والعلم بأحوالهم لتميز الضعيف عن القوي، والعلم بأعمالهم لتميز المرسل من المسند، وكذلك ما يتعلق به.

قال: فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفاية.

قال: فإن قلت فلم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا؟ فاعلم أن الله تعالى أخرج آدم من التراب، وأخرج ذريته من سلالة من دافق فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام، ومنها إلى الدنيا، ثم إلى القبر، ثم إلى العرض، ثم إلى الجنة والنار. فهذا مبدأهم، وهذه غايتهم، وهذه منازلهم، وخلق الدنيا زاداً للميعاد ليتناول منها / ما يصلح للتزود فلو [٧٨/ب] تناولها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم يتناولونها بالشهوات فتولدت منها الخصومات، فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به.

فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذ تنازعوا بحكم الشهرات، فكان الفقيه معلم السلطان، ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم؛ لتنتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا.

ولعمري هو متعلق أيضاً بالدين، ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا؛ فإن الدنيا مزرعة للآخرة، ولا يتم الدين إلاّ بالدنيا، والمُلك والدين توأمان، فالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع، ولا يتم الملك والضبط إلاّ بالسلطان.

وطريق الضبط في فصل الخصومات الفقه، فكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى، بل هو معين على ما لا يتم الدين إلاّ به فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم أن الحج لا يتم إلا بمذرقة[1] تحرس من العرب في الطريق. ولكن الحج شيء، وسلوك الطريق إلى الحج شيء، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث، ومعرفة طريق الحراسة وحمايتها وقوانينها شيء رابع.

---

(١) في الإحياء: بيذرقة.

وحاصل فن الفقه: معرفة طريق السياسة، والحراسة، ويدل على ذلك ما روي مسنداً: «لا يفتي للناس إلاّ ثلاثة: أمير، ومأمور، ومتكلف»[١].

فالأمير هو الإمام، وكانوا هم المفتون، والمأمور نائبه، والمكلف غيرهما، وهو الذي يتقلد تلك العهدة من غير حاجة، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحترزون عنه[٢] حتى كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه.

[٨٩/أ] وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة / ولقد قبض رسول الله ﷺ عن الألف من الصحابة، ولم ينصب نفسه للفتوى منهم إلاّ بضعة عشر رجلاً، وكان ابن عمر منهم، وكان إذا سئل عن الفتوى يقول: اذهب إلى هذا الأمير الذي تقلد أمور الناس ووضعها في عنقه. إشارة إلى أن الفتوى في القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة.

وفي بعض الروايات بدل المتكلف «المرائي»؛ فإن من يتقلد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طالب الجاه والمال.

فإن قلت: هذا إن استقام لك في الأحكام، والحدود، والجراحات والغرامات، فلا يستقيم لك في العبادات من الصلاة والصوم والزكاة وغير ذلك من الحلال والحرام.

فاعلم أن أقرب ما يتكلم فيه الفقيه من أعمال الآخرة ثلاثة: الإسلام، والصلاة، والحلال والحرام.

وإذا تأملت منتهى نظر الفقيه، علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة فإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر.

أما الإسلام: نيتكلم الفقيه فيما يصح منه وما يفسد وفي شروطه، وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان، أما القلب فخارج عن ولاية الفقيه، لعزل رسول الله ﷺ أرباب السيوف والسلطنة عنها حيث قال: «هلاّ شققت عن قلبه»[٣]. للذي قتل من تكلم بكلمة الإسلام. معتذراً بأنه قال ذلك من خوف السيف. بل الفقيه يحكم بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته، ولم يرفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة، ولكنه ميسر على

---

(١) قال العراقي في المغني (١٨/١): رواه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ لا يقص على الناس، وإسناده حسن.

(٢) في إحياء علوم الدين (١٨/١): يحترزون عن الفتوى.

(٣) قال العراقي في المغني (١٩/١): رواه مسلم من حديث أسامة بن زيد.

صاحب السيف؛ فإن السيف ممتد إلى رقبته، واليد ممتدة إلى ماله، وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله ما دامت له رقبة ومال وذلك في الدنيا، ولذلك قال عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»(١).

جعل أثر ذلك من الدم والمال، وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأقوال بل أنوار / القلوب [٨٠/ب] وأسرارها وأخلاقها، وليس ذلك في فن الفقه، وإن خاض الفقيه فيه كان خائضاً في غير فنه، كما لو خاض في الكلام والطب كان خارجاً عن فنه.

وأما الصلاة: فالفقيه يفتي بالصحة، أي ما يفعله المصلي يحصل به إمتثال صيغة الأمر بالصلاة، وينقطع به عنه القتل والتعزير إذا أتى بصورة الأعمال مع الشروط الظاهرة وإن كان غافلاً في جميع صلاته إلاّ عند تكبيرة الإحرام وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة، كما أن القول باللسان لا ينفع ولكن الفقيه يفتي بالصحة.

وأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر فلا يتعرض له الفقيه، ولو تعرض له كان خارجاً عن فنه.

وأما الزكاة: فالفقيه ينظر إلى ما يقطع مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع فأخذها السلطان قهراً حُكِمَ بأنه برئت ذمته.

كما حكي أن أبا يوسف كان يهب ماله لزوجته في آخر الحول ويستوهب مالها لإسقاط الزكاة، فحكي ذلك لأبي حنيفة فقال: ذلك من فقهه، وصدق ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل خيانة، ومثل هذا العلم هو الضار.

أما الحلال والحرام: فالورع عن الحرام من الدين ولكن الورع له أربع مراتب:

الأولى الورع: الذي يشترط في عدالة الشهود، وهو الذي يخرج بعدمه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر البيِّن.

الثانية ورع الصالحين: وهو التوقيّ في الشبهات التي تتقابل فيها الإحتمالات قال عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»(٢). وقال: «الإثم حزاز القلوب»(٣).

---

(١) قال العراقي في المصدر السابق: الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة، وعمر، وابن عمر.

(٢) في العراقي في المصدر السابق: رواه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن حبان من حديث الحسن بن علي.

(٣) وقال في المصدر نفسه: رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود، ورواه العدني في مسند =

الثالثة ورع المتعين: وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أن يؤدي إلى الحرام، قال عليه السلام: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به؛ مخافة ما فيه من البأس»[١].

[٨١/أ] وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من أن يجر ذلك إلى / الغيبة، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر. وكالتورع عن النظر المؤدي إلى مقارفة المحظورات.

الرابعة ورع الصديقين: وهو الإعراض عما سوى الله عز وجل، خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله تعالى، وإن كان يعلم ويتحقق أن ذلك لا يفضي إلى حرام.

فهذه درجات الورع، وهي كلها خارجة عن نظر الفقيه إلاّ الدرجة الأولى، وهو ورع الشهود والقضاة، وما يقدح في العدالة، والقيام بذلك لا ينفي الإثم في الآخرة، وقال عليه السلام لوابصة: «استفت قلبك يا وابصة وإن أفتوك، وأفتوك، وأفتوك»[٢].

والفقيه لا يتكلم في حزازة القلوب، وكيفية العمل بها، بل فيما يقدح في العدالة فقط، فإذن جميع نظر مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة، فإن تكلم في الإثم، وصفات القلب، وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفل.

كما قد يدخل في كلامه شيئاً من الطب والحساب والنحو وعلم الكلام، وكما قد تدخل الحكمة في النحو والشعر.

قال: وكان سفيان الثوري وهو إمام في علم الظاهر يقول: إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة، وقد اتفقوا على أن الشرف في العلم ليعمل به، فكيف يظن أنه علم اللعان والظهار والسلم والإجارة والصرف؟

ومَنْ تعلم هذه الأمور ليتقرب بتعاطيها إلى الله تعالى فهو مجنون وإنما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات والشرف هو علم تلك الأعمال[٣].

ومع هذا فلا ينبغي أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم ـ أعني علم الفتاوي وعلم اللغة

= موقوفاً عليه.

(١) وقال فيه أيضاً: رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه، والحاكم وصححه من حديث عطية السعدي.

(٢) قال العراقي في المغني (١/ ٢٠): رواه أحمد من حديث وابصة.

(٣) راجع كل ما سبق من أول الباب في كتاب إحياء علوم الدين (١/ ١٧، ٢٠) بتصرف يسير.

والنحو المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما تقدم ذكره من أنواع العلوم التي هي فرض كفاية ـ ولا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجيناً لهذه العلوم.

/ فالمتكلفون بالعلوم كالمتكلفين بالثغور والمرابطين بها، والغزاة مجاهدون في [٨٢/ب] سبيل الله فمنهم الردء المعاون، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعاهدهم، ولا ينفك واحد منهم عن الأجر إذ كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم، فكذلك العلماء، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[١].

وقال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٢]. ولا تظنن أن من نزل عن الرتبة القصوى فساقط القدر، بل الرتبة العليا الأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخون في العلم، ثم الصالحون على تفاوت درجاتهم، وبالجملة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾[٣].

إذا كان قصد بعلمه الله تبارك وتعالى، وأما من تجرد لعلم الخصومات والجدال وتفريعات الفتوى والنحو واللغة وتواريخ الأخبار من غير أن يمزج ذلك بشيء من العلوم الدينية فلا يزيد المتجرد لها مع الإعراض عن سواها إلا قسوة في القلب وغفلة عن الله سبحانه، ولا برهان على ذلك كالتجربة والمشاهدة فانظر واعتبر واستبصر تشاهد ذلك في البلاد والعباد وبالله التوفيق.

مسألة

وبالجملة إن كل فرض يتعلق فعله على الكفاية فتعلُّم ذلك الفرض متعلق على الكفاية إذا قام به البعض، سقط عن الباقين وإن تركه الجميع من الناس هلكوا، وذلك كعلم القضايا والأحكام وقسمة المواريث وقصاص الجراحات، وعلم آداء حقوق الموتى: من الغسل والكفن والصلاة عليهم ومواراتهم، وعلم الجهاد وتعلم القرآن ما خلا ما لا تجوز الصلاة إلا به وتعلم الرد على أهل البدع ونقل الشريعة. وبالله التوفيق.

الباب الخامس

في بيان حد الفقه والكلام في علم الدين وطريق الآخرة وحد الكلام والفلسفة

وهذا الباب يتوزع منه ثلاثة فصول:

(١) سورة المجادلة الآية: ١١.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٦٣.
(٣) سورة الزلزلة الآية: ٧.

[٨٣/أ] **الأول في حد الفقه:** وقد تقدم الكلام في أنه مرتبط بمصالح / الدنيا لسياسة الأخلاق، كما أن علم الطب موضوع لاعتدال صحة الجسد في الدنيا.

فإن قيل قد سويت بين الفقه والطب، إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا، وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين، فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق والفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه علم شرعي، أي هو مستفاد من النبوة، بخلاف الطب فليس هو من علم الشرع هكذا ذكر الغزالي في كتابه.

والثاني: لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق الآخرة البتة، لا الصحيح ولا المريض، وأما الطب فليس يحتاج إليه إلاّ المرضى وهم الأقلون.

والثالث: أن علم الفقه مجاور لعلم الآخرة؛ لأنه نظر في عمل الجوارح، ومصدر الأعمال ومنشأها صفات القلب؛ فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة، والمذموم يصدر من المذموم، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب، وأما الصحة والمرض فمنشأها صفاء المزاج والإخلاط وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب، فمهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه، وإذا أضيف علم الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم الآخرة[١]. وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: في علم الدين والطريق الآخرة

فاعلم أنه قد ذكر الغزالي في كتابه أنّ علم طريق الآخرة قسمان:

أحدهما علم معاملة: وهو علم بأحوال القلب وهو نوعان: محمود ومذموم.

فالمحمود منها: كالصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والتوبة، والرضا، والتوكل، والزهد، والتقوى، والقناعة، والسخاوة، ومعرفة المنَّة لله تعالى في جميع الأحوال، والخشوع، والإحسان، وحسن الظن، وحسن الخلق، وحسن المعاشرة، والصدق، والإخلاص، وما أشبه ذلك من محمود أحوال القلب وصفاته، ومعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي تكتسب ثمراتها وعلاماتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى وما زال يعود فذلك كله من علم الآخرة.

---

(١) راجع في كل ما سبق إحياء علوم الدين (١/ ٢٠). إلاّ كلام يسير للمؤلف.

/ وأما المذموم منها: فخوف الفقر، وسخط المقدور، والغل، والحقد، والحسد، [٨٤/ب] والغش، وطلب العلو، وحب الثناء، وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع، والكِبر، والرياء، والغضب، والأنفة، والعداوة، والبغضاء، والطمع، والبخل، والرغبة، والبذخ، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، والفخر، والخيلاء، والتنافس، والمباهات، والاستكبار عن الحق، والخوض فيما لا يعني، وحب كثرة الكلام، والصلف، والتزيين للخلق، والمداهنة، والعجب، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس، وزوال الحزن من القلب وخروج الخشية منه، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها ذل، وضعف الانتصار للحق، وإتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر، والأمن من مكر الله في سلب ما أُعطوا، والإتكال على الطاعة والمكر، والخيانة، والمخادعة، وطول الأمل، والقساوة، والفظاظة، والفرح بالدنيا، والأسف على فواتها، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم، والجفاء، والطيش والعجلة، وقلة الرحمة.

فهذه وأمثالها من صفات القلب: مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة وأضدادها وهي الأخلاق المحمودة منبع الطاعات والقربات فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها، وثمراتها، وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة المفروض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة، كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا ويحكم فتوى فقهاء الدنيا(١). وبالله التوفيق.

القسم الثاني: علم مكاشفة وهو علم الصديقين والمقربين وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عن تطهيره وتزكيته عن صفاته المذمومة فتنكشف / في ذلك النور أمور كان يسمع بها [٨٥/ب] من قبل أسمائها ويتوهم لها معاني مجملة غير متضحة فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى، أو بصفاته التامات وبأفعاله وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة.

ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبي والنبوة، وبمعنى الوحي، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين، وكيفية معادات الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السماوات والأرض، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه.

ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة، والجنة، والنار، وعذاب القبر، والصراط، والميزان، والحساب.

---

(١) راجع في كل ما سبق إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢١، ٢٢) بتصرف يسير في بعض ألفاظه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[(١)].

ومعنى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

ومعنى لقاء الله سبحانه، ومعنى القرب منه، والنزول في جواره.

ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى، ومقارنة الملائكة والنبيين.

ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم بعضاً كما يرى الكوكب الدري في جو السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله إذ الناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة.

وأن الذي أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلاّ الصفات والأسماء.

وبعضهم رأى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهوم من ألفاظها.

ولهذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله تعالى الاعتراف بالعجز عن معرفته، وبعضهم يدعي أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل، وبعضهم يقول: حد معرفة / الله. ما انتهى إليه [٨٦/أ] اعتقاد العوام: وهو أنه موجود قادر عالم سميع بصير متكلم، فالمراد بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى يتضح جلية الحق في هذه الأمور إيضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا شك فيه وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أنَّ مرآة القلب قد تراكم صدؤها، وخبثها بقذورات الدنيا وإنما معنى طريق الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة التي هي الحجاب عن الله تعالى.

وعن معرفة صفاته وأفعاله، وإنما تصفيته وتطهيره بالكف عن الشهوات والإقتداء بالنبيين في جميع أحوالهم، فبقدر صفاء مرآة القلب من الخبائث، وتحليه بأنوار الطاعات تظهر فيه صور الحقائق، وتتلألأ فيه لوائح الصدق، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمجاهدة ورياضة النفس، وبالعلم والتعلم، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[(٣)].

وهذا العلم هو الغاية القصوى ـ أعني علم الباطن ـ وهو المراد بعلم المكاشفة.

وقد روي عن بعض العارفين أنه قال: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى النصيب منه التصديق به أو تسليمه لأهله.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ١٤.

(٢) سورة العنكوت الآية: ٦٤.

(٣) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

وقال آخر: من كانت فيه خصلتان لم يفتح له شيء من هذا العلم بدعة أو كبر.

وقيل: من كان محباً للدنيا ومُصِرّاً على هواه لم يتحقق به، وقد تحقق به سائر العلوم، وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه وهو علم الصديقين والمقربين كما قدمنا.

وهذه هي العلوم التي يقولون إنها لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله سبحانه عليه بشيء منها إلا مع أهله، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وعلى طريق الإسرار.

وهذا العلم الخفي الذي أراد النبي عليه السلام / بقوله: «إن من العلم كهيئة المكنون لا [٨٧/ب] يعلمه إلا أهل المعرفة بالله عز وجل: فإن نطقوا به لم يجهله إلاّ أهل الاغترار بالله فلا تحقروا عالماً أتاه الله علماً فإن الله تعالى لم يحقره إذ أتاه إياه»[١]. وبالله التوفيق.

فصـــل

فعليك ـ أيّدك الله وأرشدك وإيانا ـ بالبحث والطلب عن هذه العلوم التي هي أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة حتى تعرفها أولاً، ثم تطهير القلب من المذموم منها، وتحليته بالمحمود منها ثانياً، حتى يتضح لك الحق بحقائقها وتنظر بنورالله بين أصناف خلقه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾[٢].

وقد تراكم رين الذنوب على بصيرة قلبه، فهو يمشي مكباً على وجهه، فلا تظنن أصلحك الله أن من تجرد لعلم الجدال والممارات، وأفنى عمره بتعلم فقه المعاش، والخصومات يتصف بشيء من هذه العلوم المتقدمة، ولو سئل أكثر من يدعي الفقه وتجرد لإحياء الدين بزعمه عن معنى من معاني هذه العلوم حتى عن الإخلاص مثلاً أو عن التوكل، أو عن وجه الاحتراز عن الرياء، لَتَوَقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة.

ولو سئل عن مسائل الفتوى واللعان والظهار والسلم والشفعة والإجارات وما أشبه ذلك من مسائل الفروع التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم يخل البلد عن من يقوم بها، ويكفيه مؤنة التعب فيها، ولو سئل عن شيء من هذا لأجاب سريعاً وما توقف فتراه يتعب في حفظه ودرسه ليلاً ونهاراً ويغفل عن ما هو فرض عليه في نفسه وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين.

---

(١) راجع في كل ما سبق إحياء علوم الدين (١/ ٢٠، ٢١) وعلق العراقي على الحديث بقوله: رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(٢) سورة الزمر الآية: ٢٢.

[٨٨/أ] وهو فرض كفاية ويلبس على نفسه / وعلى غيره في تعليله، والفَطِنُ يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر وإحياء علم الدين لقدّم على ذلك فرض نفسه فليت شعري كيف يجوز في الدين أن يهمل الإنسان فرض نفسه ويشتغل بفرض كفاية قد قام به جماعة؟ هل لهذا السبب إلا أن علم الآخرة ليس يتوصل به إلى جمع الحطام واستدرج العوام بكثرة الأتباع، والطغام، هيهات هيهات قد اندرس علم الآخرة بتلبيس العلماء السوء والله المستعان، وإياه نسأل أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يُسخط الرحمن ويُضحك الشيطان وبالله التوفيق وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الثالث: في «حد الكلام وعلوم الفلسفة»

أما الكلام: فهو علم المتكلمين الذين يتكلمون في تحرير الأدلة لإثبات التوحيد والصفات وتفصيل السكون والحركات والجواهر والأَراض والحدوث والقدم، وأشباه ذلك ويضعون الأدلة في الرد على أهل البدع ونقضها عليهم وليس كتابنا هذا موضوعاً لذلك.

وأما الفلسفة: فهي من علوم حكماء الأوائل المنكرين لشريعة الإسلام وهم الفلاسفة.

وذكر الغزالي في كتابه: إنهم يصدقون بالصانع، والنبوة، ويصدقون النبي عليه السلام ولكنهم يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع ويقولون: النبي محق فما قصد بما ذكره لإصلاح الخلق، ولكن لم يقدر على التصريح بالحق لكلال أفهام الخلق عن دركه. قال: ويجب القطع بتكفيرهم في ثلاث مسائل:

الأولى: إنكارهم لحشر الأجساد، والتعذيب بالنار، والتنعيم في الجنة بالحور العين والمأكول والملبوس.

قال **والثانية**: قولهم إن الله سبحانه لا يعلم الجزئيات، وتفصيل الحوادث، وإنما يعلم الكليات، وإنما الجزئيات تعلمها الملائكة السماوية.

والثالثة: قولهم إن العالم قديم، وإن الله سبحانه متقدم على العالم بالرتبة: مثل تقدم العلة على المعلول وإلاّ فلم يزالا في الوجود متساويين.

قال: فهؤلاء إذا أوردت عليهم آيات القرآن زعموا أن اللذات العقلية تقصر الأفهام عن دركها فمثّل ذلك لهم باللذات الحسية، وهذا الذي قالوه شرك صريح فلا معنى للاشتغال بهم.

قال: وأما الفلسفة فليست علماً بذاتها بل هي على أربعة أجزاء:

أحدها: الهندسة والحساب وهما مباحان ولا يمنع عنهما إلاّ من يخاف عليه أن يتجاوزهما إلى البدع[١].

فالهندسة فعل المهندس، وهي فيما وجدت في كتاب العلوم نوعان:

أحدهما: هندسة عملية، وهي أن ينظر المهندس في خطوط وسطوح، إما في جسم خشب إن كان حداداً، أو في جسم حائط إن كان بناء، أو في سطوح أرضين أو مزرعات إن كان ماسحاً، وكذلك كل صاحب هندسة عملية، فإنه إنما يتصور في نفسه خطوطاً أو سطوحاً، وتدويراً وتثليثاً في جسم المادة التي هي الموضوعة لتلك الصناعات العملية.

والنوع الثاني: هندسة نظرية، وهو أن ينظر المهندس في خطوط وسطوح في الأجسام على الإطلاق والعموم، ويتصور في نفسه الخطوط، والسطوح، والتربيع والتثليث والتدوير في الوجه الذي لا يبالي في أي جسم كانت وفي أي محسوس كان بل على الإطلاق من غير أن يقيم في نفسه مجسماً هو من خشب أو من حديد أو من حائط.

قال: وهذا العلم هو الذي يدخل في جملة العلوم وهو / يفصح في الخطوط والسطوح [٩٠/أ] والمجسمات على الإطلاق عن أشكالها، ومقاديرها، وتساويها وتفاصيلها، وعن أصناف أوضاعها وعن جميع ما يلحقها مثل النقط والزوايا وغير ذلك.

قال: وكتاب إقليدس الفيتاغوري المعروف بكتاب الاستفصات وهو الذي يحتوي على أصول الهندسة وعددها وهي داخلة في علم الكلام. والله أعلم.

الجزء الثاني من الفلسفة: المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه، ووجوه الحد وشروطه[٢] فصناعة المنطق تعطي بالجملة القوانين التي من شأنها أن تُقَوِّم العقل وتسدد الإنسان نحو الصواب.

والحق في كل ما يمكن الغلط فيه من جميع المعقولات وذلك إن في المعقولات أشياء لا يغلط العقل فيها أصلاً، وهي التي يجد الإنسان نفسه كأنها فطرت على معرفتها: مثل أن الكل أعظم من الجزء، وأن كل ثلاث فهو عدد فرد وأشباه ذلك.

وأشباه يمكن الغلط فيها وهي التي يحتاج الإنسان في إدراكها إلى تفكر وقياس

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٣).
(٢) نفس المرجع السابق.

واستدلال، وفي هذه دون تلك يضطر الإنسان الذي يلتمس الوقوف عن الحق اليقين في مطلوباته كلها إلى قوانين المنطق.

وهذه الصناعة تناسب صاعة النحو؛ وذلك أن نسبة صناعة المنطق إلى العقل والمعقولات كنسبة صناعة النحو إلى الألفاظ وهو يشارك النحو بعض المشاركة بما يعطي من قوانين تخص ألفاظ أمة ما وعلم المنطق إنما يعطي قوانين مشتركة تَعُمّ ألفاظ الأمم كلها فإن في الألفاظ أحوالاً تشترك فيها جميع أحوال الأمم: مثل إن الألفاظ منها مفردة، ومركبة، والمفردة: اسم، وكلمة، وأدوات منها ما هي موزونة، وغير موزونة وأشباه ذلك / [٩١/ب] وهاهنا أحوال تخص لساناً دون لسان مثل: أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والمضاف لا يدخل فيه ألف ولام التعريف، فإن هذا يخص بلسان العرب.

وما وقع في علم النحو من أشياء مشتركة لألفاظ الأمم كلها، فإنما يأخذ أهل النحو من حيث هو موجود في ذلك اللسان الذي عمل النحو له.

كقول النحويين من العرب: أقسام الكلام ثلاثة: اسم، وفعل، وحرف.

وكقول نحويّ اليونانيين: أجزاء القول في اليونانية اسم، وكلمة، وأداة، وهذه القسمة ليست أنها توجد في العربية فقط أو في اليونانية فقط، بل في جميع الألسنة.

وأجزاء المنطق ثمانية ـ تركتها لئلا يطول الكتاب بلا فائدة وبالله التوفيق ـ وإنما ذكرت هذا أرشدكم الله لتعرفوا معنى الهندسة والمنطق وهما داخلان في علم الكلام فقط، والله أعلم.

الجزء الثالث الإلٰهيات: وهي بحث عن ذات الله تعالى وصفاته وهو داخل في علم الكلام والفلسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم، بل انفردوا بمذاهب بعضها شرك وبعضها بدعة، كما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة وكذلك الفلسفة[1].

الجزء الرابع الطبيعيات: فبعضها تخالف الشرع ودين الحق فهو جهل وليس بعلم حتى يورد في أقسام العلوم، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها وهو أشبه بنظر الأطباء إلا أن الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح.

---

(١) راجع المصدر والموضع السابق.

وهم ينظرون في جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك / ولكن للطب فضل عليه؛ [٩٢/أ] وهو أنه محتاج إليه.

وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها، فإذن الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخييلات المبتدعة[١]. وبالله التوفيق.

فإن قيل: إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء وهم أفضل الخلق عند الله فكيف تنزل درجتهم عن درجة علماء الدين فاعلم أنه مَنْ عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال فأعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق.

وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل، فلا تغفلن عن الصحابة وفضلهم، ولم يكن تقدمهم بالفقه والكلام بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها.

وأما قولك إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله تعالى شيء وما تنال به الشهرة شيء آخر.

ولقد كانت شهرة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة، وكان فضله بالشيء الذي وقر في صدره؛ لقول رسول الله ﷺ: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة، ولا بكثرة صيام ولكن بشيء وقر في صدره»[٢].

ولقد كان من المكاشفين فيما قيل فليكن حرصك في طلب ذلك الشيء فهو الجوهر النفيس والدر المكنون.

وكانت شهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة والعدل، وكان فضله بالعلم بالله تعالى كما روي: أنه لما مات عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال ابن مسعود رحمه الله: مات تسعة أعشار من العلم.

فقيل له: أتقول ذلك وفينا أجلة الصحابة؟ قال: لست أريد العلم بالفتوى والأحكام وإنما أريد العلم بالله تعالى[٣].

---

(١) راجع المصدر والموضع السابق.

(٢) قال العراقي في المغني (١/ ٢٤): رواه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعاً.

(٣) راجع الإحياء (١/ ٢٤).

[٩٣/ب] فكان فضله بهذا العلم وبقصده التقرب إلى الله تعالى في ولايته / وشفقته على خلقه وهو أمر باطن في سره، وأما أفعاله الظاهرة فقد يتصور صدورها من طالب الجاه والإسم والسمعة، والراغب في الشهرة فتكون الشهرة فيما هو المهلك والفضل فيما هو سر لا يطلع عليه أحد من الناس.

فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة قد انقسموا: فمنهم من أراد الله تعالى بعلمه وفتواه وذبَّهُ عن دينه ولم يرد به رياء ولا سمعة، أولئك أهل رضوان الله؛ لعملهم بعلمهم ولإرادتهم بفتواهم وجه الله تعالى، فإن كل علم عمل؛ لأنه فعل مكتسب، وليس كل عمل علماً؛ فالطبيب يقدر أن يتقرب إلى الله تعالى بعمله فيكون مثاباً عليه من حيث أنه عامل لله تعالى به.

والسلطان يتوسط بالعدل بين الحق، فيكون مرضياً عند الله سبحانه لا من حيث أنه متكفل بعلم الدين بل هو متقلد عملاً يقصد به التقرب إلى الله تعالى.

وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة: علم مجرد وهو علم المكاشفة.

وعمل مجرد: كعدل السلطان مثلاً وضبطه الناس.

ومركب من علم وعمل: وهو علم طريق الآخرة؛ فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعاً.

فانظر في نفسك لتكون في حزب علماء الله عز وجل، أو عمال الله، أو من حزبيهما وتضرب بسهمك مع كل فريق منهما، وهذا أهم لك من التقليد بمجرد الاشتهار، وينشد بيت شعر:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زجل[١]

وبالله التوفيق.

الباب السادس
في طرق العلم

وتقاسيمه قسمة أخرى، اعلم أنّا قد ذكرنا أقسام العلوم قبل هذا مجملة وسننشير هاهنا إن

(١) راجع الإحياء (١/ ٢٤) النثر والشعر.

شاء الله تعالى إلى قسمتها موجزة، وفي طرقها منحصرة.

فنقول إن طرق العلم محصورة / في ثلاث طرق، وقيل في أربع: إحداها الحس، [٩٤/أ] والثانية العقل، والثالثة السمع، والرابعة البديهة.

فهذه قسمة منحصرة تدور على ابن آدم في الدنيا والآخرة فلا يسئل العبد في الآخرة إلا عنها؛ لأنها منحصرة فيما يسئل عنه، فما شاهده ببصره، أو سمعه بسمعه، أو أدركه بعقله فكل علم داخل فيها وعنها يكون.

فالبصر هو ما يدرك به جميع المبصرات، والسمع هو ما يسمع به جميع المسموعات من الشرع وغيره، والفؤاد راجع إلى القلب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[١].

أي حاضر القلب والفؤاد، والقلب واحد والمراد به العقل، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[٣].

فجمع في هاتين الآيتين ما قدمناه من طرق العلم، أما الحس فينقسم ثلاثة أقسام: حس متصل، وحس منفصل، وحس بنية.

فالمتصل: كالملموسات، والمذوقات، والمشمومات فإن حاسة اللمس وحاسة الذوق لا تدركان إلا متصلتين بمحسوساتهما.

والمنفصل: كالمسموعات، والمبصرات؛ لأن حاسة السمع تدرك الكلام من غير اتصال بالمسموع، وحاسة البصر تدرك الأشخاص، والألوان بغير اتصال.

وحس بنية: هو ما يجده الإنسان في نفسه من غير طريق الحواس كالجوع والعطش والفرح والحزن وأشباه ذلك.

وأما العقل: فعلى ثلاثة أقسام: واجب، وجائز ومستحيل.

---

(١) سورة قٓ الآية: ٣٧.
(٢) سورة النحل الآية: ٧٨.
(٣) سورة الإسراء الآية: ٣٦.

فالواجب: على ثلاثة أقسام: وجوب انحصار الحقائق، ووجوب اطرادها، ووجوب اختصاصها بأحكامها.

[٩٥/ب] والمستحيل: على ثلاثة أقسام: قلب الحقائق / ونقض الحقائق وبطلان الحصر.

والجائز: متردد بين الواجب، والمستحيل، وهو جائز في حقنا وعند الله تعالى واجب أو مستحيل.

وأما السمع: فعلى ثلاثة أقسام: الكتاب والسنة والإجماع.

وأما البديهة: فكعلمنا أن الأكل مشبع، والشراب مروي فهذه طرق العلم.

ثم نرجع إلى تقاسيمه فنقول أيضاً: إن العلم على ثلاثة أقسام: العلم بالدين، والعلم بالدنيا، والعلم بما يتوصل به إليهما مما جاءت به الرسل عليهم السلام.

العلم بالدين على ثلاثة أقسام: العلم بالله تعالى، والعلم بما يجوز عليه، والعلم بما يستحيل عليه فأما العلم بما يجب له فهو ثلاثة: الوجود، والوحدانية، والكمال والذي يجوز عليه ثلاثة: إيجاد العالم، وإعدامه بعد وجوده وإعادته بعد إعدامه.

والذي يستحيل عليه ثلاثة: التشبيه، والتشريك، والنقائص.

فأما العلم بوجوده فيبنى على نفي التشبيه.

والتشبيه على ثلاثة التقييد بالزمان، والتقييد بالمكان، والتقييد بالجنس، وفي لفظ آخر على ثلاثة: التغير والتحيز والتأليف، والعلم بالوحدانية ينبني على نفي التشريك.

والتشريك على ثلاثة: الاتصال، والانفصال، والحلول. والكمال ينبني على نفي النقائص.

والنقائص على ثلاثة: منها ما ينفع الأفعال، ومنها ما يمنع الإدراك، ومنها ما يمنع الكلام.

فالموانع من الأفعال: كالعجز، والجهل، وغير ذلك، والموانع من الإدراك: كالعمى، [٩٦/ب] والصمم، وغير ذلك، والموانع من الكلام: كالخرس، والبكم، وغير ذلك من / الآفات، وفي لفظ آخر في النقائص.

والنقائص على ثلاثة: منها ما يدل على الحدوث، ومنها ما يمنع الأفعال ومنها ما يمنع الإدراك.

وأما العلم بالرسول عليه السلام: فعلى ثلاثة أيضاً: العلم بما يجب إثباته للرسول، والعلم بما يجب نفيه عنه، والعلم بما يجوز عليه.

فالذي يجب إثباته للرسول عليه السلام: الصدق، والأمانة، واتباع الحق في أفعاله وأقواله.

والذي يجب نفيه عنه: الكذب والخيانة واتباع الباطل في أقواله، وأفعاله.

والذي يجوز عليه هو ما يجوز على البشر من الانتفاع والاستضرار، وفي لفظ آخر والذي يجوز عليه السراء والضراء والسهو الذي لا ينافي التكاليف.

وأما العلم بما جاءت به الرسل عليهم السلام فعلى ثلاثة: الوحي، والتكليف، والجزاء على التكليف.

والوحي على ثلاثة: الأمر، والنهي، والخبر.

والتكليف على ثلاثة: الإيمان، والتقوى، والورع: وهو الاحتياط في الدين.

والفرق بين الوحي والتكليف أن الوحي: هو الأمر والنهي.

والتكليف: هو مقتضى الأمر والنهي وهو امتثال الأمر واجتناب النهي فحقيقة التكليف هي أفعالنا وتناولنا.

والأمر والنهي راجعان إلى الخطاب الذي هو بالوحي. والخبر هو ما أخبر به من الغيوب، وهو جل الكتاب وأكثر ما فيه، والجزاء على التكليف على ثلاثة أيضاً الحساب والثواب والعقاب.

فصـــل

والعلم بالدنيا على ثلاثة أقسام: العلم بمنافعها، والعلم بمضارها، والعلم بأسباب المعيشة فيها، وفي لفظ آخر في العلم بالدنيا أُخبرنا أن عاقبة نعيمها إلى الزوال.

وأُخبرنا أن عاقبة عمرانها إلى الخراب، وأُخبرنا / أن عاقبة عمارها إلى الهلاك، وأما ما [٩٧/أ] يتوصل به إلى العلم بها فثلاثة: اللغة، والإعراب، والحساب.

فاللغة بها جاءت شريعتنا، فإذا بطلت اللغة بطلت الشريعة والأحكام والإعراب أيضاً به تنصلح المعاني وتفهم، فإذا بَطُل الإعراب بطلت المعاني، وإذا بطلت المعاني بطل الشرع

أيضاً، وَيُبطل جميع ما يدور عليه أمر المعاملات كلها: من المخاطبات في الأقوال.

وأما الحساب أيضاً فهو مما يتوصل به إلى معرفة الدين، والدنيا جميعاً.

أما الدِّين: فإن هذه العبادات الموقتة بالأزمان لا تعرف إلا بالحساب، به عرفت الأيام والجُمع والشهور والسنين.

فالعبادات مرتبة فيها: كصلاة الجمعة، فإذا جهل يوم الجمعة بطلت الصلاة، وكذلك الصيام، إذا جهل الحساب الذي به يعرف شهره بَطُل أيضاً، وكذلك السنون أيضاً في عبادة الزكاة والحج فالحساب أصل كبير في الدين.

وأما الدنيا: فبه تصح جميع المعاملات الدائرة بين الناس من المعاوضات، والأخذ والعطاء وجميع منافع المعيشة به تصح. وبالله التوفيق.

الباب السابع
في آداب المتعلم والمعلم

وهذا الباب ينحصر في فصلين:

الفصل الأول: في آداب المتعلم وتنحصر آدابه في عشرة أقسام:

الأول: المبادرة إلى التعلم في أول وقت الإمكان، ويرغب فيه رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال، وجدة، ولا نفوذ أمر وعلو منزلة، فإن من ينفذ أمره فهو إلى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق.

وفي حديث أنس عن النبي عليه السلام أنه قال: «إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك»(١).

وقال بعض الأدباء: كل عز لا يؤكده علم مذلة، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة.

[٩٨/ب] / وقال بعض العلماء: إذا أراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم.

---

(١) قال العراقي في المغني(٦/١): رواه أبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في بيان العلم، وعبد الغني الأزدي في آداب المحدث من حديث أنس بإسناد ضعيف.

وقال بعض البلغاء: العلم عصمة الملوك؛ لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى الحكم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستنبطوا أهله.

القسم الثاني: أن يكون قصده في التعلم إرادة وجه الله تعالى.

وإنفاء الجهل عن نفسه، وإرشاد من قدر على إرشاده بنية خالصة وعزيمة صادقة، فإذا كان قصده ونيته ما ذكرنا فإنه يرجى أن يستوجب الفضل الذي جاء في الأحاديث المتقدمة.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أكرم عالماً فكأنما أكرم سبعين نبيّاً، ومن أكرم متعلماً فكأنما أكرم سبعين شهيداً، ومن أحب العلم والعلماء لم تكتب عليه خطيئة أيام حياته».

هكذا وجدت في بعض آثار أصحابنا من أهل المشرق وليحذر طالب العلم: أن يطلبه لمراء أو رياء، فإن المماري به مهجور لا ينتفع، والمرائي به محقور لا يرتفع.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تتعلموا العلم لتماروا به السفهاء، ولا تتعلموا العلم لتجادلوا به العلماء، فمن فعل ذلك منكم فالنار النار».

والمماري هو القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد وصحيح. وفي حديث آخر: «من تعلم العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء لقي الله وهو عليه غضبان».

فمن طلب العلم لمباهات العلماء أو لممارات السفهاء أو لينتشر ذكره في الناس بحسن الثناء أو ليعظم قدره عندهم أو لاكتساب مال أو جاه فهو من الخاسرين، وينشد:

إنـي رأيـت النـاس فـي دهـرنـا ... لا يطلبـون العلـم للعلـم
إلا مبـاهـات لإخـوانهـم ... وحجـة للخصـم والظلـم

وليس المماري به هو المناظر فيه طلباً للصواب وقد بيَّن ذلك / بعض العلماء فقال [٩٩/أ] لصاحبه: لا يمنعك حذراً المراء من حسن المناظرة، فإن المماري هو الذي يريد أن يتعلم منه أحد ولا يرجو أن يتعلم من أحد.

القسم الثالث: ينبغي لطالب العلم أن يقدم أولاً طهارة النفس من دناءة الأخلاق ومذموم الأوصاف؛ لأن العلم عمارة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى.

فكما لا تصح صلاة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الجوارح من جميع الأحداث والأخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلاّ بعد طهارته من خبائث الأخلاق، من: الغل، والكِبر، والرياء، وغير ذلك.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «بني الدين على النظافة»[١].

وهو لعمري كذلك باطناً وظاهراً، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٢].

تنبيهاً للعقول على أن الطهارة والنجاسة ليست مقصورة على الظواهر.

فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول الجسد ولكنه نجس الباطن بالشرك، وقد قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٣].

أي قلبك، فنّق في بعض الأقوال.

فإن قيل: كم من رديء الأخلاق قد حصل العلوم قيل له: فهيهات ما أبعدك عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة، فإن من أوائله أن تظهر للعالم به أن المعاصي سموم مهلكة.

وهل رأيت من بتناول شيئاً مع علمه بأنه سم مهلك؟ وإنما الذي تسمعه من المتشبهين بالعلماء في التشدق روايات ومسائل تلقفوها من غير معرفة بحقائقها، وليس ذلك من العلم في شيء.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: ليس العلم بكثرة الروايات، وإنما العلم نور يقذف في القلب.

وقال بعضهم: إنما العلم الخشية؛ إذ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٤]. فكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم[٥]. وبالله التوفيق.

[١٠٠/ب] القسم الرابع: أن يقلل طالب العلم علائقه / من أشغال الدنيا، ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة، ويمنيها انقطاع الأشغال المتصلة؛ فإن لكل وقت شغلاً وفي كل زمان عذراً. وينشد قول الشاعر:

نـــروح ونغـــدو بحـــاجتنـــا ... وحـــاجـــة مـــن عـــاش لا تنقضـــي

---

(١) قال العراقي في المغني (١/٤٩): لم أجده هكذا وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة: تنظفوا فإن الإسلام نظيف، وللطبراني في الأوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود: النظافة تدعو إلى الإيمان.

(٢) سورة التوبة الآية: ٢٨.

(٣) سورة المدثر الآية: ٤.

(٤) سورة فاطر الآية: ٢٨.

(٥) راجع الإحياء (١/٤٩، ٥٠).

إذا ليلة هرمت يومها أتى بعد ذلك يوم فتى

وقد روي عن عيسى عليه السلام أنه قال: يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي شهوته من الدنيا؟ فمن أراد العلم بصحة الاجتهاد والجد فليبعد عن الوطن والأهل، فإن العلائق شاغلة عن المطلوب، وصارفة عن درك المأمول، فمهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، ولذلك قيل: العلم والوطوطة لا يجتمعان.

وقال بعض العلماء: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر.

ومثال الفكرة المتوزعة على أمور مفترقة كجدول نهر تفرق ماؤه فنشّفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزرع[١]. وبالله التوفيق.

القسم الخامس: أن لا يتكبر عن العلم ولا يتأمر على المعلم، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصحه إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، فبذلك ينال مطلوبه بمأموله.

وقال بعض العلماء: من لم يحتمل ذل التعلم ساعة احتمل ذل الجهل أبداً، وينشد:

بني إذا ما مسك الذل قاهر عزيز فإن الذل للعز أحرز

فلا تحملن يوماً عليه تعززاً فقد يورث الذل الطويل تعزز

ولهذا قال ابن عباس: ذللت طالباً فعززت مطلوباً. وروي أنه كان ينام على أبواب الصحابة في الهواجر للتعلم منهم حتى تلفح وجهه / الهواجر. [١٠١/أ]

وينبغي له أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته.

وعن الشعبي أنه قال: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقدمت له بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه. فقال زيد: خلّ عنه يا ابن عم رسول الله. فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء. فقبّل زيد بن ثابت يده، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا ﷺ[٢].

---

(١) ذكر الغزالي نحو هذا الكلام في الإحياء (١/ ٥٠).

(٢) قال العراقي في المغني (١/ ٥٠): رواه الطبراني، والحاكم، والبيهقي في المدخل، إلاّ أنهم قالوا: هكذا نفعل، قال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم.

وروت عائشة عنه عليه السلام أنه قال: «من وقّر عالماً، فإنما قد وقّر ربه عز وجل».

وقال علي بن أبي طالب: لا يعرف فضل أهل الفضل إلا أهل الفضل. قال الشاعر:

إن المعلـم والطبيـب كليهمـا لا ينصحـان إذا همـا لـم يكـرمـا
فـاصبـر لـدائـك إن جفـوت طبيبـه واصبـر لجهلـك إن جفـوت معلمـا

ثم ليعرف له فضل علمه، وليشكر له جميل فعله، ولا يمنعه من ذلك علو منزلته إن كانت له، وإن كان العالم خاملاً فإن العلماء بعلمهم استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال.

وينبغي له أن يتلطف به ويتذلل ويتملق إليه فعاله ولا يتجهل؛ لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه، والتذلل له سبب لإدامة صبره.

وقد روي عن معاذ رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال: «ليس الملق من أخلاق المؤمن إلا في طلب العلم»[1]. والملق معناه: التودد واللطف الشديد.

وقال بعض حكماء الفرس: إذا قعدت وأنت صغير بحيث تحب قعدت وأنت كبير بحيث لا تحب[2]. وبالله التوفيق.

القسم السادس: أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة إلا وينظر فيه، نظراً يطّلع منه على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلاّ اشتغل بالأهم فاستوفاه.

وتطرق[3] من البقية فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الانفكاك / [١٠٢/ب] عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فإن الناس أعداء ما جهلوا.

ولذلك قيل عن يحيى بن خالد أنه قال لابنه: عليك بكل نوع من العلم فإن المرء عدو ما جهل، وأنا أكره أن تكون عدواً لشيء من العلوم. وأنشد الماوردي لابن يزيد:

جهلـت فعـاديـت العلـوم وأهلهـا كذاك يعادي العلم من هو جاهله
ومـن كـان يهـوى أن يـرى متصـدراً ويكـره لا أدري أصيبـت مقـاتلـه

---

(١) قال العراقي في الموضع والمصدر السابق: رواه ابن عدي من حديث معاذ، وأبي أمامة بإسنادين ضعيفين.

(٢) راجع القسم كله بتفصيل أطول في الإحياء (١/ ٥٠) الوظيفة الثالثة.

(٣) في الإحياء: «تطرف».

ولا ينبغي أن يتكبر على فن من العلوم المحمودة؛ فإن العلوم على درجاتها: إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى، أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود.

ومن تكبر الطالب للعلم: أن يستنكف عن الاستفادة، والتعلم إلا من المشهورين الكبراء، وذلك عين الحماقة، فإن العلم سبب النجاة والسعادة، فمن طلب مهرباً من سبعٍ ضارٍ يفترسه، لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور، أو خامل وضراوة سباع النار بالجهل بالله تعالى أشد ضراوة من كل سبع، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها، ويتقلد المنة لمن ساقه إليها كائناً من كان نبيهاً كان أو خاملاً، ولا يطلب الصيت وعلو الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء إذا كان النفع بغيرهم أعمّ إلا أن يستوي النفعان، فيكون الأخذ عن من اشتهر ذكره، وارتفع قدره أولى؛ لأن الانتساب إليه أجمل والأخذ عنه أشهر، وقد قال الشاعر:

إذا أنت لم يشهرك علمك لم تجد ... لعلمك إنساناً من الناس يقبله

وإن صانك العلم الذي قد حملته ... أتاك له من يجتنيه ويحمله

فمهما تكبر المتعلم عن العلم انحرف العلم عنه وصعب عليه بعد ذلك طلبه. ولذلك قال بعضهم:

العلم حرب للفتى المتعالي ... كالسيل حرب للمكان العالي

/ ولذلك قيل: إن المتواضع من طلاب العلوم أكثرهم علماً، كما أن المكان المنخفض [١٠٣/أ] أكثر البقاع ماء[١].

القسم السابع: ينبغي للمتعلم أن يحترز من مَبْدءِ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ذلك من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة؛ لأن ذلك يدهش عقله، ويحير ذهنه، ويفتِّر رأيه ويؤيسه عن الإدراك.

بل ينبغي له أن يتقن أولاً الطريقة الواحدة المرضية عند أستاذه إذا كان أستاذه نقاداً بصيراً بفنون العلم مستقلاً باختيار رأي واحد، ومذهب واحد، وإن كان أستاذه إنما عادته نقل المذاهب وما فيها ولم يعتقد رأياً واحداً فليحذر منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده.

فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم فمن حاله هذا فهو بعد في عمى الحيرة، ورتبة الجهل.

(١) راجع الوظيفة الخامسة في الإحياء (١/ ٥١، ٥٢) وهذا الكلام فيها باختصار.

وإن كان أستاذه بصيراً بالعلم متخيراً لنفسه قولاً واحداً يعتمد عليه ورعاً في دينه فليلق إليه المتعلم زمام أمره بحسن الإصغاء والقبول وليكن في ذلك لمعلمه كأرض ميتة نالت مطراً غزيراً فشربت بجميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله.

ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعليم فليقلده وليدع رأيه؛ فإن خطأ مرشد أنفع له من صواب رأي نفسه إذ التجربة تطلع الإنسان على دقائق يستغرب سماعها مع أنه قد يعظم نفعها.

وقد نبّه الله تعالى على ذلك في قصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرَاً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرَاً﴾[١].

ثم شرط عليه السكوت فقال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾.

ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب فراق ما بينهما.

[١٠٤/ب] وبالجملة فكل متعلم استغنى بنفسه / رأياً دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالخيبة والخسران[٢]. وبالله التوفيق.

القسم الثامن: أن يحذر المتعلم الإذلال على من يعلِّمه، وإن أنسه وطالت صحبته معه؛ لأن الإذلال على العلماء من فعل الجهال وفيه فساد الأحوال.

وقيل لبعض الحكماء: مَنْ أذل الناس؟ قال: عالم يجري عليه علم جاهل. وقال: وكلمت رسول الله ﷺ جارية من السبي، فقال لها: «من أنت»؟ فقالت: بنت الرجل الجواد حاتم، فقال ﷺ: «ارحموا عني ثلاثة: غنياً افتقر، وعزيزاً ذل، وعالماً ضاع بين الجهال»[٣].

وليحذر المتعلم إستهانة معلمه، ولو وجد في نفسه استغناء؛ لأن ذلك كفر لنعمته واستخفافاً بحقه فيكون كمن تقدم فيه سائر المثل السائر لابن البطحاء:

اعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

---

(١) سورة الكهف الآيتان: ٦٧، ٧٠.

(٢) راجع الإحياء (١/٥١) الوظيفة الرابعة بنحو ما هنا.

(٣) بنحوه ذكره العراقي في المغني (٤/٢٨) وقال: رواه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس، وعيسى ضعيف، ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال تلاعب به الصبيان، وفيه أبو البحتري، واسمه: وهب بن وهب أحد الكذابين.

وهذه الحالة من مصائب العلماء أن يصيروا عند من علموه مستجهلين، وعند من قدموه مستذلين.

وقال: قال صالح ابن عبد القدوس:

وإن عناء أن تعلم جاهلاً ... ويزعم جهلاً أنه منك أعلم

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

متى ينتهي عن شيء من أتى به ... إذا لم يكن منه عليه تندم

وقد رجح كثير من العلماء حق العالم على حق الوالد، لأن الوالد يحفظه من نار الدنيا والعالم يحفظه من نار الآخرة.

ومع هذا لا ينبغي له أن يحملنه معرفة الحق له حتى يقبل كل شبهة أتت من جهة معلمه، ولا يدعوه ترك الإعنات له على التقليد فيما أخذ عنه، فإنه ربما غلا بعض الاتباع في عالمهم حتى يروا أن قوله دليل، وإن لم يستدل.

وليكن المتعلم معتدل الرأي فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه، حتى لا يحمله الإعنات على اعتراض المبكتين / ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين، فإذا فعل ذلك [١٠٥/أ] برىء من المذمتين، وسلم العالم من المحنتين، فليس كثرة السؤال فيما التبس إعناتاً ولا قبول ما صح في النفس تقليداً.

وقد قيل لابن عباس: بما نلت هذا العلم؟ فقال: بلسان سَؤُل، وقلب عقول.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «حسن السؤال نصف العلم». وأنشد المبرد المقنوي:

سل الفقيه تكن فقيهاً مثله ... لا خير في علم بغير تدبر

وإذا تعسرت الأمور فأرجها ... وعليك بالأمر الذي لم يعسر

وربما تنبعث نفس المتعلم من بعد عنه من العلماء استهانة بمن قرب منه وطلب ما يصعب احتقاراً لما سهل عليه، فلا يدرك محبوباً ولا يظفر بطائل.

وقد قالت العرب في أمثالها: إن العالم كالكعبة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء. وأنشد الماوردي عن بعض شيوخه للمسيح بن حاتم:

لا ترى عالماً يحل بقوم ... فيحلوه دار دار الهوان

قلّ ما توجد السلامة ... والصحة مجموعتين في الإنسان

فــإذا حَلّتــا مكــانــاً سحقيــاً فهمــا فــي النفــوس معشــوقتــان
هــذه مكــة العــزيــزة بيــت الله يسعـــى لحجهـــا الثقـــلان
وتـرى أزهـد البرية في الحج لها أهلهـــا القـــرب بـــالمكـــان

وينبغي للمتعلم أن يكون في طلب العلم راغباً في ثواب الله، راهباً من عقابه.

وقد قالت الحكماء: أصل العلم الرغبة وثمرته السعادة. فإذا اجتمعت فيه الرغبة في ثواب الله والرهبة من عقاب الله أدياه إلى كُنه حقيقة الزهد، فإذا اقترن العلم والزهد فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة، وإن افترقا فيا ويح مفترقين ما أضر افتراقهما، وأقبح انفرادهما.

[١٠٦/ب] وقد روي عن النبي عليه الصلاة والسلام / أنه قال: «من ازداد في العلم رشداً، ولم يزدد في الدنيا زهداً لم يزدد من الله إلاّ بعداً»[١].

وقال مالك بن دينار: من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما أوتي من العلم لا ينفعه.

القسم التاسع: ينبغي لطالب العالم ألا يقصر في طلبه وينتهز الفرصة ولا يشتغل بالفراغ فإنه من الفراغ تكون الصبوة. قال الشاعر:

لقــد هــاج الفــراغ عليـك شغــلاً وأسبـــاب البـــلاء مـــن الفـــراغ

وقال بعض العلماء: من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد تله، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه فقد غبن يومه وظلم نفسه.

وقال بزرجمهر: إن يكن الشغل مجهدة فإن الفراغ مفسدة، وينبغي له أن يبتدىء العلم من أوله، ويأتيه من مدخله.

ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسع جهله، فإن لكل علم فضولاً مشغلة إن صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها.

وقد قال ابن عباس: العلم أكثر من أن يحصى، فخذوا من كل شيء أحسنه وينبغي أن لا يغفل في الصغر عن التعلم؛ لأنه أحمد من التعلم في الكبر.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل الذي يتعلم العلم في صغره كالنقش على الصخرة والذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء».

---

(١) حديث ضعيف ذكر نحوه الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٢٨٨) كتاب الفضائل رقم (٥٦).

وقال علي: قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته، وإنما كان كذلك؛ لأن الصغير أفرغ قلباً، وأقل شغلاً، وأيسر تبدلاً، وأكثر تواضعاً، وإما أن يكون الصغير أضبط من الكبير إذا عرى من هذه المواضع، وأوعى منه إذا خلا من هذه القواطع.

وحكي أن الأحنف بن قيس سمع رجلاً يقول: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر.

وقال الأحنف: الكبير أكثر عقلاً، ولكنه اشغل قلباً ولكن تعلم الكبير أوجب؛ لأن الأولى به أن يكون شيخاً متعلماً لا شيخاً جاهلاً / لأن الصغير أعذر وإن لم يكن في الجهل [١٠٧/أ] عذر.

ولذلك قيل في منثور الحكم: جهل الشباب معذور وعلمه محقور، أما الكبير فالجهل به أقبح ونقضه عليه أفضح.

وينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغباً، ولمن رغب فيه أن يكون له طالباً، ولمن طلبه أن يكون منه مستكثراً، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملاً، ولا يطلب لتركه احتجاجاً، ولا للتقصير فيه عذراً. قال الشاعر:

فلا تعذروني في الإساءة إنه ... شرار الرجال من يسيء فيعذر

[وقال][١] آخر:

فإياك[٢] والأمر الذي إن توسعت ... موارده ضاقت عليك مصادره

فما حسن أن يعذر المرء نفسه ... وليس له من سائر الناس عاذره

وينبغي للمتعلم أن يشعر قلبه الصبر على معانات الحفظ ولا يستثقل الدرس، والحفظ ويتكل بعد فهم المعاني على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة إليها. والعرب تقول في أمثالها: حرف في قلبك خير من ألف في كتبك. قال الشاعر:

عليك بالحفظ بعد الكتب تجهدها ... فإن للكتب آفات تفرقها

فالفأر يخرقها والنار تأكلها ... والماء يغرقها والكف يسرقها

وفي المثل: حرف في تامورك خير من ألف في دستورك. وقال العرب: لا خير في علم لا يعبر معك الوادي، ولا يعمر بك النادي. قال الشاعر:

---

(١) ليست في الأصل وأثبتها لإيضاح السياق.

(٢) في الأصل: «فهياك».

إذا ما غدت طلابة العلم ما لها من العلم إلا ما تحصل في الكتب
غدوت بتشمير وجد عليهم فمحبرتي أذني ودفترها قلبي

وأنشد عن الشافعي:

علمي معي حيث ما يممت ينفعني قلبي وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وينبغي للمتعلم أن يتفكر بعد الحفظ في معاني الألفاظ.

[١٠٨/ب] وقد روي عن /النبي عليه السلام أنه قال: «همة السفهاء الرواية، وهمة العلماء الرعاية».

ومثل الذي يحفظ الألفاظ ولا يفهم معانيها كالكاتب الذي لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة، وكالحمار يحمل أسفاراً ولا يدري ما عليه. قال الشاعر يهجو قوماً:

زوامل للأشعار لا علم عندهم يجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

وقال ابن مسعود رحمه الله: كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة، فقد يرعوي من لا يروي أو يروي ما لا يرعوي.

وحكي أن الحسن البصري حدّث بحديث فقال له رجل: يا أبا سعيد عمن؟ فقال: ما تصنع بعمن؟ أما أنت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته.

ومع هذا لا ينبغي للمتعلم أن يعتمد على حفظه وتصوره ويغفل عن تقييد العلم في الكتب، فإن هذا منه خطأ وغلط؛ لأن التشكيك معترض والنسيان طارىء.

وقد روى أنس أن النبي ﷺ قال: «قيدوا العلم بالكتابة»[١].

وشكى إليه رجل النسيان فقال له عليه السلام: «استعمل يدك أي اِكتبه حتى ترجع إذا نسيت إلى ما كتبت».

وقال الخليل بن أحمد: اجعل ما في الكتب رأس المال، وما في القلب النفقة.

---

(١) رواه الحاكم من قول عمر بن الخطاب ولم يرفعه وقال: وكذلك الرواية عن أنس بن مالك من صحيح من قوله، وقد أسند من وجه غير معتمد (١٠٦/١).

وقال بعض السلف: لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين لانحل مع النسيان عقود الآخرين.

وقال بعض البلغاء: إن هذه الآداب نوافر تند عن عقول الأذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والأقلام لها رعاة.

وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[1]. قال: يعني الخط.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[2] يعني الخط.

وقال حكيم الروم: الخط هندسة روحانية وإن ظهرت بآلة جسدانية.

وقال حكيم العرب: / الخط أصل في الروح وإن ظهرت بحواس الجسد. [١٠٩/أ]

واختلف في أول من كتب الخط يذكر عن الماوردي: أنه ذكر عن كعب الأحبار: أن أول من كتب آدم عليه السلام، كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة في طين، ثم طبخه فلما غرقت الأرض في زمان نوح عليه السلام بقيت الكتابة فأصاب كل قوم كتابهم وبقي الكتاب العربي، إلى أن خص الله به إسماعيل عليه السلام فأصابها وتعلمها.

وحكي عن قتيبة: أن أول من كتب الخط إدريس عليه السلام.

واختلف في أول من كتب بالعربية فذكر عن كعب الأحبار: أنه آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان إسماعيل عليه السلام.

وحكى ابن عباس: أن أول من كتبها ووضعها إسماعيل على لفظه ومنطقه.

وحكى عروة بن الزبير: أن أول من كتب قوم من الأولين وأسماؤهم: أبجد، هوّز، وحطي، وكلمن، وصعفض، وقرست وكانوا ملوك مدين.

وحكى ابن قتيبة في المعارف: أن أول من كتب بالعربية مرامر من أهل الأنبار، ومن الأنبار انتشرت.

وحكى المدني: أن أول من كتب بها مرامر بن مروة وأسلم بن سدرة، وعامر بن خذرة، فمرامر وضع الصور، وأسلم وصل، وفصل، وعامر وضع الإعجام، والله أعلم.

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦٩.

القسم العاشر: في الشروط التي يتوفر بها علم الطالب ـ بعد عون الله تعالى وحسن توفيقه ـ وهي بالجملة عشرة.

أحدها: العقل الذي به يدرك حقائق الأمور؛ لأن معاني الأشياء التي يتوصل إليها مستودعة في كلام مترجم عنها، وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظاً مسموعاً ومعنى مفهوماً. فاللفظ: كلام يعقل بالسمع، والمعنى: تحت اللفظ يفهم بالعقل.

الثاني: الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم، ولذلك قال بعض الحكماء: العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه: عقل مفكر، ولسان معبر، وبيان مصور.

[١١٠/ب] فإذا عقل الكلام بسمعه فهم / معانيه بقلبه، وإذا فهم المعاني سقطت عنه كلفة استخراجها، وبقي عليه معانات حفظها واستقرارها؛ لأن المعاني شوارد تضل بالإغفال، والعلوم وحشية تفر بالإرسال.

الثالث: الذكاء الذي به يستقر حفظ ما تصوره وفهم ما علمه فإذا حفظ علمه بعد الفهم استقر، وإنس وإذا ذاكر به بعد القرار رسي وثبت.

وقد قال بعض الحكماء: من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم. قال الشاعر:

إذا لـم يـذاكـر ذوي العلوم بعلمـه ... ولـم يستفـد علمـاً نسـي مـا تعلمـا
فكم جامع للكتب في كل مذهب ... يـزيـد مـع الأيـام فـي جمعـه علمـاً

الرابع: الشهوة التي يدوم بها الطلب ولا يسرع إليه الملل؛ لأن من صدقت شهوته في العلم وبعدت همته في الطلب لا بد أن يشعر قلبه الصبر بقوة شهوته، ويشعر جسده احتمال التعب لبعد همته فيعقبه ذلك إلحاح الملحين الأملين، ونشاط المدركين فقلّ عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لا تنالون ما تحبون إلاّ بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون ما تهوون إلا بترك ما تشتهون».

وقيل في منثور الحكم: اتعب قدمك فكم تعب[1] قدمك.

---

(١) كذا في الأصل وأحسب أن صوابها «لعب».

وقال بعض البلغاء: إذا اشتد الكلف، هانت الكُلف.

الخامس: الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلفة الطلب، ولذلك قيل: لا يصح العلم لطالبه إلاّ بوجود أربعة: الكتب الصحاح، وسعة المؤنة، وذهن حاضر، وعالم نقاد بصير بفنون العلم.

وقال بعض البلغاء: من بلغ أَشُدَّهُ لاقى من العيش أَشَدَّه. ويقال: من اهتم ببصلة لم ينتفع بمسألة.

وقال بعض مشايخنا رحمهم الله /بعكس هذا فقال: إنما يتعلم العلم مثل أبي عبيدة [١١١/أ] البغطوري الذي يبل الشعير، ويصره في طرفه، ثم يفطر عليه وعلى الخبيز وهو صائم، ولا يأكل العيش المطبوخ إلاّ من ليلة الجمعة إلى ليلة الجمعة الأخرى. والله أعلم.

السادس: الفراغ من العلائق، ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك وقد تقدم هذا. لأن به يكون التوفر في الطلب ويحصل به الاستكثار من العلم.

السابع: عدم القواطع المذهلة من هموم واشتغال وأمراض ولذلك قال البلغاء: القلب إذا علق كالرهن إذا غلق.

وقيل في منثور الحكم: الهم قيد الحواس، فإن كان ذا معيشة قطعته، وإن كان ذا رئاسة ألهته. ولذلك قيل: تفقهوا قبل أن تسودوا.

الثامن: طول العمر، واتساع المدة لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال.

وقال الأسكندري: يحتاج طالب العلم إلى أربع: مدة، وجدة، وقريحة، وشهوة، وتمامها في الخامس معلم ناصح، ولذلك قيل شعر:

لا بـد للعلـم مـن سـت لطـالبـه ... مـن فيلسـوف ودود غيـر منـان
ومـن زمـان ومـن أمـن يشـايعـه ... ومـن مكـان وإمكـان وإخـوان

وقال آخر:

خصـال العلـم أربعـة ... فـأولهـا التجـرد لـه
وحفظـك ثـم فهمكـه ... وحملكـه عـن الحملـه
خصـال مـن تكـونـن فيـه ... وإلا لـم ينـل أملـه

التاسع: الظفر بعالم سمح بعلمه، متأنٍ في تعليمه صادق في كل كلامه، بصير بفنون العلم ناصح للمتعلم.

ولذلك قيل عن أبي عبيدة مسلم رحمه الله أنه قال: لا يؤخذ العلم عن أربعة: رجل كذاب وإن كان يصدق في فتواه، ورجل مبتدع في الدين، ورجل سفيه مشهور السفه، ورجل لا يفرز مذهبه من مذهب غيره.

فإذا ظفر بمعلم ناصح ذي دين فعليه أن يوقره، ويتذلل لديه بحسن التأدب فبذلك ينال بغيته منه إن شاء الله.

وقد قال أنوشروان لبزرجمهر: مَنْ أدّبك؟ قال: قريحتي، نظرت إلى ما استحسنت من غيري فاستحملته، وما استقبحته اجتنبته، ولقد استفدت من كل شيء محاسنه، وأخذت من الخنزير قناعته، ومن الكلب محافظته، ومن القرد مساعدته، ومن الحمار صبره، ومن الغراب بكوره، ومن السنور لطف المسألة عند الخوان. فقيل له: بماذا نلت ما نلت من العلم؟ فقال: ببكور كبكور الغراب، وحرص كحرص الخنزير وصبر كصبر الحمار، وتملق كتملق القط.

وقيل لبعض السلف: بم أدركت ما أدركت من العلم؟ فقال: بقلب ذكي، وأب غني فإذا امتثل المتعلم ما ذكرنا كان جديراً بأن ينال من العلم مقصوده. وبالله التوفيق.

العاشر: تقوى الله عز وجل الذي هو رأس كل بر وبه ينال المتعلم مقصوده من الخير في الدنيا والآخرة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾(١).

وقال النبي عليه السلام: «من عمل بما علم أورثه الله عز وجل علم ما لم يعلم»(٢).

وحديث علي بن أبي طالب فيه جميع وظائف الأدب التي يحتاج إليها المتعلم لمعلمه وذلك أنه قال: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تشير عليه بيدك، ولا تفتش له سراً، ولا تغتاب عنده أحداً، ولا تطلبن عثرته، فإن زلّ انتظرت أوبته، وقبلت معذرته، وأن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تمش أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، ولا تتبر من طول محبته. فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى تسقط عليك منها منفعة، وإذا جئت فسلِّم على القوم، وخُصَّه بالتحية، واحفظه شاهداً أو غائباً. وليكن ذلك كله لله، فإن العالم أعظم أجراً من الصائم القائم المجاهد في سبيل الله، وإذا مات / العالم انثلمت من الإسلام ثلمة إلى يوم [١١٣/أ] القيامة لا يسدها إلا خلف مثله، وطالب العلم تشيعه ملائكة السماء، وبالله التوفيق.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٢.

(٢) قال العراقي في المغني (٧١/١): رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه.

فهذه وظائف ما على المتعلم من الآداب وما به يتوفر علمه وإذا استكملها فهو أسعد طالب، وأنجح متعلم والله أعلم وأحكم.

الفصل الثاني: في وظائف ما على العالم المعلم المرشد من الآداب

اعلم أن الإنسان في علمه أربعة أحوال كحاله[١] ذلك في اقتناء الأموال، إذ لصاحب المال حالة استفادة فيكون مكتسباً، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعاً، وحال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلاً وهو أشرف أحواله.

وكذلك العلم يُقتنى كالمال فله حال طلب، واكتساب، وحال تحصيل يغني عن السؤال، وحال استبصار، وهو التفكر في المحصل والتمتع به، وحال تبصير وتعليم لغيره، وهو أشرف الأحوال.

فمن عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماوات؛ فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيب وهو طيب.

وأما الذي يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم، والمَسَن الذي يشحذ غيره ولا يقطع، وكالإبرة التي تكسوا غيرها وهي عارية، وكفتيلة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق وفي مثله يقال:

صرت كأني ذُبالةٌ نصبت ... تضيء للناس وهي تحترق[٢]

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً، فليحفظ وظائف آدابه[٣]، وتنحصر بالجملة في عشر وظائف:

إحداها: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه أولاً لئلا يكون كما قال / الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ [١١٤/ب] ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٤].

---

(١) في الأصل: «كماله». والتصويب من الإحياء.

(٢) في الإحياء جاء الشعر على النحو التالي:

ما هو إلا ذبالة وقدت ... تضيء للناس وهي تحترق

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٥٥).

(٤) سورة البقرة الآية: ٤٤.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ﴾[١] إلى قوله: ﴿يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[٣].

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[٤].

يعني أنه عامل بما علم، فإذا خالف فعل العالم قوله سقطت حكمته، وامتنع الناس من قبولها؛ لأن الحكمة والعلم إنما يدركان بالبصائر، والعمل والقول يدركان بالأبصار أكثر فكل من تناول شيئاً، وقال للناس: لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه، وزاد حرصهم عليه، فيقولون: لولا أنه أعز الأشياء وألذها لما كان ينفرد به.

ولذلك قيل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو منع الناس من فت البعر لفتوه وقالوا: ما نهينا عنه إلا وفيه شيء»[٥]. ولذلك قال الشاعر:

منعت شيئاً فأكثرت الولوع به أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

ومثال المعلم المرشد من المتعلم المسترشد: مثل العود من الظل، ومثل القلب من الجوارح فكيف يستوي الظل والعود أعوج؟ وكيف تستقيم الجوارح والقلب معوج؟

ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر، إذ يذل بذلته خلق كثير يقتدون به.

ومن سنّ سنة سيئة فله وزرها، ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة، ولذلك قيل عن علي بن أبي طالب أنه قال: قصم ظهري رجلان، عالم متهتك، وجاهل متنسك فالجاهل يغتر الناس بتنكسه، والعالم ينفرهم[٦] بتهتكه. فالواجب على العالم أن يعمل بما يعلم، ولا يقول بما لا يفعل، ولا يأمر بما لا يأتمر ولا يُسِرّ غير ما يظهر.

[١١٥/أ] وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «ويل لاتباع القول، وويل / للمصرين». يريد باتباع القول الذين يستمعون القول ولا يعملون به.

---

(١) سورة الجمعة الآية: ٥.
(٢) سورة الجمعة الآية: ٥.
(٣) سورة الصف الآية: ٣.
(٤) سورة يوسف الآية: ٦٨.
(٥) قال العراقي في المغني (٥٧/١): لم أجده. قلت: أطراف الحديث في: تذكرة الموضوعات (١٧٢)، وكشف الخفا (١٨٢/٢، ٢٢٨)، وإتحاف السادة المتقين (٣٤١/١).
(٦) في الإحياء (٥٨/١): «يغرهم» وراجع الوظيفة الثامنة.

ويروى أن الخضر عليه السلام قال لموسى عليه السلام: تعلم العلم لتعمل به، ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره.

وقيل في منثور الحكم: لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به.

وقال بعض الحكماء: خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع.

وعن علي أنه قال: إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم. وكان يقال: خير من القول فاعله، وخير من الصواب قائله، وخير من العلم حاصله.

وقال بعض البلغاء: من تمام العلم استعماله، ومن تمام العمل استقلاله، فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد، ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد.

قال أبو تمام الطائي:

ولم يحمدوا من عالم غير عامل خلافاً ولا من عامل غير عالم
رأوا طرق المجد عوجاً قطيعة وأقطع عجز عندهم عجز حازم

واعلم أن أمر العالم غيره بما لا يعمل به مطرح، وإنكاره بما لا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سبباً لإغراء المأمور بترك ما أمر به عناداً وارتكاب ما نهى عنه كياداً.

وقد حكي أن أعرابياً سأل ابن أبي ذئب عن كلام وقع منه في زوجته فأفتاه بطلاقها، فقال الأعرابي: انظر حسناً. قال: قد نظرت وقد بانت منك، فولى الأعرابي وهو يقول:

أتيت ابن ذئب ابتغي الفقه عنده فطلق حتى البت بُتت أنامله
اطلق من فتوى ابن ذئب حليلتي وعند ابن ذئب أهله وحلائله

فظن بجهله أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق، فما ظنك بقول يوجب اشتراك الآمر والمأمور فيه، كيف يكون مقبولاً منه وهو غير عامل به، ولا قائل له؟ كلا، حتى يأتمر به ويعمل /به؛ لأن علمه لما كان فيه حجة على من أخذه عنه، أو اقتبسه منه كان عليه [١١٦/ب] أحج وله ألزم؛ لأن مرتبة العمل قبل مرتبة القول كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل. وبالله التوفيق.

الوظيفة الثانية[1]: **الشفقة على المتعلمين: منه أن يجريهم مجرى بنيه في التعهد**

(١) راجع الوظيفة الأولى في الإحياء (١/ ٥٥).

لأحوالهم، وقد روي عن النبي عليه السلام من طريق ابن عمر أنه قال: «وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه العلم».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تُعلمون، وليتواضع لكم من تُعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهله. فلما كان الأمر ما وصفنا كان جديراً على المعلم أن يشفق على المتعلمين منه شفقة الوالد على أولاده.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «أنا لكم مثل الوالد أعلمكم أمر دينكم»[1]. وذلك أن يقصد بتعلمهم إنقاذهم من نار الآخرة فهو أهم من إنقاذ الأبوين ولدهما من نار الدنيا، ولذلك صار حق العالم المعلم أعظم من حق الأبوين؛ لأنهما سبب لوجود الولد في الدنيا الفانية، والمعلم سبب لخلوده في نعيم الحياة الآخرة الدائمة ـ أعني معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ـ.

وأما المعلم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله من سوابق الشقاء، فكما أن حق أولاده الرجال أن يتحابوا، ويتعاونوا على المقاصد فحق تلاميذ المعلم الواحد التحاب، والتعاون، ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة، ولا يكون إلا التحاسد، والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا.

فإن العلماء، وأبناء الدنيا مسافرون إلى الله عز وجل وسالكون إليه الطريق، فالدنيا وسنونها وشهورها منازل إليه.

[١١٧/أ] فكما أن / المسافرين في الطريق إلى بعض الأمصار لا بد لهم من التعاون، والتواد؛ حتى يقطعوا الطريق إلى المصر، وإذا اختلفت كلمتهم وتباغضوا كان ذلك سبب هلاكهم في الطريق.

فلما كان سفر الدنيا بهذه الحالة فالسفر إلى الله تعالى وإلى الفردوس الأعلى أحق بالترافق والتواد في طريقه، ولا ضيق في طريق سعادة الآخرة، ولذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع، ولا تباغض، ولا تحاسد.

وأما السالكون بطريق تعلمهم وتعليمهم طلب الرئاسة فهم خارجون عن موجب قول الله

---

(١) ذكر نحوه الغزالي في الإحياء، وعلق عليه العراقي في المغني (١/٥٥) بقوله: رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة.

تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١). وداخلون في قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(٢).

الوظيفة الثالثة: أن يقصد العالم بتعليمه وجه الله تعالى، ويقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه في أن يطلب ثواب الله في تعليم من علم وإرشاد من أرشد، ولا يطلب بذلك في الدنيا عوضاً ولا أجراً، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(٤).

وعن أبي العالية قال: لا تأخذوا عليه أجراً وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم علم مجاناً كما عُلمت مجاناً.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «أجر العالم كأجر الصائم القائم».

فحسب من هذا أجره أن يلتمس عليه أجراً أو يرى لنفسه منّة على المتعلمين منه، ولو كانت المنَّة لازمة لهم، بل ينبغي أن يرى لهم المنَّة عليه إذا طهروا قلوبهم بأن يتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها، كالذي يعيرك أرضه لتزرع فيها زراعة لنفسك، فالمنّة لصاحب الأرض عليك، وثواب المعلم في التعليم أكثر من ثواب المتعلم، ولولاه ما نال المعلم ذلك الثواب الجزيل فلا ينبغي /له أن يطلب الأجر إلا من الله تعالى وإلا فقد أبطل ثوابه، وخسر [١١٨/ب] سعيه، وإنما الأليق بالعلماء نزاهة النفوس عن شبهة المكاسب، والقناعة بالميسور من كدِّ المطالب.

فبذلك تزكو نفوسهم ويسلم لهم دينهم وأعراضهم، ويتوفر علمهم، وتوجد له الحلاوة والقبول في أنفس المتعلمين والمنتفعين منهم؛ لأن شبهة المكسب عار في الدنيا ونار في العقبى، وكذا المطلب إذلال للنفس وإهانة للعلم. وأنشد الماوردي لعليّ بن عبد العزيز القاضي الجرجاني:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١٠.
(٢) سورة الزخرف الآية: ٦٧.
(٣) سورة هود الآية: ٢٩.
(٤) سورة البقرة الآية: ٤١، وسورة المائدة الآية: ٤٤.

أرى الناس من دناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما زلت منحازاً بعرضي جانباً من الذم اعتد الصيانة مغنما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من في الأرض أرضاً منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهها عن بعض ما قد يشينها مخافة أقوال العدا فيما أولما
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لقيت لكن لأخدما
اشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
فلو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

انظر كيف انتهى أمر الذين يزعمون أنهم للعلم موضع وللدين مفزع، وأن مقصدهم به حشد الجهال وكثرة الاتباع، ومخالطة ذي الأموال من الغوغاء والرعاع وأن غرضهم بهذا كله كما زعموا إحياء الدين وإقامة الحق المبين فاضطرهم حب الدنيا وطلب الرئاسة، وجمع الحطام إلى استدراج العوام بالخدع الدينية واستعمال / المداهنة في الدين حتى اندرس الكلية، [١١٩/أ] فصاروا ضحكه عند الجهال وخدّاماً لأرباب الأموال يتذلل أحدهم للجاهل من تلامذته، وينتهض له حماراً مسخراً لقضاء حاجاته، فإن قصر في ذلك ثار عليه وصار من أعد أعدائه.

أخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة، ثم يفرح مع ذلك برضاء الجاهل عنه، واجتماع السفلة عليه فصار من يدّعي العلم والمعرفة يتضرع للجهال، ويتبصبص لذوي الأموال.

كيف والمال وجميع ما في الدنيا خادم للبدن الذي هو مركب للنفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس ونجاتها؟

فمن طلب المال بالعلم كان كمن مسح نعله برجله ليطهر النعل من الأنجاس، فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً.

ما هذا لعمري هو التعس، والانتكاس على أم الرأس فكيف يفرح العاقل بهذه المنزلة ويرضى بها، ثم لا يستحي ويقول: إن غرضي إحياء الدين والتقرب إلى الله تعالى بإقامة الحق المبين فانظروا واعتبروا(١). وبالله التوفيق.

---

(١) راجع الوظيفة الثانية في الإحياء بنحو هذا الكلام (١/٥٦).

الوظيفة الرابعة: النصيحة للمتعلمين والرفق بهم، وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم؛ فإن ذلك أعظم لأجرهم، وإسناد لذكرهم، وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلومهم، ومن النصيحة للمتعلم أن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي.

ثم ينبهه على أن مطلب العلوم القرب من الله تعالى دون الرئاسة، والمباهات والمنافسة ويقبح في نفسه ذلك بأقصى ما يمكن من التقبيح فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده.

واعلم أن المتعلمين ضربان: مستدع، وطالب. فأما المستدعي إلى العلم: فهو من استدعاه / العالم إلى التعلم لما ظهر له من جودة ذكائه وقوة خاطره، فإذا وافق استدعاء العالم [١٢٠/ب] شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك السعداء، وظفر النجباء؛ لأن العالم باستدعائه متوفر، والمتعلم بشهوته مستكثر.

وأما الطالب للعلم لداع يدعوه وباعث يحدوه: فإن كان الداعي دينياً وكان المتعلم يقظاناً ذكياً وجب على العالم أن يكون عليه مقبلاً وعلى تعليمه متوافراً لا يخفى عنه مكنوناً ولا يطوي عليه مخزوناً.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال لعلي بن أبي طلب: «لئن يهدي الله بك رجلاً خير ممن طلعت عليه الشمس».

وإن كان بليداً بعيد الفطنة فينبغي ألا يمنع من اليسير فيحرم، ولا يحمل عليه الكثير فيظلم، ولا يجعل بلادته ذريعة إلى حرمانه، فإن الشهوة باعثة والصبر مؤثر.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ولا تضعوه في غير أهله فتأثموا».

وقال بعض الحكماء: لا تمنعوا العلم أحداً فإن العلم أمنع لجانيه. فإن لم يكن الداعي دينياً نظر فيه، فإن كان مباحاً كرجل دعاه إلى طلب العلم حب النباهة، وطلب الرئاسة، فالقول فيه يقارب التعليم له، إذ كان مطلوبه من العلم ما يرجاه أن يعطفه في الحال الثاني، وذلك مثل علم التفسير، والحديث، وعلم الآخرة، ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها، وما أشبه ذلك مما كان الأولون يشتغلون به

ولذلك حكي عن سفيان الثوري أنه قال: تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلاّ لله.

وقال ابن المبارك: تعلمنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا.

وذلك العلم مثل ما قدمناه من علم التفسير والمواعظ، فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه؛ فإنه ربما يتشمر له الطالب طمعاً في الوعظ به للجاه والاستتباع ولكنه ربما يتنبه في آخر الأمر إذ فيه العلوم / المخوفة من الله عز وجل المحقره للدنيا المعظمة للآخرة. [١/١٢١]

وذلك يوشك أن يرده إلى قصد الآخرة؛ حتى يتعظ بما يعظ به غيره ويجري تحبيب القبول والجاه بذلك أول مرة مجرى الحَب الذي ينثر حوالي الفخ ليقتنص به الطير.

وقد فعل الله ذلك لعباده إذ خلق الشهوة؛ نيصل الخلق بها إلى بقاء النسل، وخلق أيضاً حب الجاه ليكون سبباً لإحياء العلوم، وهذا متوقع في هذه العلوم.

وأما علوم المجادلات والفتاوى والخصومات والأشعار التي فيها السخف، وأشباه ذلك فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة في القلب، وغفلة عن الله سبحانه وتمادياً في الضلال وجمعاً للحطام إلاّ من تداركه الله سبحانه برحمته.

وأما إن كان الداعي إلى التعليم شراً كامناً ومكراً باطناً يريد أن يستعملهما المتعلم في شبهة دينية وحيل فقهية لا يجد أهل السلامة عنها مخلصاً، ولا فيها مدفعاً. كما قال النبي عليه السلام: «لا أخاف عليكم مؤمناً ولا مشركاً؛ لأن المؤمن قد شغله إيمانه، والمشرك قد أذله الله بشركه ولكن أخاف عليكم منافقاً عالم اللسان، جاهل القلب. . . . » الحديث.

وقال عليه السلام: «أهلك أمتي رجلان: عالم فاجر، وجاهل متعبد». وقيل: يا رسول الله، أيُّ الناس أشر؟ فقال: «العلماء إذا فسدوا».

فينبغي للعالم إذا رأى من هذا حاله أن يمنعه من طلبته، ولا يعينه على إمضاء مكره وخديعته؛ فإن إعانة من هذه حالته بسلاح العلم يجري مجرى إعانة قاطع الطريق بالسلاح.

وقد روي عن أبي المنيب حامد بن يانيس رحمه الله: أنه كان إذا أتاه أبو خليل الدركلي رحمه الله للتعلم، فإن وجده مضطجعاً قعد على نفسه، أو مغطياً وجهه كشف عنه، وإن أتاه أخوه عمرو بن يانيس فإن وجده قاعداً اضطجع، أو مكشوفاً وجهه غطاه. فقيل / له في ذلك، [١/١٢٢] فقال أبو خليل: إنما يتعلم لله وأما عمرو فإنما يتعلم ليؤذي المسلمين ويعنتهم. فكان الأمر كما قال الشيخ: فكان أبو خليل قائماً بالدين قادة في الإسلام، فصار عمر وبالاً على المسلمين وصاحباً لخلف بن السمح فأحدث أحداثاً في الإسلام، فكان يتتبع زلات المسلمين ويكتب بها إلى الإمام عبد الوهاب رضي الله عنه فكتب إليه الإمام فقال: أعاذنا الله يا عمرو من النزول بعد

الطلوع، ومن الترك بعد الاجتهاد، ومن بغض المسلمين بعد محبتهم، ومن نفاق تخفيه الأبدان، ومن أشياء ليس لها تجارب. فقال: بلغوه الكتاب، وما أظن أن تدركوه إلا ميتاً، فلعل أن تدركوا جنازته، فوجدوه كما [قال] حمل إلى القبر(١). والله أعلم.

وفي روايات أبي سفيان محبوب رحمه الله قال: كان رجل ممن يقر بهذه الدعوة يقال له: سلمة، ثم ظهرت منه أشياء: كان يكتب بطائق يشتم فيها المسلمين ويعيبهم، ويلقيها في المجالس حتى وجدوا نيّفاً على أربعين بطاقة من عيب المسلمين وشتمهم فاجتمعوا لذلك ليظهروا أمره للمسلمين ويتبرأوا منه.

قال: فتكلم أبو روح مغلس فقال: إنا وجدنا كتباً فيها عيب المسلمين، وشتمهم فوالله ما كتبها إلا شيطان فعلى من كتبها لعنة الله ثم تتابع المتكلمون على مقالة أبي روح، ولم يسموا أحداً.

قال: فخرج سلمة إلى البحر فغرق فيه، فعافاهم الله تعالى من شره. فإذا رأى العالم في المتعلمين أمثال هؤلاء الفساق الذين يكون علمهم وبالاً على المسلمين، ومميتاً للدّين فليقْصِم ولا يُفِدْهُم العلم؛ لئلا يكون شريكهم في الشر والإثم.

وقد روي عن النبي عليه السلام من طريق أنس أنه قال: «واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ».

وعن عيسى عليه السلام: «لا تلقوا اللؤلؤ للخنزير».

وفي حديث آخر: «لا تلقوا الدر في أفواه الكلاب».

/ فالعلم أفضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير. [١٢٣/ب]

وحكي أن: تلميذاً سأل عالماً عن بعض العلوم فلم يفده. فقيل له: لم منعته؟ فقال: لكل تربة غرس ولكل بناء أس.

وقال بعض البلغاء: لكل ثوب لابس، ولكل علم قابس.

وقال بعض الأدباء: إرث لروضة توسطها خنزير وإرث لعلم حواه شرير. قال الشاعر.

إنـي وتـأبيـنـي بمـدحـي معشـراً كمعلـق دراً علـى الخنـزيـر

---

(١) هذه رواية يتضح فيها المبالغة حيث أن بها علماً للغيب الذي خصّ الله تعالى به نفسه. وكذا لم يجزم الشيخ بصحتها حيث عقب عليها بقوله: والله أعلم.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها؛ فتظلموها، ولا تمنعوها من أهلها، فتظلموهم.

ويقال: من أعطى الحكمة غير أهلها حاكمته الحكمة إلى ربها. وأنشد بعض السلف من العلماء:

لعمري لئن ضيعت في شر بلدة فلست مضيعاً عندهم غرر الكلم
فإن فرج الله اللطيف بفضله وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
صبرت مفيداً واستفدت ودادة وإلا فمخزون لدي ومكتتم
ومن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم
ومانع علم الدين ممن يريده يبوء بأوزار وإثم إذا حرم[1]

ويروى أن سفيان الثوري رؤي حزيناً فقيل له: مَا لَكَ؟ قال: صرنا متجراً لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل عاملاً أو قاضياً أو قهرمانا[2]. والله أعلم.

وينشد للمتنبي:

قالوا: نراك تطيل الصمت قلت لهم: ما طول صمتي من عيّ ولا خرس
لكنه أفضل الأمرين عاقبة عندي وأجمله من منطق شكس
أأنشر البز فيمن ليس يعرفه أم أنثر الدر بين العمي في الغلس

وأما إذا كانت زلة المتعلم بينه وبين الله تعالى فلا ينبغي أن يقصى، ويحرم العلم بل يلطف به لعلمه، ويتوب إذا كان الخير فيه مرجوا، والشر من قلبه مأموناً.

[١٢/أ] وفي روايات أبي سفيان محبوب / رحمه الله أنه قال: كان حاجب رحمه الله يقول لعبد الملك الطويل فيما يؤدبه فيه: يا عبد الملك إذا كان أحد يعيب عليه المسلمون في أشياء تكون بينه وبين الله تعالى فاستروا عليه وعظموه، واحضروه مجالسكم، وارفقوا جهدكم عسى الله أن يتوب عليه، وإذا كان أحد يعيب عليه المسلمون في خلافهم في الدين يريد أن يشغب عليهم ويفتق عليهم فتاقاً، فابدوا عورته، واهجروه، ولا تحضروه مجالسكم، وأَعْلِمُوا الناس به حتى يكونوا منه على حذر، أو يتوب[3]. والله أعلم.

---

(١) نحو هذا الشعر في الوظيفة السادسة من الإحياء (١/٥٧).
(٢) راجع هذا الأثر بآخر الوظيفة الثالثة بالإحياء.
(٣) راجع الوظيفة الثالثة في إحياء علوم الدين (١/٥٦) فقد جاء بها بعض هذا الكلام دون الأشعار.

الوظيفة الخامسة: ينبغي للعالم أن يكون له فراسة يتوسم بها أحوال تلامذته وغيرهم من جميع المتعلمين منه من الناس فيعطي كل واحد منهم مبلغ طاقته وقدر استحقاقه، فيعطيه ما لا يجهله بذكائه، ولا يضعف عن بلادته، فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم.

وقد روي عن النبي ﷺ من طريق أنس بن مالك أنه قال: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم».

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: إذا أنا لم أعلم ما لم أر، فلا علمت ما رأيت.

وقال عبد الله بن الزبير: لا عاش بخير ما لم ير برأيه ما لم ير بعينه.

وعن أبي عمر بن العلاء كان ابن العباس ألمعياً، قال أبو عبيدة: الألمعي الذي يهجم بظنه على اليقين.

وقال أبو العيناء: سألت الأصمعي عن الألمعي، قال: هو الذي يلمع الحق في ظنه فيهجم عليه بيقين.

وقال غيره: سألت أبا زيد عن الألمعي، فقال: الذكي المتوقد الذي يكون بظنه أوثق منك بيقين.

قال ابن الرومي:

الألمعي يرى بأول امره ... آخر الأمر من وراء المغيب

لو دعي له فؤاد ذكي ... ما له في فؤاده من ضريب

لا يروي ولا يقلب طرفاً ... واكف الرجال في التقليب

/ ويروى أن أبا عبيدة مسلم رحمه الله قال لأحد حملة العلم عنه: افت بما سمعت مني [١٢٥/ب] وما لم تسمع، وهو الإمام عبد الرحمٰن بن رستم رحمه الله. وقال لآخر: افت بما سمعت مني وهو أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري الإمام رحمه الله. وقال للثالث: لا تفت أنت بما سمعت مني ولا بما لم تسمع وهو أبو داود القبلي. ثم كان الإمام عبد الوهاب رحمه الله في زمانه عند أبي داود كالصبي قدّام المعلم، ما أوتي الإمام من العلم والعقل.

انظر إلى فراسة أبي عبيدة في تلامذته حتى عرف مبلغ علم كل واحد منهم، ومبلغ عقله فأمره بما يليق بعلمه وعقله، ثم انظر إلى أبي داود: الذي حظر عنه الفتوى على كل حال وهو قد بلغ من العلم والفضل الدرجة التي يجلس من أجلها الإمام عبد الوهاب بين يديه كالصبي بين يدي المعلم.

ثم انظر إلى الذين عرّضوا أنفسهم لإحياء الدين، وإقامة الفتوى بزعمهم من أهل زمانك، حتى تعرف أحوال السلف الصالح من أهل زمانك، فإذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً لم يضع له عناء ولم يخب على يده متعلم، وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم، ومبلغ استحقاقهم كانوا وإياه في عناء مكدّ، وتعب غير مجدّ، لأنه لا يعدم أن يكون فيهم ذكي يحتاج إلى الزيادة، وبليد يحتاج إلى القليل فيضجر الذكي، ويعجز البليد.

ومتى تردد أصحابه بين ضجر وعجز ملوه وملهم ولذلك قيل: كِلْ لِكُلٍّ عبد بمكيال عقله، وزِنْ له ميزان علمه حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلاّ وقع الإنكار لتفاوت المعيار، فلذلك ينبغي أن يقتصر العالم بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفر منه، ولكن يقتدي بصاحب الشرع ﷺ حيث قال: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونخاطب الناس على قدر عقولهم»[1].

[١٢٦/أ] / فإن كان المتعلم ممن يستقل بفهم الحقائق، فليلقها إليه، وإلا اقتصر على ما يفهمه.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «ما من رجل يحدث قوماً بما لم تبلغه عقولهم إلاّ كان فتنة على بعضهم».

وفي حديث علي إشارة إلى صدره فقال: هاهنا علوماً جمة لو وجدت لها حملة، وصَدَق فقلوب الأبرار قبور الأسرار.

وقال النبي عليه السلام: «كلموا الناس بما يعرفونه، ودعوا ما ينكرونه، أتريدون أن يكذب الله ورسوله».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من وضع الحكمة في غير أهلها جهل، ومن منعها من أهلها ظلم، إن للحكمة حقاً، وإن لها أهلاً فاعط كل ذي حق حقه».

وفي لفظ آخر: «كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء موضع الداء» فلا ينبغي للعالم أن يفشي كل ما يعلمه إلى كل أحد هذا إذا كان من يفهمه من الناس وكان أهلاً لذلك العلم.

والذي ينبغي للعالم أن لا ينشر للمتعلم رخص الفتاوى، والمسائل إلاّ إذا كان مأموناً

(١) قال العراقي في المغني (٥٧/١): رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه وعند أبي داود من حديث عائشة: «أنزلوا الناس منازلهم. . . .».

على الدين أهلاً لذلك؛ لأن الرخص إنما هي للمضطرين، والمتعلم إذا لم يكن أميناً فإنه يستعمل الرخص مختاراً لا مضطراً.

وقد قال بعض العلماء لبنيه: إياكم والمرخصين لئلا تفارقوا دينكم وأنتم لا تشعرون.

وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب، فقال السائل: أما سمعت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجامٍ من نار»[١]. فقال: اترك اللجام واذهب؛ فإن جاء من يفقه فكتمته فليلجمني.

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾[٢].

قال: فيه تنبيه على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى.

وقال بعض العلماء: الحكماء خير من لا يقل ولا يمل.

وقال بعض العلماء: كل علم أكثر على السمع فلم يطاوعه الفهم ازداد عماً به القلب، وإنما ينفع السمع في الآذان إذا قوي فَهم القلوب في الأبدان[٣]. وبالله التوفيق.

الوظيفة السادسة: ينبغي للعالم أن لا يُعَنِّف / متعلماً، ولا يحقِّر ناشئاً، ولا يستصغر [١٢٧/ب] مبتدئاً؛ فإن ذلك أدعى إليه وأعطف للمسترشدين إليه، وأحث على رغبتهم فيما لديه.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَلِّموا ولا تعنفوا؛ فإن المعلم خير من المعنف». ولكن إذا ظهر من المتعلم أخلاق السوء، ينبغي له أن يزجره عن ذلك بطريق التعريض دون التصريح ما أمكن له ذلك، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ؛ لأن التصريح بذلك والتوبيخ له يورث الجرأة على المخالفة، ويهيج الحرص على الإصرار، ويهتك حجاب الهيبة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لو منع الناس من فت البعر لفتوه، وقالوا: ما نهينا عنه إلا وفيه شيء»[٤].

وينبغي للعالم إذا لم يكن متكفلاً بجملة العلوم ألا يقبح في نفس المتعلم ما لم يحط به من العلوم، كالعالم باللغة مثلاً: لا يقبح علم الفقه، والعالم بالفقه لا يقبح علم الحديث والتفسير، ويقول إن ذلك نقل محض وسماع وهو من شأن العجائز، ولا نظر للعقل فيه.

---

(١) قال العراقي في المرجع والموضع السابق: رواه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف.

(٢) سورة النساء الآية: ٥.

(٣) راجع الإحياء (١/٥٧) الوظيفة السادسة.

(٤) سبق ذكر الحديث والتعليق عليه قبل قليل.

وكذا العالم بالكلام لا يقبح علم الفقه ويقول: ذلك فرع وهو كلام في حيض النسوان، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن، فهذه أخلاق مذمومة من العلماء الذين تعرضوا للتعليم فينبغي أن يجتنبوها بل العالم المتكفل بعلم واحد ينبغي له أن يوسع على المتعلم طريق التعليم في غير فنه هو، وإن كان متكفلاً بعلوم مختلفة فينبغي أن يراعي التدريج في ترقي المتعلم من رتبة إلى رتبة. وبالله التوفيق(١).

الوظيفة السابعة: أن لا يبخل العالم بتعليم ما يحسن ولا يمنع من إفادة ما يعلم فإن البخل به لوم وظلم والمنع منه حسد وإثم. فكيف يساغ له البخل بما منحه جوداً من غير بخل، وأوتيه عفواً من غير بذل، أم كيف يجوز له الشح بما أن بذله زاد، وإن كتمه تناقص ووها وينشد:

أبـا بكـر دعـوتـك إن أطعـت ... إلـى مـا فيـه حظـك إن غفلـت
/ إلـى علـم تكـون بـه إمـامـاً ... مطـاعـاً إن أمـرت وإن نهيـت [١٢٨/أ]
ويجلـو مـا بعينـك مـن غشـاهـا ... ويهـديـك السبيـل إذا ضللـت
ينـالـك عفـوه مـا دمـت حيّـاً ... ويبقـى ذخـره لـك إن ذهبـت
وتحمـل منـه فـي دنيـاك تـاجـاً ... ويكسـوك الجمـال إذا اعتـريـت
هـو العضـب المُهنَّـدُ ليـس ينبـو ... تصيـب بـه مقـاتـل مـن ضـربـت
وكنـزاً لا تخـاف عليـه لصّـا ... خفيف الحمل يوجد حيث كنت
يـزيـد بكثـرة الإنفـاق منـه ... وينقـص إن بـه كفـاً شـددت

فكيف يبخل من هذه صفته، ولو سن ذلك من تقدمه لما وصل منه عنده بغيته، ولا انقرض بانقراض الأولين ولصار على مرور الأيام من الجاهلين.

وقال بعض الحكماء: إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل، فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل.

وقال بعض الحكماء: كما أن الاستفادة ليست نافلة للمتعلم، كذلك الإفادة فريضة على المعلم، ثم له بالتعليم نفعان:

أحدهما: ما يرجوه من ثواب الله تعالى، فقد جعل النبي عليه السلام التعليم صدقة فقال: «تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأي يسدده».

---

(١) راجع الإحياء (٥٦/١، ٥٧) الوظيفة الرابعة، والوظيفة الخامسة ففيهما من هذا الكلام كثير.

وعنه عليه السلام من طريق ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «تعلموا وعلموا؛ فإن أجر العالم والمتعلم سواء» قيل: وما أجرهما قال: «مائة مغفرة، ومائة درجة في الجنة».

والنفع الثاني: زيادة العلم وإتقان الحفظ. فقد قال الخليل بن أحمد: اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيهاً على ما ليس عندك.

وقال بعض العلماء: ينبغي للعالم أن لا يعجل ببذل العلم لطالبه في أول أمره بل يردده ثلاث مرات ويُعِدْهُ لا يوئسه، فإن وجده معاوداً طالباً ومتردداً راغباً أجاب مسألته وأعطاه بغيته، وإن وجده تاركاً للمعاودة فليس هو من أهل الفائدة.

وقد /رفع عن أبي عبد الله محمد بن بركة رحمه الله أنه: كان يتردد إلى أبي مالك طالباً للتعلم منه وهو يدافعه دفعات، فلما تصور عنده رغبته وتحقق إرادته، أقبل إليه فعلمه وأكرمه. [١٢٩/ب]

فينبغي للعالم إذا رضي من جاءه للتعلم أن يعلمه، ولا يحرمه، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «استودعوا العلم الأحداث إذا رضيتموهم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين». وإن رآه للجهل راكباً وعن التعلم ناكباً أعرض عنه إهمالاً ولم يجعل له بالاً، بل يبعده عنه، ويوئسه منه. وبالله التوفيق.

الوظيفة الثامنة: ينبغي للعالم إذا سأله السائل متعلماً أن يجيبه، وإن عاوده مستفهماً أن يفيده، ولا يضجر؛ لأنه ربما لم يفهم عنه الجواب في أول إجابته وإن أبان له أن يسأله متعنتاً أو عابثاً أو طالب رخصة متأولاً صمت عنه ولم يجبه.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أمسك عن إجابة المتعنت، وهو حَبْر الأمة وربانيها القائل: من يسألني عما دون العرش أخبره.

وقد روي أن علياً بن أبي طالب سأله ابن الكواء وهو على المنبر، فقال: اجلس يا ابن الكواء فإنك متعنت ولست بمتفقه. فقال: والله ما أنا بمتعنت، وإني لمتفقه وإنك لإمام وأنا الرعية، وإن لله الحجة عليك. فقال: ويلك يا ابن الكواء اسأل تفهماً فبين أضلاعي علم جم.

فهذا عليّ توقف عن الجواب لما ظن أنه متعنت، ثم أجابه إذ أقسم له أنه متفقه. والتعنت مأخوذ من العنت، وهو إدخال المشقة على الإنسان؛ لأن المتعنت يريد بسؤاله /الأذى والامتحان. وأنشد الماوردي: [١٣٠/ب]

يحاول إعناتي بما قال أو رجى ليضحك مني أو ليضحك صاحبه

وكان بعض العلماء إذا سُئل عن أمر يكره فيه الجواب تمثل بهذا البيت:

أرى الصمت خيراً من أمور كثيرة إذا لم يكن للناطقين كلام

وقيل كان الشيخ أبو محمد من أصحابنا إذا سئل عن غير مذهبه تمثل بهذا البيت:

تحاول مني شيمة غير شيمتي وتطلب مني مذهباً غير مذهبي

وقيل: جاء أعرابي إلى المأمون ليستمنحه فأراد المأمون إمتحانه فقال: يا أعرابي كم عليك من صلاة؟ فقال:

إن الصلاة أربع فأربع ثم ثلاث بعدهن أربع

ثم صلاة الفجر لا تضيع وهي اثنتان فاستمع ما أشرع

ثم قال للمأمون: يا أمير المؤمنين كم فيك من كافٍ؟ ولم يدر المأمون قال: فأخبرني يا أعرابي. فقال: فيك الكاهل، والكتد، والكتف، والكشح، والكبد، والكُلْيَة، والكرسوع، والكف، والكعب، فوصله وأحسن جائزته.

فالكاهل: مقدم الظهر مما يلي العنق وهو الثلث الأعلى فيه ست فقرات. والكتد: ما بين الكشح إلى منتصب الكاهل. والكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع وهو موضع السيف من المقلد. والكرسوع: طرف الزند الذي يلي الخنصرة. والكادة: من الفخذ موضع الكي من جاعرتي الحمار. والله أعلم.

الوظيفة التاسعة: ينبغي للعالم أن يكون أوسع الناس صدراً؛ وأكثرهم صبراً، وأجملهم لقاء، وأحسنهم أخلاقاً؛ لأن المتعلمين منه يحدون خلائقه ويتخذون طريقه. فيجب أن يكون لهم أسنا الأفعال منهاجاً، ومن غيّ الضلال سراجاً، فلا يمنع طالباً، ولا يؤيس راغباً، ولا ينفر متعلماً، في ذلك من قطع الرغبة منه والزهد فيما لديه واستمرار ذلك مُفْضٍ إلى انقراض العلم /بانقراضه. [١٣١/أ]

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بالفقيه، مَن الفقيه»؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «مَنْ لا يقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا علم ليس فيه تَفَهُّم، ولا قراءة ليس فيها تدبر». وينبغي له أن يختبر المتعلم؛ ليعرف موضعه من المعرفة.

وعن محمد بن القاسم قال: أتيت عبد الله بن داود الحراني لأسمع منه، فخرج إليّ

فقلت: أرأيت أن تحدثني؟ قال: أقرأت القرآن. قلت: نعم. قال: اقرأ عليّ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾[1]. فقرأته فقال: أصبت. ثم قال: نظرت في الفرائض؟ فقلت: نظرت في شيء من الكبر وبعض الصلب. قال: أيما أقرب إليك ابن أخيك أم ابن عمك؟ قلت: ابن أخي. قال: ولم قلت؟ لأن ذلك من ولد جدي وذا من ولد أبي. قال: أصبت. ثم قال لي: نظرت في شيء من العربية؟ قلت: نعم. قال: ما معنى قول عمر رضي الله عنه حين ضربه أبو لؤلؤة يا لعباد الله يا للمسلمين؟ ولم يقل يا للعباد ويا للمسلمين. فقلت: استغاث مما نزل به. قال: أصبت لو كنت اليوم محدثاً لحدَّثتك.

فقد اختبره، ليعلم موضعه ويقف على ما معه فيعطيه من التعليم حقه، ولا يبخسه منه حظه. وينبغي للعالم إذا جاءه كتاب فيه سؤال عن نازلة أن يشاور في جوابها من بحضرته ممن يصلح لذلك، ويقرأ ما فيها عليهم؛ فإن ذلك اقتداء بالسلف قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[2]. إلا إن كان في الكتاب ما ينبغي أن يكتم عن غيره، أو في الجواب ما ينبغي أن ينفرد به دون من بحضرته فليكتم عنهم قراءته، وليجب عن السؤال الذي فيه دون مشاورة جلسائه.

كما قيل عن بعض أصحاب الشافعي أنه قال: كان الشافعي إذا جاءته فتوى عرضها على أصحابه وسأل كل واحد منهم / عما عنده. [١٣٢/ب]

قال الربيع: فجاءته رقعة في بعض الأيام فقرأها وتبسم وكتب الجواب من غير إعلامنا بذلك كالعادة. قال: وكان فيها سئل المفتي المكي: هل في تزاور، وضمة مشتاق الفؤاد جناح؟ فأجاب عن ذلك فقال:

أقول معاذ الله أن يذهب التُّقا ... تلاصق أكباد بهن جراح

وقيل إن امرأة جاءت إلى الحسن البصري فقالت شعراً:

يا حسن البصرة يا ذا النهى ... إني إلى وجهك مشتاق

قل لي وأنت المرء ذو حكمة ... في كل ما تحكيه صداق

هل جائز تقبيل رعبوبة ... وردية الخدين براق

فأجابها الحسن:

---

(١) سورة يونس الآية: ٧١.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

أقـول والـرحـمـن لـي شـاهـد ... مـا أنـا بـالفحشـاء نطـاق
إن كنـت للتقبيـل ذا إربـة ... مشتهـى للهـوى تـواق
حـرمـت فـي الجنـة حـوريـة ... ورديـة الخـديـن رقـراق
فـاستشعـر التقـوى وكـن خـاشعـاً ... فـإن تقـوى الله تـريـاق

وسألته امرأة أخرى فقالت: يا أبا سعيد أيحل للرجل أن يتزوج على امرأته وهي حسناء جميلة؟ فقال: نعم. فقالت: بعيشك يا أبا سعيد لا تفتي الرجال بهذا، والله أعلم.

فهذه وأمثالها مما ينبغي أن يتفرد المفتي بقراءة كتاب سؤالها وينفرد بالجواب عنها.

وينبغي للمفتي أن يتأمل المسألة تأملاً شافياً كلمة بعد كلمة ويكون توقفه في المسألة السهلة كتوقفه في الصعبة، ليكون ذلك عادة له.

وينبغي له أن يختصر الجواب ولا يطيل وقد حكي أن بعض أمراء البصرة سأل الحسن وابن سيرين عن مسألة، فاختصر الحسن وأطال ابن سيرين فلما خرجا قال الأمير: أما الحسن ففقيه وأما ابن سيرين فقاصر. والله أعلم.

الوظيفة العاشرة: ينبغي للعالم إذا سئل أن لا يعجل بالجواب وإن كان له حافظاً؛ حتى يتفكر فيه ويعرفه معرفة صحيحة فيجيب / بعلم ويقين فإن ذلك من آداب العلماء. [١٣٣/أ]

وقد روي في الحديث: «المؤمن وقّاف، والمنافق وثّاب».

وينبغي إذا سئل عما يعلم أن يجيب، ولا يقول: لا أدري؛ فإنه مكروه وكذب.

وقد قيل أن الرياء سبعة وسبعون باباً، أدناه حين يقول فيما يدري: لا أدري.

وعن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهما سأل أصحابه عن قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾[1] الآية. فقالوا: الله أعلم. فغضب فقال: قولوا نعلم، أو لا نعلم.

وعن عمر أيضاً أنه سأل رجلاً عن شيء فقال: الله أعلم، فقال عمر: قد خزينا إن كنا لا نعلم أن الله يعلم، إذا سئل أحدكم عن شيء فإن كان يعلمه فليقله، وإن كان لا يعلمه قال: لا علم لي بذلك، لأنه لما لم يكن لي الإحاطة بالعلم سبيل.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٦٦.

فلا عار أن يجهل بعضه، وإن لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول: لا أعلم فيما ليس يعلم.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «من سئل وأفتى بغير علم فقد ضل وأضل».

وقال بعض الحكماء: أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم، فحسبك خجلاً من عقلك أن تنطق بما لا تفهم.

ولقد أحسن الشاعر حيث يقول:

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده ... أطال فأملي أم تناهى فأقصر

ويخبرني عن غائب المرء فعله ... كذا الفعل عما غيب المرء مخبر

قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[3].

وقد روي أن رجلاً سأل النبي عليه السلام: أيُّ البقاع خير، وأيُّ البقاع شر؟ فقال: «لا أدري حتى أسأل جبريل».

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: خمس خذوهن عني فلو ركبتم فيهن الفلك ما وجدتموهن إلا عندي: ألا لا يرجون أحد إلاّ ربه، ولا يخافن إلاّ ذنبه، ولا يستنكف أن يتعلم ما ليس عنده، وإذا سئل /عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ومنزلة الصبر من الإيمان كمنزلة [١٣٤/ب] الرأس من الجسد.

وعن عليّ أيضاً قال: ما أبردها على الكبد، قالها ثلاث مرات، وقالوا: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟

قال: إذا سئل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم، أيّ أرض تسعني وأي سماء تظلني إذا قلت على الله ورسوله ما لا أعلم.

وفي لفظ آخر قال: فإن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٣٣.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٣٣.
(٣) سورة الإسراء الآية: ٣٦.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: على منبر النبي ﷺ يأنف أحدكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: إذا ترك العالم قول: لا أدري أصيبت مقالته.

وقال بعض العلماء: هلك من ترك لا أدري.

وقال بعض البلغاء: من قال لا أدري، علم فدرى، ومن انتحل ما لا يدري، أهمل فهوى. وقال ابن دريد:

ومن كان يهوى أن يرى متصدراً ويكره لا أدري أصيبت مقالته

وحرام على الإنسان أن يتكلم بما لا يعلم، ولا سيما في الدين فإنه لا يخلو أن يحل حراماً أو يحرم حلالاً.

وقد قالت "علماء: تحريم الحلال كتحليل الحرام وحَسْبُ المرء إذا سئل عما لا يعلم أن يجيب بما أجابت به ملائكة الله حين قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾[1].

وينشد لعبد الله بن مصعب ولقد أحسن:

ترى المرء يعجبه أن يقول وأسلم للمرء أن لا يقولا
فأمسك عليك فضول الكلام فإن لكل كلام فضولا
ولا تصحبن أخا بدعة ولا تسمعن له الدهر قيلا
فإن مقالتهم كالضلال يوشك افياؤها أن يزولا
وقد أحكم الله آياته وكان الرسول عليها دليلاً
فأوضح للمسلمين السبيل فلا تبعن سواها سبيلا

[١٣٥/أ] / فلا يجوز للمسؤول أن يجيب إلا بما يعلم صحته إما حفظاً أو رأياً، إن كان ممن يجوز له اجتهاد الرأي، ولا ينبغي للعالم وإن صار في طبقة العلماء الأفاضل أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف له.

وعن عيسى عليه السلام قال: يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت، وعلم الجهال ما علمت.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: لو كان أحد مكتفياً من العلم لاكتفى منه

---

(١) سورة البقرة الآية: ٣٢.

موسى عليه السلام حيث قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[١].

وقيل للخليل بن أحمد: بم أدركت هذا العلم؟ قال: كنت إذا لقيت عالماً أخذت منه وأعطيته.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: اثنان منهومان لا يشبعان أبداً: طالب علم، وطالب دنيا، أما طالب العلم: فإنه يزداد قرباً من الرحمن، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٢].

وأما طالب الدنيا: فإنما يزداد طغياناً، ثم قرأ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٣].

ولا ينبغي للعالم أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا يتجاوز بها قدر حقها؛ لأن من جهل حال نفسه كان لغيره أجهل.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله متى يعرف الإنسان ربه؟ قال: «إذا عرف نفسه».

وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما علموه، أو جهلوه أربعة أقسام متوالية لا يخلوا الإنسان منها فقال: الرجال أربعة أقسام: رجل يدري، ويدري أنه يدري فذلك عالم فاسألوه[٤].

ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك نائم فأيقظوه، فذكروه[٥].

ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه.

ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه[٦].

وأنشد الماوردي لأبي القاسم الآمدي وأظن أن هذا البيت أول الأبيات:

(١) سورة الكهف الآية: ٦٦.
(٢) سورة فاطر الآية: ٢٨.
(٣) سورة العلق الآيتان: ٦، ٧.
(٤) في الإحياء: فاتبعوه.
(٥) لم ترد تلك اللفظة في الإحياء.
(٦) راجع إحياء علوم الدين (٥٩/١).

[١٣٦/ب] / تمام العمى طول السكوت وإنما شفاء العمى يوماً سؤالك من يدري
إذا كنت لا تدري ولم تك بالذي بسائل من يدري فكيف إذا تدري
جهلت ولم تعلم بإنك جاهل فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري
إذا جئت في كل الأمور بغمة فكن هكذا أرضاً يطأك الذي يدري
ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري وأنك لا تدري بأنك لا تدري

فصل

ومما يجب على العالم أن يلتزم التواضع ويتجنب العجب والتكبر، لأن التواضع عطوف، والعجب والتكبر منفر صروف، وهو بكل أحد قبيح، وبالعلماء أقبح، ولأن العجب نقص يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وقد ورد الخبر به عن النبي عليه السلام وعنه عليه السلام أنه قال: «قليل الفقه خير من كثير العبادة».

وكفى بالمرء علماً إذا عبد الله وكفى به جهلاً إذا عجب برأيه، وعلة إعجاب العلماء بأنفسهم انصراف نظرهم إلى من دونهم من الجهال، وانحراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء.

وقد قيل: في منثور الحكم: إذا علمت فلا تذكر كثرة من دونك من الجهال، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء. وينشد لابن العميد:

من شاء عيشاً جيداً يستفيد به في دينه ثم دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدباً ولينظرن إلى من تحته مالا

وقلّ من تجد بالعلم معجباً[١] إلاّ من كان فيه مقلاً مقصراً؛ لأنه يجهل قدره ويحسب أنه قد نال بالدخول فيه أكثره، وأما من كان فيه متوهجاً ومنه مستكثراً فهو يعلم سن بعد غايته، والعجز عن إدراك غايته مما يصده عن العجب به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٢].

فالعلم أكثر من أن يحيط به البشر، وليس من عالم إلاّ وكان أعلم منه، قال الله سبحانه: [١٣٧/ب] ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ / وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٣]. وينشد:

---

(١) أي مفتخراً ومتكبراً.
(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٥.
(٣) سورة يوسف الآية: ٧٦.

وراء كـل ذي علـم عليـم وينتهـي إلى الله كل العلم ناهيك من أعطى

وقال ابن محبوب رحمه الله: لا يزال العالم عالماً ما دام يتعلم، فإذا رأى أنه قد استكفى فهو جاهل.

وعن الشعبي أنه قال: العلم ثلاثة أشبار، من نال منه شبراً فشمخ بأنفه وظن أنه عالم، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه جاهل وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبداً.

فصـــل

اعلم أنه قد يتعلق بالدين علوم كل علم منها فضيلة ينبغي للمتعلم التطرف من كل علم منها مثل: علم التفسير، والحديث والقراءات، وتواريخ الأخبار، وعلم الغريب وأشباه ذلك.

وقد يقال علوم الشريعة عشرة أنواع: مزدوجات لا تصح معرفة أحدها إلا بالآخر وإلا كان واهياً ضعيفاً وهي: الكلام واللغة، والنحو والقرآن، والفقه والسنة، والفرائض والضرب، وطبائع الإنسان وطبائع الأغذية من علم الطب.

فمن لم يعلم ذلك ويجمع المقصود منه والمطلوب كَلَّ علمه وقلّ فهمه واختل حكمه.

وقد بين الشافعي فضيلة بعضها فقال: من تعلمّ القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم الغريب رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

ولعمري ان أُس الفضائل كلها صيانة النفس عن الرذائل التي تصدر منها؛ لأن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه من العلم سلبه الجهال فضيلة علمه، ووسموه بقبح تبدله لما في طباعهم من نقمة الحسد، وتراع المنافسة فتنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوىء ولا سيما من كان بالعلم موسوماً وإليه منسوباً، فإن زلته لا تقال وهفوته لا تعذر؛ إما لقبح أثرها / واغترار كثير من الناس بها؛ لأنه قيل زلة العالم كالسفينة تغرق فهذا وجه، وإما لأن الجهال [١٣٨/أ] بذمه أغرى وعلى تنقصه أحرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصص عناداً لما جهلوه، ومقتاً لما باينوه؛ لأن الجاهل يرى العلم تكلفاً ولوماً كما أن العالم يرى الجهل تخلفاً وذماً. وينشد عن الشافعي:

فمنـــزلـــة الفقيـــه مـــن السفيـــه كمنـــزلـــة السفيـــه مـــن الفقيـــه

فهـذا زاهـد فـي قـرب هـذا وهـذا أزهـد منـه فيـه
إذا غلـب الشقـاء علـى سفيـه تنطـع فـي مخـالفـة الفقيـه

فعلى العالم أن يلتزم الأدب والوقار والحلم والسكينة والعلم ولا يجالس الجهال، ولا يخض معهم فيما يخوضون فيه من الأقوال والأفعال.

وقال بعض الحكماء: من صاحب العلماء وقر، ومن صاحب الجهال حقر، على أن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة، ومن كان صادق النية فيه لم تكن له همة فيما يجد بدأ منه.

وقد قال بعض الحكماء: من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة. وينشد:

خيـر مـا ورَّث الـرجـال بنيهـم أدب صـالـح وحسـن ثنـاء
هـو خيـر مـن الـدنـانيـر والأوراق فـي يـوم شـدة أو رخـاء
هي تفنى والدين والأدب الصالح لا يفنيـان حتـى اللقـاء
إذا تـأدبـت يـا بنـي صغيـراً كنـت يـومـاً تعـد فـي الكبـراء

[وقال][1] غيره:

قـل لمـن فـاخـر جهـلاً بـالنسـب إنمـا النـاس لأم وأب
هـل تـراهـم خلقـوا مـن فضـة أو حـديـد أو نحـاس أو ذهـب
أو تـرى فضلهـم فـي خلقـه غيـر لحـم فـوق عظـم وعصـب
[١٣٩/ب] / إنمـا الفخـر بـالعقـل راجـح وبـأخـلاق حسـان وأدب

فهذه جملة كافية في أداب المتعلم والعالم وما يليق بهما من الأخلاق الرضية والأفعال المرضية. وبالله التوفيق.

الباب الثامن في
آفات العلم وعلماء السوء

اعلم أن هذا الباب ينحصر في جملتين:

---

(١) زيادة لإيضاح المعنى.

إحداهما: في آفات العلم.

والثانية: في الأخبار والآثار الواردة في علماء السوء.

الجملة الأولى في آفات العلم: وهي كثيرة، ونحن نذكر هاهنا منها ما لا بد منه:

فأول آفات العلم: انصراف القلب عن التعلم حتى لا تكون للإنسان همة في الطلب وذلك يكون بأسباب:

أحدها: علو منزلة واستصلاح رئاسة دخل فيها، فهذا إلى العلم أحوج كما قدمنا.

الثاني: أن يمنعه عن التعلم إصلاح ماله، ومرمة حاله، فهذا أضعف عذراً؛ لأن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة تبعد عن الرحمن والعلم أفضل من المال؛ إذ به تنال النجاة عند الله تعالى، وقد تقدم فضل العلم على المال.

الثالث: يمنعه عن التعلم كبر السن فيتركه استحياءً من تقصيره في الصغر، وتعلمه في الكبر، فرضي بالجهل عن العلم، وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل؛ لأن العلم لما كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى؛ ولأن يكون شيخاً متعلماً أولى من أن يكون شيخاً جاهلاً.

الرابع: أن يمتنع عن التعلم لتعذر المادة، وهذا أقل ما يكون إلاّ عند ذوي شره وشهوة مستعبدة.

فينبغي أن يصرف إلى التعلم حظاً من زمانه؛ لأنه لا بد للمكتسب من أوقات عطلة أو استراحة، ومن صَرَفَ كل عمره إلى الكسب فهو من عبيد الدنيا وأُسراء الحرص.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «لكل شيء فترة فمن كانت فترته إلى العلم فقد نجا».

الخامس: ربما منعه من التعلم ما يخشى من صعوبته وبعد غايته / ويخاف من قلة ذهنه، [١٤٠/أ] وهذا الظن من اعتذار ذوي النقص وخيبة أولي العجز؛ لأن الخشية قبل الابتلاء عجز. وقد قال القائل:

لا تكونن لأمور هيوباً ... فإلى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لأبي هريرة: أريد أن أتعلم العلم، وأخاف أن أضيعه. فقال: كفى بترك العلم إضاعة.

فليس وإن تفاضلت الأذهان، وتفاوضت الفطن، ينبغي لمن قبل من العلم حظه أن ييأس من نيل القليل، وإدراك اليسير الذي يخرجه من حدِّ الجهالة إلى ارتقاء مراتب التخصيص،

فالماء مع لينه يؤثر في صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكي في نفس راغب شهي، وطالب خليّ لا سيما وطالب العلم معان؟

السادس: ربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور في نفسه الحرمان من أجله، فإن رأى محبرة تطير منها، أو وجد كتاباً أعرض عنه، وإن رأى متحلياً بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالماً مقبلاً وجاهلاً مدبراً، وهذا لا يرجى له صلاح، ولا يؤمل منه فلاح؛ لأن من اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين، وأن الجهل إقبال والعلم إدبارٌ، كان ضلاله مستحكماً ورشاده مستبعداً.

وكان هذا هو الخامس: الذي قال فيه علي بن أبي طالب: اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو مجيباً ولا تكن الخامس فتهلك وقد روي هذا عن النبي عليه السلام مسنداً[١]، فنعوذ بالله من خدع الجهل المضلة، وبوار الحق المظلة، ونسأله السعادة بعقل رادع، وعلم نافع.

فإذا سلم العبد من آفات هذه الموانع وطلب العلم بالشهوة الصادقة، والجد القاطع، استقبلته آفة أخرى، وذلك بأن تكون في النفس أسباب فاسدة فيطلب نوعاً من العلوم لغرض يدعوه إلى ذلك، كرجل يؤثر القضاء والحكم بين الناس فيقصد من علم الفقه أدب القاضي، وما يتعلق عليه من الدعاوي والبينات / أو يجب الارتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوماً بجهل ذلك. [١٤١/ب]

فإذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جوهره ونال منه مشهوره، ولم ير غير ذلك إلاّ صعباً طلبه، وعويصاً استخراجه، فينبوا عنه لقصور همته على ما أدرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لعلم أن ما ترك أهم مما أدرك.

فإذن ليس يعرى من لوم وإن كان تارك الكل ألوم. ومنها: أن يحب الاشتهار بالعلم إما لتكسب به أو لتجمل به فيقصد من العلم ما يشهر به من مسائل الجدال وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق.

وبالجملة يقصد بعض العلوم التي لا تنفع[٢] في الآخرة من علوم اللسان أو علوم العقل مع ترك العلوم الدينية، أو علوم الدين مع اعتقاد البدع فيه.

(١) في الأصل: مستنداً.
(٢) في الأصل: ينتفع.

ومنها: التقليد للآباء.

ومنها: قطاع طريقة الدين على المسلمين من أهل الإلحاد وفرق الموحدين.

ومنها: تلبيس إبليس عند لوامح الحق المبين، فإذا سلم من هذه الآفات كلها وحاز من العلوم أفضلها ومن الأعمال أصوبها وأكملها، فيحترز من الجدال والمراء كما يحترز من السم القاتل فإنه الداء العضال، وهو من آفات علماء السوء الذين بالغوا في التعصب للحق بزعمهم، ونظروا إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار حتى توفرت دواعيهم على طلب نصرة آبائهم ووقع البأس منهم، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جدلاً﴾[1].

وفي الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدال» ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[2].

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا يجادل إلا منافق أو مرتاب».

وعن الأوزاعي أنه قال: إذا أراد الله بقوم شراً أعطاهم الجدل، ومنعهم العمل.

وفي الخبر المشهور: أبغض الخلق إلى الله تعالى الألد الخصم.

والمجدال: هو الذي يقصد لدفع ما يرد عليه من فاسد، وصحيح، وأما إذا قصد بالجدال مناظرة مبتدع لينقض بدعته ويطهر قلوب العوام من تشويش ضلالته، فذلك عادة السلف الصالح من المسلمين، وذلك فرض كفاية على علماء الدين ينفون عنه تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، لقوله عليه السلام: «إذا ظهرت البدع في أمتي فعلى العالم أن ينشر علمه فإن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

واعتقاد العالم في ذلك الذب عن الدين بالبلاغة في المقال، والمناصحة في الفعال والاعراض عن النضال، ويقصد بذلك الدعاء إلى الحق المبين بالحكمة والموعظة الحسنة، فالمجادلة لغير ما ذكرنا ديدان السفهاء الجاهلين.

وأما المناظرة: فهي أدب الفقهاء المحققين، ولكن لها شروط من حصلها بالكمال فلا حرج عليه في المناظرة، وإلاّ فهي مجادلة:

أحدها: أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب أحد ممن تقدمه حتى إذا ظهر له

(١) سورة الكهف الآية: ٥٤.
(٢) سورة الزخرف الآية: ٥٨.

الحق ترك رأيه وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة والأئمة.

وأما من ليست له رتبة الاجتهاد، وهو حكم أهل عصرنا هذا وهو إنما يفتي فيه ناقلاً عن مذهب صاحبه ولو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه، فأي فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم، ولو كانت مناظرته في المسائل التي فيها قولان لصاحبه لكان أشبه فربما يستفيد بالمناظرة الترجيح لأحد القولين.

الثاني: أن تكون مناظرته في المسائل الواقعة أو ما يقرب وقوعها غالباً كالفرائض، وأشباهها حتى لا يضيع أوقاته في المنازعات، ويتعرض للمخاصمات والآفات.

الثالث: أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه، وأهم من المحافل وبيّن أظهر الأكابر، فإن الخلوة أجمع للفهم وأدرك للحق، وحضور الجمع يحرك دواعي الرياء ويهيج الحرص على نصرة كل واحد منهما لنفسه محقاً كان / أو مبطلاً. [١٤٣/ب]

الرابع: أن يكون في طلب الحق كناشد، ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يديه أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معاوناً لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ، وأظهر له الحق فهكذا كانت مشاورة الصحابة رضي الله عنهم، حتى ردت امرأة على عمر رضي الله عنه ونبهته على الحق وهو في خطبته على ملأ من الناس، فقال: أصابت امرأة وأخطأ رجل.

وفي لفظ: كل يخاصم عمر حتى المرأة، وذلك حين تكلم في تنقص صدقات النساء.

وسأل رجل علياً فأجابه، فقال: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا. فقال: أصبت وأخطأت ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1]. واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري، فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم. وذلك لما سُئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فَقُتِلَ. فقال: هو في الجنة وكان أمير الكوفة. فقال ابن مسعود: أعد على الأمير فلعله لم يفهم، فأعاد وأعاد الجواب. فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أنا أقول إن قتل وأصاب الحق فهو في الجنة. فقال أبو موسى: ما قال، فهكذا أن يكون إنصاف طالب الحق.

ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه استبعد ذلك، وقال: لا يحتاج أن يقال أصاب الحق، فإن ذلك معلوم لكل واحد.

---

(١) سورة يوسف الآية: ٧٦.

الخامس: لا يمنع معينه على استخراج الحق بالنظر من الانتقال من دليل إلى دليل فهكذا كانت مناظرة السلف والصحابة رضي الله عنهم.

السادس: أن يناظر من يرجو الاستفادة منه ممن هو مستقل بالعلم فبهذه الشروط يتبين من يناظر لله سبحانه ممن يناظر لغرض يدعوه إلى ذلك في نفسه.

السابع: أن يسلم من آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق: من الكبر، والعجب، والحسد، والمنافسة، وتزكية النفس، وحب الجاه / والحقد على المناظرة، والغيبة، [١٤٤/أ] والطعن عليه، والكذب، والبهتان، والتجسس وتتبع عورات الناس، والفرح بمسألتهم، والاستكبار عن الحق إذا ظهر، والرياء وملاحظة الخلق، والجهد في استمالة قلوبهم، والمكر، والخديعة لدفع قول مناظره، وأشباه ذلك من رذائل الأخلاق؛ لأن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة، والإفحام للخصوم، وإظهار الشرف، والفضل عند الناس واستمالة وجوههم هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله تعالى، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الحسد والكبر، وسائر ما قدمنا ذكره كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة: من الزنا، والقتل، والقذف، والسرقة وسائرها.

كما أن الذي خُيّر بين شرب الخمر وسائر الفواحش فاستصغر الخمر، وأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره.

فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في الجدال والمناظرة؛ لأجل طلب الجاه، والمباهات به دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس، وهيج منه جميع الأخلاق المذمومة.

فلهذا قلنا إن الفقهاء الأولين، وعلماء السوء المتمردين الذين فرقوا دينهم شيعاً ومزقوا الأمة قطعاً قطعاً، دعاهم طلب الرئاسة، وحب الجاه والمنافسة إلى المجادلات والمناظرات والنظر إلى مخالفيهم بعين الازدراء، والاستحقارات فانبعثت دواعي المخالفين بالمقابلة، والمكافات، وسمى كل فريق منهم ما صنفوا من المجادلات ذبّاً عن الدين ونضالاً عن المسلمين فكان ذلك على التحقيق سبباً لهلاك الخلق، ورسوخ البدع في نفوس الأمة إلاّ المحسنين.

فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون، ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم، ونحن نعوذ بالله من فتنة العمل، / ونعوذ بالله من التكلف لما لا [١٤٥/أ]

نحسن، كما نعوذ به من العجب مما نحسن، ونعوذ به من شر السلاطة والهذر كما نعوذ به من شر الغي والحصر. وبالله التوفيق.

الجملة الثانية: في الأخبار والآثار الواردة في علماء السوء، اعلم أنه قد ورد في علماء السوء تشديدات عظيمة دلّت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كَثِيراً مِنَ ٱلأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾[2].

فلما لم يفعلوا غيرهم الله فقال: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾[3] الآية.

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ ٱلْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَىٰ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْحَقَّ﴾[4] الآية.

في أمثالها كثير، وأما الأحاديث فكثيرة كقوله عليه السلام من طريق جابر بن زيد عن أنس بن مالك عنه عليه السلام أنه قال: «ويل لمن لا يعلم ولم يعمل مرة، وويل لمن يعلم ولم يعمل مرتين».

ومن طريقه أيضاً عنه عليه السلام أنه قال: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء لقي الله وهو خائب من الحسنات»[5].

وعنه عليه السلام أنه قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه».

ويروى عنه عليه السلام أنه قال: «لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً»[6].

وعنه عليه السلام أنه قال: «العلم علمان: علم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع»[7].

---

(١) سورة النور الآية: ٣٤.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٨٧.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٨٧.
(٤) سورة الأعراف الآية: ١٦٩.
(٥) قال العراقي في المغني (١/٥٩): رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح.
(٦) قال العراقي في المغني (١/٥٨): رواه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء والبيهقي في المدخل موقوفاً على أبي الدرداء ولم أجده مرفوعاً.
(٧) وفي المصدر السابق أيضاً قال: رواه الترمذي الحكيم في النوادر، وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلاً=

وعنه عليه السلام أنه قال: «من تعلم العلم للرفعة والعظمة أوقفه الله تعالى موقف الذل والصغار يوم القيامة، ويجعله الله تعالى عليه حسرة / حين يكون العلم لأهله زيناً». [١٤٦/ب]

وعنه عليه السلام أنه قال: «يكون في آخر الزمان عباد جهال، وعلماء فساق»[١].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تكون أمناء خونة، وقراء فسقة ليست لهم رعة تغشاهم فتنة مظلمة يتهوكون فيها كما تتهوك اليهود في الظلمة».

وعنه عليه السلام أنه قال: «الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا فعلوا ذلك فاتهموهم على دينكم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا تزال هذه الأمة تحت يد الله تعالى، وفي كنفه ما لم يمال قراؤها أمراءها وما لم يزك صلحاؤها فجارها، وما لم يهن شرارها خيارها فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم يده وسلط عليهم جبابرة فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعباً».

وعنه عليه السلام أنه قال: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها».

وبلغنا أنه قيل: يا رسول الله: أيُّ الشر شر؟ قال: «اللهم عفواً شر شر شرار العلماء».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً»[٢].

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا نأمن غير الدجال أخوف عليكم من الدجال». قيل: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «أئمة ضالون مضلون»[٣].

وعن حذيفة بن اليمان قال: يا رسول الله هذا الخير الذي أتانا الله بك هل بعده من شر؟ قال: «نعم الفتنة». قال: وهل بعدها من خير؟ قال: «نعم إغضاء على أقذاء، وهدنة على دخن». قال: وهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم أئمة مضلون يقعدون على أبواب جهنم

= بإسناد صحيح، وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزي.

(١) رواه الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) قال العراقي في المغني (٥٩/١): رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس، وحديث علي بإسناد ضعيف إلا أنه قال: «زهداً»، وروى ابن حبان في روضة العقلاء موقوفاً على الحسن من ازداد علماً، ثم ازداد بالله على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلاّ بعداً، وروى أبو الفتح الأزدي في الضعفاء من حديث علي: من ازداد بالله علماً ثم ازداد للدنيا حباً ازداد الله عليه غضباً.

(٣) وبنحوه في المغني (٥٩/١) وقال: رواه أحمد من حديث أبي ذر بإسناد جيد.

ينادون إليها كل من أجابهم قذفوه فيها» قال: جلِّهم لنا يا رسول الله فإني أخاف أن أدركهم، قال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بكلامنا».

[١٤٧/أ] وعنه عليه السلام أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم زلة عالم أو منافق يجادل / بالقرآن».

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: قيل له: أيُّ الناس أشد فتنة؟ قال: زلة العالم إذا زل بزلته عالم كثير.

وعنه عليه السلام أنه قال: يا علماء السوء تصلون وتصومون وتتصدقون، ولا تفعلون ما تؤمرون، وتدرسون ما لا تعلمون فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني، وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تتقوا جلودكم، وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم. يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟

بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم، والعمل تحت أقدامكم.

بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم، وصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة، وأي الناس أخسر منكم لو تعلمون، ويلكم إلى متى تصفون الطريق للمدلجين، وأنتم مقيمون في محلة المتحيرين، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم، مهلاً مهلاً، ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم.

كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم، وأجوافكم منه وحشة معطلة، يا عبيد الدنيا فلا كعلماء يعملون ولا كعبيد أتقياء، ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم من أصولكم فتقلبكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم حتى يسلمكم إلى الملك الديّان عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم.

هذا ما روي عن عيسى عليه السلام في كتاب المحاسبي قال: وبلغنا أن الله سبحانه أوحى إلى داود عليه السلام لا تستشر في أمرك عالماً أسكره حب الدنيا، فيقطعك بسكره عن [١٤٨/أ] طريق محبتي / أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين.

هذه وأمثالها من الأخبار تدل على عظم خطر العلم، فإن العالم متعرض إما لهلاك الأبد

أو لسعادة الأبد، وأنه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة.

وأعظم من هذه الأخبار ما روي عن معاذ بن جبل رحمه الله موقوفاً ومرفوعاً: أن النبي عليه السلام قال: «إن من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع»[١].

وفي الكلام تنميق وزيادة، ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفي الصمت سلامة وعلم، فمن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك في الدرك الأول من النار.

ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان فإن رد عليه شيء من علمه أو تهون بشيء من حقه غضب فذلك في الدرك الثاني من النار.

ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً فذلك في الدرك الثالث من النار.

ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ، والله يبغض المتكلفين فذلك في الدرك الرابع من النار.

ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه فذلك في الدرك الخامس من النار.

ومن العلماء من يتخذ علمه مرؤة ونبلاً وذكراً في الناس فذلك في الدرك السادس من النار.

ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب، فإن وعظ عنف، وإن وعظ أنف فذلك في الدرك السابع من النار، فعليك[٢] بالصمت فيه تغلب الشيطان وإياك أن تضحك بغير عجب أو تمشي في غير أرب.

وفي خبر آخر: «إن العبد لينتشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب، وما يزن عند الله جناح بعوضة»[٣]. والله أعلم.

وأما الآثار المروية في ذلك عن السلف فكثيرة منها: ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه

---

(١) قال العراقي في المغني (١/ ٦٢): رواه أبو نعيم، ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) في الأصل: عليك والتصويب من الإحياء (١/ ٦٢).

(٣) قال العراقي في المغني (١/ ٦٢): لم أجده هكذا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة».

قال: أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العالم؛ قالوا: وكيف يكون منافقاً عالماً؟ قال: عالم اللسان جاهل القلب.

وفي أخبار داود عليه السلام: أن أدنى ما أصنع بالعالم إذ آثر شهوته أن أحرمه لذيذ مناجاتي. يا داود: لا تسأل عني عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي أولئك قطاع طريق عبادي. يا داود: إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً، يا داود من رد إليّ هرباً كتبته حميداً[١]، ومن كتبته حميداً[٢] لم أعذبه أبداً.

ولذلك قيل عن الحسن أنه قال: عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة.

ولذلك قال بعض العلماء: إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلبت الدنيا بهما.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: إذا رأيتم العالم مُحباً للدنيا فاتهموه على دينكم؛ فإن كل محب يخوض فيما أحب.

وعن مالك ابن دينار أنه قال: قرأت في بعض الكتب أن الله عز وجل يقول: إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا، أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه[٣].

قال: وكتب رجل إلى أخ له: إنك أوتيت علماً فلا تطفين نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم[٤].

وقال الحسن: لا تكن ممن يجمع علم العلماء، وظرائف الحكماء، وتجري في العلم مجرى السفهاء.

وقيل لإبراهيم بن عيينة: أي الناس أطول ندامة؟ فقال: أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما عند الموت فعالم مفرط. وينشد:

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... ومن يشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه وهو من ذين أعجب[٥]

---

(١) في إحياء علوم الدين (١/ ٦٠): «جهبذا».
(٢) في إحياء علوم الدين (١/ ٦٠): «جهبذا».
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المرجع السابق.

وقال بعض العلماء: يهتف العلم بالعمل فإن أجابه، وإلاّ ارتحل.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «إن العالم يعذب عذاباً / يطيف به أهل النار استعظاماً [١٥٠/أ] لشدة عذابه»[١]. أراد به العالم الفاجر.

وعن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور كما يدور الحمار في الرحى فيطوف به أهل النار فيقولون: ما لَكَ؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهي عن الشر وآتيه»[٢].

وقال بعض مشايخنا من أهل المشرق رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾[٣]. قال: ما أظن هؤلاء إلا علماء قومنا.

وعنه عليه السلام أنه قال: «أهلك أمتي رجلان: عالم فاجر وعابد جاهل»[٤].

وقال بعض السلف: إنما جاء فساد الدين من قبل أربعة: عالم فاجر، وعابد جاهل، وطالب الدنيا بالدين، وسلطان جائر. وينشد:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

وعن أبي الدرداء أنه قال: ويل لمن لا يعلم، ولا يعمل مرة واحدة، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات.

وعن الشعبي أنه قال: يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار فيقولون لهم: ماذا أدخلكم النار؟ وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم؟ فيقولون: إنما كنا نأمر بالخير ولا نفعله[٥]. وينشد:

وعامل بالفجور يأمر بالبر ... كهاد يخوض في الظلم
أو كطبيب قد شفه سقم ... وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ... ثوبك طهر أولاً فلا تلم

---

(١) قال العراقي في المغني (٥٩/١): لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده.

(٢) متفق عليه بلفظ الرجل بدل العالم قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) سورة مريم الآية: ٦٩.

(٤) ذكره الغزالي في الإحياء بتمامه، وعلق عليه العراقي في المغني (٦٣/١) وقال: رواه الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلاً بآخر الحديث نحوه وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث.

(٥) راجع الإحياء (٦٣/١).

وعن الأوزاعي أنه قال: شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله تعالى إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه[١]، وينشد:

[١٥١/ب] / يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد[٢]

ويروى أن الحسن انصرف من مجلسه فحمل إليه رجل من خرسان كيساً فيها خمسة آلاف درهم، وعشرة أثواب من دقيق البر، فقال: يا أبا سعيد هذه نفقة، وهذه كسوة فقال الحسن: عافاني الله ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك، إنه من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له.

وروى الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «علماء هذه الأمة رجلان: رجل آتاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعاً، ولم يشتر به ثمناً، فذلك الذي يصلي عليه طير الهواء، وحيتان الماء ودواب الأرض، والكرام الكاتبين يقدم على الله تعالى يوم القيامة سيداً شريفاً حتى يرافق المرسلين، ورجل آتاه الله عز وجل علماً في الدنيا فضنَّ به على عباد الله وأخذ به طمعاً، واشترى به ثمناً يأتي يوم القيامة ملجماً بلجام من نار ينادي عليه مناد على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علماً في الدنيا فضن به على عباد الله وأخذ به طمعاً واشترى به ثمناً، فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس»[٣].

وأشد من هذا ما روي أن رجلاً كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول: حدثني موسى نجي الله حدثني موسى نجيّ الله حتى أثرى وكثر ماله ففقده موسى صلوات الله عليه وعلى نبينا فجعل يسأل عنه فلا يحس له أثراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير، وفي عنقه حبل أسود، ـ وفي بعض الروايات جاءه بأرنب في عنقها سلسلة ـ فقال لموسى عليه السلام: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم. قال: هو هذا الخنزير. فقال موسى: يا رب أسألك أن ترده [١٥٢/ب] إلى حاله حتى أسأله فيما أصابه هذا. فأوحى / الله عز وجل إليه لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكني أخبرك لِمَ صنعت هذا به؛ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين[٤].

وروى أبو هريرة عنه ﷺ أنه قال: «من طلب علماً مما يبتغي به وجه الله سبحانه ليصيب

---

(١) راجع الإحياء (١/ ٦٣).
(٢) جاء هذا الشعر في الإحياء (١/ ٦٠).
(٣) قال العراقي في المغني (١/ ٦١): رواه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف.
(٤) راجع الإحياء (١/ ٦١، ٦٢).

به عرضاً من الدنيا لم يجد ريح غرف الجنة يوم القيامة».

وقد وصف الله تعالى علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال في علماء الدنيا ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱشْتَرَوا بِهِ ثَمَنًا﴾(١).

وقال في علماء الآخرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(٢) الآية.

وقال بعض السلف: العلماء يحشرون يوم القيامة في زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين.

وفي معنى القضاة: كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه، وروى أبو الدرداء أنه ﷺ قال: «أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس جلود الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، إياي يخادعون وبي يستهزؤون لأيتحن عليهم فتنة تذر الحليم حيراناً»(٣).

وكان يحيى بن معاذ الرازي فيما بلغنا يقول: يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية، وأبوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية فأين المحمدية، وينشد:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب(٤)

وقيل لبعض العارفين: أترى أن من تكون المعاصي قُرَّة عينه لا يعرف / الله؟ قال: ما [١٥٣/أ] أشك أن من تكون الدنيا آثَرُ عنده من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى(٥). وهذا دون ذلك بكثير.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو أن أهل العلم أخذوا العلم بحقه لأحبهم الله تعالى من فوق عرشه ولأحبتهم ملائكته وأهل صفوته وأهل الأرض، ولكنهم

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨٧.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٩٩.
(٣) قال العراقي في المغني (١/ ٦١): رواه ابن عبد البر بإسناد ضعيف.
(٤) راجع الإحياء (١/ ٦٠).
(٥) راجع الإحياء (١/ ٦٠).

أخذوه بغير حقه وطلبوا به الدنيا فمقتهم الله تعالى من فوق عرشه، ومقتهم أهل السماء وأهل الأرض وهانوا عليهم.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: إن الذي بطانا عن علم ما جهلنا تركنا العمل بما علمنا ولو عملنا بما علمنا لورث الله تعالى قلوبنا علماً لا يقوم به أمثالنا.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: كيف يكون من أهل العلم من سيرة إلى آخرته وهو مقبل على دنياه؟! وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به؟! وأنشدوا:

يا جاعل العلم له بازيا ... يصطاد أموال المساكين
قد صرت مجنوناً بعد ما ... كنت دواء للمجانين

وعن صالح بن حسان البصري قال: أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: من علم وعمل وعلَّم فذلك الذي يدعى عظيماً في ملكوت السموات، ومن علم ولم يعمل فذلك الذي يضاعف له العذاب ضعفين، ومن لم يعمل ولم يعلم الذي يموت موتة جاهلية.

قال بعض علماء السلف: وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته؛ لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1]. لأنهم تركوا بعد العلم وعصوا بعد المعرفة وجعل الله تعالى اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً لأن /قولهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[2] على جهة الرحمة في قول بعض العلماء [١٥٤/ب] وكذلك: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ﴾[3]. ولم يقولوا أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[4]. فجعلهم شراً من النصارى، لأنهم أنكروا بعد المعرفة قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[5].

وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ﴾[6].

---

(١) سورة النساء الآية: ١٤٥.
(٢) سورة التوبة الآية: ٣٠.
(٣) سورة المائدة الآية: ١٨.
(٤) سورة المائدة الآية: ٧٣.
(٥) سورة البقرة الآية: ١٤٦، سورة الأنعام الآية: ٢٠.
(٦) سورة البقرة الآية: ٨٩.

وقال تعالى في بلعم بن باعور: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[(١)]. حتى قال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[(٢)].

أي سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات، لأنه أوتي كتاباً فأخذ إلى الشهوات[(٣)]، وأنشدوا لابن المبارك:

ذر التزين في دنياك بالدين	وأعمل ليوم تجازى بالموازين
ليس اللباس لباس الصوف من عمل	ولا لأخذك شعراً كالمجانين
هذا اللباس مع الرهبان في شعث	فهل تراه نجاة للرهابين
قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره	فقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوتاً بلا غلق	تبتاع بالدين أموال المساكين
في سورة الكهف لو فكرت موعظة	تنهاك عن خدع بين الأساطين
وفي الطواسين أخرى إن عملت بها	نلت الرشاد بآيات الطواسين
أما التي ذكرت في الكهف ناهية	عن الرياء ثم أموال المساكين
وآية القصص الأخرى فزاجرة	عن التكبر أمثال الفراعين

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي شربت الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص، وباطنها نتن، وكمثل القبور ظاهرها عامرة، وباطنها عظام الموتى[(٤)].

ولا تظنن أن بترك[(٥)] المال فقط به تلحق علماء الآخرة بل طلب الجاه أشر من المال.

ولذلك قال بعض العلماء: حدثنا باب من أبواب الدنيا[(٦)]. ولذلك قيل / عن ابن سليمان [١٥٥/أ] الداراني قال: إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا[(٧)]. وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طريق الآخرة.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٧٥.
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧٦.
(٣) راجع الإحياء (١/٥٩، ٦٠).
(٤) راجع المصدر السابق.
(٥) في الأصل: «ترك». واضفت الباء لإيضاح المعنى.
(٦) القائل بشر وراجع الإحياء (١/ ٦١).
(٧) القائل بشر وراجع الإحياء (١/ ٦١).

وعن الثوري أنه قال: فتنة الحديث أشد من فتنة المال والأهل والولد[١].

ولذلك قال بعضهم: إذا اشتهيت أن تحدث فلا تحدث، وإذا لم تشته فحدث؛ وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم من كل نعيم في الدنيا فمن أجاب شهوته في ذلك فهو من أبناء الدنيا. وهذا عندي إذا كان قصده بالتحدث جر الجاه ومنفعته. والله أعلم.

فهذه الأخبار والآثار التي أوردناها تبين العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخس حالاً عند الله وأشد عذاباً من الجاهل يوم القيامة، ولهذا قال بعض السلف: العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به، والعمل كله هباء إلاّ الإخلاص. وقال: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء سكرى إلاّ العاملين والعاملون مغرورون إلاّ المخلصين، والمخلص على وجل حتى يدري ما يختم له به. والله نسأله التوفيق وحسن الخاتمة.

الباب التاسع
في العلامات المميزة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة

ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء. وهم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه، والمنزلة عند أهلها[٢]، وهم الذين وردت فيهم الأخبار والآثار المتقدمة.

ونعني بعلماء الآخرة العلماء بالله سبحانه العاملين له فهم الفائزون المقربون يوم القيامة ولهم علامات منها: أن لا يطلب بعلمه الدنيا، فإن أقل درجات العلم النافع، أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها، ويدرك عظم الآخرة ودوامها وبقاء نعيمها وجلالة ملكها.

[١٥٦/ب] ويعلم / أن الدنيا والآخرة متضادتان، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما سخطت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب في أحدهما كذلك تفرغ من الآخر، فإن من لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذتها بألمها، ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل، لأن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك، فكيف يكون من العلماء من لا عقل له؟ وإن من لا يعلم عظم الآخرة ودوامها فهو مشرك مسلوب الإيمان.

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) راجع الإحياء (٥٨/١).

فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له؟ وإنَّ من مضادة الدنيا والآخرة، وإن الجمع بينهما محال وطمع في غير مطمع فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن من أوله إلى آخره فكيف يعد من زمرة العلماء؟

ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان بعيد من الرحمن قد أهلكته شهوته، وغلبت عليه شقوته، فكيف يعد من أحزاب العلماء من هذه درجته[1].

وقد روي عن جابر موقوفاً ومرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تجلسوا عند [كل][2] عالم إلاّ عالماً يدعوكم من خمس إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة»[3].

قال الله سبحانه لنبيه عليه السلام: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾[4].

وقال تعالى إخباراً عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾[5] الآية.

ثم قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[6]/ [١٥٧/أ] الآية.

فعرف أهل العلم مقدار الآخرة، وثواب الله فيها وخساسة الدنيا وحقارتها فعرف بذلك الجهال. والله أعلم.

ومنها لا يخالف فعله قوله، بل لا يأمر بالشيء إلا وهو أول عامل به، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[7].

---

(١) راجع كل ما سبق في الإحياء (١/ ٦٠).
(٢) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/ ٦٢).
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية، وابن الجوزي في الموضوعات قاله العراقي في المغني (١/ ٦٢).
(٤) سورة النجم الآية: ٣٠.
(٥) سورة القصص الآيتان: ٧٩، ٨٠.
(٦) سورة القصص الآيتان: ٧٩، ٨٠.
(٧) سورة البقرة الآية: ٤٤.

وقال تعالى في قصة شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[١].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: لعن الله الآمِرين بالمعروف التاركين له، ولعن الله الناهين عن المنكر الفاعلين له.

وفيما يروى عنه أن الله عز وجل أوحى إلى عيسى عليه السلام يا ابنِ مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ غيرك وإلا فاستحيي مني[٢]. وأنْشِد:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً	قد عبت منه أموراً أنت تأتيها
يا كاسي الناس أثواباً وعورته	للناس بادية ما إن يواريها[٣]

وعن الفضيل أنه قال: بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان[٤].

وعن حاتم الأصم أنه قال: ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به، ففازوا بسببه وهلك [هو][٥].

وعن مالك بن دينار أنه قال: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زالت موعظته عن القلوب كما تزل القطرة على الصفا[٦]. وينشد:

عوّد لسانك قلة اللفظ	واحفظ كلامك أيما حفظ
إياك أن تعظ الرجال وقد	أصبحت محتاجاً إلى الوعظ

وعن الشيخ أبي نصر من مشايخ الجبل رحمهم الله أنه قال: لن ينجو من علماء آخر الزمان إلا مثل ما يسلم من ضوء المصابيح إذا رفعوا من بيت إلى بيت في ليلة ذات ريح، ثم قال: هذا في العلماء فكيف الجهال؟ فالجهال دود لا يفلت منهم أحد.

[١٥٨/ب] وعن النبي عليه السلام / أنه قال: «مررت ليلة أسري بي بقوم كانت تقرض شفاههم

---

(١) سورة هود الآية: ٨٨.
(٢) راجع الإحياء (١/ ٦٢).
(٣) جاء البيت الأول بنحوه في الإحياء (١/ ٦٣) في قصيدة دون البيت الثاني فلم يرد في أيٍ من الأبيات المذكورة.
(٤) راجع المصدر السابق.
(٥) ما بين المعقوفين من المصدر السابق.
(٦) راجع المصدر السابق.

بمقاريض من نار فقلت: من أنتم؟ قالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله»[(١)]. وينشد:

لا تنه عن شيء وتأتي بمثله — عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيّها — فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم
فإذا جريت مع السفيه فلمته — وفي مثل ما تأتي فأنت مليم

ويروى أن في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم.

ويحكى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: مررت بحجر مكتوب عليه اقلبني تعتبر، قال: فقلبته فإذا عليه مكتوب: أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لا تعلم[(٢)]؟!

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب، ولا ينتفع بالعلم يومئذٍ عالمه، ولا متعلمه، فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا تجد لها عذوبة.

وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها عن الآخرة فعند ذلك يسلبهم الله تعالى ينابيع الحكمة، ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله سبحانه بلسانه والفجور بيّن في عمله.

فما أخصب الألسن يومئذٍ وما أجدب القلوب فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله[(٣)].

وقال ابن السماك: كم من مذكر بالله ناس لله، وكم من مخوف بالله جريء على الله، وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله سبحانه، وكم من داع إلى الله عز وجل فارٍ من الله تعالى، وكم من تالٍ لكتاب الله عز وجل منفسخ[(٤)] من آيات الله جل جلاله.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به / كمثل امرأة زنت [١٥٩/أ] في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت، فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد[(٥)].

---

(١) رواه ابن حبان من حديث أنس، قاله العراقي في المغني (١/ ٦٢).
(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٦٣).
(٣) راجع المصدر السابق.
(٤) في المصدر السابق: «منسلخ».
(٥) المصدر السابق.

وعن معاذ رحمه الله أنه قال: احذروا زلة العالم؛ لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته[١].

وقال [عمر][٢]: ثلاث بهن يهدم الزمان: إحداهن زلة عالم.

وروي عن مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ إنا كنا ندرس العلم في مسجد قباء، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «تعلموا ما شئتم أن تتعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا»[٣].

وعن الأوزاعي: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع[٤].

وعن إبراهيم بن آدهم أنه قال: لقد أعربنا في كلامنا فلا نلحن، ولحنا في أعمالنا فلم نعرب[٥].

اعلم أن مثل العالم مثل القاضي، وقد قال ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاض قضى بالحق وهو يعلم فذلك في الجنة، وقاض قضى بالجور وهو يعلم أو قضى وهو لا يعلم فهما في النار»[٦].

وعن كعب أنه قال: يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، ويخوفون ولا يخافون، وينهون عن غشيان الولاة ويأتون، يؤثرون الدنيا على الآخرة، يأكلون بألسنتهم يقربون الأغنياء دون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره، أولئك الجبارون أعداء الرحمن[٧].

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الشيطان ربما سبقكم بالعلم». قيل: يا رسول الله فكيف ذلك؟ قال: «يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم، ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال في العلم قائلاً، وللعمل مسوفاً حتى يموت وما عمل»[٨].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) ما بين المعقوفين من المصدر السابق.
(٣) رواه ابن عبد البر، وأسنده ابن عدي، وأبو نعيم، والخطيب في كتاب اقتضاء العلم للعمل من حديث معاذ فقط بسند ضعيف، ورواه الدارمي موقوفاً على معاذ بسند صحيح. قاله العراقي في المغنى (١/ ٦٣).
(٤) الغزالي في الإحياء (١/ ٦٣).
(٥) الغزالي في الإحياء (١/ ٦٣).
(٦) رواه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح قاله العراقي في المغني (١/ ٦٤).
(٧) الغزالي في الإحياء (١/ ٦٤).
(٨) قال العراقي في المغني (١/ ٦٤) الحديث في الجامع من حديث أنس بسند ضعيف.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: ليس العلم بكثرة الروايات، وإنما العلم الخشية[١].

/ وقال الحسن: السفهاء همتهم الرواية، والعلماء همتهم الرعاية[٢]. [١٦٠/ب]

وعن مالك بن دينار أنه قال: إن طلب العلم لحسن، وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ولكن انظر إلى ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي ولا تؤثرنَّ عليه شيئاً[٣].

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: انزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قومٌ يبتغونه مثل الغناء ليسوا بخياركم، والعالم الذي لا يعمل كالمريض الذي يصف الدواء، والجائع الذي يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها[٤].

وفي مثله يقول: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[٥] والفضيل في انقطاع الإنسان من العلم إلى العمل أو انقطاعه عن العمل إلى العلم إذا عمل بموجب العلم.

هو ما حكي عن الزهري فيه وهو أنه قال: العلم أفضل من العمل به لمن جهل، والعمل أفضل من العلم لمن علم.

فأما فضل ما بين العلم والعبادة إذا لم يخل بواجب ولم يقصر في فرض فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يبعث العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة، ويقال للعالم اتئد حتى تشفع للناس». والله أعلم.

ومن علامات علماء الآخرة: أن يكون العالم غير مائل إلى الترفه في المطعم، والتنعم في الملبس، والتجمل في الأساس والمسكن بل يلزم الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه في ذلك بالسلف الصالح، ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك. كما ذكر أبو الحر علي بن الحصين رحمه الله في رسالته إلى الإمام عبد الله بن يحيى الكندي رحمه الله قال فيها: فالله الله يا أخي أن تعمى بعد البصر، وتضل بعد الهدى وبعد معرفة الإسلام، وبعد إخلاص طاعة الله بالتقوى؛ فإن أولي الألباب والنهي لم يكونوا أهل لهو ولا لعب ولم يكونوا أهل نسيان ولا غفلة ولا أهل راحة ولا فترة، ولا أهل تلذذ بالدنيا ومطايب عيشها، ولم يكونوا أصحاب نعيم

---

(١) الغزالي في الإحياء (١/ ٦٤).
(٢) الغزالي في الإحياء (١/ ٦٤).
(٣) الغزالي في الإحياء (١/ ٦٤).
(٤) الغزالي في الإحياء (١/ ٦٤).
(٥) سورة الأنبياء الآية: ١٨.

[١٦١/أ] ولا فخر، /ولا أهل إبل ولا بقر، ولا أصحاب خيلاء ولا كبر، ولا أهل رغبة في مال، ولا أهل ولا ولد إلا ما أعطاهم الله تعالى فإن كان كثيراً انقصوه عن أنفسهم، وآثروا به أهل الفاقة من خلقه تخوفاً أن يفسدهم ذلك عن الله فيشروا ويبطروا ويمرحوا ويشغلهم ذلك عن الذي وكلوا به والذي هم به معنيون.

فكان الأقل من الدنيا أحب إليهم من الأكثر، وكان الجوع أحب إليهم من الشبع ما لم يجهدوا، وهم في الشبع على أنفسهم أخوف، وفي الجوع أرجى وأذكر، وكان الفقر أحب إليهم من الغنى، وهم في الفقر أعبد لله وأتقى، وفي الغنى أنسى لله وأعصى، لضعفهم عن الشكر وحبسهم ما ليس لهم واستئثارهم به عن أهله وكان البلاء أحب إليهم من الرخاء للذي يرجون من الأجر في البلاء، ويخافون من الإثم في الرخاء، ولم يكونوا بطالين العشيات والضحى، ولكنهم كانوا يصبرون أنفسهم مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه.

وهي رسالة طويلة ذكر فيها حال النبي عليه السلام، وأحوال الصحابة رضي الله عنهم، في التقلل في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة وهي مكتوبة في كتاب رسائل الأئمة.

وكذلك أحوال مشايخ المسلمين من أهل المشرق وأهل المغرب، ومشايخ الجبل رحمهم الله في اقتصادهم في المعيشة وزهدهم في الدنيا ـ تركت ذلك هنا لئلا يطول الكتاب إذ ليس هذا موضعه ـ ويكفي في ذلك قول الله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[1] الآية.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[2].

وقوله عز من قائل إخباراً عن الكفار أبناء الدنيا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ﴾[3] الآية.

[١٦٢/أ] ويروى عن النبي عليه السلام أنه قال: «من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه أخذ / حتفه وما يشعر».

وفي كتاب المحاسبي عنه عليه السلام أنه قال: «سيأتي بعدي قوم يأكلون أطايب

(١) سورة الأحقاف الآية: ٢٠.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٣١.
(٣) سورة محمد الآية: ١٢.

الأطعمة وألوانها، وينكحون أجمل النساء وألوانها، ويلبسون ألين الثياب وألوانها، ويركبون فرة الدواب وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس من الكثير لا تقنع عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون إليها، اتخذوها آلهة دون آلهتهم، ورباً دون ربهم إلى أمرها ينتهون وهواهم يتبعون فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم، وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم، ولا يعود مرضاهم، ولا يتبع جنائزهم، ولا يوقر كبيرهم، ومن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام».

وقال الله تعالى مخاطباً للمسلمين: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[١].

وقال بعض السلف: المؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع.

والتحقيق في هذا أن التزين بالمباح والتنعم بالحلال ليس بحرام، ولا محظور، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق عليه تركه واستدامة التنعم لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداهنة.

ومراعاة الخلق ومراءاتهم وأمور لأجل كسب الدنيا، والتمتع بها، والحزم اجتناب ذلك، لأن من خاض في الدنيا لا يسلم منها البتة، ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض في الدنيا لأحد لما كان النبي عليه السلام يبالغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم وقال: «إنها شغلتني عن صلاتي».

ونزع أيضاً خاتم الذهب في أثناء الخطبة ورمى به ثم قال: «أما هذا فلا ألبسه أبداً».

إلى غير ذلك مما سيأتي إن شاء الله في / موضعه وقال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾[٢] الآية. [١٦٣/ب]

فأمره بفراقهن إذا أردن زينة الدنيا فكيف إذا خضن فيها، فالوقوف على حدود المباح مع السلامة من المداهنة، والرياء، وسائر المحظورات عسير لا يقوى عليه إلا أهل اليقين من العلماء الأقوياء الموفقين والتنعم بالمباح خطره عظيم وهو بعيد من الخوف، والخشية الذين هما من علامات علماء الآخرة.

هذا في الحلال المحض فما ظنك في أمثالنا الغرقى في شبه المكاسب المحظورات،

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٩٧.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٢٨.

والمطامع المذمومات، بل السلامة من المباح في التقلل، والنجاة من الدنيا في الزهد والتوكل والله تعالى نسأله العصمة والتوفيق مع حسن الخاتمة.

ومن علامات علماء الآخرة: أن تكون عناية العالم بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعة والقرب من الله تعالى، ويكون متقللاً أو متجنباً للعلوم التي يقل نفعها في طريق الآخرة، ويكثر فيها الجدال، والقال والقيل، وتصد عن ذكر الله تعالى.

وقد روي أن رجلاً جاء إلى النبي عليه السلام فقال: يا رسول الله علمني من غرائب العلم؟ قال له: «وما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه»؟. قال: وما رأس العلم؟ قال: «هل عرفت الله سبحانه»؟ قال: نعم، قال له: «ما صنعت في حقه»؟. قال: ما شاء الله قال ﷺ: «هل عرفت الموت»؟ قال: نعم، قال ﷺ: «فما عددت له»؟ قال: ما شاء الله، قال ﷺ: «اذهب فاحكم ما هنالك ثم تعال نعلمك غرائب العلم»[١].

بل ينبغي أن يكون تعلم العالم من جنس ما روي عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخي، إذ قال له شقيق: منذ كم صبحتني؟ فقال حاتم: منذ ثلاث وثلاثين سنة. قال: /[١٦٤/أ] فما تعلمت مني في هذه المدة؟ قال: ثمان مسائل. قال شقيق: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمري معك ولم تتعلم مني إلا ثمان مسائل!! قال: يا أستاذ لم أتعلم غيرها ولا أحب أن أكذب. فقال: هات هذه الثمان مسائل حتى أسمعها. قال حاتم: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبه، وهو مع محبوبه إلى القبر فإذا وصل إلى القبر فارقه، فجعلت الحسنات محبوبي، فإذا دخلت القبر دخل معي محبوبي. قال: أحسنت يا حاتم فما الثانية؟ قال: نظرت إلى قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٢]. فعلمت أن قوله سبحانه هو الحق، فأجهدت نفسي في دفع الهوى، حتى أستقر على طاعة الله تعالى. قال: فما الثالثة؟ قال: إني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له عنده قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم إني نظرت في قوله عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٣] فكل ما وقع معي شيء له قيمة ومقدار، وجهته إليه ليبقى لي عنده. قال: فما الرابعة؟ قال: إني نظرت إلى هذا الخلق، فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال والحسب

---

(١) رواه ابن السني، وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلاً وهو ضعيف جداً.

(٢) سورة النازعات الآية: ٤٠.

(٣) سورة النحل الآية: ٩٦.

والشرف والنسب، فنظرت فإذا هي لا شيء، ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]. فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً. قال: فما الخامسة؟ قال: إني نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت إلى قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]. فتركت الحسد واجتنبت الخلق، وعلمت أن القسمة عند الله سبحانه فتركت عداوة الخلق. قال: فما السادسة؟ قال: إني نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً فرجعت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[٣]. / فعاديته وحده [١٦٥/ب] واجتهدت في أخذ حذري منه؛ لأن الله شهد عليه أنه عدوي، وتركت عداوة الخلق. قال: فما السابعة؟ قال: إني نظرت إلى هذا الخلق، فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل نفسه، ويدخل فيما لا يحل له، ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٤]. فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها فاشتغلت بما لله تعالى عليّ، وتركت مالي عنده. قال: فما الثامنة؟ قال: إني نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم متوكلين هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وهذا على صحة بدنه، فكل مخلوق متوكل على مخلوق فتوكلت على الله فهو حسبي. قال شقيق: يا حاتم وفقك الله، فإني نظرت في علم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم وهو يدور على هذه الثمان مسائل، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة[٥].

فهذا الفن من العلم إنما يهتم بإدراكه والتفطن له علماء الآخرة، وأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التي بعثت بها الأنبياء كلهم عليهم السلام[٦]. فمثال من يتعلم مسائل الفتاوى والجدال والخصومات وأعرض عن تعلم طريق الآخرة.

وآفات الأعمال مثل رجل مريض به علل كثيرة، وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية، وغرائب الطب وترك مهمة الذي هو مؤاخذ به.

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١٣.
(٢) سورة الزخرف الآية: ٣٢.
(٣) سورة فاطر الآية: ٦.
(٤) سورة هود الآية: ٦.
(٥) ذكر ذلك الغزالي في الإحياء (١/ ٦٤، ٦٥).
(٦) ذكر ذلك الغزالي في الإحياء (١/ ٦٤، ٦٥).

وذلك لعمر الله محض السفه والله سبحانه نسأله العون والتوفيق والعصمة والتأييد إنه قريب مجيب.

ومن علامات علماء الآخرة أيضاً أن يكون أكثر اهتمام العالم بتعلم علم الباطن ومراقبة لقلب، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه /بقوة المراقبة وشدة المجاهدة، ومباشرة الأعمال [١٦٦/أ] الظاهرة والباطنة، والجلوس مع الله تعالى في الخلوة[١] مع حضور القلب بما في الفكر والانقطاع إلى الله تعالى عن ما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف[٢].

فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة؟ وكم من مقتصر على المهم في التعلم متوفر في العمل مع مراقبة القلب، فتح الله عز وجل له من لطائف الحكم ما تحار فيه عقول ذوي الألباب.

ولذلك قال النبي ﷺ: «من عمل بما علم أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم»[٣].

وفي بعض الكتب السالفية: يا بني إسرائيل لا تقولوا: العلم في السماء من ينزل به؟ ولا في تخوم الأرض من يصعد به، ولا من راء البحر من يعبر يأتي به، العلم مجهول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين، وتخلقوا بأخلاق الصديقين أظهر العلم في قلوبكم حتى يغطيكم فيغمركم[٤].

ولولا أن أدرك قلب من له قلب بالنور الباطن، حاكم على علم الظاهر لما قال ﷺ: «استفت قلبك يا وابصة، وإن أفتوك، وأفتوك، وأفتوك».

ومما يروى عن الله سبحانه أنه قال: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً، وبصراً. . . .»[٥] الحديث.

وفي الخبر: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتاً وزهداً فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة»[٦].

---

(١) يريد الجلوس في خلوة لذكر الله تعالى حتى لا يشغله شاغل أثناء التفكر والذكر.

(٢) إن كان يريد كشف غوامض العلوم والأشياء فنعم، وإن كان يريد كشف الغيوب فلا.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه قاله العراقي في المغني (١/ ٧١).

(٤) راجع الإحياء (١/ ٧١).

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «كنت سمعه وبصره» وهو في الحلية كما ذكره المؤلف ـ الغزالي ـ من حديث أنس بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/ ٧١).

(٦) رواه ابن ماجه من حديث ابن خلاد بإسناد ضعيف، قاله العراقي في المغني (١/ ٧٠).

وفي حديث آخر: «من أخلص لله عز وجل أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه».

وهذا العلم إنما يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] الآية.

ومن علامات علماء الآخرة أيضاً: أن يكون العالم شديد العناية بتقوية اليقين؛ فإن اليقين هو رأس المال في الدين ولا بد / للعبد من تعلم علم اليقين - أعني أوائله - ثم ينفتح للقلب [١٦٧/ب] طريقه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «اليقين الإيمان كله»[2]. وقال: «تعلموا اليقين»[3].

روي عن الغزالي في كتابه قال: معناه جالسوا الموقنين واسمعوا منهم علم اليقين، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما تقوى يقينهم، وقليل منه خير من الكثير من العمل[4].

وقال ﷺ لما قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب، ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين فقال ﷺ: «ما من آدمي إلاّ وله ذنوب، ولكن من كان غريزته العقل، وسجيته اليقين لم تضره الذنوب، لأنه كلما أذنب تاب، واستغفر، وندم، فتكفر ذنوبه ويبقى له الفضل يدخل الجنة»[5].

ولذلك قال ﷺ: «من أقل[6] ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل أو صيام النهار»[7].

وفي وصية لقمان لابنه: يا بني لا يستطاع العمل إلاّ باليقين، ولا يعمل المرء إلاّ بقدر يقينه، ولا يقصر عمل العبد حتى ينقص يقينه[8].

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

(٢) رواه البيهقي في الزهد، والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن، قاله العراقي في المغني (١/ ٧٢).

(٣) رواه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلاً وهو معضل ورواه ابن أبي الدنيا في اليقين من قول خالد بن معدان، قاله العراقي في المغني (١/ ٧٢).

(٤) الإحياء (١/ ٧٢).

(٥) رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أنس بإسناد مظلم، قاله العراقي في المغني (١/ ٧٢).

(٦) في الإحياء: «من أول».

(٧) قال العراقي في المغني (١/ ٧٢) لم أقف له على أصل، وروى ابن عبد البر من حديث معاذ: «ما أنزل الله شيئاً أقل من اليقين، ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من الحلم».

(٨) راجع الإحياء (١/ ٧٢).

فصــل

وفي كتاب الغزالي قال: اعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء عليهم السلام من أوله إلى آخره هو من مجاري اليقين. قال: فإن اليقين عبارة عن معرفة مجموعة. قال: ومتعلقات المعلومات التي وردت بها الشرائع لا مطمع في إحصائها. قال: ولكني أشير إلى بعض أمهاتها.

فمن ذلك التوحيد: وهو أن ترى الأشياء كلها من مسبب الأسباب، ولا تلتفت إلى الوسائط، بل ترى الوسائط مسخرة لا حكم لها.

فالمصدق لهذا مؤمن فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إنكار الشك فهو موقن بأحد المعنين، فإن غلب على قلبه غلبة أزالت هيئة الغضب على الوسائط والرضا منهم والشكر لهم، ويرى الوسائط / في قلبه منزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوقيع، فإنه لا يشكر القلم ولا اليد، ولا يغضب عليهما، بل يراهما اللتين واسطتين، فقد صار موقناً. [١٦٨/أ]

بالمعنى الثاني: وهو الإشراف، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه، وفائدته ومنها تحقق أن الشمس، والقمر والنجوم، والجماد والنبات والحيوان وكلٌّ مخلوق فهي مسخرات بأمره حسب تسخير القلم بيد الكاتب وإن القدرة الأزلية هي المصدر للكل استولى عليه التوكل والرضا والتسليم وصار بريئاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق.

قال: فهذا أحد أبواب اليقين(١)، وسيأتي له بيان مزيد في غير هذا الموضع إن شاء الله تعالى.

ومن علامات علماء الآخرة: أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركاته وسكونه ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلاّ وكان نظره مذكراً لله عز وجل، وكأن صورته دليلٌ على علمه(٢).

ولذلك روي أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: إلى من تكلنا بعدك يا روح الله؟

قال: إلى من تذكركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله.

فعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والذلة والتواضع، ولذلك قيل: ما ألبس الله عز وجل عبداً لبسة أحسن من خشوع في سكينة؛ فهي لبسة الأنبياء، وسيما الصديقين والصالحين والعلماء بالله.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٧٤).

(٢) راجع المرجع السابق (١/ ٧٥).

فأما التهافت في الكلام والتشدق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأشر والغفلة عن عظيم عقاب الله عز وجل وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله عز وجل دون العلماء.

لما روي عن بعض علماء السلف[١] أنه قال: العلماء ثلاثة: عالم بأمر الله سبحانه لا بأيام الله تعالى وهم المفتون / بالحلال والحرام. قال: فهذا العلم لا يورث الخشية، وعالم بالله [١٦٩/ب] تعالى لا بأمر الله تعالى، ولا بأيام الله تعالى وهم عوام المؤمنين، وعالم بالله جل جلاله وبأيام الله سبحانه وهم الصديقون، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم[٢].

وأراد بأيام الله تعالى أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة والظاهرة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه إن شاء الله تعالى[٣].

ويقال: ما آتى الله عز وجل عبداً علماً إلا آتاه معه حلماً وتواضعاً وحسن خلق ورفقاً فذلك العلم النافع.

وفي الخبر: «أن من أخيار أمتي قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله تعالى ويبكون سراً من خوف عذابه، أبدانهم في الأرض وقلوبهم في السماء أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة يتمشون بالسكينة، ويتقربون بالوسيلة»[٤].

وقال بشر بن الحارث: من طلب الرئاسة بالعلم وتقرب إلى الله ببعضه، فإنه مقيت في السماء والأرض[٥].

وروي أنه قيل: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال عليه السلام: «اجتناب المحارم، وأن لا يزال فمك رطباً من ذكر الله». قيل: فأي الأصحاب خير؟ قال ﷺ: «صاحب إن ذكرت أعانك، وإن نسيت ذكرك». قيل: فأي الأصحاب شر؟ قال عليه السلام: «صاحب إن سكت لم يذكرك، وإن ذكرت لم يعنك». قال: فأي الناس أعلم؟ قال ﷺ: «أشدهم لله خشية». قالوا: فأخبرنا بخيارنا نجالسهم؟ قال ﷺ: «الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل». قالوا: فأي الناس شر؟

---

(١) هو سهل التستري قاله الغزالي في الإحياء (١/ ٧٥).

(٢) هو سهل التستري قاله الغزالي في الإحياء (١/ ٧٥).

(٣) راجع المصدر السابق.

(٤) رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان، قاله العراقي في المغني (١/ ٧٥).

(٥) راجع المصدر السابق.

قال ﷺ: «اللهمّ عفواً». قالوا: أخبرنا يا رسول الله. قال عليه السلام: «العلماء إذا فسدوا»[١].

[١٧٠/أ] وذكر جابر بن يزيد رضي / الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأسامة بن زيد: «عليك بطريق الجنة وإياك أن تختلج دونه». فقال أسامة: يا رسول الله ما أسرع ما يقطع به هذا الطريق. فقال عليه السلام: «الظمأ في الهواجر وكسر النفس عن لذات الدنيا، يا أسامة عليك بالصوم وكثرة السجود فإن بهما يدرك، ويباهي به الله الملائكة، يا أسامة إياك وكل ذي كبد جائعة أن يخاصمك يوم القيامة، وإياك ودعاء عباد الله الذين أذابوا اللحوم وأحرقوا الجلود وغشيت أبصارهم فإن بهم يصرف الله البلاء والزلازل والفتن». ثم بكى رسول الله ﷺ، واشتد نحيبه حتى ظنوا أنه أمر حدث من السماء ثم قال: «يا ويح هذه الأمة ماذا يلقى منهم من أطاع الله عز وجل بعدي».

وعنه ﷺ أنه قال: «أكثر الناس أماناً في الدنيا أكثرهم فكراً في الدنيا، وأكثرهم ضحكاً في الآخرة أكثرهم بكاء في الدنيا، وأشد الناس فرحاً في الآخرة أطولهم حزناً في الدنيا»[٢].

وعن علي بن أبي طالب أنه قال في بعض خطبه: ذمتي رهينة وأنا زعيم لا يهيج عليّ التقوى زرع قوم، ولا يظمأ عليَّ الهدى سنخ أصل، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمشر ـ أي جمع علما اغار في أغباش الفتنة سماه ـ إستاءه الناس وأرذالهم عالماً، ولم يغن في العلم يوماً سالماً بكر فاستكثر ما قلّ منه خير مما كثر حتى إذا ارتوا من أجر وأكثر من غير طائل جلس للناس مفتياً ليخلص ما التبس على غيره وإن نزلت به إحدى المبهمات هباء حسوا الرأي من رأيه فهو من قطع الشبهات في مثل غزل العنكبوت، لا يدري أخطأ أم أصاب ركاب جهالات خباط عشوات لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ولا يعض على العلم / بضرس قاطع فيغنم تبكي منه الدماء، وتستحل بقضائه الفروج الحرام، لا ملى والله [١٧١/أ] بإصدار ماء ورد، ولا هو أهل لما فرط به، أولئك حلت عليهم النحبات والبكاء أيام حياة الدنيا[٣].

---

(١) قال العراقي في المغني (١/ ٧٥): لم أجده هكذا بطوله، وفي زيادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسلاً سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تموت يوم تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى» وللدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلاً: «ألا إن شر الشر شر العلماء وإن خير الخير خيار العلماء».

(٢) قال العراقي في المغني (١/ ٧٦): لم أجد له أصلاً.

(٣) راجع الإحياء (١/ ٧٦).

وروي في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنّف ثلاثمائة وستين مصحفاً من الحكمة حتى وصف بالحكمة، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل لفلان قد ملأت الأرض بقاقاً ولم تردني بشيء من ذلك لا أقبل من بقاقك شيئاً، فندم الرجل وترك ذلك وخالط أهل العامة ومشى في الأسواق وأكل مع بني إسرائيل وتواضع في نفسه، فأوحى الله عز وجل إلى ذلك النبي قل له: الآن وافقت رضائي.

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب[١].

وقال بعض السلف: من ضحك ضحكة مجّ [من][٢] العلم مجة[٣].

ويقال: إذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة به على المعلم العقل والأدب وحسن الفهم[٤].

وعلى الجملة الأخلاق التي ورد القرآن بها لا ينفك عنها علماء الآخرة؛ لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للدراسة[٥].

ولذلك قيل: خمس من الأخلاق وهي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات: وهي الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد.

أما الخشية: فمن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾[٦].

وأما الخشوع: فمن قوله تعالى: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾[٧].

وأما التواضع فمن قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٨].

وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[٩] الآية.

---

(١) راجع الإحياء (١/٧٦).
(٢) ما بين المعقوفين من المصدر السابق.
(٣) راجع الإحياء (١/٧٦).
(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/٧٦).
(٥) راجع إحياء علوم الدين (١/٧٦).
(٦) سورة فاطر الآية: ٢٨.
(٧) سورة آل عمران الآية: ١٩٩.
(٨) سورة الشعراء الآية: ٢١٥.
(٩) سورة آل عمران الآية: ١٩٩.

[١٧٢/ب] وأما الزهد فمن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ / ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[١] الآية.

وعن ابن عمر قال: لقد عشنا برهة من الدهر فإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزجرها، وما ينبغي أن يتوقف عنده منها، ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدري ما أمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده وينثره نثر الدقل[٢].

وفي خبر آخر بمثل معناه قال: كنا أصحاب رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن وسيأتي بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضيعون حدوده [وحقوقه][٣]، يقولون: قرأنا، فمن أقرأ منا؟ وعلمنا، فمن أعلم منا؟ فذلك حظهم[٤].

وفي لفظ آخر: أولئك شرار هذه الأمة[٥]. والله أعلم. ومن علامات علماء الآخرة أن يكون العالم منقبضاً[٦] عن السلاطين، وأهل المنكر من الأغنياء المترفين. قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[٧].

فلا ينبغي للعالم أن يركن إليهم ولا يدخل عليهم ما دام يجد سبيلاً إلى الفرار منهم، بل ينبغي أن يحترز من مخالطتهم، وإن اقتربوا منه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم، واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة يجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم، وتقبيح فعلهم فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله تعالى عليه، أو يسكت على الإنكار عليهم فيكون مداهناً شريكاً لهم في ظلمهم، أو يتكلف في كلامه ما لا ينبغي طلباً لمرضاتهم، وتحسين حالهم، وذلك هو البهت الصريح أو يطمع في أن ينال من دنياهم، وذلك هو السحت المحظور.

---

(١) سورة القصص الآية: ٨٠.
(٢) راجع إحياء علوم الدين (٧٦/١).
(٣) من المصدر السابق وقال العراقي تعليقاً: رواه ابن ماجه من حديث جندب مختصراً مع اختلاف.
(٤) من المصدر السابق وقال العراقي تعليقاً: رواه ابن ماجه من حديث جندب مختصراً مع اختلاف.
(٥) من المصدر السابق وقال العراقي تعليقاً: رواه ابن ماجه من حديث جندب مختصراً مع اختلاف.
(٦) في الإحياء (٦٧/١): «مستقصياً».
(٧) سورة هود الآية: ١١٣.

/ وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشر وعلماء الآخرة طريقتهم الاحتياط في جميع [١٧٣/أ] الأمور[١]، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من سكن البادية جفى، ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن»[٢].

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر فقد برىء ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع أبعده الله عز وجل»[٣].

ومن طريق آخر: «فمن نابذهم نجى، ومن اعتزلهم سلم أو كاد يسلم، ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم».

قال الغزالي في كتابه: وذلك أن من أعتزلهم سلم من إثمهم، ولكن لم يسلم من عذاب يغمه معهم إن نزل بهم لتركه المنابذة والمنازعة.

وعنه عليه السلام أنه قال: «سيكون بعدي أمراء يظلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مِنِّي ولست منه ولم يرد علي الحوض».

وقال بعض علماء السلف، في جهنم وادٍ لا يسكنه إلاّ القراء الزوارون للملوك.

وعن حذيفة رحمه الله أنه قال: إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وعن رسول الله ﷺ من طريق أنس أنه قال: «العلماء أمناء الرسل على عباد الله عز وجل ما لم يخالطوا السلاطين، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم»[٤].

ويروى أنه قيل للأعمش: لقد أحييت العلم بكثرة من يأخذ عنك. فقال: لا تعجلوا ثلث يموتون قبل الإدراك، وثلث يلزمون من السلاطين فهم شر الخلق، والثلث الباقي لا يصح منهم إلاّ القليل[٥].

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص[٦].

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/٦٧).
(٢) رواه أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي من حديث ابن عباس قاله العراقي في المغني (١/٦٧).
(٣) رواه مسلم من حديث أم سلمة قاله العراقي في المصدر السابق.
(٤) قال العراقي في المغنى (١/٦٨): رواه العقيلي في الضعفاء وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.
(٥) راجع إحياء علوم الدين (١/٦٨).
(٦) راجع إحياء علوم الدين (١/٦٨).

وفي رسالة أبي سفيان محبوب رحمه الله قال: وقديماً اتخذت الجبابرة عباد الله خولاً، ودينه رغلاً، وماله دولاً، واستحل الخمر بالنبيذ، والبخس بالزكاة، والسحت / بالهدية [١٧٤/ب] يأخذونها من غضب الله وينفقونها في معاصي الله ووجدوا على ذلك من خونة العلم أعواناً فبهؤلاء الأعوان خطب أهل الجور على المنابر، وبهؤلاء الأعوان قامت راية الفسق في العساكر، وبهؤلاء الأعوان اختفى العالم فلا ينطق ولا يفطن لذلك الجاهل فيسأل.

وبهؤلاء الأعوان مشى المؤمن في طرقات الأرض بالتقية والكتمان، فهو كاليتيم المنفرد يسند به من لا يتقي الله.

وعن عبادة بن الصامت أنه قال: حب القارىء الناسك للأمراء نفاق، وحبه للأغنياء رياء وعن أبي ذر رحمه الله أنه قال: من كثر سواد قوم فهو منهم أي من كثر سواد الظلمة.

وعن ابن مسعود رحمه الله قال: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه، فيخرج ولا دين له. قيل له: ولم؟ قال: لأنه يرضيه بسخط الله تعالى.

وعن الأوزاعي أنه قال: ما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من عالم يزور عاملاً [١].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء»[٢].

وعن مكحول الدمشقي أنه قال: من تعلم القرآن وتفقه في الدين، ثم صحب السلطان تملقاً إليه، وطمعاً لما في يديه خاض في جهنم بعدد خطاه[٣].

وقال بعض علماء السلف[٤]: ما أسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد ويسأل عنه فيقال إنه عند الأمير قال: وكنت اسمع أنه يقال: إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلّا وجاست نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك، وأنتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه، ولو وددت أني أنجو من الدخول كفافاً مع أني لا آخذ منهم شيئاً، ولا أشرب لهم شربة / ماء، ثم قال: [١٧٥/ب] وعلماء زماننا شر من علماء بني إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص، وبما يوافق هواه، ولو

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) رواه ابن ماجه بالشطر الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/٦٨).

(٣) راجع الإحياء (١/٦٨).

(٤) في الإحياء هو: «سمنون».

أخبروه بالذي عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم(١).

وعن الحسن أنه قال: كان فيمن قبلكم رجل له قدم في الإسلام، وصحبة لرسول الله ﷺ قال عبد الله بن المبارك ـ يعني سعد بن أبي وقاص ـ قال: وكان يغشى السلاطين ثم بعد عنهم، فقال له بنوه: يأتي هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم في الإسلام فلو أتيتهم. فقال: يا بني آتي جيفة قد أحاط بها قوم، والله لئن استطعت لشاركتهم فيها. قالوا: يا أبانا إذن نهلك هزلاً. قال: يا بني لئن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إليّ من أن أموت منافقاً سميناً(٢).

قال الحسن: خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان(٣).

وفي هذه إشارة إلى أن الدخول على السلطان لا يسلم صاحبه من النفاق البتة وهو مضاد للإيمان.

وعن أبي ذر رحمه الله أنه قال لسلمة: يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين؛ فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلاّ ما أصابوا من دينك أفضل منه(٤).

وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان يلقى إليه أن في وعظك لهم، ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعار الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام، ويداهن ويخوض في الثناء، والمدح، والدعاء، وفيه هلاك الدين(٥).

وكان يقال: العلماء إذا علموا عملوا، فإذا عملوا شغلوا، فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا(٦).

ويروى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن: أما بعد / فأشر عليَّ بقوم استعين بهم [١٧٦/أ] على أمر الله تعالى فكتب إليه: أما أهل الدين فلن يريدوك، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن

---

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) راجع المصدر السابق.
(٣) راجع المصدر السابق.
(٤) راجع المصدر السابق.
(٥) راجع المصدر السابق.
(٦) راجع المصدر السابق.

عليك بالأشراف؛ فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة[١].

هذا في عمر بن عبد العزيز، وكان أزهد أهل زمانه ـ ولم ينقم عليه أصحابنا إلا في توقفه في عثمان ومن كان مثله من أهل بيته، ودخوله الإمارة بغير مشورة من المسلمين ـ فإذا كان شرط أهل الدين الهرب منه، فكيف ترجى السلامة في مخالطة غيره، ولم يزل علماء السلف مثل الحسن وجابر بن زيد وغيرهم من علماء الفرق والمذاهب يتكلمون في العلماء من أهل الدنيا لميلهم إلى الدنيا، ومخالطتهم السلطان[٢]. وبالله التوفيق.

ومن علامات علماء الآخرة: أن لا يكون العالم مسارعاً إلى الفتوى بل يكون متوقفاً محترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً.

فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله تعالى أو بنص حديث رسوله عليه السلام أو بإجماع الأمة أو بقياس جليّ أفتى، وإن سئل عما يشك فيه قال: لا أدري.

وإن سئل عما يظنه باجتهاد أو تخمين رأي احتاط ودفع عن نفسه، وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم؛ لإن تقلد خطر الاجتهاد عظيم[٣].

ولذلك قال جابر بن زيد رحمه الله: لقد أدركت جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ إذا سئل أحدهم عن حادثة أو نازلة ودّ لو أن أخاه كفاه فتياها، فأصحاب رسول الله ﷺ يخافون من أن يسألوا فيجيبوا بما عندهم، وأنتم تتصبون للناس وتسألونهم أن يستفتوكم ما أظنكم تحبون السلامة لأديانكم، ولا تخافون العقوبة من ربكم فاتقوا الله واحذروا الفتيا، فإذا سئلتم فإياكم أن تقدموا على ما ليس لكم به علم.

وفي الحديث: «العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة ولا أدري»[٤].

[١٧٧/ب] وقد حكي عن / بعض المتقدمين أنه قال: لقد حويت العلم كله. فقيل له: من أين قلت ذلك؟ قال: لعلمي بالفرائض.

وقد قال النبي عليه السلام: «الفرائض نصف العلم، ولأن أقول فيما لا أعلم الله أعلم».

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٦٩).

(٣) راجع المصدر السابق.

(٤) رواه الخطيب في أسماء من روى عن مالك موقوفاً على ابن عمر، ولأبي داود، وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً نحوه مع اختلاف، قاله العراقي في المغني (١/ ٦٩).

وعن الشعبي أنه قال: لا أدري نصف العلم، ومن سكت حيث لايدري لله سبحانه فليس بأقل أجراً ممن ينطق لأن الاعتراف بالجهل شديد على النفس[١].

وهكذا كانت عادة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وغيرهم، ويروى أن ابن عمر كان إذا سئل الفتوى قال: اذهب إلى هذا الأمير الذي تقلد بأمور الناس ووضعها في عنقه.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: إن الذي يفتي للناس في كل ما يستفتونه لمجنون[٢].

وقال جُنَّة: العلم لا أدري فإن أخطأها أصيبت مقاتله وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال: ليس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم، ويسكت بعلم. يقول: انظر إلى هذا سكوته أشد عليّ من كلامه[٣] ووصف بعضهم الأبدال[٤] فقال: أكلهم فاقة وكلامهم ضرورة ـ أي ما يتكلمون حتى يسألوا فإذا سألوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا، فإن اضطروا أجابوا، قال: وكانوا يعدون الإبتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام[٥].

ويروى أن علياً بن أبي طالب مرّ بقاصٍّ يقص على الناس فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: أتعرف المحكم من المتشابه؟ قال: لا. فأخذ عليّ بيده وقال: إن هذا يقول: اعرفوني اعرفوني، ثم مرّ بقاصّ آخر فقال: أما أنا أسألك عن مسألتين فإن أجبت وإلاّ أوجعتك ضرباً. قال: سَلْ يا أمير المؤمنين. قال: ما ثبات الإيمان وزواله؟ قال: ثبات الإيمان الورع، وزواله الطمع. قال: قص فمثلك من يقص[٦].

وقال بعض السلف: إنما العالم الذي إذا سئل عن المسألة فكأنما تقلع ضرسه[٧].

وكان ابن عمر يقول: يريدون أن يجعلونا جسراً يعبرون / علينا في جهنم[٨]. [١٧٨/أ]

وقال بعض السلف: العالم هو الذي يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة: من أين

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/٦٩).
(٢) راجع المصدر السابق.
(٣) راجع المصدر السابق.
(٤) الأبدال رتبة صوفية وكل ما ورد فيها من الأحاديث فهو ضعيف.
(٥) راجع المصدر السابق.
(٦) في المصدر السابق باختصار.
(٧) المصدر السابق.
(٨) المصدر السابق.

أجبت[١]؟ وكان بعضهم إذا سئل عن مسألة يبكي ويقول: لم تجدوا غيري حتى احتجتم إليّ[٢].

وكان أبو العالية الرياحي وإبراهيم والثوري، وابن أدهم يتكلمون مع اثنين وثلاثة، والنفر اليسير، فإذا كثروا انصرفوا[٣].

فكيف يأنف العالم أن يقول فيما لا يعلم لا أدري، فهذه ملائكة الله سبحانه قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾[٤].

وفي كتاب الغزالي: وقد قال النبي عليه السلام: «ما أدري أعزير نبي أم لا؟ وما أدري أتبع ملعون أم لا؟ وما أدري أذو القرنين نبي أم لا؟»[٥].

وكان ابن عمر يسأل عن عشر مسائل، فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسعٍ[٦].

وكان ابن عباس رضي الله عنه يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن تسعٍ ويسكت عن واحدة[٧].

ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتوى ما روي مسنداً أنه لا يفتي للناس إلا ثلاثة: أمير، ومأمور ومتكلف[٨].

وقال بعضهم: كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء: الأمانة والوديعة والوصية والفتوى[٩].

وقال بعضهم: كان أسرعهم إلى الفتوى أقلهم علماً، وأشدهم دفعاً أورعهم[١٠].

وكان شغل الصحابة والتابعين في خمسة: قراءة القرآن، وعمارة المساجد وذكر الله

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) سورة البقرة الآية: ٣٢.
(٥) رواه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة، قاله العراقي في المغني (١/ ٦٩).
(٦) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٦٩).
(٧) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٦٩).
(٨) المصدر السابق (١/ ٧٠).
(٩) المصدر السابق (١/ ٧٠).
(١٠) راجع المصدر السابق.

تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لما سمعوا من قوله ﷺ: «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ثلاثة: أمراً بمعروف، ونهياً عن المنكر، وذكر الله تعالى»[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾[٢] الآية.

قال: ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأي من الكوفة في المنام فقال له: ما رأيت فيما كنت عليه من الفتوى والرأي؟ فكره وجهه وأعرض. فقال: ما وجدت شيئاً، وما حمدنا عاقبته والله أعلم[٣].

قال: كتب سلمان[٤] رضي الله عنه إلى أبي الدرداء ـ وكان قد آخى بينهما رسول الله ﷺ فقال: يا أخي بلغنا أنك قد اقعدت طبيباً تداوي المرضى فانظر فإن كنت طبيباً فتكلم فإن كلامك شفاء فإن كنت متطبباً فالله الله لا تقتل مسلماً.

فكان أبو الدرداء يتوقى بعد ذلك إذا سُئل[٥].

وحكي أنه: روى صحابي في حضور الحسن عشرين حديثاً فسُئل عن تفسيرها فقال: ما عندي إلاَّ ما رويت، فأخذ الحسن في تفسيرها حديثاً حديثاً، فتعجبوا من حسن حفظه وحسن تفسيره. فأخذ الصحابي كفًا من حصى ورماهم به وقال: تسألوني عن العلم، وهذا الحبر بين أظهركم[٦]. والله أعلم.

ومن علامات علماء الآخرة: أن يكون العالم أكثر بحثه عن علم الأعمال وعن ماذا يفسدها ويشوش القلوب، ويهيج الوسواس، ويثير الشرَّ، فإن أصل الدين التوقي من الشرِّ، ولذلك قيل:

عـرفـت الشــر لا للشــر لكــن لتـوقيـه ... ومن لم يعرف الخير من الشر يقع فيه[٧]

---

(١) رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث أم حبيبة، قال الترمذي حديث غريب، قاله العراقي في المغني (١/ ٧٠).

(٢) سورة النساء الآية: ١١٤.

(٣) راجع المصدر السابق.

(٤) في الأصل: سليمان وهو تحريف.

(٥) في الأصل: سليمان وهو تحريف.

(٦) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٧٠).

(٧) في الإحياء (١/ ٧٧) جاء الشطر الأخير من البيت على النحو التالي:

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها ويشوشها.

وهذا مما يطول تشعبه ويكثر تفريعه، وكل ذلك مما يكثر مسيس الحاجة إليه، وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة[١].

على ما سيأتي شرح بعض ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ في قناطر الكتاب. وذلك عادة السلف الصالح من الصحابة والتابعين ولقد كان الحسن البصري فيما بلغنا أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة، اتفقت العلماء في حقه على ذلك.

وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب وفساد الأعمال، ووساوس النفوس والخواطر، والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس. وقيل له: يا أبا سعيد، إنك تتكلم بكلام ليس يسمع من غيرك / فمن أين أخذته؟ فقال: من حذيفة بن اليماني. وقيل لحذيفة: إنك تتكلم [١٨٠/أ] بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته؟ قال: خصني به رسول الله ﷺ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقني. وقال مرّة: فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير.

وفي لفظ آخر: كان الناس يقولون: يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا فيسألونه عن فضائل الأعمال؟ وكنت أقول: يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا؟ فلما رآني أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم[٢]. وكان حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ.

ويقال إن جبريل عليه السلام أمره بذلك فخصه عليه السلام بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن.

وكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضي الله عنهم ممن يسألونه عن الفتن العامة والخاصة، وكان يسأل عن المنافقين فيما بلغنا فيخبر بأعداد من بقي ولا يخبر بأسمائهم[٣].

ويروى أن عمر رضي الله عنه صلى على جنازة فلما رجع قال: يا حذيفة رجل يموت من أصحاب محمد ﷺ ولا تحضر جنازته! قال: يا أمير المؤمنين أما علمت أن رسول الله ﷺ

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) قال العراقي في المغني (١/ ٧٧) الحديث أخرجاه مختصراً.

(٣) راجع الإحياء (١/ ٧٧).

أسر إليَّ سراً؟ فقال عمر: يا حذيفة أنشدك الله أمنهم كان. قال: اللهمّ نعم. قال: أُنشدك الله أمنهم أنا. فقال حذيفة: لا والله يا أمير المؤمنين، ولا أومن بهذا أحد غيرك ـ يعني أنه يقول ليس من المنافقين ـ. فقيل لجابر بن زيد: أتخاف النفاق؟ قال: وكيف لا أخافه وقد خافه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان عمر رضي الله عنه فيما بلغنا إذا دعي إلى جنازة نظر فإذا نظر حذيفة صلى عليها، وإلا ترك وكان يسمى صاحب السر(١).

فالعلانية بأحوال القلب ومقاماته هو دأب علماء الآخرة / ؛ لأن القلب هو الساعي إلى [١٨١/ب] قرب الله تعالى(٢). وهذا إنما يعتني بالبحث عنه علماء الآخرة.

وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون ما تيسر لهم فطلب المعاش، وكسب الحطام من مسائل الخصومات، والأقضية، والأحكام، ويتبعون في مسائل ينقضي الدهر ولا تقع، وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم.

وربما يجدون من يكفيهم ذلك، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم، ووساوسهم، وأعمالهم.

فما أبعد من السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر وقوعه إيثاراً للقبول، والتقرب إلى الخلق على التقرب من الله، وحرصاً أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فضلاً عالماً، وجزاؤه من الله تعالى أن لا يشفع في الدنيا بقبول الخلق صافياً من الحرادث بل يتكدر صفوه بنوائب الزمان، ثم يرد يوم القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من رب العالمين، وفوز المقربين وذلك هو الحسران المبين، ولقد صدق من قال:

الطرق شتى وطرق الحق مفردة ... والسالكون طريق الحق أفراد
لا يعرفون ولا تدري مقاصدهم ... فهم على مهل يمشون قصاد
والناس في غفلة عما يراد بهم ... فجعلهم عن سبيل الحق حياد(٣)

وعلى الجملة لا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطبائعهم، فإن الحق مرّ، والوقوف عليه صعب، وإدراكه شديد، وطريقه مستوعر لا سيما معرفة صفات القلب، وتطهيرها عن الأخلاق المذمومة.

---

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) راجع المصدر السابق.
(٣) في الإحياء (١/٧٧) الشعر كما هنا غير هذه الكلمة فقد جاء فيه بدلاً منها: «رقاد».

وذلك نزع للروح على الدوام، وصاحبه ينزل منزلة شارب الدواء، فيصبر على مرارته رجاء للشفاء وينزل منزلة من جعل العمر صومه، فهو يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت [١٨٢/أ] / فمتى تكثر الرغبة في مثل هذا الطريق[١]، وهذا كما قيل قديماً توعرت السبل فقلّ السالكون، وسهلت فكثر الهالكون. وبالله التوفيق.

ومن علامات علماء الآخرة: أن يكون اعتماد العالم في علومه على بصيرته وإدراك صفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما سمعه من غيره، وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه فيما صح عنه أنه أمر به أو قاله.

وإنما يقبل قول الصحابة من حيث أن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ، ثم إذا صح عند العالم أقوال الرسول عليه السلام وأفعاله وتلقاها عن الصحابة أو غيرهم بالقبول فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره، فإن الصحابي أيضاً إنما يفعل الفعل لأن الرسول عليه السلام فعله ولم يفعله إلاّ لسر فيه.

فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال، والأقوال؛ فإنه إن اكتفى بحفظ ذلك دون التفكر فيه، فاته يكون وعاء للعلم لا عالماً، ولذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم، وكان لا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع عن الحكم والأسرار فمن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعاً فلا ينبغي أن يتبع غيره[٢].

ولذلك قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما من عالم إلا وفي علمه مأخوذ ومتروك ما خلا صاحب هذا القبر، فالتفت عن يمينه فأشار إلى قبر النبي عليه السلام[٣].

وحكي مثل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه، وقد كان فيما بلغنا تعلم من زيد بن ثابت الفقه، وقرأ على أُبيّ بن كعب ثم خالفهما في الفقه والقراءة[٤].

وقال بعض علماء السلف: ما جاءنا عن رسول الله ﷺ قبلناه ـ على الرأس والعين ـ وما جاءنا عن الصحابة رضي الله عنهم فنأخذ منه ونترك وما جاءنا عن التابعين فهم رجال / ونحن [١٨٣/أ] رجال[٥].

---

(١) راجع الإحياء (١/٧٧، ٧٨).

(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/٧٨).

(٣) في المصدر السابق نحو هذا الأثر منسوب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤) راجع المصدر السابق.

(٥) راجع المصدر السابق.

وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله ﷺ، واعتلاق قلوبهم أموراً تدرك بالقرائن فيسدد لهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبادة إذ أفاض عليهم ﷺ من نور النبوة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ، وإذا كان الاعتماد على المسموع عن الغير تقليداً غير مرضي فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد وأبعد، بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيئاً منها في زمان الصحابة وصدر زمان التابعين رضي الله عنهم، وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين(١).

هكذا ذكر الغزالي في كتابه ثم قال: بل الأولون يكرهون كتابة الحديث وتصنيف الكتب، لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتفكر وقال: احفظوا كما كنا نحفظ، قال: ولقد كره أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم تصحيف(٢) القرآن في مصحف، وقالوا: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ وخافوا أن تكال الناس على المصاحف.

وقالوا(٣): نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هو شغلهم وهمهم حتى أشار عمر رضي الله عنه وبقية الصحابة بكتابة القرآن خوفاً من تخاذل الناس وتكاسلهم وحذراً من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه في كلمة أو في قراءة من المتشابهات. فانشرح صدر أبي بكر رضي الله عنه لذلك وجمع القرآن في مصحف واحد(٤).
وإني أظن أن القرآن في زمان رسول الله ﷺ [كان](٥) مكتوباً في الأكتاف والصحف حتى جمع بعد / ذلك في مصحف واحد لأنه كان له عليه السلام كُتَّابٌ يكتبون الوحي حتى حفظه على عهده [١٨٤/ب] وجمعه ستة رجال من الأنصار: زيد، وأبو زيد، وأبو أيوب، وأُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وعثمان بن مظعون دون غيرهم وما مات عليه السلام إلاّ والقرآن مجموع متلو. والله أعلم.

وفي كتاب الغزالي قال: وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك تصنيف الموطأ، ويقول: ابتدع ما لم تفعله الصحابة.

---

(١) نفس المصدر.
(٢) في الأصل: تصنيف، واثبت الأقرب إلى إيضاح المعنى وهو ما في الإحياء الموضع السابق.
(٣) في الأصل: قال. والتصويب من المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) ما بين المعقوفين زيادة لإيضاح السياق.

قال: وقيل أول كتاب صنِّف في الإسلام «كتاب ابن جريج في الآثار وحروف في التفاسير» عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس [بمكة][١]، ثم «كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سنناً منثورة»، ثم «كتاب الموطأ» بالمدينة لمالك بن أنس، ثم «جامع سفيان الثوري».

قال: ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض والجدال في أبطال المقالات، وظهر علم الخلاف.

قال: وسبب ذلك أن الخلافة تولاها بعد النبي عليه السلام الخلفاء الراشدون وكانوا أئمة وعلماء بالله تعالى، وفقهاء في أحكامه ومشتغلين بالفتاوى في الأقضية فكانوا لا يشتغلون بالفقهاء إلاّ نادراً، وفي وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة، وتجردوا لها وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا وأقبلوا على الله سبحانه بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرتهم. قال: فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى قوم تولوا بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء، وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكام وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطريق الأول، وملازم صفو الدين، ومواظب على سمت علماء / السلف، [١٨٥/أ] فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات. فرأى أهل تلك الأعصار عزّ العلماء وإقبال الولاة والأئمة عليهم مع إعراضهم عنه، فاشرأبوا لطلب العلم تواصلاً إلى نيل القدر ودرك الجاه من قبل الولاة وتفرغوا إليهم، وطلبوا الولايات والصِّلاة منهم، فمنهم من حُرم، ومنهم من أنجح، والمنجح لم يخل عن ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين.

وبعد أن كانوا أعزة[٢] بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم إلاّ من وفقه الله عز وجل في كل عصر من علماء دينه، وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتوى، والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات ثم ظهر بعدهم من الأمراء من سمع مقالات الناس في قواعد العقائد، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فعلم رغبته إلى المناظرة، والمجادلة في الكلام فانكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات، و استخرجوا فنون المناقضات في المقالات.

---

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء (٧٩/١).

(٢) في الأصل: «عزة» وأضفت الألف لإيضاح المعنى أكثر.

وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله تعالى والنضال عن السنة، وقمع المبتدعة كما زعم من قبلهم أن غرضهم الاستقلال بفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين إشفاقاً على خلق الله تعالى ونصيحة لهم، ثم ظهر بعد ذلك من الأمراء من لم يستصوب الخوض في الكلام، وقبح باب المناظرة فيه، لما كان قد تولد في فتح بابه من التعصبات الفاحشة، والخصومات الناشئة المفضية إلى إهراق الدماء وإخراب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي، وأبي حنيفة على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم، واندفعوا على المسائل الخلافية بين / الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك [١٨٦/ب] وسفيان وأحمد وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع، وتفريع علل المذاهب، وتمهيد أصول الفتاوى، فأكثروا فيه التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مستمرون عليه إلى الآن.

قال: وليس ندري ما الذي قدّر الله تعالى فيما بعدنا من العصور فهذا هو الباعث على الانكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير.

قال: ثم مال الناس إلى ما ذكرنا من الكلام والمجادلات وإلى القصص والوعظ فأخذ علم المتقين في الاندراس من ذلك الزمان الأول فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكائد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقلون فصار يسمى المجادل المتكلم عالماً، والقاص والمزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً.

قال: وهذا لأن العوام هم المستعمون إليهم وكان لا يتميز لهم حقيقة العلم عن غيره ولم تكن سيرة الصحابة وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون به مباينة هؤلاء لهم فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث القلب خلفاً عن سلف وأصبح علم الآخرة مطوياً وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم.

قال: هكذا ضعف الدين في قرون سالفة فكيف بزمانك هذا؟

وقد انتهى الأمر إلى أن صار مظهر الإنكار يستهدف بالنسبة إلى الجنون فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت إذا وسعه ذلك[١].

ومن علامات علماء الآخرة: أن يكون العالم شديد التوقي في محدثات الأمور وإن اتفق

---

(١) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٧٩).

عليها الجمهور، فلا يضره إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة، وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم، وما كان فيه أكثر همهم، أكان في التدريس، والتصنيف / ، والمناظرة، والقضاء والولايات، وتولي الأوقاف، والوصايا ومال الأيتام، [١٨٧/أ] ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة، أو كان أكثر همهم في الخوف، والحزن، والتفكر، والمجاهدة، ومراقبة الباطن والظاهر، واجتناب دقيق الإثم وجليله، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفس، ومكائد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن(١). وتعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان، وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أخذ الدين، ولذلك قال علي: خيارنا اتبعنا لهذا الدين(٢).

وذلك لما أن قيل له: خالفت فلاناً، فلا ينبغي أن تكترث لمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله عليه السلام، فإن الناس رأوا رياء فيما هم فيه لميل طبائعهم إليه، ولم تسمح نفوسهم بالإعتراف، فإن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادّعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه.

ولذلك قال الحسن: هما محدثان أحدثا في الإسلام: رجل ذو رأي سوء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب، ولها يرضى وإياها يطلب فارفضوهما إلى النار، وإن رجلاً أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه، وصاحب هوى يدعوه إلى هواه قد عصمه الله تعالى منهما يحق إلى السلف الصالح يسئل عن فعالهم ويقتص آثارهم متعرض لأجر عظيم فكذلك كونوا(٣).

وروي عن ابن مسعود رحمه الله موقوفاً ومسنداً أنه قال: «إنما هما اثنان: الكلام، والهدي، فأحسن الكلام كلام الله عز وجل، وأحسن الهدي هدي محمد عليه السلام، ألا وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن شر الأمور محدثاتها، إن كل محدثة بدعة وإن كل بدعة ضلالة، ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم، ما هو آت قريب ألا وإن البعيد ما ليس بآت»(٤).

[١٨٨/أ] وفي رسالة أبي سفيان محبوب رحمه الله ذكر صفات أولياء / الله.

ثم قال: أولئك الذين لا تعتريهم سامة، ولا تخترقهم رغبة، ولا ينظرون إلى الناس بعين

---

(١) راجع المرجع والموضع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) راجع المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق وعلق عليه العراقي في المغني بقوله رواه ابن ماجه.

بغية، ولا يعتقدون لها على مودة، ولا يعرجون فيها على زينة، بل ضربوا في السهم الأوفر، ولزموا الطريق الأقصد، وسلكوا الطريق الأرشد، وهم أئمة التقى ونجوم الهدى، وأعلام الدين، ومنار الإسلام كلامهم حكمة، وسكوتهم حجة، ومباينتهم حسرة ومخالطتهم غنيمة، والاستئناس بهم حياة، والاقتداء بهم نجاة.

فعليك أيها الزائغ عن طريقهم، الراغب عن سبيلهم بالإتباع؛ فإنه ليس الإتباع كالابتداع فعليك بطريق من كان بالله أعلم، وبحلاله وحرامه منك. لهذا قال أبو سفيان قال: وائل رحمهما الله: لقد أدركت بحضرموت رجالاً، إن كان الرجل منهم لو وُلِّيَ على الدنيا كلها لاحتمل ذلك في عقله، وعلمه، وورعه.

وقد قال النبي عليه السلام في بعض خطبه: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وانفق مالاً اكتسبه من غير معاصيه، وخالط أهل الفقه والحكمة، وجالس أهل الذل والمسكنة، طوبى لمن ذلت نفسه وحسنت خليقته وطابت سريرته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وانفق من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة، ولم تستهوه البدعة»[١].

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه كان يقول: حسن الهدى في آخر الزمان خير من كثير من العمل. ثم قال: إنكم في زمان خيركم فيه المسارع إلى الأمور وسيأتي بعدكم زمان يكون خيركم المثبت المتوقف لكثرة الشبهات[٢].

فمن لم يثبت في هذا الزمان وافق الجماهير فيما هم عليه، وخاض فيما خاضوا لهلك فيما هلكوا، إلاَّ من أعطاه الله تعالى عقلاً كاملاً يردعه عن هجوم الشهوات، وعلماً نافعاً عزيزاً يهديه عند ورود الشبهات فبالأحرى أن ينجو من / أصناف المهلكات. [١٨٩/ب]

وقد قال حذيفة بن اليمان رحمه الله: أعجب من هذا، أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى، وإن منكركم اليوم معروف زمان آت، وإنكم لا تزالون بخير ما عرفتم الحق، وكان العالم فيكم غير مستخف[٣]. هذا في زمان حذيفة فما ظنك بزماننا هذا.

---

(١) رواه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف، والبزار من حديث أنس أول الحديث وآخره، والطبراني، والبيهقي من حديث ركب المصري وسط الحديث وكلها ضعيفة، قاله العراقي في المغني (١/ ٨٠).

(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٨٠).

(٣) راجع المصدر السابق.

وقال الغزالي في كتابه: أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات في عصر الصحابة.

قال: إذ من غرر المعروفات في زماننا تزيين المساجد وتنجيدها، وإنفاق الأموال العظيمة في دقائق عمارتها وفرش البسط الرفيعة فيها.

قال: وقد كان يعد فروش البوادي في المسجد بدعة، وقيل إنه من محدثات الحجّاج اللعين فقد كان الأولون قلَّ ما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً. قال: وكان الاشتغال بدقائق الجدال والمناظرات التي هي من أجل علوم الزمان، ويزعمون أنه أعظم القربات، وقد كان ذلك من المنكرات.

قال: ومن ذلك التلحين في الأذان والقرآن، قال: ومن ذلك التعسف في النظافة، والوسوسة في الطهارة، وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب، مع التساهل في حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك[١].

قال: وقد صدق ابن مسعود حيث قال: أنتم اليوم في زمان، الهوى فيه تابع للعلم، وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعاً للهوى[٢].

قال: وكان هشام بن عروة يقول: لا تسألوهم اليوم عمّا أحدثوا؛ فإنهم قد أعدوا له جواباً، ولكن سلوهم عن السنة؛ لأنهم لا يعرفونها.

قال: وكان أبو سليمان الداراني[٣] يقول: لا ينبغي لمن يقول: لا ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به في الأثر فيحمد الله تعالى، إن وافق ما في قلبه[٤]. قال: وإنما قال: هذا لأن ما أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب، فربما شوش صفاء القلوب فيتخيل بسببه الباطل حقاً فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار[٥].

[١٩٠/أ] قال: ولهذا لما أحدث مروان المنبر / في صلاة العيد عند المصلى. قام إليه أبو سعيد الخدري فقال: يا مروان ما هذه البدعة؟ قال: إنها ليست بدعة، هي خير مما تعلم، إن الناس

---

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) راجع المصدر السابق.
(٣) هو عبد الرحمن بن عطية. وداريا قرية من قرى دمشق من بني عبس وكان كبير الشأن في علوم الحقائق والورع مات سنة خمس عشرة ومائتين الطبقات الكبرى (٦٨/١).
(٤) راجع الإحياء (٨٠/١).
(٥) راجع الإحياء (٨٠/١).

قد كثروا، فأردت أن يبلغهم الصوت. فقال أبو سعيد: والله لا تأتون بخير مما أعلم أبداً والله لا صليت وراءك اليوم[١].

قال: وإنما أنكر ذلك؛ لأن رسول الله عليه السلام كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصى لا على المنبر[٢].

وفي الحديث المشهور: «من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد عليه»[٣].

وفي خبر آخر: «من غش أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» قيل: يا رسول الله وما غش أمتك؟ قال: «أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها»[٤].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن لله ملكاً ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعته»[٥].

ويحكى أن إبليس اللعين بث جنوده في وقت الصحابة رضي الله عنهم فرجعوا إليه خاسرين. فقال: ما شأنكم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئاً. قال: أتعبونا. فيقول لهم: لا تقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم، وشاهدوا تنزيل ربهم، ولكن سيأتي بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منتكسين. فقالوا: ما رأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب، فإذا كان آخر النهار أخذوا في الاستغفار فتبدل سيئاتهم حسنات. فقال: إنكم لن تنالوا من هؤلاء لصحة توحيدهم، واتباعهم سنة نبيهم، ولكن سيأتي بعدهم قوم تقر أعينكم بهم، تلعبون بهم لعباً، وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم، لا يستغفرون فيغفر لهم، ولا يتوبون فتبدل سيئاتهم حسنات.

قال: فجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء، وزين لهم البدع / فاستحلوها [١٩١/ب] واتخذوها ديناً لا يستغفرون منها ولا يتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاؤوا، وذكر هذا الحديث الغزالي في كتابه[٦].

---

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) راجع المصدر السابق.
(٣) متفق عليه من حديث عائشة بلفظ في أمرنا ما ليس منه، وعند أبي داود فيه، قاله العراقي في المغني (٨١/١).
(٤) رواه الدارقطني في الأفراد من حديث أنس بسند ضعيف جداً، المرجع السابق.
(٥) لم أجد له أصل، راجع المصدر السابق.
(٦) إحياء علوم الدين (٨١/١).

وحكي مثل هذا عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾[١] إلى قوله: ﴿رَحِيماً﴾[٢] قالت الشياطين لإبليس: ذهب عملنا في ابن آدم باطلاً. فقال: سأحدث لهم ذنوباً لا يمكن لهم التوبة والاستغفار منها، فأحدث لهم هذه الفرق والأهواء، والله أعلم.

وقال بعض العلماء: ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء، وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف.

ويقال: الحق ثقيل من جاوزه ظلم، ومن قصر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها، قال الله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾[٥].

فكل ما أحدث بعد الصحابة مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللهو واللعب، وقد قال النبي عليه السلام: «عليكم بالنمط الوسطى، إليه يرجع، العالي، ويرتفع إليه الداني»[٦].

وفي كتاب الغزالي قال: مثل الجاني على الدين بإبداع ما يخالف السنة، بالنسبة إلى من يذنب ذنباً مثل من عصى الملك في قلب دولته، بالنسبة إلى من خالف أمر الملك في خدمة معينة، وذلك قد يغفر وأما قلب الدولة فلا[٧].

وقال بعض العلماء: إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل، والنظر إلى العامة، واستماع كلام أهل الغفلة[٨].

---

(١) سورة النساء الآية: ١١٠.
(٢) سورة النساء الآية: ١١٠.
(٣) إحياء علوم الدين (١/٨١).
(٤) سورة الأعراف الآية: ٥١.
(٥) سورة فاطر الآية: ٨، والأثر في الإحياء (١/٨١).
(٦) رواه أبو عبيد في غريب الحديث موقوفاً على علي بن أبي طالب ولم أجده مرفوعاً، قاله العراقي في المغني (١/٨١).
(٧) الإحياء (١/٨١).
(٨) الإحياء (١/٨١).

قال: فكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يصغى إلى قوله، بل ينبغي أن يتهم فيما يقول؛ لأن كل إنسان يخوض فيما يحب، ويدفع ما لا يوافق محبوبه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[1] / الآية. [١٩٢/أ]

فالعوام العصاة أسعد حالاً من الجهال بطريق الدين، المعتقدين أنهم من العلماء؛ لأن العامي معترف بتقصيره، ويستغفر، ويتصور، وهذا الجاهل الظان أنه عالم، وإنما الذي هو مشتغل به من العلوم إنما هي وسائله إلى الدنيا لا يتوب، ولا يستغفر بل لا يزال مستمراً عليه إلى الموت، فإذا غلب هذا على المنسوبين إلى العلم إلا مَنْ عصمه الله[2].

وذلك أعز من الكبريت الأحمر، ولهذا المعنى كتب بعض العلماء إلى بعض السلف فقال: ما ظنك بمن بقي لا يجد أحداً يذكر الله معه إلا كان آثماً معه؟ وكانت مذكراته معصية؛ وذلك أنه لا يجد أهله، ولقد صدق فإن مخالط الناس لا ينفك عن غيبة، أو سماع غيبة، أو عن سكوت عن منكر، وأحسن أحواله أن يفيد علماً.

ولو تأمل علم أنَّ المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا، ووسيلة إلى الشر فيكون هو معيناً له على ذلك، ومهيئاً لأسبابه كالذي يبيع السيف لقاطع الطريق.

فالعلم كالسيف وصلاحه للخير، كصلاح السيف للغزو، وذلك لا يرخص في البيع ممن يريد الاستعانة به على قطع الطريق[3]، ولذلك لا يجوز عند العلماء حمل السلاح إلى أرض العدو. والله أعلم.

فإذن قد وقع اليأس، وانقطع الطمع من إصلاح الناس إلا من شاء الله تعالى، فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة.

تحتوي كل واحدة على جمل من أخلاق المتقين جمعتها من كتب علماء السلف، وأكثرها من كتاب الغزالي؛ لأنها موافقة للقرآن، ولما مضى عليه السلف الصالح من مشايخ المسلمين رحمهم الله.

فكن يا أخي أرشدك الله أحد رجلين: إما متصفاً بهذه الصفات فتكون على سبيل المشايخ ذوي الكرامات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار بهذا العلم مقتبساً منه على قدر العون

---

(١) سورة الكهف الآية: ٢٨.
(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٨٢).
(٣) المرجع السابق.

والتيسير. وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن تسمي علم المعاش باسم علم الآخرة، وطريق الدين، وتسمي سيرة البطالين /بسيرة العلماء الراشدين فتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة [١٩٣/ب] الهالكين نعوذ بالله من خدع الشيطان الغرور[١]، فيها هلك الجمهور فالأسلم في هذا الزمان لدين الإنسان العزلة والانفراد إن وجد إلى ذلك سبيلاً، والله المستعان.

الباب العاشر
في بيان العلم المذموم، وأسماء العلم المحمود من كتاب الغزالي

اعلم أن هذا الباب يشتمل على جملتين:

أحدهما: فيما تعده العوام من العلوم المحمودة وليست كذلك، وفيها بيان الوجه الذي يكون به بعض العلوم مذموماً.

والثانية: في أسماء العلوم الشرعية، وبيان القدر المحمود منها من المذموم.

الجملة الأولى في العلم المذموم

في كتاب الغزالي قال: اعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة:

أحدها: أن يكون مؤدِّياً إلى ضرر إما بصاحبه، وإما بغيره كما يذم علم السحر والطلسمات.

أما السحر: فقد نطق به القرآن قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[٢].

وقد روي أن النبي ﷺ سحره بعض اليهود فمرض بسبب ذلك.

وروي عن الكلبي: أن الذي سحره لبيد بن أعصم اليهودي وقيل بناته: فمرض عليه السلام حتى انتثر شعره فلبث أشهراً أو ما شاء الله فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه. فقال أحدهما لصاحبه: ما بال الرجل؟ فقال طُبَّ - أي سحر -. قال: ومن طَبَّهُ؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي. قال: وبم. قال: بمشط ومشاطة. قال: وأين

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٠٢.

هو؟ قال: في جف طلعة تحت راعوفة ـ أي صخرة ـ ببئر ذي أروان، وهي لبني زريق.

قال: فانتبه النبي عليه السلام فبعث علياً، والزبير، وعمار بن ياسر رحمه الله فنزحوا ماء البئر كأنه نقاعة الحناء ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه، وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقود فيه / إحدى عشر عقدة مغروزة بالإبرة، فأنزل الله عز وجل سورتي [١٩٤/أ] التعويذ فكلما قرأ جبريل عليه السلام آية انحلت عقدة حتى قام ﷺ عند انحلال العقدة الأخيرة كأنما أنشط من عقال.

وجعل جبريل عليه السلام يرقيه يقول: بسم الله أرقيك والله يشفيك، من كل داء يؤذيك، من كل حاسد وعين.

فلأجل ذلك جوّزوا الاسترقاء بما كان من كلام الله عز وجل، وكلام رسوله عليه السلام، وأما ما كان من العبرانية والسريانية والهندية، أو ما كان من غير لغة العرب فلا يحل عند العلماء اعتقاده.

واختلفوا في معنى السحر وكيفيته فقال قوم: معناه العلم والحذق بالشيء، ولطافة الفعل فيما خفي فهمه قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾[1] ـ أي العالم ـ.

وقال آخرون: السحر هو تخييل وأحزان لا أصل له، ولا حقيقة كالسراب غرّ من رآه واخلف من رجاه كما قال الله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[2].

حكي هذا عن المعتزلة وحكي عن الشافعي أن: السحر هو تمريض بما يتصل به كالذي يخرج من فم المتثائب يؤثر في المقابل له.

وقيل: هو تعظيم الجن ليسهلوا ما عسر عليه، وقيل: طلسم ينبىء عن تأثير خصائص الكواكب كتأثير الشمس من زئبق عصى سحرة فرعون.

وفي كتاب الغزالي قال: السحر حق؛ إذ شهد القرآن به، وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين قال: وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر، وبأمور حسابية في مطالع النجوم فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور، ويترصد له وقت مخصوص في المطالع، وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر، والفحش المخالف للشرع

(١) سورة الزخرف الآية: ٤٩.
(٢) سورة طه الآية: ٦٦.

ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين، وتحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى به العادة أحوال / غريبة في الشيء المسحور[١]. [١٩٥/ب]

وفي كتاب الماوردي قال: قوم يقدر الساحر أن يقلبها الأعيان بسحره، فيحول الإنسان حماراً وينشىء أعياناً وأجساماً.

وحكي فيه عن الشافعي كما قدمنا: أن الساحر قد يوسوس بسحره ويمرض، وربما قتل.

قال: لأن المرض بدء الوسوسة، والوسوسة به، والمرض بدء التلف.

وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبي عليه السلام حتى كأنه يخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما فعله.

وأما قول من قال: يقلب الساحر أعياناً وينشىء أجساماً فهو خطأ محض؛ لأنه لو كان في وسع الساحر انشاء الأجسام وقلب الأعيان عما هي به من الهيئات لم يكن بين الحق والباطل فصل ولا فرق، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[٢].

وقول من قال إن السحر خدع، ومعان يفعله الساحر فيخيل إلى الإنسان أنه بخلاف ما هو به كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً حتى يخيل إليه أنّ ما عاين من الأشجار والجبال سائرة معه، هذا القول ممكن سائغ، وكذلك قول الشافعي. والله أعلم.

واختلفوا في تعلم السحر فقال قوم: لا يكون تعلمه كفراً، وإنما العمل به كفر، كما أن من تعلم الزنا لا يأثم به، وإنما يأثم العامل به.

وقال آخرون وهو الأصح إن شاء الله: إن تعلم السحر كفر، وكذلك تعليمه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[٣]. ولم يقل ما يضرهم إن عملوا به، والله أعلم.

فلما كان السحر لا يصح إلا للإضرار بالخلق كان تعلمه والعمل به جميعاً معصية، ويقتل الساحر إذا قتل به أحداً. والله أعلم.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٩).
(٢) سورة طه الآية: ٦٦.
(٣) سورة البقرة الآية: ١٠٢.

وأما الطلسمات، وخواص الأحجار مثل حجر المغناطيس في جذبه الحديد، وحجر الماس في كسره الأجسام الصلبة بخصوصية /فيه، وحجر العقيق، والحجر الباغض للدم، [١٩٦/أ] وحجر البرادي وغير ذلك من خواص الأحجار والنبات، وخواص الأشياء فالله أعلم ما سبب ذلك فهو تعالى قد استأثر بعلم الأشياء، وأظهر للعباد ما شاء لهم فيه الصلاح، واستأثر بعلم سائرها فلا تقف العقول على كنهها.

وفي كتاب المسعودي قال: في العالم للحركات، والفاعلة في الحيوان وغيره قال: يمكن أن يكون الله تعالى جعلها معجزة لبعض الأنبياء السالفة ثم رفع ذلك النبي، وبقيت علومه.

قال: ولقد رأيت بمصر حية مصورَّة من حديد توضع على شيء، ويُدْنُ منها حجر المغنطيس فتحدث فيها حركة وسعى إليه وتعلق به.

قال: وإذا أصاب المغنطيس رائحة الثوم بطل فعله بالحديد، وإن غسل بشيء من الخل أو ناله شيء من عسل النحل عاد إلى فعله الأول من جذب الحديد. وقال في كتابه: لا تنازع عند ذوي الفهم أن في مواضع من الأرض مدناً وقرى لا تدخلها عقرب ولا حية مثل: حمص، والمعرة، وأنطاكية.

قال: وقد كان ببلاد أنطاكية إذا أخرج الرجل يده خارج السور وقع عليها البق فإذا جذبها إلى داخله لم يبق عليها منه شيء إلى أن انكسر عمود من رخام في بعض المواضع فأصيب في أعلاه حُقٌّ[1] من النحاس في داخله بق مصور من نحاس كنحو كف فما مضت أيام أو على القرب من ذلك حتى صار البق يعم الأكثر من دورهم، والله أعلم.

ووجدت في كتاب المقالات المنسوبة إلى أحمد بن الحسن قال: إن بعض المتكلمين قال في الطلسمات ونحوها: إن ذلك من حيل الأوائل. قال: وذلك أن أعمارهم طالت حتى عرفوا من الأرض / المواضع التي تكون فيها الحيّات وغيرها من الهوام والحشرات من المواضع [١٩٧/أ] التي لا تكون فيها هذه الأشياء فعملوا الطلسمات في المواضع الخالية من الهوام توهماً أن الطلسمات هي المانعة للهوام من الكون فيها، والله أعلم بحقيقة هذا كله، وإنما كتبنا هذا ليقف القارىء على ما قال الناس في هذه الأشياء.

السبب الثاني الذي يكون العلم به مذموماً:

---

(١) أي: علبة، أو وعاء صغير.

هو أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر، وذلك كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته إذ هو قسمان:

قسم حسابي: وقد نطق القرآن بأن مسير القمرين محسوب فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾(٢) الآية.

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ إلى قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾(٣).

القسم الثاني الحكم بها: وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب قال الغزالي في كتابه: وذلك يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض، وهو معرفة بمجارة سنة الله تعالى وعادته في خلقه، ولكنه ذمه الشرع، وقد قال النبي عليه السلام: «إذا ذكر القدر فامسكوا، وإذا ذكرت النجوم فامسكوا»(٤).

وعنه عليه السلام أنه قال: «أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً: جور الأئمة، وإيمان بالنجوم، وتكذيب بالقدر»(٥).

وعن بعض السلف قال: من قال في النجوم غير هذه الثلاث فهو آثم كاذب مغتر، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾(٦).

وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾(٧).

وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً﴾(٨) الآية.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم

---

(١) سورة الرحمٰن الآية: ٥.
(٢) سورة يٰس الآية: ٣٩.
(٣) سورة يونس الآية: ٥. والقول في الإحياء (١/ ٢٩).
(٤) رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن، قاله العراقي في المغني (١/ ٣٠).
(٥) رواه ابن عبد البر من حديث أبي محجن بإسناد ضعيف، المصدر السابق.
(٦) سورة الأنعام الآية: ٩٧.
(٧) سورة الملك الآية: ٥.
(٨) سورة الصافات الآيتان: ٦، ٧.

أمسكوا[١]، الحديث. قال الغزالي[٢]: وإنما يزجر عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يضر بأكثر الخلق فإنه إذا / ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير [١٩٨/ب] الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهة؛ لأنها جواهر شريفة سماوية يعظم وقوعها في القلوب، فيبقى القلب ملتفتاً إليها ويرى الخير والشر محذوراً مرجواً من جهتها ويمحى ذكر الله تعالى عن القلب[٣].

ولذلك قال النبي عليه السلام مخبراً عن ربه عز وجل: «أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب».

قال العزالي: وذلك أن الضعيف يقصر نظره على الوسائط، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه.

قال: ومثال نظر الضعيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس مثل النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس فهي تنظر إلى سواد الخط يتجدد فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى في نظرها إلى مشاهدة الأصبع، ثم منها إلى اليد، ثم منها إلى الإرادة المحركة لليد، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة سبحانه، فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة منقطع عن الترقي إلى مسبب الأسباب هذا أحد أسباب النهي عن النجوم[٤].

السبب الثاني: أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً، والحكم به حكم بجهل فيكون ذَمَّهُ على هذا من حيث أنه جهل لا من حيث أنه علم.

ولقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى، وقد اندرس ذلك العلم وامحق، وما يتفق من إصابة المنجم على نذور وإنما هو اتفاقي لكنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطّلاع عليها،

---

(١) الإحياء (١/ ٣٠).
(٢) الإحياء (١/ ٣٠).
(٣) المصدر السابق.
(٤) المرجع السابق.

[١٩٩/أ] وإن اتفق / أن قدر الله الأسباب وقعت الإصابة، وإن لم يقدر ذلك أخطأ ويكون ذلك كتخمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأوا الغيم يجتمع، وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك، وربما يحمي النهار بالشمس فيتبدد الغيم، وربما يكون بخلافه، ومجرد الغيم ليس كافياً في المطر وبقية الأسباب لا تدرك قال: وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتماداً على ما ألفه من العادة في الرياح، ولتلك الرياح أسباب خفية، ولا يطلع عليها فتارة يصيب في تخمينه، وتارة يخطىء، وبهذه العلة يمنع القوى أيضاً عن النجوم(١).

السبب الثالث: أنه لا فائدة فيها، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا تغني وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان بغير فائدة غاية الخسران.

وقد روي أن النبي عليه السلام مر برجل والناس مجتمعون عليه فقال: «ما هذا»؟ فقالوا: رجل علاّمة، فقال: «بماذا»؟ قالوا: بالشعر وأنساب العرب، فقال عليه السلام: «علم لا ينفع، وجهل لا يضر»، ثم قال: «إنما العلم آية محكمة أو سنَّة قائمة أو فريضة عادلة»(٢). والخوض في النجوم وما يشبهها اقتحام وخطر، وخوض جهالة من غير فائدة، فإنما قدر كائن والاحتراز عنه غير ممكن بخلاف علم الطب؛ فإن الحاجة ماسة إليه، وأكثر أدلته مما يطلع عليه، وبخلاف تعبير الرؤيا وإن كان تخميناً؛ لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ولا خطر فيه(٣).

الثالث: من الأسباب التي يذم العلم بها هو الخوض في علم لا يستقل الخائض فيه به فإنه مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليها، وكالبحث عن أسرار الآلهية التي لا يستقل بالوقوف على طريق بعضها إلا الأنبياء، والأولياء، ولقد تطلع الفلاسفة وأكثر المتكلمين إليها، ولم يستقلوا بها بل هلكوا من أجلها وقد قال عليه السلام: «تَفَكَّرْ فِي ٱلْخَلْقِ وَلَا تَتَفَكَّرْ فِي [٢٠٠/أ] ٱلْخَالِقِ». فيجب كف الناس / عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق به الشرع، ففي ذلك للموفق مقنع فكم من شخص خاض في العلوم فاستنصر بها، ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن في الدين قبل الخوض فيها.

ولذلك قيل:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رواه ابن عبد البر من حديث أبي هريرة وضعفه، وفي آخر الحديث إنما العلم آية محكمة إلى آخره وهذه القطعة عند أبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو. قاله العراقي في المغنى (١/ ٣٠).

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٣٠).

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مهاوٍ فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَ

فلا تنكر كون العلم ضاراً لبعض الأشخاص كما يضر لحم الطير وأنواع الحلاوة اللطيفة بالصبي الرضيع، بل رُبَّ شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور، ولقد ذكر أن بعض الناس شكى إلى طبيب عقم زوجته وأنها لا تلد فجسَّ الطبيب نبضها، وقال: لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى أربعين يوماً، وقد دلّ النبض عليه. فاستشعرت المرأة خوفاً عظيماً وتنغَّص عليها عيشها، وأخرجت أموالها وفرقت وأوصت وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة. فجاء زوجها إلى الطبيب فقال: إنها لم تمت. فقال الطبيب: قد علمت ذلك، فجامعها الآن؛ فإنها تلد إن شاء الله. قال: رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها فعلمت أنها لا تهزل إلا بخوف الموت، فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة[١].

فهذا ينبهك على استشعار الخطر من بعض العلوم، ويفهمك معنى قوله عليه السلام: «أعوذ بالله من علم لا ينفع»[٢].

فاعتبر لهذه الحكاية، ولا تكن بحاثاً عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها ولازم الاقتداء بالصحابة، واقتصر على اتباع السنة، فالسلامة في الإتباع، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال والابتداع[٣].

فكيفيك في منفعة العقل أن يهديك إلى طريق النبي عليه السلام، ويفهمك بعض موارد إشاراته فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف، ولازم الإتباع فإنك لا تسلم إلا به[٤]، ولذلك قال ﷺ: «إن من العلم لجهلاً، وإن من القول لغيّاً»[٥].

/ ومعلوم أن العلم لا يكون جهلاً، ولكن منه ما يؤثر تأثير الجهل في الإضرار، وقال [٢٠١/ب] عليه السلام: «قليل من التوفيق، خير من كثير من العلم»[٦].

وقال عيسى عليه السلام: ما أكثر الشجر وليس كلها يثمر وما أكثر الثمار وليس كلها

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) قال العراقي في المغني (١/ ٣١): رواه ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن، وهو عند ابن ماجه بلفظ تعوذوا.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣١).

(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣١).

(٥) بنحوه قال عنه العراقي في المغني (١/ ٣٢): رواه أبو داود من حديث بريدة وفي إسناده من يجهل.

(٦) لم أجعله أصلا، وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء، قاله العراقي في المغني (١/ ٣٢).

بطيب، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع[١]. والله تعالى نسأله العون والتوفيق.

الجملة الثانية في أسامي العلوم الشرعية وبيان القدر المحمود منها:

اعلم أن هذه الجملة تنحصر في فصلين:

أحدهما: في أسامي العلوم الشرعية وكيفية التباسها بالمذمومة.

الفصل الثاني: في بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة.

الفصل الأول

ذكره الغزالي في كتابه فقال: اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية هو تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما كان عليه السلف الصالح والقرن الأول وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة، قال: فهذه أسماء محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين.

اللفظ الأول الفقه: قد تصرفوا فيه بالتخصيص لمعرفة الفروع في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها، فمن كان أكثر اشتغالاً بها، قيل هو الأفقه، ولقد كان اسم الفقيه في العصر الأول مطلقاً على طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسد الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[٢].

والذي يكون به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق واللعان والسلم والإجارة وأشباه ذلك من الفروع.

[٢٠٢/أ] فهذا لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسى / القلب، وينزع منه الخشية كلما يشاهد من المتجردين له، وقد قال الله عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[٣]. وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى.

ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان لمعنى واحد، وقد قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾[٤] الآية.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣٢).
(٢) سورة التوبة الآية: ١٢٢.
(٣) سورة الأعراف الآية: ١٧٩.
(٤) سورة الحشر الآية: ١٣.

أحال قلة خوفهم من الله عز وجل واستعظامهم لسطوة الخلق على قلة الفقه، فانظر ذلك، ينتجه عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى أو ينتجه ما ذكرنا من العلوم؟. وقال عليه السلام: «علماء حكماء فقهاء»[١].

وفي بعض الطرق: «كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» للوفد الذين قدموا عليه. فقالوا: نحن قوم مؤمنون مسلمون، فذكروا الخمس عشرة خصلة تحقيقاً لإيمانهم، الحديث مشهور.

وسُئل بعضهم[٢]: أيُّ أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم [لله تعالى]. فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه أنها التقوى، والتقوى ثمرة العلم الباطن دون الفتاوى والأقضية، وقال عليه السلام: «لن يتفقه أحدكم كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة»[٣].

وقال عليه السلام: «لن يتفقه العبد كل التفقه حتى يمقت الناس في ذات الله».

وروي هذا عن أبي الدرداء مرفوعاً مع قوله: «ثم يقبل على نفسه فيكون أشد لها مقتاً».

قال: وسأل فرقد السنجي الحسن عن شيء؟ فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك. فقال الحسن: ثكلتك أمك فريقد؛ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم[٤].

ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى، ولما احتضر جابر بن يزيد رحمه الله، دخل عليه الحسن فقال: قل لا إلٰه إلا الله. فسكت فأعاد عليه فقال جابر: أنا من أهلها / ولكن [٢٠٣/ب] نعوذ بالله من غدوٍ ورواحٍ إلى النارِ. ثم قال: يا أبا سعيد: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا﴾[٥]. فقال الحسن: ما أفقهه ولو عند الموت!

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ﴾[٦]. ولم يرد تعالى يفقهون فروع الفتاوى.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد، والخطيب في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف قاله العراقي في المغني (١/ ٣٢).

(٢) هو مسعد بن إبراهيم الزهري، مصرح به في الإحياء (١/ ٣٢)، وما بين المعقوفين زيادة منه.

(٣) رواه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس، وقال لا يصح مرفوعاً قاله العراقي في المغنى (١/ ٣٢).

(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣٣).

(٥) سورة الأنعام الآية: ١٥٨.

(٦) سورة المنافقون الآية: ٧.

ولست أقول: إن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى والأحكام الظاهرة، ولكن بطريق العموم والشمول، وبطريق الاستتباع، وكان إطلاقه على علم الآخرة أكثر فثار بهذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له، والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلب.

ووجدوا على ذلك معيناً من الطبع؛ فإن علم الباطن غامض، والعمل به عسير، والتوصل به إلى طلب الولاية، والقضاء، والجاه، والمال متعذر فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه، الذي هو اسم محمود في الشرع[١]، وبالله التوفيق.

اللفظ الثاني العلم: وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله عز وجل وبآياته وأفعاله في عباده وخلقه، حتى أنه لما مات عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ابن مسعود: مات تسعة أعشار العلم. عرَّفه بالألف واللام، ثم فسره بالعلم بالله سبحانه وقال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَائِماً بِٱلْقِسْطِ﴾[٢] الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ﴾[٣] الآية.

[وقال]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾[٤] الآية.

و[قال]: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾[٥].

وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[٦].

وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٧].

وقال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ﴾[٨].

وقال في الخضر عليه السلام: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[٩].

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣٣).
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٨.
(٣) سورة الإسراء الآية: ١٠٧.
(٤) سورة الروم الآية: ٥٦.
(٥) سورة القصص الآية: ٨٠.
(٦) سورة يوسف الآية: ٦٨.
(٧) سورة المجادلة الآية: ١١.
(٨) سورة الرعد الآية: ٤٣.
(٩) سورة الكهف الآية: ٦٥.

وقال لنبيه عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[١].

وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[٢].

في جميع ما ورد / من فضائل العلم والعلماء بالله عز وجل وبأحكامه وصفاته وتصرفوا [٢٠٤/أ] فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بمسائل الفتاوى والفروع والخصومات ولا يحيط من علم الشريعة بشيء يتقرب به إلى الله عز وجل فيعد من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والإخبار وسير الصالحين وعلم المذهب وغيره فصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من الطلبة[٣]، وبالله التوفيق.

اللفظ الثالث التوحيد: وهو عبارة عن معرفة من وحَّدَ الله تعالى، وآمن به إيماناً يرى به الأمور كلها من قبل الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط والأسباب، فلا يرى الخير والشر إلا من الله جل جلاله وهو مقام شريف، إحدى ثمراته: التوكل ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ ، ومن ثمراته أيضاً ترك الشكوى إلى الخلق، وترك الغضب عليهم، والتسليم لحكم الله والرضى به، وتفويض الأمور إليه وغير ذلك ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ وكان التوحيد جوهراً نفيساً وله قشران.

أحدهما: أبعد من اللب من الآخر.

فالقشر الأول: إقرار اللسان المجرد عن الاعتقاد، وهو أن تقول بلسانك: لا إلٰه إلا الله، فهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي تصرح به النصارى إن الله ثالث ثلاثة، ولكن هذا التوحيد ربما يصدر من الزنديق الذي يخالف سره جهره.

القشر الثاني: أن لا يكون في القلب إنكار لمفهوم الإقرار باللسان بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاد الوحدانية والتصديق به، وهو توحيد عوام المسلمين والمتكلمين الذي هم حراس هذا القشر عن تشويش أهل البدع المخالفين في صفات الله تعالى بتأويل الخطأ.

وأما اللب: الذي هو داخل هذين القشرين فهو توحيد العلماء بالله الموقنين، وذلك هو رؤيتهم الأمور كلها من الله تعالى دون الأسباب والوسائط، وعبادتهم إياه تعالى بكلية قلوبهم

---

(١) سورة النساء الآية: ١١٣.
(٢) سورة طه الآية: ١١٤.
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣٣).

[٢٠٥/ب] ويخرج عن هذا التوحيد / اتباع الهوى؛ لأن كل متبع هواه فقد اتخذه معبوده، قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[١].

وقال عليه السلام: «أبغض إله عبد في الأرض عند الله تعالى الهوى»[٢].

وسيأتي شرح التوحيد وثمراته إن شاء الله تعالى، فهذا هو توحيد العلماء لله تعالى.

انظر كيف جعله المتكلمون من العلماء عبارة عن صياغة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بمناقضة الخصوم، والقدرة على التشدق فيها، وأكثر الأسئلة بالدلائل، والإلزامات حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وسموا المتكلمين العلماء بالتوحيد مع أن جميع ما هو خاصية هذه الصناعة لم يكن شيء منها في العصر الأول عن الرسول والصحابة رضي الله عنهم، وإنما حدث عن افتراق الأمة وتوزعها[٣]، وبالله التوفيق.

اللفظ الرابع الذكر والتذكير: قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

وقد ورد في الثناء على مجلس الذكر أخبار كثيرة، كقوله عليه السلام: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها». قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»[٥].

وكقوله عليه السلام في حديث أبي ذر حيث قال: «حضور مجلس الذكر أفضل من صلاة ألف ركعة، وحضور مجلس العلم أفضل من عيادة ألف مريض، ومن حضور ألف جنازة». قيل: يا رسول الله ومن قراءة القرآن؟ قال: «وهل ينفع القرآن إلا بالعلم»[٦]؟!

وعن عطاء قال: مجلس ذكر يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو.

في أمثال هذه الأخبار ستأتي في موضعها إن شاء الله. قال: فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والشطح والطامات.

أما القصص فهو بدعة، ورد نهي السلف عن الجلوس للقصاص وقالوا: لم يكن ذلك

(١) سورة الفرقان الآية: ٤٣.
(٢) رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف، قاله العراقي في المغني (١/ ٣٤).
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣٣، ٣٤).
(٤) سورة الذاريات الآية: ٥٥.
(٥) رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه قاله العراقي في المغني (١/ ٣٤).
(٦) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر، ولم أجده من طريق أبي ذر، قاله العراقي في المغني (١/ ١٠).

في عصر /الرسول عليه السلام وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وإنما حدث ذلك [٢٠٦/أ] حين ظهرت الفتنة فظهر القصاص.

وروي عن ابن عمر انه خرج من المسجد فقال: ما أخرجني إلا القصاص، ولولاه ما خرجت[١].

وقيل للثوري[٢]: نستقبل القاص بوجوهنا؟ فقال: وَلُّوا البدع ظهوركم. قال: ودخل الأعمش جامع البصرة فرآى قاصاً يقص ويقول: حدثنا الأعمش، فتوسط الحلقة وأخذ ينتف شعر إبطيه. فقال القاص: يا شيخ أما تستحي؟ قال: [لِمَ][٣]؟ أنا في سنة وأنت في كذب؛ أنا الأعمش، وما حدثتك.

قال بعض العلماء[٤]: أكثر الناس كذباً القصّاص، والسُّؤال.

قال: وأخرج عليٌّ القاص من مسجد البصرة. ولما سمع كلام الحسن لم يخرجه؛ إذ كان الحسن يتكلم في علم الآخرة، والتذكير بالموت، والتنبيه على عيوب النفس، وآفات الأعمال، وخواطر الشيطان، ويذكر بآلآء الله سبحانه ونعمائه وتقصير العبد في شكره، ويعرف حقارة الدنيا وخطر الآخرة.

في أمثال ذلك فهذا هو التذكير المحمود في الشرع[٥] الذي وردت به الأخبار والآثار على ما سيأتي إن شاء الله فاتخذ المتحرفون تلك الأحاديث والآثار حجة على تزكية أنفسهم ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم، وذهلوا عن طريق الذكر المقصود، واشتغلوا بالقصص التي يتطرق إليها الاختلاف والزيادة والنقصان، ويخرج عن القصص الواردة في القرآن ويزيد عليها؛ فإن في القصص ما ينفع سماعه، ومنها ما يضر وإن كان صادقاً فمن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار، فلأجل هذا نهي عن القصص.

وأما إن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم، وكان القاص صادقاً صحيح الرواية، فلست أرى به بأساً، ولكن فليحذر الكذب، وحكايات تومىء إلى هفوات، ومساهلات /يقصر فهم العوام عن درك معانيها وعن كونها هفوة نادرة مردفة [٢٠٧/أ]

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/٣٥).
(٢) القائل للثوري هو: ضمرة صرح به الغزالي في الإحياء الموضع السابق.
(٣) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/٣٥).
(٤) القائل هو أحمد. صرح بذلك الغزالي في الإحياء الموضع السابق.
(٥) راجع الإحياء الموضع السابق.

بتكفيرات، ومتداركة بحسنات تغطي عليها، فإن العامي يعتصم بها في مساهلاته وهفواته، ويمهد لنفسه العذر في ذلك، ويحتج بأنه حكي كيت وكيت عن بعض المشايخ والأكابر، وكلنا بصدد المعاصي، فلا غرو وإن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني، ويفيده ذلك جرأة على الله تعالى من حيث لا يدري، فبعد الاحتراز من هذين المحذورين فلا بأس به فعند ذلك ترجع القصص المحمودة إلى ما يشتمل عليه القرآن، وصحّ في الكتب الصحيحة من الأخبار[١].

وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ﴾[٢] الآية.

وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُۥ﴾[٣].

وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق في التواصف في العشق، وجمال المعشوق ومدح الوصال، وألم الفراق.

والمجلس لا يحوي إلا أخلاط العوام، وبواطنهم مشحونة بالشهوات وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى ما يحرك دواعيهم، ولا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هي مستكنة فيها فتشعل فيها نيران الشهوات فيزعقون ويتواجدون وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى فساد.

فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة وحكمة على سبيل استشهاد واستئناس[٤]، وقال ﷺ: «إن في الشعر لحكمة»[٥]. وبالله التوفيق.

وأما الشطح: فهو عندهم نوعان من الكلام، أحدثهما بعض الصوفية.

أحدهما: الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعاوي الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[٦].

---

(١) راجع الإحياء الموضع السابق.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٢٢٤.

(٣) سورة يٓس الآية: ٦٩.

(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/٣٦).

(٥) رواه البخاري من حديث أبي بن كعب قاله العراقي في المغني (١/٣٦).

(٦) مثل هذا القول يبين مدى صحة عقيدة المؤلف رحمنا الله وإياه ومدى حرصه على صفاء الاعتقال =

قال الغزالي: وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام حتى /ترك جماعة من أهل [٢٠٨/ب] الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوي.

قال: فهذا الفن من الكلام يتلذذه الطبع، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ولا يعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلفيق كلمات مخبطة مزخرفة.

قال: ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدال فالعلم حجاب، والجدال عمى النفس.

قال الغزالي: فهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن، بمكاشفة نور الحق.

قال: فهذا وفنه قد استطار في بعض البلاد شرره وعظم ضرره، ومن نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة والله أعلم[١].

والنوع الثاني من الشطح: كلمات غير مفهومة لها ظواهر زائغة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل.

قال: وذلك إما أن تكون غير مفهومة عن قائلها بل يصدرها عن تخبط في عقله، وتشويش في خياله لقلة إحاطته بكلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها، وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام، إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويكون فهم كل واحد على مقتضى طبعه وهواه.

وقد قال عليه السلام: «ما حدّث أحدكم قوماً بحديث لا يفهونه إلا كان فتنة عليهم»[٢]. والله أعلم.

قال: وأما الطامات فيدخلها ما ذكرنا في الشطح وأمر آخر يخصها وهو: صرف ألفاظ الشرع عن ظواهر المفهوم إلى أمور باطنة لا تسبق إلى الأفهام، كدأب الباطنية في التأويلات

= وإخلاص التوحيد لله سبحانه وتعالى، وإن كان نقله عن الغزالي إلا أنه علق عليه بقوله: تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) راجع هذا القول في الإحياء (١/٣٦).

(٢) ذكره العقيلي في الضعفاء، وابن السني، وأبو نعيم في الرياء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف، ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفاً على ابن مسعود قاله العراقي في المغني (١/٣٧).

وهذا أيضاً حرام وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها من غير اعتصام فيها ينقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو / إليه من دليل العقل. [٢٠٩/أ]

اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وتسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله عن وجوه شتى. قال: وإنما قصد أصحابها بها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب، ومستلذة له.

قال: وبهذا الطريق توصلت الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم.

قال: ومثال تأويل أهل الطامات كقول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[١].

أشار إلى قلبه، وقال: هو المراد بفرعون هو الطاغي على كل إنسان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾[٢]. أي كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله تعالى، فينبغي أن يلقيه.

وفي قوله عليه السلام: «تسحروا فإن في السحور بركة»[٣]. أراد به الاستغفار بالأسحار.

وأمثال ذلك حتى يحرفوا القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس، وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يُعلم بطلانها قطعاً كتنزيل فرعون على القلب؛ فإن فرعون شخص مخصوص تواتر إلينا وجوده، ودعوة موسى [عليه السلام] له كأبي لهب، وأبي جهل وغيرهما من الكفار، وليس من جنس الشياطين والملائكة، وما لا يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظهما.

وكذلك حمل السَّحَر على الاستغفار؛ فإنه عليه السلام كان يتناول الطعام، ويقول: «تسحروا[٤] وهلموا إلى الغداء المبارك»[٥].

---

(١) سورة طه الآية: ٢٤.

(٢) سورة القصص الآية: ٣١.

(٣) متفق عليه من حديث أنس، قاله العراقي في المغني (١/٣٧).

(٤) رواه البخاري من حديث أنس أن النبي ﷺ وزيداً بن ثابت تسحرا.

(٥) رواه أبو داود والنسائي، وابن حبان من حديث العرباض بن سارية، وضعفه ابن القطان، (١، ٢) قاله =

فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها، وبعضها يعلم بغالب الظن، وذلك في أمور لا تتعلق بالإحساس، وكل ذلك جرأة وضلالة وبدعة شائعة عظيم ضررها، فقد عرفت كيف صرف / الشيطان دعاوي الخلق من العلوم المحمودة إلى المذمومة، وكل ذلك بتلبيس علماء [٢١٠/ب] السوء بتبديل الأسامي[١]، والله المستعان.

اللفظ الخامس الحكمة: وهي التي اثنى الله تعالى عليها فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[٢].

وقال عليه السلام: «كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها». وقال: «الحكمة ضالة المؤمن».

في أمثال ذلك، ثم صار اسم الحكمة يطلق على الشاعر والمنجم وأمثالهم، وانظر إلى الذي كان اسم الحكمة عبارة عنه، وإلى ماذا نقل، وقس في بقية الألفاظ، واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء؛ فإن شرهم أعظم على الدين من شر الشياطين، إذ الشيطان بواسطتهم يتوصل إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق[٣].

فقد عرفت العلم المحمود من العلم المذموم، ومثال الالتباس وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف أو تتدلى بحبل الغرور، وتتشبه بالخلف فكل ما ارتضاه السلف فقد اندرس، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع محدث، والله المستعان[٤].

وقد صح قوله عليه السلام: «بدأ[٥] الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء». فقيل: وما الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون أنفسهم عند فساد الناس ويحيون من سنتي ما أماته الناس».

وفي خبر آخر: «هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم».

= العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٣٧).

(١) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٣٧، ٣٨) بتصرف.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦٩.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣٨، ٣٩).

(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣٨، ٣٩).

(٥) رواه مسلم من حديث أبي هريرة مختصراً، وهو بتمامه عند الترمذي من حديث عمرو بن عوف، وحسنه. قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٣٩).

وفي حديث آخر: «الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير، من يبغضهم أكثر ممن يحبهم»[١].

وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها، ولذلك قال الثوري: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مختلط؛ لأنه لو نطق بالحق لبغضوه.

كتبت أكثر هذا الباب من كتاب الغزالي[٢]؛ لأنه اتبع فيه فضائح علماء السوء منهم، فأحببت أن تقفوا عليها إذ كان ما ذكره موافقاً للحق غير / خارج عن الشرع. وبالله التوفيق. [٢١١/أ]

الفصل الثاني: في بيان القدر المحمود من العلم المحمود

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام:

قسم: وهو مذموم قليله وكثيره، وهو الذي لا فائدة فيه في دين ولا دنيا أو فيه ضرر يغلب نفعه وهو ما قدمناه من علم السحر والطلسمات والنجوم، فبعضه لا فائدة فيه أصلاً، وصرف العلم الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة، وإضاعة النفائس مذمومة، ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر في الدنيا، والله أعلم.

القسم الثاني: قسم محمود قليله وكثيره، وكلما كثر كان أحسن وأفضل وذلك هو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا؛ فإن هذا علم مطلوب لذاته وليتوصل به إلى سعادة الآخرة فبذل المقدور فيه إلى أقصى غاية الجهد قصور عن الحد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يتيسر لهم.

وما خاض أطرافه إلاّ الأنبياء والأولياء الراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى في حقهم وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب ويعين على التنبيه لهذا العلم مشاهدة أحوال علماء الآخرة كما قدمنا من علاماتهم هذا في أول الأمر ويعين عليه في آخر الأمر المجاهدة والرياضة للنفس وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا، والتشبه فيها بأنبياء الله تعالى، وأوليائه؛ ليتضح عنه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد، فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها، وبالله التوفيق.

---

(١) رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) راجع الإحياء (١/٣٦، ٣٩).

/ القسم الثالث: يحمد منه مقدار الكفاية، ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه، [٢١٢/ب] وهي العلوم التي تقدمت قبل هذا في فروض الكفايات؛ فإن كل علم منها اقتصاراً هو الأول، واقتصاداً هو الوسط وإستقصاءً لا مرد له، إلى آخر العمر وهذه الأقسام الثلاثة كأحوال البدن؛ فإن منه ما لا يحمد قليله ولا كثيره كالقبح وسوء الخلق.

ومنه ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال ومنه ما يحمد الاقتصاد فيه كبذل المال؛ فإن التبذير لا يحمد فيها، وهو بذل، وكالشجاعة، فإن التهور لا يحمد فيه، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم على هذا الحال.

فكن أحد رجلين إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً إلى غيرك بعد الفراغ من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك من معرفة الله تعالى، وما يتعلق بها من الأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم، وإنما الأهم الذي أهمله الكل وهو علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم إذ لا ينفك بشر من الصفات المذمومة: من الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها فجميع ذلك مهلكات أهمالها مع الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذي بالجرب والدماميل، والتهاون بإخراج المادة من القيح والدم منها بالفصد والإمهال.

وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما تشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن وعلماء الآخرة لا يشيرون إلاّ بتطهير الباطن، وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها وهي في القلب، وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة دون تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح / واستصعاب أعمال القلوب كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب [٢١٣/ب] الأدوية المرة، فلا يزال يتعب في الطلاء وهي تزيد في المواد وتضاعف الأمراض؛ فإن كنت مريد الآخرة وطالباً للنجاة وهارباً من هلاك الأبد فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما سيأتي إن شاء الله فإنك إذا فعلت ذلك انجر ذلك بك إلى المقامات المحمودة التي تأتي مشروحة إن شاء الله.

فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلىء من المحمود كالأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين، فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات لا سيما وفي الخلق من قام به فإن مهلك نفسه في طلب صلاح غيره سفيه، فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب داخل ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذية يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا

يعنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذ هممن به.

وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه فصار ذلك ديدناً لك وعادة ميّسرة فيك ـ وما أبعد ذلك ـ فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها، فابتدأ بكتاب الله تعالى، ثم بسنة رسوله عليه السلام، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من: علم الناسخ والمنسوخ، والمقطوع والموصول، والمحكم والمتشابه، وكذلك في السنة، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من الفقه دون الخلاف، ثم بأصول الفقه، وهكذا إلى بقية العلم، بما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت، ولا تستغرق عمرك في واحد منها طلباً للاستقصاء؛ فإن العلم كثير والعمر قصير، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها فكل ما يطلب لغيره فلا يليق أن تنسى من أجله المطلوب وتستكثر / منه فاقتصر من شائع علم اللغة [٢١٤/أ] على ما تفهم به كلام العرب، وتنطق به، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث، ودع التعمق فيه، واقتصر من النحو على: ما يتعلق بالكتاب والسنة، ومن علم الكلام ما تحتفظ به التوحيد والاعتقاد من تشويش المبتدعة على نفسك واختلاسها قلوب العوام من معتقدي مذهب المسلمين، وكن متيقظاً لمكايد النفس متحرزاً من شياطين الجن والإنس.

وبالجملة فالمُرضي عند العقلاء أن تعد نفسك في الدنيا وحدك مع الله تعالى، وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار تأمل فيها بعينيك واشتغل فيما بين يديك، ودع عنك ما سوى ذلك[١] والسلام.

مثال لهذه العلوم في سلوك طريق الآخرة، ذكر معنى ذلك الغزالي في كتابه فقال: اعلم أنه لا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة.

قال: وإذا لم يكن الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن، وشهد له من نور العقل والبصائر ما يجري مجرى العيان، فالأهم ما يبقى أبد الآباد.

قال: فعند ذلك تصير الدنيا منزلاً، والبدن مركباً، والأعمال سعياً إلى المقصد، ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى، فيه النعيم كله، وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأقلون.

قال: والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله تعالى على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال قال: وهو أن العبد الذي علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له: إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعاً، وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له، وعاقك

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣٩، ٤١).

في الطريق مانع ضروري، فَلَكَ العتق والخلاص من شق الرق فقط دون سعادة الملك[١].

قال: فله ثلاثة أصناف من الشغل:

الأول: تهيئة أسباب شراء الناقة وخرز / الراوية وإعداد الزاد. [٢١٥/ب]

الثاني: السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بعد منزل.

الثالث: الاشتغال بأعمال الحج ركناً بعد ركن ثم بعد النزوع عن هيئة الإحرام، وطواف الوداع استحقاق التعرض للملك والسلطنة.

وله في كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخرها، ومن أول سلوك البوادي إلى آخره ومن أول أركان الحج إلى آخره، وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة، ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل أقرب منه[٢].

قال: والعلوم أيضاً ثلاثة أقسام:

قسم: يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا.

وقسم: يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة، التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقون، فهذا سلوك للطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله.

قال: فكما لا يغني علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها، كذلك لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب، لكن المباشرة دون العلم غير ممكنة.

وقسم ثالث: يجري مجرى نفس الحج وأركانه، وهو العلم بالله عز وجل وصفاته وملائكته وأفعاله في جميع ما تقدم ذكره في ترجمة علم المكاشفة.

قال: وهاهنا نجاة وفوز بالسعادة، فالنجاة حاصلة لكل سالك الطريق، إذا كان غرضه المقصد وهو السلامة، وأما الفوز بالسعادة فلا ينالها إلا العارفون وهم المقربون المنعمون في جوار الله عز وجل بالروح والريحان وجنة النعيم.

قال: فأما الممنوعون من ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة / كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ [٢١٦/ب]

---

(١) راجع الإحياء (١/ ٥٣).

(٢) راجع المصدر السابق.

كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ * وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ﴾[1].

وكل من لم يتوجه إلى القصد، ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته، لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال الضالين وله نزل من حميم وتصلية جحيم.

واعلم أن هذا هو اليقين عند العلماء الراسخين ـ أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار وترقوا فيه عن حد التقليد بمجرد السماع، فحالهم حال من أخبر فصدق، ثم شاهد فتحقق، وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والإيمان، أعني ما سبق إلى فهم عوام المسلمين والمتكلمين دون العارفين؛ لأنهم آمنوا وصدقوا، ولم يحيطوا بالمشاهدة والعيان.

قال: والسعادة من وراء علم المكاشفة، وعلم المكاشفة من وراء علم المعاملة، التي هي سلوك طريق الآخرة، وقطع عقبات الصفات وسلوك طريق محو الصفات المذمومة، وراء علم الصفات، وعلم طريق المعالجة، وكيفية السلوك وراء علم سلامة البدن.

قال: ومساعدة أسباب الصحة وسلامة البدن بالاجتماع والتعاون الذي يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن، وهو منوط بالسلطان وقانونه في ضبط الناس وحملهم على نهج العدل والسياسة في ناصية الفقيه.

وأما أسباب الصحة ففي ناصية الطبيب، فمن قال العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان وأشار به إلى الفقه؛ فإنما أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم الغريزة الباطنة.

قال: فإن قلت: لم شبهت علم الفقه والطب بإعداد الزاد والراحلة؟

قال: فاعلم أن الساعي إلى الله سبحانه لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعني [٢١٧/أ] / بالقلب اللحم المحسوس، بل سر من أسرار الله تعالى لا يدركه الحس، ولطيفة من لطائفه، تارة يعبر عنه بالروح، وأخرى بالنفس المطمئنة، والشرع يعبر عنه بالقلب؛ لأنه المطية الأولة الحاملة لذلك السر وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مظنون به، بل لا رخصة في ذكره وغاية المأذون أن يقال: هو جوهر نفيس ودُرٌّ عزيز أشرف من هذه الأجسام

---

(١) سورة الواقعة الآيات: ٨٨، ٩١.

المرئية، وإنما هو أمر إلٰهي كما قال تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[١] الآية.

وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى، ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن ولله الخلق والأمر جميعاً، والأمر أعلى من الخلق.

وهذه الجوهرة النفيسة، الحاملة لأمانة الله تعالى، المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرض والجبال؛ إذ أَبَيْنَ أن يحملنها، وأشفقن منها.

وإياك أن تفهم من هذا تعريضاً بقدمه، فالقائل بقدم الأرواح مغرور جاهل، لا يدري ما يقول، والمقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الله سبحانه ـ أعني الروح ـ؛ لأنه من أمر الرب تعالى فمنه مصدره، وإليه مرجعه.

قال: وأما البدن فمطية الروح التي يركبها ويسعى بواسطتها، فالبدن له في طريق الله سبحانه كالناقة للبدن في طريق الحج، وكالراوية الخازنة للماء الذي يفتقر إليه البدن، فكل عمل مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية، ولا يخفى أن الطب كذلك؛ فإنه يحتاج إليه في حفظ الصحة على البدن، ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه، والفقه يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده، ربما كان يستغني عنه، ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل / بالسعي في طلب تحصيل طعامه بالحراثة، والزراعة والطبخ، وفي تحصيل الملبس [٢١٨/ب] والمسكن، وفي إعداد الآلات؛ لذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة فمهما اختلط بالناس، وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات، وتنازعوا وتقاتلوا فحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل.

وبالطبع يحفظ الاعتدال في الأخلاط المتنازعة من داخل، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج، فعلم طريق اعتدال الأخلاط طب، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات وسائر الأفعال فقه، وكل ذلك يحفظ البدن، الذي هو مطية، فالمتجرد لعلم الفقه والطب إذا لم يجاهد نفسه، ولم يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها، وشراء الراوية وخرزها إذ لم يسلك بادية الحج، والمستغرق عمره في دقائق الكلمات التي تحرر في مجادلات الفقه، كالمستغرق عمره في دقائق أسباب الخيوط التي تخرز بها مزاوده، وراويته في طريق الحج.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

فنسبة هؤلاء من السالك طريق إصلاح القلب إلى الواصل إلى علم المكاشفة، كنسبة أولئك إلى سالكي طريق الحج أو ملابسي أركانها.

قال الغزالي: فتأمل هذا أولاً واقبل النصيحة مجاناً ممن قامت عليه غالبة، ولم يصل إليها إلا بعد جهد شديد وجرأة تامة على مباينة الخلق، والغاية في النزوع عن تقليدهم بمجرد الشهوة[١]، وبالله التوفيق.

فنسأل الله الذي بيده أزمَّة الأمور أن يعصمنا من زخارف القول والغرور، وأن يجعلنا من الذين لا تغرهم الحياة الدنيا، ولا يغرهم بالله الغرور، وأن يعيذنا من الخطأ والزلل في القول والعمل فهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا / بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد مولانا النبي الكريم. [٢١٩/أ]

كمل كتاب قنطرة العلم بحمد الله وحسن عونه
يتلوها قنطرة الإيمان والتوحيد إن شاء الله تعالى

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٥٣، ٥٥).

القنطرة الثانية

قنطرة الإيمان وسائر قواعد الاعتقاد والتوحيد

وهذه القنطرة التي للإيمان مرتبة على قنطرة العلم، وذلك أن سعادة الآخرة العلم، ثم الإيمان، ثم العمل، ثم التوفيق، ثم حسن الخاتمة.

وذلك أن الإنسان لما حصل له العلم الضروري المتيقن بأن جميع المحدثات كائنة بعد أن لم تكن وجب عليه أن يعرف أن لها مُحْدِثاً أحدثها، ومكوناً كونها فيؤمن به، ويعتقد خالقه وموجده على ما هو عليه من صفاته وأفعاله فتشتمل حينئذٍ هذه القنطرة على خمسة أبواب.

الأول: في معرفة ذات الله تعالى وينحصر هذا الباب في عشرة فصول.

الفصل الأول

يحتوي على ترجمة العقيدة، والاستدلال على وجود الله سبحانه بألفاظ وجيزة.

أما الترجمة: فهو أن الله تعالى أوجب على كل عاقل سلم عقله من الآفات، أن يعتقد أن الله سبحانه إلٰه واحد لا شريك له، منفرد لا ند له، قديم لا أول له، مستمر الوجود لا آخر له، ليس بجسم مصور ولا بجوهر مقدر، ولا يماثل الأجسام ولا يتجزأ بالانقسام، ولا تحله الجواهر والأعراض، ولا تعتريه الخواطر والأغراض، ولا تحويه الأقطار والجهات، ولا تكتنفه الأرض والسموات.

منزه عن التغير والانتقال، مقدس عن الزوال، حي قادر جبار، قاهر لا يعتريه قصور /ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم. له الملك والملكوت، والعزة والجبروت منفرد بالخلق[٢٢٠/ب] والاختراع، متوحد بالإيجاد والإبداع، عالم بجميع المعلومات محيط بما يجري من تخوم الأرض إلى أعلى السموات، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. يعلم حركات الخواطر، وما يختلج في

مكنون الضمائر، عالم بما كان وما يكون من ظاهر ومكنون، يعلم ذلك بنفسه وبذاته، لا بعلم متجدد قائم بالذات تعالى عن حلول المعاني والآفات.

وهو تعالى مريد للكائنات، مدبر للحادثات خالق لجميع الموجودات وأفعالها مقدر لأرزاقها وآجالها لا يقع كفر ولا إيمان، ولا نكر ولا عرفان، ولا سهو ولا نسيان إلا بقضائه ومشيئته وحكمه وإرادته، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، لم يزل واحداً حيّاً عالماً قادراً مريداً في الأزل لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدّرها لها، فوجدت في أوقاتها كما قدرها من غير تقدم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته وهو سبحانه سميع لا تخفى عنه الأصوات، بصير لا تغيب عنه الألوان. لا يعزب عن سمعه مسموع، وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئيّ وإن دق، يرى من غير حدقة ولا أجفان، ويسمع من غير أصمخة ولا آذان. كما يعلم من غير قلب ولا جنان، وهو تعالى متكلم بلا شفة ولا لسان، وآمر بالطاعة والإحسان، ناهٍ عن الإساءة والعصيان، واعد على طاعته ثواب الخلد والجنان، متوعد على معصيته عقاباً بين أطباق النيران. وأنه تعالى حكيم في أفعاله، عادل في أحكامه متفضل بالإنعام / ممتن [٢٢١/أ] بالإحسان ﴿لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١) و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾(٢). وأنه تعالى بعث رسوله النبي الأمين محمد بن عبد الله خاتم النبيين إلى الجن والإنس أجمعين، فنسخ بشريعته جميع الشرائع المتقدمة، إلا ما لا ينسخ من التوحيد ومكارم الأخلاق المتممة، فختم به الأنبياء، وفضّله على جميع أوليائه من الأنبياء، الأصفياء، ومنع سبحانه كمال التوحيد الذي هو قول لا إله إلا الله ما لم تقترن به الشهادة لرسوله بأنه محمد رسول الله، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما قاله وأخبر عنه من أن الموت حق، وأن البعث حق وأن الحساب حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن لله جملة الأنبياء والرسل وجملة الملائكة والكتب والإيمان بالقضاء والقدر وولاية أولياء الله من الأولين والآخرين، والعداوة لأعدائه من الإنس والجن أجمعين، ومعرفة التوحيد والشرك وفرز كبائر الشرك من كبائر النفاق.

ومعرفة تحريم دماء المسلمين وأموالهم، وسبي زراريهم بالتوحيد الذي معهم، ومعرفة تحليل دماء المشركين وأموالهم، وسبي زراريهم بالشرك الذي معهم، ومعرفة الملل وأحكامها، واعتقاد العبودية لله تعالى بجميع أوصافها وبالله التوفيق(٣).

---

(١) سورة يونس الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٢٣.

(٣) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/٨٩، ٩١) بمعنى ما هنا.

فينبغي أن يلقن الصبي هذه العقيدة مشروحة في أول نشوءه ليحفظها حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناها في كبره شيئاً فشيئاً، فابتداؤه بالحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق بها.

وذلك مما يحصل في قلب الصبي بغير برهان، ثم لا بد من تقويته بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة الحديث وفهم / معانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد [٢٢٢/ب] رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يطلع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري عليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم، فيكون أول التلقين كإلقاء البذور في أرض الصدر، وتكون هذ الأسباب كالسقي والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة في الصدر، أصلها ثابت وفرعها في السماء، ثم إذا وقع نشوء الصبي على هذه العقيدة مشروحة ولم ينفتح له غيرها، ولم يطلع على اختلاف الناس حتى يميز بين البدعة وغيرها. فاستمر على وظائف العبادات واجتناب المحرمات حتى مات على ذلك، فإنه ناج في الآخرة إن شاء الله إذ لم يكلف الرسول عليه السلام أجلاف العرب أكثر من التصديق والجزم بظاهر هذا الاعتقاد وهو الإيمان بالله وبرسوله وبما جاء به إنه حق من عند ربه.

فأما البحث والتفتيش عن اختلاف الناس وتكلف نظم الأدلة، لذلك فلم يكلفوا ذلك أصلاً وإن ساعده التوفيق في سلوك طريق الآخرة حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى، ونهى النفس عن الهوى واشتغل برياضة النفس والمجاهدة انفتح له أبواب من الهداية تكشف له عن حقائق هذه العقيدة بنور يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعد الله تعالى إذ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[١] وبالله التوفيق[٢].

فصــل

وأما الأدلة على وجود الله تعالى فيكفي ذلك ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله تعالى بيان قال الله / تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَاداً * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ إلى قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ [٢٢٣/ب] أَلْفَافاً﴾[٣].

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.
(٢) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٩٣، ٩٤).
(٣) سورة النبأ الآيات: ٦، ١٦.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] الآية.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[٢].

وقال جل جلاله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[٣]. فليس يخفى على من له أدنى عقل وتمييز، إذا تأمل بفكره مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الأرض والسموات، وأصناف الحيوان والنبات.

إن هذا الأمر العجيب الذي أحكم غاية الإحكام، ورتب هذا الترتيب لا بد له من صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخير، ومصرّفة بمقتضى تدبير، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[٥].

فإذا في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة برهان، ولكنّا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار.

نقول في انطباق فطرة العقول: إن الحادث لا يستغني في حدوثه عن محدث يحدثه، فالعالم بأسره حادث؛ لأن كل حادث لا بد له أن يكون مختصاً بوقت يجوز في العقل تقدير تقدمه وتأخره واختصاصه بوقت معلوم يفتقر بالضرورة إلى المخصص.

أما قولنا: أن العالم حادث فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان لأجل تعاقبهما ووجود البعض منهما عقيب الآخر، وذلك مشاهد في جميع الأجسام فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز تحركه، وما من متحرك إلا والعقل قاض

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٦٤.

(٢) سورة نوح الآيات: ١٥، ١٨.

(٣) سورة الواقعة الآيات: ٥٨، ٧٣.

(٤) سورة إبراهيم الآية: ١٠.

(٥) سورة الروم الآية: ٣٠.

/بجواز سكونه، فالطارىء منهما حادث لطرؤه، والسابق حادث؛ لأنه لو ثبت قدمه لاستحال [٢٢٤/أ] عدمه، فلما ثبت أن الأجسام لا تخلو عن الإعراض وأنها تتعاقب على الأجسام وهي حوادث فما لم يسبق الحادث فهو حادث مثله، وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات الضرورية وبالله التوفيق(١).

الفصل الثاني

العلم بأن الباري سبحانه قديم لا أول لوجوده، والدليل على قدمه كونه قبل الحدث؛ لأن معنى الحدث ما لم يكن ثم كان، ومعنى القديم ما كان بغير تكوين، وهو الله سبحانه؛ لأنه كان ولا شيء معه، ثم كون الأشياء فلو لم يكن قديماً لكان محدثاً مفتقر إلى محدث يحدثه، وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى غير نهاية.

وما تسلسل لم يتحصل وينتهي إلى محدث قديم، وذلك هو المطلوب الذي هو صانع الأشياء وبارئها ومحدثها وموجدها ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

الفصل الثالث

العلم بأنه تعالى لا نهاية لوجوده ودوامه؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه، والدليل على ذلك أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه، أو بمعدم هو غيره، فلو جاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شيء بنفسه.

فكما يحتاج طرؤ الوجود إلى سبب، فكذلك يحتاج طرؤ العدم إلى سبب، وباطل أن ينعدم بمعدم هو غيره؛ لأن ذلك المعدم لو كان قديماً لما تصور الوجود معه.

وقد ثبت بما قدمناه أنه قديم لا أول لوجوده، فكيف كان وجوده في القدم وحده، ومعه ضده؟ وإن كان الضد المعدوم حادثاً كان محالاً، إذ ليس الحادث بمضادته القديم حتى ينقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته الحادث حتى يدفع /وجوده بل الدفع أهون من القطع [٢٢٥/أ] والقديم، أقوى من الحادث فثبت أنه لا آخر لوجوده ولا نهاية لدوامه، وبالله التوفيق(٣).

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/١٠٤، ١٠٥) بمعنى ما هنا.

(٢) سورة الحديد الآية: ٣، وراجع إحياء علوم الدين (١/١٠٦) بمعناه.

(٣) راجع الإحياء (١/١٠٦) بنحوه.

الفصل الرابع

العلم بأنه ليس بجوهر يتحيز ودليله إن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحركاً عنه، والسكون والحركة حادثان فما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم، وذلك محال فثبت أنه موجود قديم ليس بجوهر تعالى عن ذلك[١].

الفصل الخامس

العلم بأنه تعالى ليس بجوهر مؤلف من جواهر، إذ الجسم عبارة عن المؤتلف من الجواهر، فلما بطل كونه جوهراً مختصاً بحيز بطل كونه جسماً؛ لأن كل جسم لا بد أن يكون مختصاً بحيزٍ مركباً من جوهرين فصاعداً، والجوهر والجسم يستحيل خلوهما عن الحوادث من الافتراق والاجتماع، والحركة والسكون والهيئات والمقدار فهذه دلائل الحدث تعالى عن ذلك علواً كبيراً[٢].

الفصل السادس

العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم في الجسم أو حال في محل، لأن العرض هو ما يحل في الجسم ويعترض فيه من حركة وسكون، فكل جسم حادث ومحدثه موجود قبله، فكيف يكون حالاً في جسم وقد كان في الأزل ولا شيء معه موجود؟

ثم أحدث الأجسام والأعراض ويتحصل من هذه الأصول إنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر، ولا جسم، ولا عرض، فإن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فإذاً لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء لاستحالة مماثلة الصناعة صانعها[٣].

الفصل السابع

[٢٢٦/ب] العلم /بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالأمكنة والجهات، فإن الجهات إما فوق، وإما أسفل، وإما يمين أو شمال، أو قدام أو خلف، وهذه الجهات هو الذي خلقها وأحدثها، فلو اختص بجهة ما لكان متحيزاً محدوداً، كاختصاص الجواهر والأجسام وتحيزها بالأمكنة والجهات.

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) راجع المصدر السابق بنحوه أيضاً.

(٣) نفس المصدر.

وقد ثبت استحالة كونه جوهراً أو جسماً فاستحال كونه مختصاً بجهة فمن زعم أنه مختص بجهة فوقية قيل له: لو كان فوق العالم بجهة لكان محاذياً له، وكل محاذ لجسم، فإنه لا بد أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر، وكل ذلك تقدير يحوج إلى مقدر يتعالى عنه الواحد المدبر، وأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة للداعي وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء وتنبيهاً بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلا، فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء[١].

الفصل الثامن

العلم بأنه تعالى مستوٍ على العرش بالمعنى الذي أراده الله تعالى بالاستواء، وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء ولا تتطرق إليه سمات الحدث والفناء، وهو استواء القهر والغلبة والاستيلاء[٢] كما قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٣].

إذ حمل بالاتفاق على الإحاطة والعلم، فحمل قوله عليه السلام: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» على القدرة والقهر وحمل قوله /عليه السلام: «الحجر الأسود [٢٢٧/أ] يمين الله في أرضه».

على التشريف والإكرام؛ لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال، فكذلك الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن للزم منه كون المتمكن جسماً مماساً للعرش إما مثله أو أكبر منه، أو أصغر وكل ذلك محال وما يؤدي إلى المحال فهو محال[٤].

---

(١) من المعروف والمتفق عليه وما لا يختلف عليه بين اتباع الحق أن الله تعالى في السماء كما أخبر هو عن نفسه في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ وكل ذلك بغير تحيز بل كما أخبر هو سبحانه عن نفسه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ سبحانه لا يعلم قدره غيره.

(٢) عبارة استواء القهر والغلبة والاستيلاء كان لا يجب ذكرها لأنها تفيد أنه كان له مغالب فغلبه الله سبحانه تعالى عن ذلك علواً كبيراً. بل استوى بالمعنى الذي أراد كما قال المؤلف في أول كلامه.

(٣) سورة الحديد الآية: ٤.

(٤) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/١٠٧).

الفصل التاسع

العلم بأنه تعالى منزه عن الرؤية والإدراك بالأبصار إذ هو تعالى مقدس عن الجهات والأقطار، لقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١].

فهذه مدحة امتدح تعالى بها عن الإدراك بالبصر كما امتدح بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[٢]. عن الغفلة، وحلول الآفة به من النوم والسِّنَة.

فإن قال قائلٌ: لا تدركه الأبصار يعني في الدنيا. قيل له: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[٣] في الدنيا، فإن حاول بينهما فرقاً، لم يجد إلى ذلك سبيلاً[٤].

وقد استقصينا شرح هذه الفصول والحجج عليها في كتاب شرح قصيدة الشيخ أبي نصر رحمه الله.

الفصل العاشر

العلم بأنه عز وجل واحد لا شريك له، فرد لا نِدَّ له، انفرد بالخلق والإبداع، وتوحد بالإيجاد الاختراع لا مثل له يساميه ويساويه لا ضد له فينازعه ويناوئه دليله قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٥].

وبيانه أنهما لو كانا اثنين وأراد أحدهما أمراً، فالثاني إن كان مضطراً إلى مساعدته كان مقهوراً له عاجزاً ولم يكن إلٰهاً قادراً، وإن كان قادراً على مخالفته ومدافعته كان الثاني قوياً قاهراً، والأول ضعيفاً قاصراً فلم يكن إلٰهاً قادراً.

فمدار هذا الباب على عشرة أصول وهي:

العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا عرض وأنه ليس مختصاً بجهة ولا مستقراً على مكان دون مكان وأنه مستو على العرش وأنه ليس بمريء وأنه واحد لا شريك له[٦].

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٠٣.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٤) راجع الإحياء (١/١٠٧).
(٥) سورة الأنبياء الآية: ٢٢.
(٦) راجع الإحياء (١/١٠٧، ١٠٨).

الباب الثاني
في معرفة صفاته في ذاته

ويشتمل على عشرة أصول وهي: العلم بكونه حيّاً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً منزّهاً عن حلول الحوادث، وأنّ صفاته هي هو، وأنها غير قائمة بالذات، غير متغايرة بينها البين وبالله التوفيق.

الأصل الأول: العلم بأن الله تعالى عالم بجميع الأشياء ما كان منها وما لم يكن إن لو كان كيف كان يكون، علم ذلك بنفسه وبذاته لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال، لا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم وساوس الضمائر وهواجس الأفكار والسرائر صادق في قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومرشد إلى صدقة بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[(١)].

أرشد سبحانه إلى الاستدلال بالخلق على العلم، لأنه لا يستريب ذو عقل في دلالة الخالق اللطيف المحكم على الصنع، الموثق بالترتيب والنظم العجيب ولو في الشيء الحقير على علم الصانع الخبير، فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف لأهل العقول والدراية[(٢)].

الثاني: العلم بأنه تعالى قادر، وأنه جل وعلا في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٣)].

صادق؛ لأن العالم بأسره محكم في صنعته، مرتب في خلقته، ومن رأى ثوباً من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتظريف، ثم توهم صدور ذلك من ميت لا استطاعة له أو من إنسان لا قدرة له كان منخلعاً عن غريزة العقل منخرطاً في سلك أهل / الغباوة [١/٢٢٩] والجهل[(٤)].

الثالث: العلم بأنه تعالى حيٌّ قيوم ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[(٥)] فإن من ثبت علمه وقدرته ثبتت بالضرورة حياته إذ الأموات استحالت منهم القدرة والعلوم.

---

(١) سورة الملك الآية: ١٤.
(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/١٠٨).
(٣) سورة الملك الآية: ١.
(٤) راجع الإحياء (١/١٠٨).
(٥) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.

ولو تصور قادر عالم فاعل مدبر دون أن يكون حياً لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عن ترددها في الحركات والسكنات، بل في حياة أرباب الحرف والصناعات، وذلك انغماسٌ في غمرة الجهالات[١].

الرابع: العلم بأنه تعالى مريد لأفعاله فلا موجود إلا هو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته، فهو تعالى المبدىء المعيد الفعال لما يريد، وكيف لا يكون مريداً وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده مما يجوز عليه، وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه، وكيف يكون إلٰهاً قادراً من يكون في ملكه ما لا يريده بل هو مستكره عاجز تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وهو تعالى مريد بذاته حيٌّ عالم بنفسه وبذاته[٢].

الخامس: أنه تعالى سميع لا تخفى عليه الأصوات بصير لا تخفى عنه الألوان لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، فالسمع كناية عن درك الأصوات، والبصر كناية عن درك الألوان، وذلك نفس العلم وهما صفتان لله سبحانه في ذاته صفتا كمال في حقه سميع ليس بأصم بصير ليس بأعمى فهاتان صفتا كمال في المخلوق فكيف الخالق؛ لأنه لو لم يكن كذلك كيف تستقيم حجة إبراهيم الخليل عليه السلام على أبيه إذ كان يعبد الأصنام غيّاً وجهلاً.

[٢٣٠/ب] فقال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾[٣] ولو انقلب / عليه ذلك في معبوده، لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾[٤] الآية. حاشا خليل الرحمٰن عن مقالة أهل الطغيان فكما عُقِلَ كونه فاعلاً بلا جارحة عالماً بلا قلب ولا دماغ فليُعْقَل كونه بصيراً بلا حدقة، وسميعاً بلا أذان إذ لا فرق بينهما[٥].

السادس: أنه تعالى متكلم ليس بأخرس وكلامه على وجهين:

أحدهما: الكلام الذي هو صفته على نفي الخرس عنه، فذلك صفة له في ذاته لم يزل موصوفاً بها.

---

(١) راجع الإحياء (١/١٠٨).
(٢) راجع المصدر السابق.
(٣) سورة مريم الآية: ٤٢.
(٤) سورة الأنعام الآية: ٨٣.
(٥) راجع إحياء علوم الدين (١/١٠٨).

والثاني: كلامه الذي هو القرآن وسائر كتبه المنزلة، فذلك فعل من أفعاله، لقوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾[١].

ولا يسمع الإنسان كلامه إلا بأذنيه، وهذا المسموع فحدث، وتركنا ما وراء ذلك من الحجج مخافة التطويل ـ إذ ليس هذا فصل الجدال واتساع المجال.

وقد وصف الله تعالى كلامه الذي هو القرآن بالتشابه والتماثل والاتصال والإنفال، وأخبر أنه في اللوح المحفوظ وفي صدور الذين أوتوا العلم، ووصفه بالذهاب والحدوث والنزول، وغير ذلك من دلائل الحدث ومعاني المخلوق وبالله التوفيق[٢].

السابع: أنه تعالى منزه عن حلول الحوادث والآفات كحلول الأعراض في الأجسام، بل هو سبحانه متصف بمحامد الصفات، فلا تعتريه التغييرات؛ لأن محل الحوادث لا يخلو عن حوادث تعتقب عليه، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وإنما ثبت نعت الحوادث للأجسام من حيث تعرضها للتغاير وتقلب الأوصاف، فكيف يكون خالقها مشاركها في قبول التغيير تعالى عن ذلك علواً كبيراً[٣].

الثامن: أن صفاته تعالى هي هو لا غيره، ليس هناك معنى يفارقه أو يلازمه، فقولنا الله تعالى موجود[٤]، إثباته ليس هناك وجود غيره يخالفه أو يوافقه، وقولنا: الله تعالى حيٌّ، إخبار عن الذات أنها ليست بميتة، ولها التصرف في الغير.

وقولنا الله قادر: إخبار عن الذات أنها ليست بعاجزة ولا يعجزها شيء.

وقولنا الله مريد: إخبار عن الذات أنها غير مكرهة ولا يفوقها شيء، وكذلك سائرها، وليس في أن نفينا عن الذات هذه الأمور ما يقتضي أن معها شيء غيرها يقاومها فيضاهيها، وشيء تستعين به أو يكون جزءاً منها وذلك محال في ذات الباريء سبحانه والقديم سبق الحدوث والعجز والحاجة وجوده فمن حصل له اسم القدم، حصلت له الألوهية، والصفات الكاملة، وذلك عن غير الله منفي، ولا قديم إلاالله، ولا إلٰه إلا الله واستأثر الله بالكمال، ولم يبر الغير من النقصان، وبالله التوفيق.

---

(١) سورة التوبة الآية: ٦.
(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/١٠٨، ١٠٩).
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/١٠٩) بنحوه هذا.
(٤) الأولى أن يقول: موجد.

التاسع: أن صفات الله تعالى ليست معاني غيره، ولا هي قائمة بذاته تعالى عن ذلك. وإنما ذلك قول الأشعرية، وهذا شبيه بقول المتكلمين: إن الأعراض حالة في الأجسام، فلو جعلوا الأعراض قائمة بالجسم، والمعاني الذي ذكروها حالة في ذات الباري سبحانه. لما زادوا فأتوا على معنى قولهم هذا بالمعنى الموجود في الأجسام صراحاً، ونحلوه ذات الباري سبحانه براحاً، فإن قالوا: إنكم أبطلتم المعنى المعقول في لغة العرب أنهم إذا وصفوا إنساناً بالشجاعة أو بالجبن أو السخاء أو البخل اثبتوها صفاتاً غيره.

قلنا: إن العرب إذا وصفت شيئاً بصفة إنهم إنما يتوجهون إلى معنى تلك الصفة، وليس في لسانهم ما يقتضي أنها هي هواه أو غيره، وإنما / تدرك معرفة ذلك من وجه آخر من طريق [٢٣٢/ب] من نظر في ذوات العالم، وعلى أن الجسمية صفة للجسم، وليس في ذلك ما يقتضي أنها غير الجسم، وكذلك العرضية صفة للعرض، والخلق صفة للخلق، وهي هو وبالله التوفيق.

العاشر: أن هذه الصفات التي ذكرناها من العلم والقدرة، وسائرها غير متغايرة بينها البين.

فإن قالوا: العلم هو القدرة في سائرها، قلنا: هذا ممنوع من جهة اللغة والتخاطب بين الناس، ولو أطلقه الإنسان لما جاوز خطاءه اللغة، وهو أحسن حالاً ممن أخطأ في صفات الله تعالى.

اعلم أن هذه الصفات التي ذكرناها صفات ذات لم يزل الله تعالى متصفاً بها في الأزل، والحال إذا لو حدث العلم لكان قبله جاهلاً، ولو حدثت القدرة لكان قبلها عاجزاً، ولو حدثت الحياة لكان قبلها مواتاً، ولو حدثت الإرادة لكان قبلها مستكرهاً، ولو حدث السمع والبصر لكان قبل ذلك أعمى وأصم، فهذه صفات ذات مهما انخرمت منها صفة اختلت الألوهية فإن قال قائل ولو حدث الكلام لكان قبله أخرس، فإن الخرس ضد الكلام ونقيضه، فالكلام إذاً من صفات الذات. قيل له: قد تقدم القول في ذلك، أن كلام الله تعالى على وجهين:

فكلامه الذي هو صفة ذاته يوصف به على نفي الخرس عنه؛ لأنه تعالى متكلم ليس بأخرس، وليس الخرس بنقيض الكلام، وإنما الخرس آفة وزمانه لا يستقيم معها الكلام، كما أن العجز آفة لا يستقيم معها الخلق وهما منفيان عنه تعالى بالقدرة، وإنما ضد الكلام السكوت، لأنه قد يكون الحي ساكتاً لا متكلماً ولا أخرس.

[٢٣٣/ب] والوجه الثاني: كلامه الذي هو القرآن / وسائر كتبه تعالى، هو فعل من أفعاله وخلق من خلقه، إذ وصفه الله تعالى بصفات الحدث كما قدمنا.

واعلم أنه لا يجوز أن يقال: الله سبحانه علم بعلم وقدرة في سائرها؛ لأنه يوهم عليه الاستعانة بها تعالى عن ذلك، وإنما يقال: علم بنفسه وبذاته وكذلك سائرها وبالله التوفيق.

الباب الثالث

في أفعاله تعالى ومدارها يحتوي على عشرة أصول وهي أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وأنها مكتسبة للعباد وأنها مراده لله تعالى، وأنه متفضل بالخلق، وأن له تكليف العقلاء، وإن إيلام البريء عدل منه تعالى، وأنه لا يجب عليه رعاية الأصلح، وأنه لا واجب إلاّ بالشرع، وأن بعثه الأنبياء جائز، وأن نبوة نبينا محمد ﷺ: ثابتة مؤيدة بالمعجزات وبالله التوفيق.

الأصل الأول: العلم بأن كل حادث في العالم فهو خلقه وفعله واختراعه لا خالق له سواه، ولا محدث [له] إلا إياه خلق الخلق وصنعتهم وأوجد قدرتهم وحركتهم، فجميع أفعال العباد مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقاً لقوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[3].

أمر العباد بالتحرز في أقوالهم وأسرارهم وضمائرهم لعلمه موارد أفعالهم، واستدل على العلم بالخلق، وكيف لا يكون لفعل العبد خالقاً، وهو سبحانه يقول: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾[4].

وقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[5]. وقدرته تعالى تامة لا قصور فيها، وهي متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متماثلة وتعلق القدرة بها لذاتها / فما الذي يقصر تعلقها عن [٢٣٤/أ] بعض الحركات دون بعض مع تماثلها، أو كيف يكون الحيوان مستبد بالاختراع والخلق، وقد يصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما تتحير فيه عقول ذوي

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٠٢، سورة الرعد الآية: ١٦، سورة الزمر الآية: ٦٢، سورة غافر الآية: ٦٢.
(٢) سورة الصافات الآية: ٩٦.
(٣) سورة الملك الآيتان: ١٣، ١٤.
(٤) سورة سبأ الآية: ١٨.
(٥) سورة النجم الآية: ٤٣.

الألباب، فكيف انفردت هي بخلقها واختراعها دون رب الأرباب جلّ جلاله وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب؟ هيهات هيهات دلّت المخلوقات على انفراد جبار الأرض والسموات بالخلق والاختراع والإنشاء، والابتداع والإيجاد والإبداع[(١)].

الأصل الثاني: أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد وسكناتهم، لا يخرجها عن كونها مقدرة للعباد عن سبيل الاكتساب. فالله سبحانه خلق القدرة والمقدور جميعاً والكسب والمكتسب جميعاً، فأما القدرة: فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه، وليس بكسب له.

وأما الحركة: فخلق للرب تعالى، ووصف للعبد وكسب له؛ فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه فكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة.

فسميت باعتبار تلك النسبة كسباً، وكيف يكون الفعل جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة، والرعدة الضرورية أو يكون خلقاً للعبد، وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة، وإعدادها فإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنها بالاكتساب[(٢)] وقد قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[(٣)].

فأضاف القتل إلى العبادة والتعذيب إلى نفسه في فعل واحد، والتعذيب هو عين القتل بل صرّح وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ / ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(٤)]. وهو جمع [٢٣٥/ب] بين النفي والإثبات ظاهراً، فكأنه قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾[(٥)]. بالمعنى الذي يكون به العبد رامياً، فرد تعالى في هذه الآية على المعتزلة والمجبرة جميعاً، ولأنه من ضرورة تعلق القدر بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط إذ قدرة الله تعالى في الأزل. كانت متعلقة بالمخلوقات ولم يكن الاختراع حاصلاً بها وهي عند الاختراع متعلقة به نوعاً آخره من التعلق فيه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور بها، فأفهمه فإنه معنى غامض وبالله التوفيق[(٦)].

الأصل الثالث: أن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراد الله سبحانه،

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١٠).
(٢) راجع إحياء علوم الدين الموضع السابق.
(٣) سورة التوبة الآية: ١٤.
(٤) سورة الأنفال الآية: ١٧.
(٥) سورة الأنفال الآية: ١٧.
(٦) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١٠) بنحوه مختصراً.

فلا تجري في الملك والملكوت طرفة عين، ولا فلتة خاطر ولا لفتة ناظر إلا بقضاء الله تعالى وقدره، وبإرادته ومشيئته فمنه الخير والشر، والنفع والضر، والإسلام والكفر، والعرفان والنكر، والفوز والخسران، والغواية والرشد، والطاعة والعصيان، والشرك والإيمان، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَآءُ﴾(١)، ﴿لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾(٢).

ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾(٣) ﴿وَلَوْ يَشَآءَ ٱللَّهُ لَهَدىٰ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً﴾(٤).

ويدل عليه من جهة العقل إن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها، وإنما هي جارية على وفق إرادة إبليس لعنه الله، مع أنه عدو لله سبحانه، والجاري على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته. فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو رَدَّ إليها سيد / ضيعة لاستنكف منها، إذ لو كان ما يستمر لعدو [٢٣٦/أ] السيد في قرية أكثر مما يستمر له لاستنكف من سيادته وتبرأ عن ولايته، والمعصية هي الغالبة على الخلق، وكل ذلك جار على قياد قول المبتدعة على خلاف إرادة الخالق، وهذا غاية الضعف والعجز تعالى رب العالمين عن قول الظالمين علوّاً كبيراً. ثم مهما ثبت أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى صحّ أنها مرادة له.

فإن قيل: كيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد. قلنا: الأمر غير الإرادة. ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه، فاعتذر بتمرد عبده عليه، فكذبه السلطان فأراد إظهار حجته بأن يأمر عبده بفعل ويخالفه بين يديه. فقال له: اسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان فهو يأمره بما لا يريد إمتثاله ولو لم يكن آمراً لما كان عذره عند السلطان متمهداً ولو كان مريداً لامتثاله لكان مريداً لهلاك نفسه وهو محال(٥).

الأصل الرابع: أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع، ومتطول بتكليف العباد، ولم

---

(١) سورة النحل الآية: ٩٣.
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٢٣.
(٣) سورة السجدة الآية: ١٣.
(٤) سورة الرعد الآية: ٣١.
(٥) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١٠، ١١١).

يكن الخلق والتكليف واجباً عليه خلافاً للمعتزلة الذين زعموا أن التكليف لا يكون إلاّ من طريق مصلحة العباد:

واستدل أبو يعقوب على فساد قولهم هذا بقول الله سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[١].

قال: وهذا تكليف عقوبةٍ لا مثوبةٍ، وهذا في حق الله سبحانه محال، إذ هو الموجب، والآمر، والناهي سبحانه وكيف يتعرض لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب؟ والمراد بالواجب أحد أمرين:

إما الفعل الذي في تركه ضرر إما آجل كما يقال: يجب على العبد أن يطيع الله تعالى. أو ضرر عاجل كما يقال: يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت. وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال /كما يقال: وجود المعدوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن [٢٣٧/ب] يصير العلم جهلاً فإن أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله تعالى على المعنى الأول فقد عرضه للإضرار، وإن أراد به المعنى الثاني فهو مسلم إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم، وإن أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم.

وقوله: يجب لمصلحة عباده. كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى، ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة، وأما أن يخلقهم في دار البلايا ويعرضهم للخطايا، ثم يهدفهم لخطر العقاب وهو الحساب فما في ذلك غبطة عند ذوي الألباب[٢].

الأصل الخامس: إن لله سبحانه تكليف العباد إذ ركب فيهم العقول السالمة من الآفات وليس من الحكمة إهمالهم مع العقول لأن ذلك يؤدي إلى إباحة الشتم له والاجتراء عليه بما ليس من أهله فكيف وقد نزه الجليل سبحانه نفسه عن هذه الصفة فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[٣] الآية وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[٤].

أي مهملاً لا يؤمر، ولا ينهى. فكما أنه ليس من الحكمة تكليف من انعرى من العقل

---

(١) سورة النساء الآية: ١٦٠.
(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١١).
(٣) سورة المؤمنون الآية: ١١٥.
(٤) سورة القيامة الآية: ٣٦.

والتميز إذ كان ذلك بمنزلة تكليف الأصم السمع، وبمنزلة الأخرس النطق فكذلك ليس من الحكمة إهماله مع العقل والتميز.

وقد زعمت الأشعرية أو غيرهم أنه يجوز على الله تكليف العباد ما لا يطيقونه ولم تجز ذلك المعتزلة فيما حكي عنهم والله أعلم.

واستدل من أجاز ذلك أنه قال: لو لم يسغ ذلك لاستحال سؤال دفعه، قال: وقد حكى الرب سبحانه عن عباده أنهم سألوه دفع ما لا يطيقونه فقال مخبراً عنهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ / لَنَا بِهِ﴾[١]. [٢٣٨/أ]

قالوا: ولأن الله تعالى أخبر نبيه عليه السلام أن أبا جهل لا يصدقه. ثم أمره تعالى أن يصدق نبيه عليه السلام في جميع أقواله. قالوا: وقد كان في جملة أقواله، أنه لا يصدقه فكيف يصدقه في أنه لا يصدقه؟ قالوا: فهذا محال وجوده[٢]، وقول المعتزلة عندي في هذا أقرب إلى الصواب والله أعلم.

الأصل السادس: واختلفوا هل يجوز على الله سبحانه إيلام الخلق، وتعذيبهم من غير جرم منهم سابق، ولا لعوض ثواب لهم لاحق فمنعت المعتزلة ذلك وإجازته الأشعرية أو غيرهم واستدلوا بأن قالوا: إن لله تعالى التصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه.

قالوا: والظلم إنما هو عبارة عن التصرف في ملك الغير، وهو محال على الله سبحانه، فإنه لا يصادف لغيره ملك حتى يكون تصرفه فيه ظلماً.

واستدلوا أيضاً على جواز ذلك بذبح البهائم وذلك إيلام لها وبما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين، ولم تتقدم لها قبل ذلك جريمة، ولا لها في الآخرة ثواب. وليت شعري كيف قولهم في المجبرة الذين زعموا أن الله أجبرهم على أفعالهم ثم عذبهم عليها أو وصفوه بقولهم هذا بالظلم أم لا. والله أعلم وقولنا في هذا وغيره من جميع ما يسع جهله قول المسلمين وبالله التوفيق[٣].

الأصل السابع: أن الله سبحانه يفعل ما يشاء بعباده، فلا يجب عليه رعاية الأصلح لهم في ذلك لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه شيء.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.
(٢) راجع إحياء علوم الدين (١١١/١).
(٣) راجع المصدر السابق بنحوه.

بل لا يعقل في حقه الوجوب، فإنه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[١]، ولاتفاق الجميع أن الأمر في مقتضى اللغة لا يفيد حسن المأمور ولا النهي قبح المنهي عنه أن هذا حسن وإن هذا قبيح وإنما / يعلمان من جهة الشرع، ولا يعلمان من جهة المصلحة خلافاً للقدرية [٢٣٩/ب] الذين يقولون: إن الله عز وجل لا يكلف عباده إلاّ من جهة المصلحة.

وفي كتاب الغزالي قال: في هذه المسألة وليت شعري بم يجيب المعتزلي، وفي قوله: إن الأصلح واجب على الله تعالى.

فقال: بم يجيب عن مسألة نفرضها عليه وهو أن تفرض مناظرة في الآخرة بين صبيّ مات مسلماً وبالغ مات مسلماً، فإن الله سبحانه يزيد في درجات البالغ، ويفضله على الصبيّ، لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ويجب عليه ذلك عند المعتزلي. فلو قال الصبي: يا رب لم رفعت منزلته عليّ؟ فيقول الرب تعالى: لأنه بلغ واجتهد في الطاعات. فيقول الصبي: أنت أمتني في الصبا فكان يجب أن تديم حياتي حتى أبلغ فاجتهد، فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بتطويل العمر دوني فلم فضلته؟ فيقول الله تعالى: لأني علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا، هذا عذر المعتزلي عن الله عز وجل. قال: فعند هذا ينادي الكفار من دركات لظى ويقولون: أما علمت أنا إذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا في الصبا، فإنّا رضينا بما دون منزلة الصبي المسلم فبم يجاب عن ذلك؟ أو هل يجب عند هذا القطع بأن الأمور الإلٰهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال وبالله التوفيق[٢].

الأصل الثامن: أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه، لا بمجرد العقل خلافاً للمعتزلة؛ لأن العقل إن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال؛ لأن العقل لا يوجب العبث، وإما أن يوجبها لفائدة / وغرض، وذلك لا يخلو إما أن [٢٤٠/ب] يرجع إلى غرض المعبود، وذلك محال؛ فإنه يتقدس عن الأغراض والفوائد بل الكفر والإيمان والطاعة والعصيان في حقه سيّان. وإما أن يرجع إلى غرض العبد وهو محال؛ لأنه لا غرض له في الحال بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه، وليس في المال إلا الثواب، ومن أين يعلم أن الله يثيب على المعرفة والطاعة ولا يعاقب عليها مع أن الطاعة والمعصية في حقه سيّان إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا لأحدهما به اختصاص.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٣.

(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/١١١، ١١٢).

وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع ولقد زلّ من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق، حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له [من][1] التلذذ بأحدهما دون الآخر.

فإن قيل: فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلاّ بالشرع والشرع لا يستقر إلا بنظر المكلف فيه. فإذا قال المكلف للنبي: إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لا يثبت إلاّ بالنظر، ولست أقدم على النظر، إذاً فيؤدي ذلك إلى إفحام الرسول. قلنا: هذا يضاهي قول القائل للواقف في موضع من المواضع: إن وراءك سبعاً ضارياً، فإن لم تتزعج عن المكان قتلك، وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقي. فيقول الواقف: لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائي، ولا انظر ما لم يثبت صدقك. فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتعرضه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادي المرشد فكذلك النبي ﷺ يقول: «[إن][2] وراءكم الموت ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفون صدقي بالالتفات إلى معجزتي فمن التفت عرف واحترز ونجا ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا /ضرر عليّ إن هلك الناس كلهم [٢٤١/أ] أجمعون، وإنما عليّ البلاغ المبين».

والشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت، العقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله في المستقبل.

والطبع يستحث على الحذر من الضرر، ومعنى كون الشيء واجباً أن في تركه ضرر، أو معنى كون الشرع موجباً أنه معرف بالضرر المتوقع؛ فإن العقل لا يهدي إلى التعرض للضرر بعد الموت عند إتباع الشهوات، فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقرير الواجب لولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتاً إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر في الآخرة والله أعلم[3].

الأصل التاسع: أنه ليس يستحيل بعثه تعالى للأنبياء عليهم السلام خلافاً للبراهمة حيث قالوا: لا فائدة في بعثهم إذ لا يخلو ما جاءوا به أن يكون موافقاً للعقل أو مخالفاً له.

فمحال أن يخالف الشرع العقل، وإن كان موافقاً لما في العقل ففي العقل كفاية عنهم، فالحجة عليهم إن العقل يهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة كما يهدي إلى الأدوية المفيدة

(١) من إحياء علوم الدين.
(٢) من الإحياء.
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١٢).

للصحة في الدنيا فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء، فكما يعرف صدق الطبيب بالتجربة كذلك يعرف صدق الرسول بالمعجزة والله أعلم[١].

الأصل العاشر: أن الله سبحانه قد أرسل محمد بن عبد الله ﷺ خاتماً للنبيين، وناسخاً لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين، وأيّده بالمعجزات الظاهرة، والآيات الباهرة كانشقاق القمر وتسبيح الحصى وإنطاق العجماء. وما تفجر من بين أصابعه من الماء ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها مع كافة العرب القرآن فإنهم مع تمييزهم بالفصاحة والبلاغة تعرضوا لسبه ونهبه وقتله ولم يقدروا على معارضته بمثله / إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة [٢٤٢/ب] القرآن ونظمه هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه عليه السلام أمياً غير ممارس للكتب والأنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه في الاستقبال كقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾[٢].

وكقوله تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[٣].

ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسول إن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلاً لله تعالى. فمهما كان مقروناً بتحدي الرسول عليه السلام نزّل منزلة قول الله تعالى صدق رسولي.

وذلك مثل القائم بين يدي الملك المدعي على رعيته إني رسول الملك فإنه مهما قال للملك إن كنت صادقاً فقم على سريرك ثلاثاً وأقعد على خلاف عادتك، ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله: صدقت. وبالله التوفيق[٤].

الباب الرابع
في تصديق الرسول ﷺ

فيما ورد على لسانه من عند ربه تعالى، اعلم أن هذا الباب يحتوي على مقدمة وعشرين مسألة تجري مجرى الأصول والأمهات في الاعتقاد الوارد على لسان الرسول في السمعيات.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/١١٢).
(٢) سورة الفتح الآية: ٢٧.
(٣) سورة الروم الايات: ١، ٣.
(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/١١٣).

أما المقدمة فهو أن تعلم أن جملة التوحيد واجبة على كل عاقل مكلف وهي ثلاث جمل لا يستغنى بعضها عن بعض وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق من عند الله. فهذه الثلاث جمل لا يسع جهلها كل عاقل مكلف عند أول بلوغه، ولا يخرج من الشرك ما لم يأت بها نطقاً باللسان واعتقاداً بالجنان، لقول الله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[1].

ولقوله عليه السلام: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: شهادة أن لا إله إلا الله / وأني [٢٤٣/أ] رسول الله، وأنه بعثني بالحق، والبعث بعد الموت، والقدر». فإذا أتى العبد بهذه الجملة فقد تم إيمانه فيما بينه وبين الناس، واختلفوا فيما بينه وبين الله، فقال بعض العلماء: قد تمَّ إيمانه فيما بينه وبين الله وفيما بينه وبين الناس، روي هذا عن الإمام عبد الرحمن بن رستم وعمروس بن فتح وغيرهما، وهذا هو الأشهر من دعوة الرسول عليه السلام أجلاف العرب، والأوفق لما عليه أوائل الأمة قبل وقوع الافتراق. فلما وقعت الفرقة، وتوزعت الأمة شرعت أئمة المذاهب عقائد لاتباعها فيها زيادة تحتوي على بعض اعتقاداتها. فرأى مشايخ المسلمين حين تمسكوا بآثار السلف الصالحين، واعتصموا بحبل الله المتين، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين: أن النطق بما تعبدوا به من قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما جاء به حق ليس له طائل ومحصول إن لم يتحقق بتصديق القلب بما تضمنته الجملة من الوظائف والأصول. فجمعوا ذلك بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول، وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازهما تتضمنان إثبات ذات الإله سبحانه، وإثبات صفاته، وإثبات أفعاله، وإثبات صدق الرسول بما جاء به فقالوا: لا يتم إيمان المكلف حتى يأتي بعشر كلمات وأنا إن شاء الله أضيف إليها بعض ما ورد به الشرع من السمعيات، فلنرسم هاهنا عشرين مسألة تجري مجرى الأمهات في أصول الاعتقادات:

أحدها: العلم بأن ورود الموت حق على كل مخلوق من سكان الأرض والسموات، وما بينهما من جميع الحيوانات، وأن كل نفس ذائقة الموت وسالكة سبيل الفوت.

وفي الخبر: أن ملك الموت وملك الحياة تناظرا، فقال ملك الموت: أنا أميت الأحياء. وقال ملك / الحياة: أنا أحي الأموات. فأوحى الله إليهما: كونا على عملكما وما سخرتما له [٢٤٤/أ] من الصنع، وأنا المميت والمحيي، لا مميت ولا محيّ سواي. واختلفوا في كيفية قبض

---

(١) سورة التغابن الآية: ٨.

الروح، فقال بعض العلماء: إن ملك الموت للروح بمنزلة حجر المغنطيس في جذبه للحديد، وأنه إذا ظهر الملك للروح طار إليه. وقال قوم: الله تعالى يخرج الروح فيتلقاها الملك. والصحيح: أن الله سبحانه هو الذي يحيي ويميت وهو أعلم بكيفية ذلك.

والثانية: العلم بأن قيام الساعة حق، وأنها آتية لا ريب فيها، وهي ما استأثر الله بعلمه لم يطلع عليها أحد من خلقه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾(٢) الآية. يعني الساعة التي تقوم فيها القيامة.

وفي الحديث: «بين النفختين أربعون سنة أو ما شاء الله فالأولى يميت الله تعالى فيها كل حيّ والثانية يحيي الله تعالى فيها كل ميت»(٣).

والثالثة: اعتقاد كون البعث بعد الموت يوم الحشر والنشر، وقد ورد بهما الشرع وهو حق، والتصديق به واجب، لأنه في العقل ممكن، ومعناه الإعادة بعد الإفناء، قال الله سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾(٤). وذلك مقدور الله تعالى كابتداء الأشياء قال الله تعالى: ﴿مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٥). فدلنا بالابتداء على الإعادة.

وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾(٦) والإعادة ابتداء ثان وهو ممكن كالأول فيحشر أجساد المكلفين مع أرواحها خلافاً للملحدين من اليهود والنصارى والفلاسفة الزاعمين أن الأرواح تحشر دون أجسادها وبالله التوفيق(٧).

[٢٤٥/ب] والرابعة: سؤال الملكين وهما منكر ونكير وقد وردت / بهما الأخبار، وذلك ممكن في العقل إذ ليس يستدعي إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به يفهم الخطاب ولا يدفع ذلك بما يشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال، فإن النائم ساكن بظاهره ويدرك في باطنه الآلام واللذات ما يحس تأثيره عند انتباهه من النوم. وكان يسمع رسول الله ﷺ كلام

---

(١) سورة لقمان الآية: ٣٤.
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٨٧.
(٣) الحديث أخرجه البخاري (٦/١٥٨)، وفي الفتح (١١/ ٣٧٠).
(٤) سورة الأنبياء الآية: ١٠٤.
(٥) سورة يٓس الآيات: ٧٨، ٧٩.
(٦) سورة لقمان الآية: ٢٨.
(٧) ذكر ذلك مختصراً في كتاب الإحياء (١/١١٣).

جبريل عليه السلام، ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء الله تعالى، فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه، والله أعلم[(١)].

والخامسة: عذاب القبر وقد ورد الشرع به قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ إلى قوله: ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[(٢)].

وقد اشتهر عن رسول الله ﷺ وعن السلف الصالحين: الاستعاذة بالله من عذاب القبر، فالتصديق به ممكن ولا يمنع منه تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطير، فإن المدرك لألم العذاب أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها والله أعلم[(٣)].

المسألة السادسة: الميزان قال الله سبحانه: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾[(٤)].

فقال أصحابنا ومن وافقهم: ميزان الأعمال تمييزها وتفضيلها ووزن النيات المعتقدة لها دليلة ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[(٥)] فيثقل الحق يوم القيامة لصاحبه فينجو به، كما ثقل على نفسه في الدنيا فتحمله، فيخف الباطل عند الوزن لصاحبه فيهلك به كما خف على نفسه في الدنيا فارتكبه، ولأن الأعمال أعراض لا تظهر للعيان فتوزن بالميزان، وإنما وزنها تمييزها وتفضيلها والمجازات بها هذا هو المعروف / في لغة العرب. يقول الرجل لصاحبه: زن كلامك وأمورك [٢٤٦/أ] كما قال القائل:

وَزِنِ الكَلاَمَ إذَا نَطَقْتَ وَإنَّمَا ... يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي العُقُولِ المَنْطِقُ

وقال أبو بلال رحمه الله:

إنِّي وَزنتُ الذي يبقَى بعاجلةٍ ... تفنَى وَشِيكاً فلاَ واللَّهِ ما اتزَنا

في أمثال هذا كثير هذا قول أصحابنا، وقال مخالفهم: إنه ميزان على الحقيقة ذو كفتين ولسان عظمه مثل طباق السموات والأرض، توزن فيه الأعمال تطرح فيه صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله تحقيقاً لتمام العدل،

---

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) سورة غافر الآية: ٤٦.
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١٤).
(٤) سورة المؤمنون (الآية: ١٠٢، ١٠٣).
(٥) سورة الأعراف الآية: ٨.

وتطرح صحائف السيئات في كفة الظلمة فيخف بها الميزان واستدلوا بالآية المتقدمة وأخواتها فقالوا: إن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزناً بحسب درجاتها عند الله فتصير مقادير الأعمال معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب، والفضل في العفو وتضعيف الأعمال والله أعلم[١].

السابعة: الصراد، وقد ورد به القرآن فقال أصحابنا: الصراط هو طريق الإسلام ودليله: ﴿إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢].

وقوله: ﴿اَهْدِنَا اَلصِّرَاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ﴾[٣]. في أمثالها واستدلوا بقول الشاعر، وقيل هو جرير:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا أعوّج الموارد مستقيم

وقال آخر:

أكرّ على الحروريين مهري ... لأحملهم على وضح الصراط

هذا رجل يقاتل أبا بلال رحمه الله فأُخذ فأُتي به إلى أبي بلال مرداس فاعتذر أنه لم يخرج لقتاله فأطلقه ثم عاد فأوتي / به فقتله. [٢٤٧/ب]

فقد كان اعتذر فقال أبو بلال مرداس: المؤمن لا يلسع من جحر أفعى مرتين. فقال مخالفونا: الصراط هو جسر ممدود على متن جهنم أدق من الشعر، وأحدّ من السيف تزل عليه أقدام الكافرين، فيهوى بهم إلى النار، وتثبت عليه أقدام المسلمين فيعبرون عليه على تفاوت درجاتهم، منهم من يمر كالريح، وكالبرق، وكالفرس الجواد، وكالمسرع وغير ذلك. والذي عندي والله أعلم أن: الصراط المذكور في القرآن على وجهين:

أحدهما: طريق الإسلام كما قدمنا.

والثاني: أنه الجسر الموضوع على متن جهنم المرتب عليه القناطر السبع التي هي مراصد ومجالس للعباد حتى يسئلوا عن السبع السؤالات المشهورة، هذا مشهور في كتب أصحابنا، ويدل على هذا قول الله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[٤].

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١٤).
(٢) سورة الشورى الآية: ٥٢.
(٣) سورة الفاتحة الآية: ٦.
(٤) سورة الصافات الآيتان: ٢٣، ٢٤.

إذ يستحيل حمل الصراط المذكور هاهنا على طريق الإسلام والله أعلم.

فهذا ممكن في العقل؛ لأنه ليس فيه ما يحيله ولا في الشرع ما يبطله فإن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط والله أعلم بكيفيته[(١)].

الثامنة: الحساب والإيمان به واجب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[(٢)]. وحساب الله تعالى يومئذٍ فصل وتميز لا يشغله حساب أحد عن أحد، كما لا يشغله رزق أحد عن أحد.

وقيل لعلي: كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم. فقال: كما يرزقهم على كثرة عددهم. ويتفاوت الخلق في الحساب من مناقش فيه إلى مسامح، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقربون، فيسأل الله تعالى من شاء / من الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من [٢٤٨/أ] الكفار عن تكذيب المرسلين، ويسأل أهل البدع عما أحدثوا من بدعهم، وعما تركوا من سنة نبيهم عليه السلام، ويسأل المسلمين عن الأعمال كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(٣)] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[(٤)].

عن الحسن قال: أسرع من لمح البصر، وفي الخبر: أن الله تعالى يحاسب في قدر حلب شاة. ومعنى الحساب تعريف الله تعالى عباده مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم ما قد نسوه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَحْصَاهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[(٥)].

التاسعة: الشفاعة وهي حق فمن كذّب بها فقد كذب القرآن، وهي المقام المحمود، قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[(٦)]. يحمده فيه الأولون والآخرون، يحمده الأولون بما فتح لهم من الشفاعة وكانت مخزونة، لا يصل إليها أحد حتى يفتحها النبي عليه السلام ويحمده الآخرون حيث نجاهم الله من هول المقام، والشفاعة إنما هي للمسلمين الذين ماتوا على الطاعة؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١٤) وهو فيه باختصار.
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٤٧.
(٣) سورة الحجر الآية: ٩٢.
(٤) سورة النور الآية: ٣٩.
(٥) سورة المجادلة الآية: ٦.
(٦) سورة الإسراء الآية: ٧٩.

﴿عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[١]. يعني بالعمل الصالح في أمثالها وقال تعالى مخبراً عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٢].

في أمثالها وكان جابر بن زيد رحمه الله يحلف: ما لأهل الكبائر من شفاعة. وكان يقول: والله ما شفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين إلا للتائبين. وكان يقول: ما نالت دعوة مؤمن منافقاً قط، والشفاعة ليست لمن استوجب العقاب فيصير بها إلى الثواب ولكن الشفاعة للمؤمنين زيادة لهم في الثواب وتشريف في المنازل وبالله التوفيق.

[٢٤٩/ب] العاشرة: / الحوض المورود، حوض محمد ﷺ قد إستفاض الحديث به، كقوله عليه السلام: «وليذادن رجال من أمتي على حوضي»[٣] الحديث.

في أمثالها، وقد فسر ذلك في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[٤].

في بعض الأقوال أن الكوثر نهر في الجنة يصب منه ميزابان في حوض النبي عليه السلام يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة، وبعد جواز الصراط، من شرب منه شربة فلا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة عرضه مسيرة شهر أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، حوله أباريق عدد نجوم السماء. والله أعلم.

الحادية عشر: الجنة والنار، وهما مما يجب اعتقاد كونها على كل مكلف، واختلفوا هل هما مخلوقتان أم لا. فقالت طائفة: هما مخلوقتان واستدلوا بقوله تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

وفي النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٦].

قالوا: والمعد لا يكون إلا حاضراً مع ما ورد في ذلك من الأحاديث، وقالوا: يجب إجراء جميع ذلك على الظاهر إذ لا استحالة فيه. وقال آخرون: ليستا مخلوقتين، إذ لا فائدة في خلقها قبل يوم الجزاء.

---

(١) سورة مريم الآية: ٨٧.
(٢) سورة الشعراء الآيتان: ١٠٠، ١٠١.
(٣) أطراف الحديث عند: ابن ماجه في السنن (٤٣٠٦)، وعند البيهقي في السنن الكبرى (٤/٧٨)، وأحمد في المسند (٢/٤٥٤).
(٤) سورة الكوثر الآية: ١.
(٥) سورة آل عمران الآية: ١٣٣.
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٤، وآل عمران الآية: ١٣١.

والقول الأول عندي أقرب إلى الصواب، وقد قال تعالى حكاية عن نبيه عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾[١]. يعني محمداً رأى جبريل عليه السلام.

وقد وجدت في بعض آثار أصحابنا من أهل المشرق أنه روي عن الحسن أو غيره عن النبي ﷺ أنه قال: «الجنة مخلوقة وهي في السماء والنار مخلوقة وهي في الأرض». والله أعلم.

وجواب بعض أصحابنا في ذلك إن كانتا كانتا، وإن لم تكونا فستكونا. والجنة حق مع ما فيها من المأكول والمشروب، والمنكوح والملبوس وسائر الملاذ المحسوسة وغير / ذلك [٢٥٠/أ] من المساكن الطيبة.

وكذلك النار حق مع ما فيها من أصناف العذاب من الزقوم والحميم وسرابيل القطران والأنكال، والأغلال والغسلين، وغير ذلك. فالنار جسم محسوس محرق ينضج الجلود، ويذيب الشحوم، هذا كله خلافاً لليهود، والنصارى، والفلاسفة وسائر الملحدين الذين أنكروا حشر الأجساد، وردوا كل ما ورد في الآيات والأخبار من تحريق النار أهلها، ردوا ذلك إلى آلام عقلية روحانية.

فقالوا: إن الأرواح هي التي تتألم، وكذلك ما ورد من نعيم الجنة ردوا ذلك إلى لذات عقلية، بأن الأرواح هي التي تستلذ وتتنعم، هذا كله فيما حكي عنهم في كتب التفسير وغيرها، والله أعلم.

فالواجب على المكلف أن يعتقد أن لله سبحانه ثواباً لا يشبهه ثواب، وعقاباً لا يشبهه عقاب، وهما الجنة والنار وهما دائمان مع سكانهما من الأبرار، والفجار لا يموتون ولا هم منها يخرجون، وبالله التوفيق[٢].

الثانية عشر: جملة الملائكة، وهي مما يجب على المكلف اعتقاده، ومعرفته، وذلك أن يعلم أن لله سبحانه جملة الملائكة وهي غير جملة الإنس والجن، قال الله سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾[٣] الآية.

---

(١) سورة النجم الآيات: ١٣، ١٥.

(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١٤) وهو فيه باختصار شديد.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٨٥.

في أمثالهم منهم حفظة يكتبون أعمال العباد، ومنهم رسل الله إلى أنبيائه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] الآية. ومنهم ملائكة غلاظ شداد خزنة للنيران، ومنهم خزنة للجنان، وهم كلهم ملزومون مأمورون مكتسبون، واختلفوا، هل هم مكلفون أم لا؟ وهم كلهم مخلوقون للقرب والسعادة، يسبحون الليل والنهار لا يفترون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، هم كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً / أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾[2]. لا يوصفون بالشهوة، ولا بالتعب، ولا بالذكورية، ولا بالأنوثية ولا بالجنون، ولا بالطفولية، ولا باللحم، لا بالدم، ولا بالبول ولا بالغائط، وهم عقلاء وثوابهم واصلة إليهم لا محالة صلوات الله عليهم أجمعين. [٢٥١/ب]

الثالثة عشر: جملة الأنبياء والرسل وهما جملتان يجب على المكلف الإيمان بهما، ومعرفة كل واحدة منهما على حدة لقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾[3] الآية.

فالأنبياء أعمّ من الرسل؛ لأن من الأنبياء أنبياء مرسلين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليهم أجمعين ومنهم أنبياء غير مرسلين، فالرسول هو الذي نبيء بالوحي وأرسل إلى غيره، والنبي من نبيء بالوحي ولم يرسل إلى غيره وبالله التوفيق.

الرابعة عشر: جملة الكتب المنزلة وذلك مما يجب على المكلف الإيمان به، وذلك أن يعلم أن لله تعالى جملة الكتب أنزلها على رسله بواسطة الملائكة الكرام البررة، الذين هم سفرة بين الله تعالى وبين خلقه ويقصد إلى القرآن فيؤمن به خصوصاً ويؤمن بغيره من الكتب عموماً، قال الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾[4].

والقرآن وغيره من الكتب هو كلام الله ووحيه وتنزيله وفرقاً نزل به الروح الأمين على قلب محمد ليكون به من المنذرين بلسان عربي مبين، وبالله التوفيق.

الخامسة عشر: الإيمان بالقضاء والقدر، وذلك واجب على كل مكلف أن يعلم أن ما

---

(١) سورة الحج الآية: ٧٥.

(٢) سورة فاطر الآية: ١.

(٣) سورة البقرة الآية: ٣٦.

(٤) سورة النساء الآية: ١٣٦.

كان من خير وشر، ونفع وضر، وإيمان وكفر، ورشاد وخسر، وعرفان ونكر، وشقاوة / وسعادة وغير ذلك قد سبق به قضاء الله سبحانه، وقدره في أزليته قبل وجود عينة، فظهر [٢٥٢/أ] جميع ذلك بحكمة الله سبحانه على وفق تقديره كل شيء في وقته من غير زيادة ولا نقصان ولا تأخير لشيء منه عند وقته، ولا تقديم، ولا تبديل في المقدور، ولا تحويل في المحتوم، فكل ما ظهر وجوده بعد عدمه من أصناف الخلائق فمن ملك الله تعالى فقد سبق به قضاءه وقدره، فالأرزاق مقسومة، والآثار محتومة، والأنفاس معدودة، والآجال محدودة، لا يستأخر شيء عن أجله ولا يسبقه، ولا يموت أحد دون أن يستكمل رزقه، ولا يتعدى ما قدر له، كل ميسر لما خلق له، من خلق للنعيم يسر لليسرى، ومن خلق للجحيم يسر للعسرى، كل ذلك بقضائه وقدره، لا يخرج شيء عن تقديره، ولا تتحرك ذرة فما فوقها في ظلمات الأرض إلا بقضاء وقدر، فعلى المكلف أن يؤمن بهذا ويتيقن به، ويعلم: أن ما أصابه لم يكن ليخطيه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

كما صح في النقل عنه عليه السلام أنه قال لعبادة بن الصامت: «إنك لن تجد، ولن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تؤمن بالقدر خيره وشره أنه من الله». فقال: يا رسول الله كيف لي أن أؤمن بالقدر خيره وشره؟ قال: «أن تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، فإن مت على غير ذلك دخلت النار»(١). وبالله التوفيق.

السادسة عشر: في معنى التوحيد والشرك وذلك مما يجب على العبد معرفته أيضاً، لأنهم قالوا: لا يعرف الأشياء إلا من لا يعرف حقائقها.

أما التوحيد: فمعناه إفراد الرب سبحانه عن الخلق وجميع معانيهم، وترك التسوية / بينه [٢٥٣/أ] وبين العباد في جميع أفعالهم وصفاتهم، فحقيقة المعرفة به سبحانه أن تعلم أن الأشياء لا تشبهه ولا يشبهها من جميع الجهات في اسم ولا صفة ولا ذات ولا فعل لأنه لو أشبه شيئاً من الأشياء، ولو في أقل قليل لدخل عليه العجز من تلك الصفة. فلهذا وجب على المكلف أن يعرف حقيقة الوحدانية لله تعالى ويصفه بما يليق به من الصفات، وينفي عنه شبه الأشياء من جميع الجهات.

وأما الشرك: فمعناه التساوي في الأدوات والصفات ومعناه في الله تعالى التسوية بينه وبين خلقه في الذوات والصفات أو الأفعال، قال الله سبحانه: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ

---

(١) طرفه عند الربيع بن حبيب في مسنده (١/ ١٩).

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(١)] الآية. أي في العبادة والتعظيم وإثبات الألوهية. والشرك إذاً على وجهين:

جحود ومساواة ويتصرف على وجوه تركت ذكرها مخافة التطويل؛ لأن أكثر هذا الباب موجود في كتابنا المسمى قواعد الإسلام، وفي غيره وبالله التوفيق.

السابعة عشر: فرز ما بين كبائر الشرك، وكبائر النفاق وقد شدد أصحابنا فيمن لم يفرز بينهما أن يبلغه ذلك إلى الشرك، والفرز بينهما الكاذب على الله منافق والمكذب لله مشرك.

فالكاذب على الله مثل أهل الخلاف الذين كذبوا على الله، فتأوّلوا كتابه على غير تأويله في جميع ما كفرهم به المسلمون مثل: إدعائهم الرؤية لله سبحانه في الآخرة بتأويل الخطأ، وكنفيهم خلق القرآن، ونفيهم تخليد أهل الكبائر من هذه الأمة في النار بتأويل الخطأ[(٢)]. وغير ذلك مما يطول به الكتاب.

وأما المكذب لله تعالى فهو مثل أهل الإلحاد الذين أنكروا الله سبحانه، وكذلك كل من أنكر وجهاً من وجوه التوحيد الذي لا يسع جهله أو حرفاً من القرآن أو فرضاً منصوصاً فيه، أو حلل حراماً إما منصوصاً / تحريمه في القرآن، أو حرّم حلالاً منصوصاً فيه، مما يطول شرح تلك المعاني فهو مشرك وبالله التوفيق. [٢٥٤/ب]

الثامنة عشر: ومما يجب على المكلف أن يعلم أن الله أمر بطاعته وأوجب عليها ثواباً، ونهى عن معصيته وأوجب عليها عقاباً، ويعلم الإسلام والمسلمين، والكفر والكافرين، ويعلم تحريم دماء المسلمين وأموالهم وسبي ذراريهم بالتوحيد الذي معهم.

ويعلم تحليل دماء ما ذكرنا من المشركين بالشرك الذي معهم، ويعلم أن الله تعالى ممتن على العباد بتكليفه إياهم طاعته، وممتن بسائر نعمه عليهم، ويعلم أن المخلوقات دلائل على الله سبحانه، ويخاف من عقاب الله تعالى ويطمع في ثوابه وبالله التوفيق.

التاسعة عشر: الولاية والبراءة في الجملة، وهما سواء لا عذر لمن جهلهما وهما واجبتان على كل مكلف عند حال بلوغه، وذلك أن يتولى الله سبحانه وأولياءه المسلمين من الثقلين أجمعين، من الأولين والآخرين إلى يوم الدين، ويتبرأ من جميع أعداء الله من الأولين والآخرين إلى يوم الدين.

---

(١) سورة الشعراء الآية: ٩٨.

(٢) بل هو المتأول خطأ فيما قال، إلا أهل الكبائر فمنهم من هو مخلد كالمشرك بالله، والساحر، وقد اختلف في القائل.

فهذا واجب على كل مكلف في جملة اعتقاده للدين حتى يقع عليه الفرض في شخص معين إذا صحّ له فيه ما يوجب ولايته وبراءته؛ لأن الحكم النقلي يشهد أن الأمور ثلاثة:

أمرٌ بان رشده فاتبعوه، وأمرٌ بان غيّه فاجتنبوه، وأمرٌ أُشكل عليكم فكلوه إلى الله تعالى، وبالله التوفيق.

العشرون: في معرفة الملل وأحكامها، وذلك واجب على كل مكلف في أول حال بلوغه، وشدد أصحابنا فيمن جهل ذلك أن يبلغه إلى الشرك، وشرح هذه الملل وأحكامها موجود في كتابنا المسمى بقواعد الإسلام، وفي غيره من كتب أصحابنا، فمن أراد معرفتها فليطلبها هناك؛ فإنه لامعنى لإعادة شرحها هاهنا / وبالله التوفيق. [٢٥٥/أ]

فصـــل

اعلم أن التوحيد لا يبقى في الشرع مطلقاً، ولكن لا بد له أن يتقيد بسبع تقييدات منها:

أن يكون صادراً من المكلف عن علم محقق لا عن جهل.

ومنها: أن يكون عن يقين لا عن شك.

ومنها: أن يكون عن إخلاص لا عن شرك.

ومنها: أن يكون مقروناً معه العمل وإلا بطل واختل.

ومنها: أن يصدر عن القلب واللسان جميعاً.

ومنها: أن يتكلم به ابتغاء وجه الله تعالى من غير طمع في الدنيا ولا خوف من أهلها.

ومنها: أن يستصحب حاله ويثبت عليه حتى يموت لا مبدلاً ولا مغيّراً. وبالله التوفيق.

وكل هذه التقييدات ورد بها الحديث ـ تركتها مخافة التطويل. والله أعلم.

مسألة

من كتاب الضياء وقيل: جعل دين الله تعالى في هذه الأشياء الخمسة:

أولها: المعرفة بالله تعالى، والتوحيد له، مع أداء فرائض الله في أوقاتها بكمالها، واجتناب الكبائر، وولاية أهل الطاعة من المكلفين جميعاً أو فرادى من لدن آدم إلى أن يفنى الخلق.

هذه الجملة دين المسلمين من الأولين والآخرين وهذه الخصال الخمس فرض على الخلق، مَنْ ترك خصلة منها فقد كفر.

قال: وينبغي للعبد أن يتوب ويرجع إلى ما خرج منه. إن كان وقع شك منه في

التوحيد، أو رياء في فريضة، أو تهاون بركوب كبيرة. ويقول: آمنت أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن ما جاء به حق من عند الله، وأن من عصى الله ورسوله حياً كان أو ميتاً فمات ولم يتب فإن الله تعالى سيدخله النار خالداً فيها.

وآمنت بملائكة الله ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والجنة والنار بدوامهما لمن دخلهما وأن / هذا الثواب والعقاب بعد الموت والبعث، وأنه ليس للإنسان هناك إلا ما سعى إن كان [٢٥٦/ب] خير فخير دائم، وإن كان شر فشر دائم، لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد، ووطنت نفسي على أداء كل فريضة فرضها الله عليّ أو سيفرضها. وعليّ اجتناب كل ما حرّمه عليّ، وعليّ الكف عن التقدم إلى شيء حرّمه عليّ مما هو مشتبه عندي مما يسع الاشتباه فيه، وعليّ أن لا أطيع مخلوقاً في شيء من معاصيه أبداً، وعليّ أن لا أجحد كل ذي حق حقه، ولا أقر لأحد بباطل، ولا أتولى عدو الله ولا أعادي وليّ الله. وإن كان مِنيّ يوماً أو ليلة أو ساعة من ليل أو نهار تقصير في شيء من هذه الوظائف فإني تائب من ذلك مستغفر الله منه موطِّن النفس على أن لا أعود إلى شيء من هذا أبداً، وبالله التوفيق.

الباب الخامس
في شرح بعض أسماء الشريعة

من ذلك التوحيد: ومعناه إثبات الواحد جل جلاله ونفي ما سواه من إلٰه أو شريك أو ولي أو طاغوت، فكل ما يعبد سوى الله يجب نفيه والكفر به، والتبرىء منه.

وقد بيّن الرسول عليه السلام التوحيد وفسره بقوله: «من وحدّ الله وكفر بما يعبد من دون الله حرّم ماله ودمه، وحسابه على الله»[1].

وبقوله: «بني الإسلام على خمس: على أن يوحد الله تعالى...». الحديث. وبقوله في التلبية: «لبيك لا شريك لك».

فالمعنى بالتوحيد إثبات الواحد، ونفي ما سواه، وهو معنى لا إلٰه إلا الله الواحد الحق، وأن ما دونه هو الباطل، نبه الله تعالى على ذلك في كتابه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ * وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[2].

---

(١) رواه مسلم في الصحيح في كتاب الإيمان (٣٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ١٢٣، ١٢/ ٣٧١)، أحمد في المسند (٣/ ٤٧٢، ٦/ ٣٩٤)، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٨٢).

(٢) سورة الحج الآية: ٦٢.

وقال: ﴿/ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[١]. ووجدت في الأثر [٢٥٧/أ] عن أبي المؤثر أنه قال: من عرف أن الله عز وجل واحد ليس كمثله شيء، فقد عرفه تبارك وتعالى. فقال: فهذا أقل ما يكون به الإنسان موحداً.

والصحيح أنه لا يثبت التوحيد لأحد إلا بالإثبات بثلاث كلمات وهن: الإيمان بالله أنه رب، وبمحمد أنه رسول، وأن ما جاء به حق من عند الله. فمن أتى بهذا فهو موحد ما لم يخطر بباله أنه تعالى جسم أو ليس بجسم، أو محدود أو غير محدود، أو يرى بالأبصار أو يدرك بالحواس أو غير ذلك. فإذا خطر له هذا أو أشباهه فقد وقع في البلية، فعليه أن يعلم أن الله ليس بجسم، ولا يشبه الأجسام، ولا شيئاً من الخلق، وأنه ليس بمحدود، وأنه لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس. فإن شك في شيء من هذا أو وصفه تعالى فهو هالك كافر.

مسألة

والتوحيد لا يكون العدول فيه حجة دون العقل وهم حجة مع العقل، ولا يجوز التقليد في جميع الديانات بإتفاق الأمة، وهذا في جميع ما يكون الحق فيه في واحد، ومع واحد وضاق على الناس خلافه لأن الله سبحانه إذا تعبد بشيء من ذلك نصب عليه الدليل.

وقد نهى عز وجل عن التقليد في ذلك، وذم من قلد فيه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾[٢] في أمثالها من القرآن. وأما الذي يجوز فيه التقليد للعالم الأمين فهو كل ما يسع جهله مما تعبد الله به عباده مما لم ينص عليه في كتابه نصاً ظاهراً يدل على مراده فيه، ولم ينصب عليه دليلاً من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع من الأمة ورد الحكم فيه إلى / العلماء [٢٥٨/أ] المستنبطين، ليجتهدوا في استخراج الحكم به نحو أروش الجراحات، ومتعة المطلقات اللاتي لم تفرض لهن الصدقات إذا وقع الطلاق قبل الدخول بهن، وغير ذلك من مسائل الأحكام والنوازل، فهذا مما يجوز التقليد فيه من الدين. وما كان مثله مما كان طريقه طريق السمع ويرجع فيه إلى قول أهل العلم لعدم الدليل على حكمه ولا يجوز التقليد عند وجود دليل من الكتاب أو السنة أو إجماع من الأمة أو حجة العقل؛ لأنه لا معنى للتقليد هناك لأن حقيقة التقليد هو قبول قول القائل بغير دليل ولا برهان. وبالله التوفيق.

---

(١) سورة يونس الآية: ٣٢.

(٢) سورة الزخرف الآيتان: ٢٢، ٢٣.

فصـــل

ويحكى والله أعلم أن رجلاً خرج سائحاً لله تعالى، حتى دخل بيت المقدس فوجد رجلاً يصلي في المسجد، فلما فرغ قال له: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فردّ فقال: السلام على أهل اليقين والتسليم والإسلام اجلس، فجلس فلما اطمأن قال له: عبد أنت أم حر؟ قال: بل حر. فقال: مَنْ أعتقك؟ فاطرق المسؤول ملياً متفكراً في جوابه ثم قال: لا بل عبد. فقال: مَنْ استعبدك؟ فقال المسؤول: الله استعبدني وهو معبودي، والعبادة طاعة الله تعالى. فقال: أخبرني عن الله الذي استعبدك اسم هو أم صفة أم فعل أم معنى؟ قال: اسم [قال]: لِمَنْ؟ قال: لله تعالى. قال: فأي إلٰهين تعبد الاسم أم المسمى؟ فانقطع المسؤول وتحيّر في جوابه فقال المصلي: يا هذا إنما يعبد الله من يعلم ما الله، فأما مَنْ لم يعرف الله فإنما يعبد غير الله، ومن عبد غير الله فقد أشرك بالله. ثم قال: لا يدرك بعقد ضمير ولا إحاطة / تفكير ويقال: مَنْ [٢٥٩/ب] عبد الله تعالى بتوهم القلب فهو مشرك، ومن عبد الإسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الإسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد الإسم دون الصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب ومن عَبَد المعنى بحقيقة المعرفة فهو مؤمن حقاً وبالله التوفيق.

فصـــل

في حقيقة التوحيد فحكى عن ذي النون المصري[(١)] أنه سئل عن التوحيد فقال: أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج وصنعه لها بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه تعالى بخلافه.

وسئل بعضهم عن التوحيد فقال: إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بأنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد بنفي الأضداد والأنداد بلا تكييف ولا تشبيه ولا تصوير، ولا تمثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقال بعضهم: التوحيد تلاشي الخلائق عند ظهور الحقائق، وقال بعض العلماء: أشرف

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٣٢): الزاهد شيخ الديار المصرية ثوبان بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم النوبي الإخميمي، يكنى أبا الفيض، ويقال: أبا الفياض ولد أواخر أيام المنصور.... قال ابن يونس: كان عالماً فصيحاً حكيماً، توفي في ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومئتين.
وقال السُّلَميُّ: حملوه على البريد من مصر إلى المتوكل ليعظه في سنة وكان إذا ذُكر بين يدي المتوكل أهل الورع، بكى.

كلمة في التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته. فقال: ليس يريد الصديق رضي الله عنه أنه لا يعرف. قال: فالعارف عاجز عن معرفته، والمعرفة موجودة فيه؛ لأن عند هؤلاء المعرفة ضرورية. وهذا كما قال بعضهم: ما عرف الله بالحقيقة سوى الله سبحانه.

وأما أقسام التوحيد فذكر الغزالي في ذلك ثلاثة أقسام، قال: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام فقال: يا داود تعلم العلم النافع. /قال: إلٰهي، وما العلم النافع. قال: أن [٢٦٠/أ] تعرف جلالي وعظمتي وكبرياءي وكمال قدرتي على كل شيء فإن هذا هو الذي يقربك إليّ.

قال الغزالي: فالتوحيد جوهر نفيس وله قشران:

أحدهما: أبعد عن اللب من الآخر. قال: وخصَّ الناس اسم التوحيد للقشر الأول، وبصنعة الحراسة للقشر الثاني أراد بذلك صنعة الكلام وأهملوا اللب بالكلية.

قال: فالقشر الأول هو أن تقول بلسانك لا إلٰه إلا الله. فقال: هذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي تصرح به النصارى. أراد قولهم: إن الله ثالث ثلاثة. قال: ولكن هذا التوحيد قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره، وهذا هو الزنديق عندنا.

قال: والقشر الثاني: هو أن لا يكون في القلب إنكار ولا مخالفة لمفهوم قول القائل: لا إلٰه إلا الله بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به. قال: وهو توحيد عوام الخلق من المسلمين والمتكلمين الذين هم حراس هذا القشر الذي هو توحيدهم، وتوحيد عامة الموحدين يحرسونه عن تشويش المبتدعة أراد ينقضون عليهم بدعهم وخلافهم في التوحيد بالكلام الذي هو صفتهم.

قال: والثالث لباب الجوهر الذي هو التوحيد. قال: وذلك لا يفهمه أكثر المتكلمين فإن فهموه لم يتصفوا به وهو أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع إلتفاته عن الوسائط، والأسباب فلا يرى الخير والشر إلا من الله جل جلاله، وأن يعبده عبادة يفرده بها ولا يعبد معه غيره، وهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتي إن شاء الله.

ومن ثمراته /أيضاً ترك الشكاية إلى الخلق وترك الغضب عليهم والتسليم لحكم الله جل [٢٦١/أ] جلاله فكان إحدى ثمراته قول أبي الدرداء لما قيل له في مرضه: أنطلب لك طبيباً. قال: الطبيب أمرضني.

وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما مرض فقيل له: ماذا قال لك الطبيب في

مرضك؟ فقال: إني فعّال لما أريد. قال: ويخرج عن هذا التوحيد إتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوداً له، قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[١].

وقال عليه السلام: «أبغض إله عبد في الأرض عند الله هو الهوى»[٢]. قال: وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم، وإنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوف أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى. قال: ويخرج عن هذا التوحيد التسخط عن الخلق والالتفات إليهم، فإن من يرى الكل من الله عز وجل كيف يسخط على غيره؟ فقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام، وهو من مقامات الصديقين.

فانظر إلى ما حول وبأي قشر قنع، وكيف اتخذ هذا معتصماً في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي. قال: وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة، ويقول: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وهو أول كذب يفاتح الله تعالى به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجهاً إلى الله عز وجل على الخصوص؛ فإنه إن أراد بالوجه وجه ظاهر بدنه فما وجهه إلاّ إلى الكعبة وما صرفه إلاّ عن سائر الجهات والكعبة /ليست جهة للذي فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه إليها [٢٦٢/ب] متوجهاً إلى الله عز وجل تعالى عز وجل أن تحدّه الجهات والأقطار. وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد منه، فكيف يصدق قول من قلبه متردد في أوطاره وحاجاته الدنيوية ومتوجه بالكلية إليها فمتى وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض.

وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد: فالموحد الحقيقي هو الذي لا يرى إلا الواحد الخالق جل جلاله ولا يوجه وجهه إلا إليه، وهو امتثال قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[٣].

وليس المراد به القول باللسان، إنما اللسان ترجمان يصدق مرة، ويكذب أخرى، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب، فهو معدن التوحيد ومقره وبالله التوفيق[٤].

وأما الإيمان فأصله في اللغة التصديق بالشيء يقال: آمن فلان بكذا أي صدق به، وآمن

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٤٣.
(٢) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٣٤) رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناده ضعيف.
(٣) سورة الأنعام الآية: ٩١.
(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٣٤).

بالوثن والسحر أي صدق بهما، قال الله سبحانه حكاية عن أولاد يعقوب عليه السلام: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾[(١)].

أي بمصدق، ثم إن الشرع خصص هذا الإسم وقصره على الذي يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاءت به الرسل عليهم السلام، فاشتهر هذا الإسم حتى إذا قيل مؤمن: لا يعقل منه إلا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاءت به، فمن لم يؤمن بهذه الأشياء فلا يسمى مؤمناً في الشرع، فالمؤمن إذاً على وجهين لغوي وشرعي.

فاللغوي: بمعنى / المقر. [٢٦٣/أ]

والشرعي: بمعنى الموفي بالدين. ومصداق الأول قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[(٢)]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾[(٣)] الآية.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً﴾[(٤)] الآية. وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾[(٥)]. دخل في هذه الآيات البار والفاجر.

ومصداق الثاني قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾[(٦)] وغيرهم المؤمنون باطلاً.

وقوله: ﴿إِنَّما ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إلى فوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾[(٧)] (ومن السنة قوله عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[(٨)].

وقوله: «ليس المؤمن من بات شبعاناً وجاره جائع»، وقوله: «المؤمن من أَمِنَ الناس من لسانه ويده» في أمثالها.

---

(١) سورة يوسف الآية: ١٧.
(٢) سورة الإسراء الآية: ١٩.
(٣) سورة الأحزاب الآية: ٣٦.
(٤) سورة النساء الآية: ٩٣.
(٥) سورة الأنبياء الآية: ٩٤.
(٦) سورة الأنفال الآيتان: ٢، ٤.
(٧) سورة الحجرات الآية: ١٥.
(٨) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١١٩/١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

فاختلف الناس في هذا فقالت طائفة: يسمى صاحب الكبيرة مؤمناً بالإيمان الذي صدر منه وإن لم يكن معه غيره وهم المرجئة. وقال قوم: يسمى مؤمناً مقصراً والموفى يسمى مؤمناً كامل الإيمان وهم الأشعرية. وقال قوم: يسمى مؤمناً فاسقاً، وهم المعتزلة. وقال أصحابنا: ومن وافقهم لا يجوز أن يسمى مؤمناً إلاّ الموفى بالدين قولاً وعملاً واعتقاداً.

وأما المنافق المضيّع يقال له: آمن، ولا يقال له مؤمن، قالوا: لأن المؤمن اسم البدن وهو اسم مدح لا يسمى به إلاّ الولي الموفى، وآمن أي: أقر، جائز أن يقال للمضيع آمن [٢٦٤/ب] أي: أقر لأن الله تعالى يقول: ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾[(١)] الآية.

واحتج الأولون بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[(٢)] الآية. فسماهم مؤمنين وهم بغاة والاحتجاج في هذا يطول ليس هذا الكتاب موضوعاً لذلك، وبالله التوفيق.

فصــــل

اعلم أن للإيمان ثلاث مقامات:

أحدها: انطواء القلوب، وضمير النفوس على اعتقاد التوحيد لغة وشرعاً.

أما اللغة فقد قدمنا ذكرها، وأما الشرع فكقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[(٣)].

في أمثالها: وسئل النبي عليه السلام عن الإيمان فقال: «إن الإيمان هاهنا». وأشار إلى صدره وقال عليه السلام: «الإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواس على قرارها».

ومن طريق جابر بن يزيد عنه عليه السلام أنه قال: «الإيمان قيد الفتك لا يفتك مؤمن».

وعن ضمام رحمه الله أن النبي عليه السلام قال لعمار بن ياسر رحمه الله: «الإيمان أحلى من العسل لا يدخل قلب مؤمن ثم يخرج منه».

في أمثالها من الأحاديث وجميع ما حكى الله تعالى في كتابه من ذم المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم دليل على أن الإيمان لا بد فيه من اعتقاد القلوب حين ذمهم، إذ لم يعتقدوه في قلوبهم.

---

(١) سورة النساء الآية: ١٣٧.
(٢) سورة الحجرات الآية: ٩.
(٣) سورة النحل الآية: ١٠٦.

المقامة الثانية: الإقرار باللسان نطقاً والإعراب عن الضمير وفقاً وقبله صدقاً وهذا دون الأول لأن /الأول يجزىء عن هذه العلل، ولا يجزي هذا عن ذلك على حال لغة أيضاً [٢٦٥/أ] وشرعاً.

أما اللغة فلأن نطق اللسان وإقراره عبارة عن التصديق الذي حصل في القلب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾. أي أقروا، وقوله عليه السلام: «ما آمن من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه».

وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[1] الآية. وجميع ما قدمنا من ذم الله تعالى المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم دليل على أن الإيمان فيهما جميعاً بإثبات الله إياه في الأفواه وذمهم، إذ لم يكتسبوه بالقلوب، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[2] الآية. والاتفاق واقع على هذا وإنما الكلام في الأعمال على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

المقامة الثالثة: من الإيمان هو العمل بالأركان وتحقيقه بالأفعال شرعاً وسمعاً.

أما الشرع فقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[3]. أي صلاتكم إلى بيت المقدس في قول أهل التفسير، ولإتفاق الجميع أن الشرع طارىء على اللغة، وأن الشرع قد ورد في أشياء نقل لسان العرب إليها، فانتقل من ذلك اسم المنافق، كان في اليربوع فانتقل إلى من أنسل من الإسلام من حيث لم يدخل فيه.

والوضوء في اللغة: الوضاءة والنظافة في الجوارح فزاد الشرع المسح.

والصلاة: الدعاء، فزاد الشرع الركوع والسجود، والغائط في اللغة: المطمئن من الأرض، فانتقل الإسم إلى النجس الذي يوضع فيه، فغلبت الشريعة /اللسان، ولهذا قال [٢٦٦/أ] تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم كما قدمنا.

وأما السنة فكقول النبي عليه السلام: «الإيمان مائة جزء أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».

وقال عليه السلام: «الحياء شعبة من الإيمان». وقال: «الصبر والسماحة من الإيمان،

(١) سورة المائدة الآية: ٤١.
(٢) سورة الحجرات الآية: ١٤.
(٣) سورة البقرة الآية: ١٤٣.

والبذاذة من الإيمان». وقال: «حسن العهد من الإيمان». وقال: «الصبر نصف الإيمان، والوضوء نصف الصبر» في أمثالها وهذه الأخبار عنه عليه السلام دالة على أن الأعمال من الإيمان لما قدمنا من أحكام الشرع ونقله الأسماء عن مواضعها، وبالله التوفيق.

فإن قال قائل: فما الحكم فيمن انعرى من هذه المقامات الثلاث. قلنا: قول الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[(١)]. وإن كان في قلبه وانعرى منه لسانه، فهو من الذين قال الله فيهم من قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً فانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[(٢)]. وإن كان في القلب واللسان وانعرى منه العمل فهم من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[(٣)]. فهذا من الكاذبين، والأوسط من المفسدين، والثالث من الخاسرين.

فصل في درجات الإيمان

اعلم أن الإيمان في اللغة: التصديق كما قدمنا، ولكنه يتفاضل المؤمنون في الإيمان على قدر ترقيهم فيه، وينحصر ذلك في خمس درجات:

إحداها: درجة الإيمان:

[٢٦٧/ب] وهو المعنى / الذي كلف الله تعالى عباده المؤمنين، ثم رضيه منهم وذلك قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾[(٤)] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[(٥)].

وهذه إشارة إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقوله: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في أمثالها.

وبهذا الإيمان رضي الله عز وجل عن خليله إبراهيم عليه السلام حين سأله فقال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[(٦)].

---

(١) سورة النحل الآية: ١٠٨.
(٢) سورة النمل الآية: ١٤.
(٣) سورة العنكبوت الآيتان: ١، ٣.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٨٥.
(٥) سورة البقرة الآية: ٢٥٦.
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٦٠.

وذلك حين أراد عليه السلام الترقي في درجات الإيمان إلى أعلاه ولم يقتصر في الشرع على مبدأه فطلب مشاهدة إحياء الموتى معاينة، والذي رضي الله عز وجل به أولاً الظاهر من قوله: ﴿بَلَىٰ﴾.

وهو الإيمان الذي أشار إليه رسول الله ﷺ حيث قال: «عليكم بإيمان العجائز، وإيمان الأعرابي»[١]. وهذا الإيمان هو تصديق عامة المسلمين واعتقادهم، وذلك بمنزلة العقدة على القلب من غير كشف ولا انشراح يشتد ويقوى تارة ويضعف ويسترخي تارة، كالعقدة على الخيط مثلاً.

وهذا موجود في اعتقاد المؤمنين، والعمل يؤثر في نماء هذا الاعتقاد وزيادته، كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار علواً وفي رسوخ أصولها سفلاً ولذلك قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[٣].

وقد روي في بعض آثار أصحابنا قال: معنى هذه الزيادة أنهم أقروا بجملة الدين ثم أوفوا بها عند التفسير فزادهم الله إيماناً وتصديقاً ويقيناً فدّل هذا على أن الإيمان / يزداد بالطاعة [٢٦٨/أ] وينقص بالمعاصي؛ لأن الإيمان مائة خصلة أعلاها التوحيد وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

وفي بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الإيمان يزيد وينقص»[٤]. وذلك بتأثير الطاعات في القلب. ولهذا قال علي بن أبي طالب: إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب، فإذا عمل العبد الصالحات نمت وزادت حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء،

---

(١) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣/٧٥): حديث عليكم بدين العجائز، قال ابن طاهر في كتاب التذكرة: هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمن بن السلماني عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إذا كان في آخر الزمان واختلفت الأهواء فعليكم بدين أهل البادين والنساء». وابن السلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخه كان يتهم بوضعها. انتهى. وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلماني. والله أعلم.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٧٣.

(٣) سورة الفتح الآية: ٤.

(٤) قال العراقي في المغني (١/١٢٠): رواه ابن عدي في الكامل، وأبو الشيخ في الثواب من حديث أبي هريرة، وقال ابن عدي: باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحي يتعمد الكذب، وهو عند ابن ماجه (٧٤، ٧٥) موقوف على أبي هريرة، وابن عباس، وأبي الدرداء.

فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك الختم وتلى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

الثانية درجة الظن: فإذا تحقق العبد الإيمان ورسى في قلبه، انتقل إلى درجة أقوى مما هو فيه وهي الظن الذي مدح الله به المؤمنين حيث قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾(٣). وهذا الظن درجة في الإيمان أعلى من أوائله، ولذلك مدح الله تعالى به المؤمنين، وذلك أن الظن في لغة العرب على وجهين:

أحدهما: بمعنى الشك كقوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾(٤).

والثاني: معنى يقرب إلى اليقين، وهو ما قدمناه أولاً قال الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بالفي مدجج سراتهم بالفارسي المسرد

ظنوا أي تيقنوا وهذا هو الظن الممدوح به المؤمنون قال: وذلك إن سكنت نفسه إلى وجود الباري سبحانه، ووقع في قلبه الإيمان به، انتفى عنه الجهل وأعتوره الشك والظن، وهما طريقان: أحدهما يمنة، والآخر يسرة.

[٢٦٩/ب] فالشك / تردد وتوقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر نحو طريق الجهل والعلم، فالظن ترجيح أحد الجانبين، فمهما ترجح جانب الظن إلى جانب العلم كان ظناً محموداً؛ لأنه جاوز حدَّ الجهلِ والشكِ إلى الإيمان، فحقيقة الظن ميلان النفس إلى تحقيق ما اعتقده المؤمن وآمن به.

الثالثة درجة العلم: وذلك أن الظن يؤل إلى العلم؛ لأن جلَّ أحكام الشريعة إنما بنيت على غلبيات الظنون، فإذا قوي الظن صار علماً، وهو أن يلوح المعنى الذي اعتقده القلب فتطمئن إليه النفس، وربما يعضده الدليل فيتضح به السبيل.

وهذا العلم نور يقذف في قلب المؤمن فيتسع القلب به وينشرح قال الله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ

---

(١) سورة المطففين الآية: ١٤.
(٢) سورة البقرة الآية: ٤٦.
(٣) سورة التوبة الآية: ١١٨.
(٤) سورة الجاثية الآية: ٣٢.

جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[١].

وقال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ﴾[٢] الآية.

وروي أن رسول الله ﷺ تلى قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾[٣] الآية.

فقيل: ما هذا الشرح؟ فقال عليه السلام: «أن النور إذا قذف في القلب انشرح له القلب وانفسح» قيل: فهل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[٤].

فالعلم درجة في القلب أعلى من درجة الإيمان، ولذلك فرق الله تعالى بين درجة الإيمان ودرجة العلم فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٥]. فلحن الخطاب يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة، والذين أوتوا العلم درجات.

/ وروي عن ابن عباس أنه قال: للعلماء درجات فوق المؤمنين درجة، ما بين الدرجتين [٢٧٠/أ] مسيرة خمسمائة عام، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلإِيمَانَ﴾[٦] الآية. فإن ازداد العلم صار يقيناً.

الرابعة درجة اليقين: قال الله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَبِٱلآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٧].

قال: ﴿وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾[٨].

وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلأَرْضِ آيَات لِلْمُوقِنِينَ﴾[٩].

وقال تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾[١٠].

---

(١) سورة الشورى الآية: ٥٢.
(٢) سورة الأنعام الآية: ١٢٢.
(٣) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.
(٤) قال العراقي في المغني (١/٧٦): رواه الحاكم، والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود.
(٥) سورة المجادلة الآية: ١١.
(٦) سورة الروم الآية: ٥٦.
(٧) سورة البقرة الآية: ٤.
(٨) سورة الروم الآية: ٦٠.
(٩) سورة الذاريات الآية: ٢٠.
(١٠) سورة التكاثر الآية: ٥.

ومعنى اليقين إزاحة الشك وهو علم راسخ في القلب زايلته الشكوك وفارقه الاضطراب، واستحكم في النفس حتى كاد أن يكون عن مشاهدة.

فلهذا قال نبينا عليه السلام: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر».

وقال لابن عباس: «اعمل على الرضا واليقين وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير».
وعنه عليه السلام أنه قال: «لا ترضين أحداً بسخط الله، ولا تحمدن أحداً على فضل الله، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهية كاره، فإن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والفرج في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»[1].

وقال بعض العلماء: إن أقل اليقين إذا وصل إلى القلب يملأ قلبه نوراً، وينفي عنه كل ريب، ويملأ القلب شكراً، ومن الله خوفاً.

وقال بعض السلف: التوحيد نور والشرك نار، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين، وأراد به اليقين.

[٢٧١/ب] وقد أشار القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دلّ به على أن / اليقين هو الرابط للخيرات والسعادات وأنه أعظم ما يعطى للعبد من الهبات.

وقال بعض العلماء: أول المقامات المعرفة، ثم اليقين، ثم التصديق، ثم الإخلاص، ثم المشاهدة، ثم الطاعة.

والإيمان اسم لجميع هذا كله، أشار هذا القائل إلى أن أول الواجبات هو المعرفة بالله سبحانه.

وقال بعضهم: حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله.
ويحكى عن ذي النون المصري[2] أنه قال: اليقين داع يدعو إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في العواقب.

وقال بعض العلماء: ثلاث من أعلام اليقين: النظر إلى الله في كل شيء، والرجوع إلى الله في كل أمر، والاستعانة به في كل حال.

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعب الإيمان، وأبو نعيم في الحلية كلهم عن ابن مسعود، والمتقي الهندي في كنز العمال برقم (٥٩٦١).
(٢) سبق التعريف به والترجمة له.

واختلف في معنى اليقين فقال بعضهم: اليقين علم مستودع في القلب، يشير هذا القائل إلى أنه غير مكتسب. وقال آخرون: اليقين تحقيق الأسرار بحكم المغيبات. وقال قوم: العلم التعلم بمعارضة الشكوك، واليقين لا شك فيه، وأشار إلى العلم الكسبي. وقيل: هو استقرار العلم الذي لا يتحول ولا يتقلب ولا يتغير في القلب. وقال بعضهم: اليقين هو المكاشفة، وقيل: اليقين رؤية العيان بقوة الإيمان، والله أعلم.

فصـــل

ومن كتاب أحمد بن بكر قال: ومنازل العباد إلى الله تعالى على قدر تفاضلهم في اليقين وسواء في ذلك الملائكة والنبيون والمرسلون على قدر يقينهم، فالملائكة أعظم يقيناً من الأنبياء والرسل، وكذلك الأنبياء والرسل أعظم يقيناً من غيرهم من المسلمين، وأصل اليقين / العلم [٢٧٢/أ] والابلاغ فيه أن الأمور كلها من عند الله.

وقد يتفاضل الناس في الدوام عليه، وقلة السهو على قدر تفاضلهم، واليقين يصيب المسلم وغير المسلم، ولكن لا يستحق به الثواب إلّا المسلم الموفي بدينه، وأما غير المسلم فلا يستحق به الثواب في الآخرة، ويستجاب الدعاء باليقين للناس كلهم المؤمن وغيره، ولكن غير المؤمن لا يستجاب له إلا دعاء الدنيا خاصة.

ومن كثرة اليقين تكون البراهين والعلامات ولكن ليس في ذلك ما يستوثق به لأمر الآخرة، ولكن يزيد بذلك الرغبة والاجتهاد.

وفي كتاب المحاسبي قال: وقالت طائفة من العلماء: اليقين استقرار معرفة العارفين، وقالت طائفة: اليقين هو التصديق.

وروى مثله عن النبي عليه السلام قال: «واليقين يزيد بزيادة الإيمان وينتقص بنقصانه». قال: ويتزايد الناس في اليقين بلزوم القلب، المعرفة التي يتولد منها اليقين.

وقد قيل يا رسول الله بلغنا أن عيسى عليه السلام كان يمشي على الماء، قال: «ولو ازداد يقيناً لمشى على الهواء».

وأما الذي يضعف اليقين فالدخول فيما لا يعني، واستعمال أعمال أهل الريب والشهرة في الخلق بالملبس والمذهب والحلية وذلك بأن يدخل في بعض الأحوال مثل اللباس الشنيع، ويشتهر ويشتغل قلبه، فعلى قدر شغل القلب به يضعف اليقين لعلة اشتغال القلب وإشارة الأصابع وكفى به شغلاً.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه: كان له خميصة يصلي فيها فبعث بها إلى أبي جهم [٢٧٣/ب] فقيل له في ذلك، فقال: «الهتني / أعلامها في الصلاة».

فمثل ذلك وشبهه يضعف اليقين. وقد روي عنه عليه السلام أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتي ضعف اليقين». والله أعلم.

فصل في تحقيق معنى اليقين

ومن كتاب الغزالي قال[(١)]: فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين. قال: أما النظار المتكلمون فيعنون به عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقامات:

الأولى: أن يعتدل التصديق والتكذيب، ويعبر عنه بالشك، كما إذا سئلت عن شخص معين أن الله تعالى يعاقبه أم لا؟ وهو مجهول الحال عندك، فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفي، بل يستوي عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكاً.

الثانية: أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه، ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب، وذلك لظهور علامات الصلاح، ومع هذا فأنت تجوّز إنتفاء أمر موجب للعقاب في باطنه وسريرته، فهذا التجوّز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه. قال: فهذه الحالة تسمى ظناً.

الثالثة: أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها، ولا يخطر بالبال نقيضه، ولو خطر بالبال لأبت النفس عن قبوله، ولكن ليس ذلك مع معرفة تحققه إذ لو اختبر صاحب [٢٧٤/ب] هذا المقام بالتأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز لاتسعت / نفسه للتجويز وهذا يسمى اعتقاد العوام في الشرعيات كلها، إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع، حتى أن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها، ولو ذكر لها إمكان خطأ إمامها لنفرت عنه.

الرابعة: المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان، الذي لا شك فيه ولا يتصور التشكيك فيه، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه سمى ذلك يقيناً.

ومثاله إذا قيل للعاقل هل في الوجود شيء قديم فلا يمكنه التصديق به بالبديهة، لأن

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٧٢).

القديم غير محسوس إلا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحس، وليس العلم بوجود شيء قديم أيضاً ضرورياً مثل: العلم بأن الأثنين أكثر من الواحد، ولكن ذلك مثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، فإن هذا أيضاً ضروري فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الاعتدال والبديهة. ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقاً جزماً ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام، ومن الناس من يصدق به بالبرهان، وهو أن يقال له: إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة، فإن كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب وذلك محال فالمؤدي إلى المحال محال. فيلزم في العقل التصديق بشيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة:

إما أن تكون الموجودات كلها قديمة، أو كلها حادثة، أو بعضها قديماً وبعضها حادثة. فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم.

وإن / كان الكل حادثاً فهو محال؛ إذ يؤدي إلى حدوث بغير سبب، فثبت القسم الثالث [٢٧٥ أو الأول، فكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه، أو حصل بحس، أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب، أو بتواتر كالعلم بوجود مكة، أو بتجربة كالعلم بأن المطبوخ مسهل، أو بدليل كما ذكرنا.

فشرط إطلاق الاسم عندهم عدم الشك فكل علم لا يشك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء، فعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشك.

الاصطلاح الثاني: للفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء، وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك، بل إلى استيلائه وغلبته على القلب، حتى يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه. ويقال: فلان قوي اليقين في إثبات الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه.

فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتحريض والمنع سمي ذلك يقيناً.

ولا شك في أن الناس مشتركون في القطع بالموت والإنفكاك عن الشك فيه، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له، وكأنه غير مؤمن به، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق همه بالاستعداد له، ولم يغادر فيه متسعاً لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين. ولذلك قال بعضهم: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت.

وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالقوة والضعف، فمن شأن علماء الآخرة صرف

[٢٧٦/ب]/العناية إلى تقوية اليقين من كلا الوجهين وهما: نفي الشك ثم تسليطه على النفس، حتى يكون هو الغالب المتحكم وهو المتصرف، وإذا فهمت هذا علمت المراد من قولنا: إن اليقين ينقسم انقسامات بالقوة والضعف، والقلة والكثرة، والخفاء والجلاء.

أما بالقوة والضعف: فعلى الاصطلاح الثاني، وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب، ودرجات اليقين في القوة والضعف لا تتناهى، وتفاوت الخلق في استعدادهم للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني.

وأما التفاوت بالخفاء والجلاء فلا ينكر أيضاً، أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر عن الاصطلاح الثاني، وفيما انتفى عنه الشك أيضاً لا سبيل إلى إنكاره، فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فلك مثلاً، وبين تصديقك بوجود موسى عليه السلام ووجود يوشع عليه السلام. مع أنه لا تشك في الأمرين جميعاً إذ مستندهما التواتر.

ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح في قلبك من الثاني؛ لأن السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين.

وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعلومة بالأدلة فإنه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد كوضوح ما لاح بأدلة كثيرة مع تساويهما في نفي الشك.

وهذا قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال.

وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين كما يقال: فلان أكثر علماً أي معلوماته أكثر. ولذلك قد يكون العالم قوي اليقين في جميع ما ورد الشرع به، وقد يكون قوي اليقين في بعضه.

[٢٧٧/ب] فإن قلت: قد فهمت اليقين وقوته وضعفه، وكثرته /وقلته، وجلاءه وخفائه، بمعنى نفي الشك، وبمعنى الاستيلاء على القلب، فما متعلقات اليقين ومجاريه؟ وفي ماذا يطلب اليقين؟ فإني ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه.

فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء عليهم السلام من أوله إلى آخره هو من مجاري اليقين، فإن اليقين عبارة عن معرفة مجموعة، ومتعلقات المعلومات التي وردت بها الشرائع، فلا مطمع في إحصائها ولكني أشير إلى بعض أمهاتها.

فمن ذلك التوحيد، وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى

الوسائط بل يرى كل واسطة مسخرة لا حكم لها، فالمصدق بهذا مؤمن وإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إنكار الشك فهو موقن بأحد المعنيين.

فإن غلب على قلبه غلبة أزال عنه هيئة الغضب على الوسائط، والرضا منهم، والشكر لهم، ويرى الوسائط في قلبه عند حق المنعم بمنزلة القلم واليد في توقيع الكتابة، فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين وواسطتين فقد صار موقناً بالمعنى الثاني.

وهو الأشراف وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته، ومهما تحقق أن الشمس، والقمر، والنجوم، والجماد، والنبات، والحيوان، وكل مخلوق فهي مسخرات بأمره، حسب تسخير القلم في يد الكاتب وأن القدرة الأزلية هي المصدر للكل، استولى عليه التوكل والرضا والتسليم وصار بريئاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الظن فهذا أحد أبواب اليقين.

ومن ذلك الثقة بضمان الله عز وجل الرزق في قوله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى / ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1]. [٢٧٨/أ]

واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ما قدِّر له سيساق إليه، فمهما غلب ذلك على قلبه كان مجملاً في الطلب، ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على ما يفوته وأثمر هذا اليقين أيضاً عن جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة.

ومن ذلك أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وهو اليقين بالثواب والعقاب، حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع، ونسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك، فكما يحرص على تحصيل الخبز طالب الشبع فيحفظ قليله وكثيره، فكذلك يحرص على الطاعات قليلها وكثيرها، صغيرها وكبيرها.

فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين، وأما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات، والسكنات، والخطرات، والمبالغة في التقوى والاحتراز عن السيئات، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد، والتيسير أبلغ.

ومن ذلك اليقين بأن الله عز وجل مطلع عليك في كل حال، ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خاطرك وفكرك، وهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك.

---

(١) سورة هود الآية: ٦.

وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أعماله كالمجالس لمشهد ملك عظيم نظر إليه، فإنه لا يزال مطرقاً قائماً متمادياً متماسكاً متحرزاً عن كل حركة يخالف هيئة الأدب فيها، ويكون / في فكرته [٢٧٩/ب] الباطنة كهو في أعماله الظاهرة، إذ يتحقق أن الله عز وجل مطلع على سريرته، كما يطلع الخلق على ظاهره، فيكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزينه لعين الله الكائنة أشد من مبالغته في تزيين ظواهره لسائر البشر.

وهذا المقام في اليقين يورث الحياء، والخوف والانكسار، والذل، والاستكانة، والخضوع، وجملة من الأخلاق المحمودة، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة.

واليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة، وهذه الأخلاق في القلب كالأغصان المتفرقة منها، وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار والأنوار المتفرعة من الأغصان، فاليقين هو الأساس والأصل وله مجاري وأبواب أكثر مما عددّناه وهذا الذي ذكرناه في اليقين كافٍ. والله أعلم[١].

الدرجة الخامسة: درجة المعرفة، وذلك إذا قوي يقين العبد ترقى إلى درجة المعرفة، واختلفوا في معناها: فقال بعضهم: المعرفة هي العلم، فكل علم معرفة وكل معرفة علم، وكل عارف بالله عالم به تعالى، وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله في معاملاته، ثم ينتفي عن أخلاقه الدّينة وآفاته، ثم طال بباب الخدمة وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه، فحظى من الله تعالى بجميل إقباله، وصدق الله في جميع أحواله، وانقطع عنه هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبياً، ومن صفات النفس برئياً، ومن المساكنات / والملاحظات نقيّاً وحق في كل [٢٨٠/ب] لحظة إليه رجوعه، وصار من قبل الحق يتعرف أسراره، فيما يجري من تصاريف أقداره، سمي عند ذلك عارفاً، وتسمى حالته معرفة.

وقال بعضهم: من أمارات المعرفة بالله: حصول الهيبة من الله تعالى، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن دعامة البيت أساسه ودعامة الدين المعرفة بالله

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٧٢، ٧٤).

واليقين والعقل القامع». قيل: وما العقل القامع؟ قال: «الكف عن معاصي الله والحرص على طاعة الله».

ومعنى المعرفة بالله سبحانه: أن تعرفه بأياديه الكاملة وصفاته البالغة، وقدرته التامة، وأفعاله الجارية في خلقه من أصناف النعم وضروب النقم. فإذا عرفه عبده بهذه المعرفة لزمت قلبه الرهبة منه والرغبة إليه، وامتلأ قلبه له عظمة وحياء، وتتزايد المعرفة في قلب العارف بحسن التفكر، والاعتبار في إتقان صنع الله الموجودات، وحسن تدبيره في أصناف المخلوقات.

ومعرفة الله تعالى بحر لا يدرك له قعر، ولا يحيط به بشر، وإنما يحوم الخلق على سواحله وأطرافه بقدر ما تيسر لهم من حسن عون الله وألطافه، وما خاض أطراف بحر معرفته إلا الأنبياء، والأولياء، والراسخون من العلماء على اختلاف درجاتهم، بحسب اختلاف قواهم، وتفاوت تقدير الله تعالى في حقهم.

وهذه المعرفة إذا قويت في قلب العارف، واستحكمت لاح له من ربه اللطف الخفي، والصنع الحفيّ، والنور الجليّ، واستولى على قلبه حب ربه، واستأنس بذكره في الخلوات، ووثق بإسعافه في المهمات / وغلب نور قلبه على نور بصره، فأبصر الدنيا خيالاً، والآخرة [٢٨١/أ] مثالاً، وتعرف مع ذلك المريد من ربه في المواطن، وكان له ومعه في جميع الأماكن، حتى كأنه يناجيه عند همه، ويناغيه عند غمه، وفي هذه الصفة الحديث الطويل الذي رواه أبو هريرة وأسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ حين ذكر أهل الانقطاع إلى الله عز وجل فقال: «لباسهم الخرق، ومسكنهم العلق، تعرفهم بقاع الأرض، إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفقدوا. . .» الحديث. قال الشاعر:

قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرون

وقال آخر:

فلولا الله يحفظ عارفيه ... لهام العارفون بكل واد

وفي المعرفة معنى الفطنة وعلم تقدمه جهل، فلذلك لا يسوغ على الباري سبحانه أن تقول: عارف، بل عالم، فهذه الدرجات الخمس التي ذكرناها رُتَب الأنبياء، والسابقين، والصديقين، والمتقين والصالحين، كل يجاهد على قدر قوته، ويقرب من الله تعالى على قدر معرفته، نسأل الله تعالى أن لا يخيبنا من رحمته التي وسعت كل شيء بمنه، وكرمه. وبالله التوفيق.

فصــل

فأما الإسلام فمعناه في اللغة الخضوع والانقياد، قال الله سبحانه حكاية عن بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقال: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾(١) الآية.

وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَوا إِلَىٰ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾(٢). يعني الاستسلام، وقال تعالى: ﴿قَالَتْ ٱلأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾(٣). أي استسلمنا / فكان الإسلام على هذا [٢٨٢/ب] المعنى عبارة عن التسليم والاستسلام لله تعالى بالإذعان والانقياد وترك التمرد بالإباء والعناد وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٤) الآية.

وقال عليه السلام: «بني الإسلام على خمس. . . . .»(٥) الحديث.

وقوله عليه السلام في سعد أو مسلم وذلك أن سعد بن أبي وقاص نظر إلى رسول الله ﷺ وهو يقسّم الغنائم ويعطي الأقوام، فنظر سعد إلى رجل كان أوثق في نفسه من هؤلاء الذين كان يعطيهم فقال: يا رسول الله: لم لا تعطي فلاناً؟ فلم يكترث به عليه السلام، قال سعد: فأخذني ما قَرُبَ وما بَعُدَ، ثم قمت ثانية فقلت: يا رسول الله ألا تعطي فلاناً فإني لا أراه مؤمناً؟ فالتفت إليّ رسول الله ﷺ في الثانية أو الثالثة فقال: «أو مسلماً». ثم قال: «يا سعد إني والله لأعطي هذا المال أقواماً وأَكِلُ آخرين إلى إيمانهم»(٦).

قال عليه السلام: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه، والمهاجر من هاجر السيئات».

ويروى أنه سئل عن أفضل الأعمال فقال: «الإسلام». فقيل: أي الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان».

واعلم أن الناس قد اختلفوا في الإيمان والإسلام هل هما شيء واحد أو كل واحد منهما غير الآخر؟ وإن كان غيره فهل هو منفصل يوجد دونه أو هو مرتبط به وملازم له؟

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٨٣.
(٢) سورة النحل الآية: ٨٧.
(٣) سورة الحجرات الآية: ١٤.
(٤) سورة آل عمران الآية: ٨٥.
(٥) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ١١٥) أخرجاه من حديث ابن عمر.
(٦) بنحوه ذكره العراقي في المغني (١/ ١١٦) وقال: أخرجاه بنحوه.

قيل: إنهما شيء واحد، وقيل: هما شيئان لا يتواصلان، وقيل: أنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر. فنقول أن هاهنا ثلاث مباحث:

[١/٢٨٣أ]

إحداها: بحث عن موجب / اللفظين في اللغة.

والثاني: بحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع.

والثالث: بحث عن حكميهما في الدنيا والآخرة، فالبحث الأول لغوي والثاني تفسيري، والثالث فقهي شرعي.

البحث الأول: في موجب اللغة، والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[١]. أي بمصدق والإسلام عبارة عن الاستسلام، والانقياد، والتصديق محل خاص وهو القلب واللسان ترجمانه.

وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان، والجوارح فإن كل تصديق بالقلب هو تسليم وترك للإباء، والجحود، وكذلك الاعتراف في اللسان، وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح.

فموجب اللغة أن الإسلام أعمّ والإيمان أخص وكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام، فإذاً كل تصديق تسليم، وليس كل تسليم تصديق[٢].

البحث الثاني: عن إطلاق الشرع والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالها على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل.

أما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣]. ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد.

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[٤].

وقال ﷺ: «بني الإسلام على خمس. . . .» الحديث[٥].

وسئل مرة عن الإيمان فأجاب: «بهذا الخمس»[٦].

---

(١) سورة يوسف (الآية: ١٧).

(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١١٥).

(٣) سورة الذاريات الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٤) سورة يونس الآية: ٨٤.

(٥) قال العراقي في المغني (١/ ١١٥) أخرجاه من حديث ابن عمر.

(٦) قال العراقي في المغني (١/ ١١٥): رواه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وفد عبد قيس: تدون ما الإيمان؟. . . . . والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج، وزاد: وأن تؤتوا =

وأما الاختلاف فقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[1]. ومعناه استسلمنا في الظاهر، وأراد بالإيمان هاهنا تصديق القلب / فقط. [٢٨٤/ب]

وبالإسلام الاستسلام الظاهر باللسان والجوارح. وفي حديث سعد المتقدم: ألا تعطى فلاناً وإني لأراه مؤمناً فقال عليه السلام: «أو مسلماً».

وقوله عليه السلام في حديث جبريل عليه السلام المشهور حين جاءه في صورة أعرابي فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ فقال عليه السلام: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والحساب والقدر خيره وشره إنه من الله». فقال: صدقت فما الإسلام؟ فقال عليه السلام: «شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً والغسل من الجنابة». قال: صدقت الحديث[2]. فذكر عليه السلام الخصال الخمس فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل.

وأما التداخل فما روي عنه عليه السلام أنه سئل فقيل له: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «الإسلام». فقيل له: أي الإسلام أفضل؟ فقال ﷺ: «الإيمان»[3]. رواه الغزالي في كتابه فإن صح فهو دليل على التداخل فهذه الأحاديث دليل على الاختلاف والتداخل، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة.

وأما الدين في اللغة فمعناه في اللغة الطاعة، ويتصرف فيها على وجوه يكون بمعنى الجزاء كقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[4]. أي يوم الجزاء، ويكون بمعنى الحكم، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾[5]. أي في حكمه، ويكون بمعنى الحساب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[6]. أي الحساب المستقيم.

= خمساً من المغنم.

(١) سورة الحجرات الآية: ١٤.

(٢) قال العراقي في المغني (١١٦/١): أخرجاه من حديث أبي هريرة، ومسلم من حديث عمر دون ذكر الحساب، فرواه البيهقي في البعث.

(٣) وفي المصدر السابق قال: رواه أحمد، والطبراني من حديث عمرو بن عبسة بالشطر الأخير، وقال رجل: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان». وإسناده صحيح.

(٤) سورة الفاتحة الآية: ٤.

(٥) سورة يونس الآية: ٧٦.

(٦) سورة التوبة الآية: ٣٦.

ويأتي بمعنى العادة: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾[١]. أي بعبادتكم. والله أعلم.

واعلم أن الدين هو اسم لطاعة الله سبحانه. قال الله تعالى: ﴿أَلَا /لِلَّهِ الدِّينُ [٢٨٥/أ] الْخَالِصُ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿الْقَيِّمَةِ﴾[٤]. أي دين الحنيفية السمحة السهلة.

فإن قال قائل: قد نص رسول الله ﷺ في حديث جبريل عليه السلام: إن الإيمان هو ما يتعلق بالقلب من الاعتقادات.

وبقوله عليه السلام: «ألا إن الإيمان هاهنا». وأشار إلى صدره.

وفيه أيضاً: «فهلا شققت عن قلبه» للذي قتل الصارخ بالإيمان. وأن الإسلام هو ما يتعلق بالجوارح من العبادات ولم يذكر الدين وأنت تتوجب أن الإيمان هو الإسلام، وأن الإسلام هو الإيمان وهما الدين.

فاعلم أن الإيمان أصله التصديق كما ذكرنا، وأن الإسلام أصله الاستسلام والخضوع، وأن الإسلام كله من قبل الاستسلام والخضوع إسلام، والدين من قبل الإيمان تصديق، والإيمان من قبل الدين طاعة وأن الإسلام من قبل الدين طاعة.

والدين من قبل الاستسلام إسلام وكل خصلة من الإيمان فهي إسلام ودين وكل خصلة من الدين إيمان وإسلام، وإلى هذا القول ذهب أصحابنا رحمهم الله وهو الصواب إن شاء الله.

إذ لا يسعك أن تنفي الإيمان عن الصلاة وأخواتها، فإن اتسع لك فلا يسعك أن تنفي الإسلام عن الإيمان الذي هو الاعتقاد فيكون الواحد مؤمناً غير مسلم ومسلماً غير مؤمن قال الله عز وجل: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٥].

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١٦.
(٢) سورة الزمر الآية: ٣.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٩.
(٤) سورة البينة الآية: ٥.
(٥) سورة البينة الآية: ٥.

وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(١).

وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٢) الآية.

[٢٨٦/ب] **البحث الثالث**: عن الحكم الشرعي في الإسلام والإيمان اعلم أن لهما حكمين:

أحدهما: حكم أخروي وحكم دنيوي.

أما الأخروي: فالتخليد في النار أو الإخراج منها واختلفوا على ماذا يترتب هذا الحكم فمن قائل أن الإيمان إقرار باللسان.

ومن قائل إنه معرفة بالقلب دون إقرار باللسان ومن قائل أن الإيمان معرفة وإقرار، ومن قائل بمزيد ثالث وهو العمل بالأركان فالأقوال الثلاثة هو اعتقاد المرجئة في الإيمان على الاختلاف المتقدم، والقول الرابع قول سائر الأمة إن الإيمان قول وعمل واعتقاد فمن جمع هذه الثلاثة ومات عليها فلا خلاف أن مستقره الجنة، فهذه درجة(٣).

الدرجة الثانية: ان يوجد إثنان وبعض الثالث وهو المعرفة، والإقرار وبعض الأعمال، ولكن ارتكب صاحبه كبيرة ومات مصراً عليها.

وقالت المرجئة هو مؤمن لا يعرض على النار، وقالت الأشعرية: هو مؤمن عاص في مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء رحمه.

وقالت المعتزلة: خرج بهذا عن الإيمان، ولم يدخل في الكفر بل اسمه فاسق منزلته بين المنزلتين، وهو مخلد في النار.

وقالت الإباضية ومن وافقها: هو منافق كافر، كفر نعمة لا كفر شرك، وهو مخلد في النار. والاحتجاج في هذا يطول تركته طلباً للاختصار(٤).

فإن قيل: فما حجة المرجئة والمعتزلة؟ قيل: إنهم احتجوا بعمومات القرآن.

أما المرجئة فقالوا: لا يدخل النار، وإن أتى بكل المعاصي لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾(٥).

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٩.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٨٥.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/١١٦، ١١٧) باختصار.

(٤) نحوه في المصدر السابق.

(٥) سورة الجن الآية: ١٣.

ولقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ / وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾(١) الآية. [٢٨٧/أ]

وبقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَكَذَّبْنَا﴾(٢) الآية.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ﴾(٣) عام، قالوا: فينبغي أن يكون المعنى: كلما أُلقي فيها مكذب.

وبقوله: ﴿لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الذي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾(٤).

فهاهنا حصر أن إثبات ونفي، ولقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾(٥).

والإيمان رأس الحسنات في أمثال هذه العمومات، ولا حجة في هذا لهم، فإنه تعالى حيث ذكر الإيمان في هذه الآية أراد به الإيمان مع العمل على ما قدمنا قبل هذا.

ودليل هذا التأويل آيات كثيرة وردت في عقوبة العاصيين كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾(٦).

وتخصيصه بالشرك تحكم بغير دليل، وقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾(٧).

وقوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾(٨). فهذه العمومات في معارضة عموماتهم، ولا بد من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين تركته مخافة التطويل.

وأما المعتزلة فاحتجوا بأن صاحب الكبيرة فاسق عدواً لله، وأنه ليس بكافر، ولا مؤمن. فأظنهم قالوا: لأن المؤمن اسم مدح قال الله سبحانه: ﴿بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضلاً كَبِيراً﴾(٩).

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ﴾(١٠).

---

(١) سورة الحديد الآية: ١٩.
(٢) سورة الملك الآيتان: ٨، ٩.
(٣) سورة الملك الآيتان: ٨، ٩.
(٤) سورة الليل الآيتان: ١٥، ١٦.
(٥) سورة النمل الآية: ٨٩.
(٦) سورة الجن الآية: ٢٣.
(٧) سورة الشورى الآية: ٤٥.
(٨) سورة النمل الآية: ٩٠.
(٩) سورة الأحزاب الآية: ٤٧.
(١٠) سورة السجدة الآية: ١٨.

وقال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(١) الآية.

في أمثالها والحجة عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

[٢٨٨/ب] وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً / فَاسِقِينَ﴾(٣).

وقوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(٤).

ولا يسوغ لأحد أن يجعل قوم نوح وإبليس فساقاً ليسوا بكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(٥).

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾(٦).

فلما كان صاحب الكبيرة عدواً لله علمنا أنه كافر.

والاحتجاج في مثل هذا يطول، وليس هذا الكتاب موضوعاً لذلك، وبالله التوفيق.

وأما الحكم الدنيوي فهو أن يشهد بشهادة الحق بلسانه، ولكنه لم يصدق بقلبه فلا شك في هذا أنه في الآخرة من المشركين مخلدٌ في النار.

وأنه في حكم الدنيا موحد بظاهر حاله، لأن قلبه لا يطلع عليه، وعلينا أن نظن به أنه ما قاله إلا بلسانه ألا وهو مصدق به في قلبه.

وإنما نشك في أمر ثالث: وهو الحكم الدنيوي فيما بينه وبين الله تعالى، وذلك بأن يموت له في هذا الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه، ثم يستفتي فيقول: إني كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت، والميراث الآن في يدي فهل يحل لي فيما بيني وبين الله، أو نكح مسلمة ثم صدق هل يلزمه إعادة النكاح هذا في محل النظر، فيحتمل أن يقال: أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهراً، وباطناً، ويحتمل أن يقال: تناط بالظاهر في حق غيره؛ لأن باطنه غير ظاهر لغيره، وهو ظاهر له في نفسه بينه وبين الله.

---

(١) سورة الحجرات الآية: ٧.
(٢) سورة التوبة الآية: ٦٧.
(٣) سورة الذاريات الآية: ٤٦.
(٤) سورة الكهف الآية: ٥٠.
(٥) سورة آل عمران الآية: ١٣١.
(٦) سورة البقرة الآية: ٩٨.

والأظهر والعلم عند الله تعالى أن يقال: أنه لا يحل له الميراث ويلزمه إعادة النكاح، ولذلك كان حذيفة رضي الله عنه لا يحضر / جنازة من يموت من المنافقين، وعمر رضي الله [٢٨٩/أ] عنه فيما بلغنا كان يراعي ذلك فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة.

والصلاة فعل ظاهر في الدنيا، وإن كانت من العبادات، والتوقي عن الحرام أيضاً في جملة ما يجب لله تعالى كالصلاة، وليس هذا مناقضاً لقولنا: إن الإرث حكم الإسلام، وهو الاستسلام بل الاستسلام التام ما يشمل الظاهر والباطن فهذا مبحث فقهي، ومبني على ظاهر اللفظ والعموم، فلا ينبغي أن يظن القاصر في العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث ورد في فن الكلام الذي يطلب فيه القطع فما أفلح من نظر إلى ظاهر العلوم، وبالله التوفيق[١].

فصل في معنى الكفر والنفاق والشرك

أما الكفر فهو في أصل اللغة الستر والتغطية، قال لبيد:

يعلـو طـريقـة متنهـا متـواتـراً فـي ليلـة كفـر النجـوم غمـامهـا

وأصل الكفر في مفهوم كلام العرب جحود المنعم نعمته، والكفر إذاً على وجهين: أوله كفر المنعم، والثاني كفر النعمة.

فأما كفران المنعم: فالذي جهل ربه أو تجاهل أو استجهل، أما من جهل ربه فالذي لا يعرفه ولا يثبته كالدهرية، والثنوية وجميع الملل غير ملة الإسلام. دليله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ. . . .﴾[٢] الآية.

فأما المتجاهل فالذي قصر عن بعض ما لا تصح المعرفة إلا به إثباتاً أو نفياً، كمن لا يعرف ما لا يسعه جهله من ذلك دليله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[٣] الآية.

وأما المستجهل: فالمتعرض لأوصاف بارئه تعالى بما لا يليق به دليله: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[٤] الآية.

/ **والثاني**: كفران النعمة بالفعل والمقال فهذا الكفر كفر من جهة اللغة ومن جهة [٢٩٠/أ] الشريعة.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/١١٧، ١١٨).
(٢) سورة الفرقان الآية: ٦٠.
(٣) سورة النمل الآية: ١٤.
(٤) سورة الزمر الآية: ٦٧.

وقد اجتمعت الأمة على الكافر الأصلي وهو المشرك، واختلفوا في كفر النعمة فنفاه قوم وهم القدرية، والمرجئة وسائر الأشعرية وأثبته سائر الأمة من الإباضية والصفرية والشيعة.

والكفر المعهود عند العرب كفران النعمة وورد في الشرع مصداقه قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾[2]. أي ترك الحج، وقوله عليه السلام حين سئل عن الحج أواجب في كل عام؟ فغضب فقال: «والذي نفسي بيده لو قلت: نعم لوجبت ولو وجبت لم تفعلوا، ولو لم تفعلوا إذاً لكفرتم».

وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[3].

وقال عليه السلام: «سباب المؤمن فسق وقتله كفر». وقال عليه السلام: «إن انتفى الرجل من أبيه كفر، ومن ترك الصلاة كفر».

في أمثالها من الأحاديث فمن صادم هذه الآثار، فليحاسب نفسه وليراقب ربه.

وأما النفاق فأصله في لغة العرب مأخوذ من نافقاء اليربوع، وهو أحد أبواب جحره يستعمله مستخفياً يخرج منه عند الضرورة إذا خاف فأخفاه عن العيون وهو اسم شرعي فسّره أهل العلم.

فقالوا: إنه اختلاف في السريرة والعلانية، واختلاف القول والعمل والمدخل والمخرج. وهذه المقالة تروى عن الحسن البصري ومعناها عن حذيفة بن اليماني رضي الله عنه وهو قول جل الصحابة رضي الله عنهم وقد / ذكر الله عز وجل المنافقين في آي كثيرة من كتابه فاختلف الناس فيهم. [٢٩١/ب]

فقال قوم: هم مشركون خالف قولهم اعتقادهم، وقال آخرون: بل خالف فعلهم قولهم.

والأصل في هذا قول الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾[4] الآية. وذلك أن

---

(١) سورة النمل الآية: ٤٠.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٩٧.
(٣) سورة إبراهيم الآية: ٧.
(٤) سورة النساء الآية: ٨٨.

أصحاب رسول الله عليه السلام اختلفوا فيمن خُلِّفوا بمكة ممن آمن وصدّق برسول الله ﷺ فقال بعضهم: القوم على حقيقة ما أنتم عليه وهم إخواننا، وإنما ثقل عليهم أمر الهجرة، والخروج من الوطن فهم مسلمون مؤمنون.

وقال آخرون: بل هم مشركون لتخلفهم عن الهجرة ولقعودهم بين ظهراني قوم مشركين فأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية، معاتبة للمؤمنين في اختلافهم ورداً على الفريقين فسماهم بخلاف ما سموهم به، إذ سماهم البعض مؤمنين، والبعض مشركين، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوٓا﴾(١).

فأخبر أنهم ليسوا بمشركين ولا بمؤمنين لكنهم منافقون، وأخبر أنه أركسهم بما كسبوا رداً على من سماهم مؤمنين، وسماهم تعالى منافقين رداً على من سماهم مشركين، ثم قال عتاباً للمؤمنين: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾(٢) الآية.

فوقع العتاب هاهنا على من سماهم مؤمنين ثم قال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾(٣). فإن مودتهم أن يترك المؤمنون الهجرة كما تركوها هم، فيكفرون كما كفروا ثم قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٤) فقد انقطعت الولاية بين المؤمنين والكفار حتى يهاجروا في سبيل الله ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾(٥) / الآية. [٢٩٢/أ]

فصحَّ أنهم قبل التولي لم يصدر منهم فعل يكونون به منافقين إلا ترك الهجرة فإن وقع التولي وهو الارتداد كان لهم حكم آخر وهو القتل، فمن أثبت النفاق في الأفعال لمخالفتها الأقوال فهو أقرب إلى الحجة والمحجة إن شاء الله؛ لأنهم استدلوا بظاهر هذه الآية، وقضوا بأن النفاق في الأفعال.

واستدل من شركهم بقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾(٦) الآية.

---

(١) سورة النساء الآيتان: ٨٨، ٨٩.
(٢) سورة النساء الآيتان: ٨٨، ٨٩.
(٣) سورة النساء الآيتان: ٨٨، ٨٩.
(٤) سورة النساء الآية: ٨٩.
(٥) سورة النساء الآية: ٨٩.
(٦) سورة التوبة الآيتان: ٧٥، ٧٧.

قالوا: فلما أخبر عن الوعد باللسان وعقب النفاق في القلب، علمنا إنما سلبهم الإيمان الذي يكون في القلب عقوبة لهم، ولن يستقيم الإيمان والنفاق في قلب واحد. وقال آخرون: قد يصح ذلك، ويقاوم إيمان القلب، فإن هذا النفاق دغل وغش في قلوبهم إلى المؤمنين.

والذين قضوا بأن النفاق في الضمير تعسفوا لأنهم لا يصلون إلى الاعتقادات إلا بنصوص الشارع، والذين قضوا بهذا قد أبعدوا عن أنفسهم أسباب الشره؛ لأنهم هونوا قاعدة الخوف وسهلوا الطريق إلى الجنة.

والذين قالوا أنه في الأفعال: عظموا أسباب المخاوف فهم أحزم وهو الصحيح إن شاء الله، ولا يستحيل تصرفه في الوجهين جميعاً والاحتجاج في هذا يطول ـ تركته طلباً للاختصار ـ.

وقد استفاض الحديث بذكر النفاق في الأقوال والأفعال كقوله عليه السلام: «أربع من كن فيه فهو منافق حقاً، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم: من إذا حدّث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»[1].

وهو حديث صحيح عند الفريقين، وقال عليه السلام: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها»[2].

[٢/ب] وفي /حديث حذيفة رضي الله عنه أنه قال: كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات. وقيل له: المنافقون اليوم أكثر إذ كان على عهد رسول الله ﷺ فقال: لأنهم كانوا يخفونه واليوم يظهرونه[3].

وقال أيضاً: إنما كان النفاق على عهد رسول الله ﷺ، أما اليوم فقد كفروا كفراً مبيناً. وقيل للحسن: يقولون لا نفاق اليوم. فقال: يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق، وقال هو أو غيره فيما بلغنا لو نبت للمنافقين أذناباً ما قدرنا أن نطأ الأرض. قال:

---

(١) بنحوه ذكره العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ١٢٢) وقال: متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) وفي المصدر السابق أيضاً: رواه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر.

(٣) وفي المرجع السابق أيضاً قال العراقي: رواه أحمد بإسناد فيه جهالة وحديث حذيفة: المنافقيون اليوم أكثر منهم على عهد. . . . الحديث في البخاري إلاّ أنه قال: «شر» بدل: «أكثر».

وسمع ابن عمر رجلاً يتعرض للحجاج فقال: أرأيت لو كان حاضراً كنت تتكلم به؟ قال: لا. قال ابن عمر: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[١].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان ذا لسانين ووجهين في الدنيا، جعل الله له لسانين ووجهين في النار». وقال: «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه».

وحكى الغزالي في كتابه[٢] أن ابن مليكة قال: أدركت ثلاثين ومائة من أصحاب النبي عليه السلام كلهم يخافون النفاق.

وفي كتابه[٣] قال: قال رسول الله عليه السلام في دعائه: «اللهم إني استغفرك لما علمت وما لم أعلم». فقيل له: أتخاف يا رسول الله فقال: «وما يؤمنني والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[٤].

وأراد بالأصابع القدرة، وفي حديث أبي سعيد الخدري أنه قال: «القلوب أربعة: / قلب [٢٩٤/أ] أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كالبقلة يمدها الماء العذب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد، فأي المدتين غلب حكم له بها»[٥]. قال الغزالي: وفي لفظ آخر: «ذهب به».

ولمّا روى الغزالي في كتابه هذه الأحاديث في النفاق ولم يمكنه ردها اضطر فقال: النفاق نفاقان: أحدهما يخرج من الدين ويلحق بالكافرين، ويسلك في زمرة المخلدين. قال: والثاني يفضي بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين[٦]. قال: وأصل هذا النفاق تفاوت السر والعلانية، والأمن من مكر الله، والعُجب وأمور أخرى لا يخلو عنها إلا الصديقون[٧].

---

(١) وقال في المصدر السابق أيضاً (١/ ١٢٣): رواه أحمد والطبراني بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج.
(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٢٣).
(٣) إحياء علوم الدين (١/ ١٢٣).
(٤) قال العراقي في المغني (١/ ١٢٣) رواه مسلم من حديث عائشة: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل» ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل «وشر ما أعلم وشر ما لا أعلم».
(٥) في المصدر السابق (١/ ١٢٢): رواه أحمد من حديث أبي سعيد وفيه: ليث بن أبي سليم مختلف فيه.
(٦) ما قاله الغزالي هو ما عليه أهل هذا الدين والعلماء المخلصين المتقنين، وما خاله إلاّ خاطىء جانبه الصواب وخانه التأويل أو فاته الدليل.
(٧) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٢٣).

وقد روي عن جابر بن زيد وغيره في النفاق وكفر النعمة أحاديث وآثار كثيرة تركت ذكرها إذ لا يمكن الاستدلال على الخصم إلا بما يقربه وبالله التوفيق.

وإنما هربوا من أن يجعلوا في الكبيرة كفراً[(١)] ونفاقاً جنوحاً إلى الراحة، ومن قضى في ذلك بالوعيد أذهب الطمع في البيد. والله أعلم.

وأما الشرك: فمعناه في اللغة التساوي كما قدمنا قال الله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[(٢)]. وهو يتصرف على وجوه كثيرة منها: أن يقيم غير البارىء سبحانه في مقام البارىء تعالى في العبادات والتسمية بالألوهية: كأهل الأوثان.

[٢٩٥/ب] ومنها أن ينكر وجود الله تعالى، ومنها أن يجعل له شريكاً في خلقه مما لا يتوهم / للغير فيه شركة ولا صنع: كمن نسب جسماً من الأجسام إلى غير الله تعالى خلقاً.

ومنها أن يصفه بما يخرجه من معنى الألوهية، وتكذيبه في كلامه، وتكذيب رسله وجهله البعث والمعاد وغير ذلك مما لا يسع جهله.

ومنها الشركة في الأفعال وذلك بأن يتقرب العبد إلى غير الله عز وجل رياء وسمعة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾[(٣)] الآية.

ومنها شرك الإكراه ولكن لا يعاقب العبد عليه، لأنه قد أبيح له النطق به في حالة الإكراه بشرط طمأنينة الإيمان في القلب.

ومنها الشرك المركب في قلوب العباد من الجزع والهلع وقلة الثقة بموعود الله عز وجل وثقتهم بأنفسهم وقواهم وحيلهم حتى أنهم ليثقون بكلابهم.

ولذلك قال ابن عباس: لا تزالون تشركون تقولون: لولا كلابنا لسرقنا، ومن هذا المعنى أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[(٤)].

قيل: كانوا يقولون: لولا استواء الريح لهلكنا. وبالجملة إن الشرك يلحق العبد في أقل

---

(١) قلت: ليس كل كبيرة كفراً إلا أن تكون مخلة بكلمة الإخلاص (لا إله إلا أ) أو نفي النبوة أو انتقاصها (محمد رسول الله) أو طعن في نبي... الخ.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٩٨.

(٣) سورة الكهف الآية: ١١٠.

(٤) سورة العنكبوت الآية: ٦٥.

الخطرات كما قال عليه السلام: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب ذرة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء»(١).

فإذا كان الشرك أخفى من دبيب الذرة فكيف السبيل منه إلا بعصمة الله تعالى.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ألا أدلك على كلمات إذا قلتها برئت من الشرك»؟ قال: بلى يا رسول الله، قال عليه السلام: «قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم». والله تعالى / نسأله التوفيق في القول والعمل [٢٩٦/أ] والعصمة من الخطأ والزلل فهو حسبنا ونعم الوكيل. وقد رأيت أن أثبت هاهنا دعوة النبي ﷺ ورسالته إلى كافة الخلق وأختم بها قنطرة التوحيد، إذ كانت من جنسها وموضعها هو الأليق بها وبالله تعالى العون والتوفيق.

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم تسليماً.

سيرة النبي ﷺ كتبها للعلاء بن الحضرمي، هذا كتاب من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي نبي الله ورسوله إلى خلقه كافة سيرة للعلاء بن الحضرمي، ومن معه من المسلمين، عهداً عهده نبي الله إليهم:

«أيها المسلمون أتقوا الله ما استطعتم واسمعوا، وأطيعوا للعلاء بن الحضرمي، فإني استعملته عليكم وأمرته بتقوى الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن يلين لكم الجناح، وأن يحسن فيكم السيرة بالحق، وأن يحسن ولايتكم ويشاوركم في الأمور كلها، وأن يحكم بينكم وبين من لقي من الناس بما أنزل الله في كتابه من العدل، فإذا حكم وعدل وأقسط، واسترحم فرحم فاسعموا له وأطيعوا وأحسنوا مؤازرته ومعونته.

فإن لي عليكم من الله حقاً عظيماً، وطاعة لا تقدرون على قدر ما يجب لي عليكم، ولا تبلغ العقول كنه عظمة حق الله وحق رسوله وكما أن لله ورسوله على الناس عامة وعليكم خاصة حقاً واجباً وطاعة ورضى ووقار. فمن / أعتصم بالطاعة وعظّم حق أهلها، ولزم أمر الله [٢٩٧/أ] تعالى وما أمرناه به من ولاية المسلمين فإن له على المسلمين حقاً واجباً وطاعة.

---

(١) قال العراقي في المغني (١/١٢٢) عن نحوه: رواه أبو يعلى، وابن عدي، وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر ولأحمد، والطبراني نحوه من حديث أبي موسى.

واعلموا عباد الله أن في الطاعة دركاً لكل خير يبتغى ونجاة من كل شرٍ يتقى، وإنّا نشهد الله على من ولیناه شيئاً من أمر المسلمين قلّ أو كَثُر ولم يعدل فلا طاعة له وهو خليع مما وليناه، وقد برئت للذين معه أيمانهم وعهودهم وذمتهم، فليستخيروا والله عند ذلك، وليستعملوا عليهم من أفضل أفاضلهم. سيروا على بركة الله وعونه وتوفيقه ونصره وعافيته ورشده، فمن لقيتموه فادعوه إلى كتاب الله المنزل، وسنته وسنة نبيه على أن يحلوا حلال ما أحل الله لهم في كتابه، ويحرموا حرام ما حرّم الله عليهم في كتابه، وأن يخلعوا الأنداد، وأن يبرؤا من الشرك والكفر والنفاق، وأن يتركوا عبادة الطواغيت واللات والعزى، وأن يتركوا عبادة عيسى ابن مريم وعزير ابن حروة، والملائكة، والشمس، والقمر، والنيران، وكل شيء يتخذ، ويعبد من دون الله، وأن يتولوا الله ورسوله وأن يتبرؤا مما بریء الله ورسوله منه، فإذا فعلوا ذلك وأقروا به فقد دخلوا في الولاية، فبينوا لهم بعد ذلك كتاب الله الذي تدعونهم إليه المنزل مع روح الله الأمين جبريل عليه السلام على صفيه من العالمين محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه، أرسله رحمة للعالمين عامة: الأسود منهم والأبيض والجن والإنس، كتاب الله فيه بيان كل شيء كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم ليكون حاجزاً بين الناس يحجز به بعضكم عن بعض ويحرّم دماء بعضكم على بعض وأموال بعضكم على بعض.

[٢٩٨/ب] / وهو كتاب الله مهيمناً على الكتاب ومصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل يخبركم فيه بما كان قبلكم مما فاتكم دركه في آبائكم الأولين الذين أتتهم رسل الله وآياته كيف كان جوابهم وكيف تصديقهم بآيات الله، يخبركم بشأنهم، وأعمالهم، وأعمال من هلك منهم بعمله؛ لتجتنبوا أن تعملوا بمثله، فيحق عليكم من عذاب الله وسخطه ونقمته مثل الذي حق عليهم عند ذلك من شر أعمالهم وتهاونهم بأمر الله، وأعمال من نجا منهم لتعملوا مثل أعمالهم رحمة منه لكم وشفقة من الله عليكم، وهو هدى من الضلالة، وبيان من العمى واستقالة من العثرة، ونجاة من الحيرة ونور من الظلمة، وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من اليقين، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم، فإذا عرضتم عليهم كتاب الله وأقروا لكم به فقد استكملوا الولاية، فأعرضوا عليهم الإسلام والإسلام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وصيام شهر رمضان، والغسل من الجنابة، والطهور عند الصلاة، وبر الوالدين المسلمين وصلة الرحم المسلمين فإذا فعلوا ذلك فقد اسلموا، وأدعوهم إلى الإيمان وبينوا لهم شرائعه، ومعالم الإيمان: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن ما جاء به حق وأن ما سواه

باطل والإقرار بالملائكة والكتب والنبيين قبل محمد والرسل كلهم أجمعين، وأن الله بعثهم والإقرار بهذا الكتاب مصدقاً لما بين يديه / من الكتاب والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار [٢٩٩/أ] والموت والحياة فإذا فعلوا ذلك فهم مؤمنون. ودلوهم على الإحسان أن يوفوا الله بالذي عهد إلى رسله وعهدت رسله به إلى خلقه وسلامة صدورهم من كل غائلة، وشتان للمسلمين والتصديق بموعد الرب، والوداع من الدنيا في كل ساعة، والمحاسبة للنفس عند إستئناف كل يوم وليلة، والتعاهد لما فرض الله عليهم، وآداؤه في السر والعلانية فإذا فعلوا ذلك فهم محسنون. ثم بينوا لهم الكبائر، فإن الهلكة فيها، وهي: الشرك بالله والله لا يغفر أن يشرك به، والسحر والساحر ما له في الدنيا من خلاف، وقطيعة الرحم أولئك الذين لعنهم الله، والفرار من الزحف وباءوا بغضب من الله، والغلول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1] ثم لا يقبل منه. وقاتل النفس التي حرّم الله جزاؤه جهنم، والزاني يضاعف له العذاب، وقاذف المحصنة لعن في الدنيا والآخرة، وآكلة الربا فقد آذنهم الله ورسوله بحرب منه فإذا انتهوا عن الكبائر فقد استكملوا التقوى.

فادعوهم إلى العبادة، والعبادة: الصيام والقيام، والخشوع، والركوع، والسجود، واليقين والرجوع والإنابة والإخبارات، والتحميد، والتهليل، والتسبيح، والتكبير، والصدقة بعد الزكاة، والتواضع، والسكينة، والشكر، والمواسات، والدعاء، والتضرع، والإقرار بالمملكة لله، والاستقلال لما عمل من عمل صالح، فإذا فعلوا ذلك فقد استكملوا العبادة. فآذنوهم عند ذلك بالجهاد، وبينوه لهم ورغبوهم فيما رغبهم الله فيه من فضل الجهاد، / وفضل [٣٠٠/أ] ثوابه عند الله، فبايعوهم وادعوهم حين تبايعونهم إلى كتاب الله المنزّل وسنة نبيه عليه السلام، عليكم عهد الله وذمته وميثاقه وسبع كفالات لا تنكثون أيديهم من بيعة ولا تنقضون أمر وال من ولاة المسلمين فإذا أقروا لكم بذلك. فإذا بايعوهم واستغفروا الله لهم، فإذا خرجوا يقاتلون في سبيل الله غضباً لله ونصراً لدينه فمن لقوا من الناس فليدعوه إلى مثل الذي يدعوا إليه من كتاب الله، واجابته، وبيانه، وإسلامه، وإيمانه، وإحسانه، وتقواه، وعبادته، وهجرته فمن اتبعهم فهو المستجيب للمسلمين المؤمن المحسن المتقي العابد المهاجر له ما لكم، وعليه ما عليكم، ومن أبى هذا عليكم فقاتلوه حتى يفيء إلى أمر الله، والفيء إلى أمر الله إما أن يسلم وإما أن يعطي الجزية عن يد وهم صاغرون من الذين أوتوا الكتاب، وإن لم يفيء سفك دمه، وغنم ماله، وسبيت ذريته، ومن أقر لكم بالجزية وأعطيتموه الذمة فأوفوا له بها، ومن أسلم

(١) سورة آل عمران الآية: ١٦١.

وأعطاكم الرضا فهو منكم ومن قاتلكم مجاهداً من بعد ما بيتم له فقاتلوه، وحاربكم فحاربوه، وكايدكم فكايدوه، وجمع لكم فاجمعوا له، وخادعكم فخادعوه من غير أن تعتدوا، واغتالكم فاغتالوه من غير أن تعتدوا، وماكركم فماكروه من غير أن تعتدوا سراً وعلانية؛ فإنه من انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، واعلموا أن الله معكم يراكم ويرى أعمالكم، ويعلم ما تصنعون، فاتقوا الله وكونوا منه على حذر.

[٣٠١/ب] وإنما هذه أمانة ائتمنني ربي عليها أبلغها عباده عذراً منه /إليهم وحجة يحتج بها على خلقه فمن بلغه هذا الكتاب من الخلق أجمعين فعمل بما فيه نجا، ومن اتبع ما فيه هدى، ومن خاصم بما فيه ظفر، ومن قال بما فيه نصر، ومن تركه ضلّ حتى يراجعه فيعمل بما فيه فاسمعوه آذانكم وأوعوه قلوبكم، فإنه نور الأبصار، وربيع الأفئدة، وشفاء لما في الصدور، وكفى به آمراً وزاجراً ومعتبراً وعظة وداعياً ومحتجاً وهو الخير من الله ورسوله الذي لا شر فيه.

كتاب من محمد بن عبد الله للعلاء الحضرمي حين بعثه إلى البحرين يدعو إلى الله ورسوله، ويدعو إلى ما فيه من حلال وينهى عن ما فيه من حرام، ويدل على ما فيه من رشد، وينهى عن ما فيه من غيّ.

كتاب ائتمن عليه نبي الله، العلاء بن الحضرمي فإن أصابت العلاء بن الحضرمي مصيبة الموت فخالد بن الوليد سيف الله على المسلمين، فليسمعوا له، وليطيعوا ما عرفوا أنه على الحق حتى يخالف الحق إلى غيره، وخالد بن الوليد خليفة، وقد أعذر إليهما في الوصية بما في هذا الكتاب إلى من معهما من المسلمين، ولم يجعل لأحد منهم عذراً في إضاعة شيء منه لا للوالي، ولا لجميع من صحبهما من المسلمين فمن بلغه هذا الكتاب فلا حجة له ولا عذر، ولا يعذر أحد بجهل شيء مما في هذا الكتاب، ويسعهم جهل ما سواه. كتب هذا الكتاب لثلاث بقين من شهر ذي القعدة لأربع سنين مضين من ظهور نبي الله عليه السلام إلاّ شهرين.

[٣٠٢/ب] شهدا هذا الكتاب يوم كتب معاوية بن أبي سفيان وعثمان بن /عفان يمليه عليه، ونبي الله عليه السلام جالس والنقباء رجل من قريش، ورجل من بني سليم، ورجل من عفير، ورجلان من حمير ورجل من غسان، ورجل من خزاعة، ورجل من جهينة، وأربعة من الأنصار، والمختار بن قلس العدي، وأبو الدرداء السلمي، وحذيفة بن اليمانيّ العبسي وقصيّ بن أبي عمرة الحميري، والضحاك بن ربيعة الحميري، وشبيب بن مرة الغساني، وميسر بن صعصعة الخزاعي، وعواد بن جناح الجهني، وسعد بن معاذ الأنصاري، ونوفل بن طلحة الأنصاري وسعد بن عبادة الأنصاري، وزيد بن عمير الأنصاري، شهدوا هذا الكتاب

حين دفعه نبي الله إلى العلاء بن الحضرمي وخالد بن الوليد، وأتمنهما عليه، وأوصاهما بما فيه، وختمه نبي الله بخاتمه وجمعهما، ومن أراد الخروج معهما، ثم أمر عثمان فقرأ عليه جميع ما في هذا الكتاب بأعلى صوته، والله على كل شيء وكيل دعوة من نبيك ورسولك محمد يسألك أن تنصر من عمل بما في هذا الكتاب نصراً عزيزاً، وأعنه على ما استعانك عليه، وعافه ما أبقيته، واغفر له إذا توفيته، والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تمت قنطرة الإيمان والتوحيد بتمام سيرة الدعوة

بحمد الله وحسن عونه، والصلاة على محمّد نبيه، تتلوها قنطرة الصلاة

القنطرة الثالثة

[٣٠٣/أ] قنطرة الصلاة ووظائفها / من الطهارات

الحمد لله الذي غمد العباد بلطائفه، وغمر قلوب أوليائه منهم بأنوار الدين ووظائفه، وكلف خلقه المفترضات، وجعل من أفضلها الخمس الصلوات ورخص للعباد في مناجاته، ولم يقتصر على الرخصة في عباداته، بل تلطف بالترغيب والدعوة، إهانة لضعفاء ملوك الخلق، الذين لا يسمحون بالخلوة إلاّ بعد تقديم الهدية والرشوة، سبحانه من ذي رحمة وإمتنان، وفضل وإحسان، والصلاة على نبيه صاحب بيعة الرضوان، الذي أنزل عليه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

أما بعد فإن الله سبحانه فرض على المكلفين بعد معرفته، وتصديق المرسلين عبادات الأبدان من الصلاة وصيام شهر رمضان، وقدمها على ما يتعلق من الحقوق في الأموال، لأن النفوس على الأموال أشح وبما يتعلق بالأبدان أسمح، فجعل الصلاة عصام معرفته، وعماد خدمته، وسيّدة القربات، وعزة الطاعات؛ لأنها تشمل على خضوع له، رهبةً من سطوته، ومتضمنة على تضرع وابتهال إليه رغبة في فضل مثوبته، بعد أن شرع لها شروطاً لازمة من رفع الأحداث، وإزالة النجاسات، ليستديم العبد النظافة للقاء ربه، والطهارة لأداء فرضه، فلما كانت الطهارة من شرائط الصلاة، والنظافة من وظائفها الواجبات، كان ينبغي لنا أن نقدم على الصلاة شرح الطهارات؛ إذ كانت مقدمة عليها في العبادات، وبالله التوفيق.

[٣٠٤/أ] مقدمة في أسرار الطهارة: قال الله / تعالى: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[١].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢].

وروي عن البين عليه السلام أنه قال: «الطهور شطر الإيمان»[٣].

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٠٨.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٢٢.

(٣) بنحوه ذكره العراقي في المغني (١/ ١٢٥) وقال رواه الترمذي من حديث رجل من بني سليم وقال حسن،=

وقال عليه السلام: «مفتاح الصلاة الطهور»(١).

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾(٢). فليفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر، إذ يبعد أن يكون المراد بقوله عليه السلام: «الطهور شطر الإيمان».

عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء الطاهر، وتخريب الباطن بإبقائه مملوء بخبث الأخلاق والضغائن. فهيهات هيهات(٣)، ما أبعد هذا المراد في الدين الذي بني على الطهارة والنظافات وقد قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾(٤) الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾(٥). تنبيهاً على أن النجاسة ليست مقصودة على الظواهر؛ لأنه قد يكون المشرك مغسول الثياب نظيف طاهر البدن.

وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾(٦). أي قلبك فنقّ في بعض الأقوال.

وقال النبي عليه السلام فيما ورد عنه: «بُني الدين على النظافة»(٧). وهو لعمري كذلك ظاهراً وباطناً فإذا الطهارة لها أربع مراتب:

الأولى: تطهير ظاهر البدن عن الأخباث والفضولات والأحداث.

والثانية: تطهير الجوارح من الجرائم والآثام.

والثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة، والرذائل الممقوتة.

والرابعة: تطهير السر عما سوى الله عز وجل وهي طهارة الأنبياء والصديقين.

والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها؛ فإن الغاية القصوى من عمل / السر [٣٠٥/ب]

= ورواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري (وأشار إلى النص الذي هنا).

(١) وفي المصدر السابق قال رواه أبو داود، والترمذي من حديث علي وقال الترمذي هذا أصح شيء في هذا الباب وأحسن.

(٢) سورة المائدة الآية: ٦.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٢٤، ١٢٥).

(٤) سورة المائدة الآية: ٤١.

(٥) سورة التوبة الآية: ٢٨.

(٦) سورة المدثر الآية: ٤.

(٧) قال العراقي في المغني (١/ ١٢٤): لم أجده هكذا وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة: «تنظفوا فإن الإسلام نظيف». والطبراني بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود: «النظافة تدعو إلى الإيمان».

ينكشف للعبد جلال الله تعالى وعظمته، ولا تعمر معرفة الله سبحانه بالحقيقة في سر الإنسان ما لم يرتحل منه ما سوى الله تعالى من العلائق والأشغال؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(١). لأنهما لا يجتمعان في قلب، و﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾(٢).

وأما عمارة القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة، والعقائد المشروعة، ولن يتصف بها ما لم يتنظف عن أضدادها من الرذائل المذمومة، والعقائد الفاسدة فتطهيره أحد الشرطين: وهو الشرط الأول الذي هو شرط في الثاني، فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي المحرمة هو أحد الشرطين، وعمارتها بالطاعات الشطر الثاني.

ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا بعد أن يجاوز الطبقة السافلة، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالأخلاق المحمودة من لم يتفرغ عن طهارة القلب من مذموم الأخلاق وعمارته بالمحمود منها، ولن يصل إلى ذلك من لم يتفرغ من طهارة الجوارح من المناهي المحظورة وعمارتها بالطاعات المشروعة. فكلما عز المطلوب وشرف، صعب مسلكه، وطال طريقه، وكثرت عقباته، فلا نظنن هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا، نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة، التي هي كالقشر الأخير بالإضافة إلى اللب المطلوب، فصار يستوعب أوقاته في الإستنجاء / وغسل الثياب، وتنظيف ظاهر البدن، وطلب المياه الجارية الكثيرة ظناً منه بحكم الوسوسة أن الطهارة المطلوبة هي هذه فقط وجهلاً بسيرة الأولين، واستغراقهم جميع الهم في تطهير القلوب، وتساهلهم في الأمر الظاهر، حتى أنهم ما كانوا يغسلون أيديهم من الدسومات والأطعمة بل كانوا يمسحون أيديهم وأصابعهم بأخمص أقدامهم، وعدّوا الأشنان من البدع المحدثة. [٣٠٦/أ]

ولقد كانوا يصلون على الأرض في المساجد، ويمشون حفاة في الطرقات، وفي طين الشوارع، ويجلسون عليها، ويأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه، ولا يحترزون من عرق الإبل والخيل مع كثرة تمرغها في النجاسات، ولم ينقل قط عن واحد منهم سؤال في دقائق النجاسات فهكذا كان تساهلهم وبالله التوفيق(٣).

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٩١.
(٢) سورة الأحزاب الآية: ٤.
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/١٢٥).

وإذا عرفت هذه المقدمة، واستبنت أن الطهارة لها أربع مراتب كما قدمنا فاعلم أنا لسنا نشرع في هذه القنطرة إلا في المرتبة الرابعة وهي: نظافة الظاهر دون نظافة القلب والسرائر، فيتحصل منها ثلاثة أبواب:

الأول: في الطهارة عن الخبث والنجاسات.

والثاني: في الطهارة عن فضلات البدن، وهي التي تحصل بالتقليم، والاستحداد، واستعمال النورة، والختان.

والثالث: الطهارة من الأحداث.

الباب الأول

في طهارة الأخبار ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: يتعلق بالمزال وهو النجاسات.

الثاني: يتعلق بالمزال به وهو الماء وسائر ذلك.

الثالث: بالإزالة وكيفيتها.

الفصل الأول

في المزال وهي النجاسات وأعيان النجاسة في الجملة ثلاث: مائعات، وحيوانات، وأجزاء حيوانات.

أما المائعات: فظاهرة كلها إلاّ البول، والخمر وكل نبيذ مسكر، وكذلك القيء من الإنسان، والقلس، والمني، على اختلاف في أصله هل هو طاهر أو نجس، والمذي، والودي، والطهر من النساء.

وأما الحيوانات: فكلها طاهرة إلا الكلب، والخنزير، والمشرك.

وقد اختلف فيهم أيضاً، وكذلك الهر، والفأر، وذو ناب من السباع، وذو مخلب من الطير، والكلب المعلم، في هذا كله اختلاف وتفصيل تركته مخافة التطويل، وكذلك ما توّلد من هذه الحيوانات من الرطوبات، والمائعات مختلف فيه ما خلا: البول والدم، وما خلا الخنزير فهو متفق على نجاسته فيما أعلم.

والحيوانات كلها إذا ماتت فنجسة هي، وما ماتت فيه ما خلا الآدمي المتولي، والسمك والجراد، ودود الأطعمة، وما ليس له نفس سائلة: كالذباب، والخنفساء، والعنكبوت، والنمل، وأشباه ذلك، ولا ينجس الماء بوقوع شيء منها فيه بخلاف الآدمي، إذا مات فيه.

وأما أجزاء الحيوانات فقسمان:

أحدهما: ما يقطع من الحيوان فحكمه حكم الميت ما خلا الشعر والصوف والوبر.

واختلف في شعر الخنزير، وفي العظم، هل هما منجوسان أم لا؟

الثاني: الرطوبات الخارجة من باطن الحيوان، فكل ما ليس يتغير، ولا له مقر في البدن فهو طاهر: كالدمع، والعرق، واللعاب، والمخاط، والبلغم، ونحوه، وما له مقر وهو يستحيل إلى غير أصله فهو نجس إلا ما كان غذاء الحيوان: كاللبن؛ فإنه طاهر ما خلا لبن الخنزير، والمشركة / وما كان تابعاً للحمه في التحليل والتحريم فمختلف فيه كلحمه، وأما غير [٣٠٨/أ] اللبن فهو نجس: كالمني، والمذي، والودي، وبيض الدجاج، والقيح الذي غلب عليه الدم، وروث الإنسان، وما لا يأكل لحمه من ذي مخلب من الطير، وذي ناب من السباع، وروث الدجاج الأهلي، والجلالة من البهائم، وعرق السكران، والدم، والبول من جميع الحيوانات فهذه كلها نجسة قليلها وكثيرها ولا يعفى عن شيء منها إلا عن خمسة:

الأول: طين الشوارع، وغبار الروث في الطرق؛ فإنه يعفى عنه مع تيقن النجاسة فيه، إذا كان ذلك قليلاً لا يتلطخ بالإنسان؛ لأنه يتعذر عنه.

الثاني: ما يلصق بأسفل الخف، والنعل، وذيل المرأة من نجاسة لا تخلو الطرق عنها، فيعفى عنه بعد المشي، والدلك للخف والنعل، وكذلك ذيل المرأة يطهره ما بعده إذا كانت النجاسة يابسة فتعلقت به فسقطت عنه.

الثالث: دم البراغيث ما قل منه أو كثر فيعفى عنه إلا إذا جاوز حد العادة فينبغي أن يغسل إذا تفاحش في الثوب، وكذلك دم اللحم إذا غسل المذبح، ودم السمك لا بأس به.

واختلف في دم البعوض والبق والقمل، فبعض شدد، وبعض رخّص.

الرابع: القيح الذي غلب على الدم، أعني الصديد، وكذلك البزاق الذي غلب على الدم، وأشباه ذلك مرخص فيه.

الخامس: حزق الفأر مرخّص فيه إذا لم يغلب على الطعام الذي خالطه، ومسامحة

الشرع في هذه النجاسات / الخمسة يعرفك أن أمر الطهارة على التساهل في هذه الأشياء وغيرها [٣٠٩/ب] والله أعلم(١).

الفصل الثاني: في المزال به النجاسة

وذلك بالجملة عشرة أشياء:

أحدها: بالماء الطاهر كغسل الثياب، وغيرها من جميع ما يمكن فيه الغسل.

الثاني: بالمسح كالبدن الأملس، والحديد، وما شاكلهما.

الثالث: بالنضح، كالحصير المشكوك في طهارته، والتليس المملؤ طعاماً، إذا بال عليه التيس ونحوه.

الرابع: بالرشح، كالقلل المنجوسة من خارج، والزقاق وأشباه ذلك.

الخامس: بالنار كالأرض، والحديد، والقلال المحمية بها.

السادس: بالزمان كمعطن الإبل، والمجزرة، والمزبلة إذا أزيل ذلك منها فمكث زماناً سنة أو نحوها فإنه يصلى فيها.

السابع: الدباغ كجلد الميتة ونحوها.

الثامن: الترب بالتراب الأبيض كصوف الميتة، وأشباهها من الوبر والريش والشعر ونحو ذلك.

التاسع: بالوطأ، كالنعل، والخف وأشباههما.

العاشر: بالريح والمطر والشمس كالموضع المنجوس خارجاً من البيت، إذا مكث أياماً على الاختلاف الواقع فيه.

وهذه الأشياء قد أشرنا إلى شرحها في كتابنا المسمى بقواعد الإسلام، ولذلك اقتصرنا هاهنا على الإشارة والإجمال، دون الشرح والتفصيل، وكذلك ما سيأتي إن شاء الله إنما نشير إلى ما لا بد منه إشارة دون تفصيل وبالله التوفيق.

الفصل الثالث

في كيفية الإزالة نشير إلى جملتها إشارة لأنا شرحناها في غير هذا الكتاب.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٢٧، ١٢٨) بنحو ما هنا.

[٣١٠/أ] اعلم أن النجاسة لا تخلو من أن تكون حكمية أو عينية، فالحكمية هي التي / ليس لها جسم ظاهر محسوس: كالبول اليابس في الثوب، والماء المنجوس وأشباه ذلك مما لا ترى له عين قائمة.

فهذه النجاسات يكفي في إزالتها إجراء الماء على مواردها ثلاث مرات.

وأما النجاسة العينية فلا بد من إزالة عينها، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين، وكذلك بقاء اللون يدل عليها إلاّ فيما يتعذر إزالته من الثوب إذا صار كالصبغ فيه فهو معفو عنه بعد العرك والدّلك والقرض ونحوه لأنه لا يحل قطع الثوب من أجل نجاسته، كما لا يحل قطع البدن من الحناء المنجوس الذي طبع فيه، وكذلك الرائحة بقاءها يدل على بقاء النجاسة، ولا يعفى عنها إلا إذا كان الشيء له رائحة فائحة يعسر إزالتها، فالدلك والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحك، والقرض كما قدمنا في اللون.

والذي يزيل الوسواس أن تعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين، فما لم يشاهد عليها نجاسة ولا قامت الحجة بها فحكمها الطهارة على الأصل الأول[١].

ولذلك قالت الأشياخ رحمهم الله: لولا ثلاث جعلوها للنجس لصب عليهم من السماء كالمطر، ومن الأرض كالنبات:

أحدها: جعلوا النجس هو القاعدة في موضعه الذي فيه.

والثاني: جعلوا الطهارة هي القاعدة في الأشياء ما لم تر عليها نجاسة.

والثالث: جعلوا للنجس الحملان في المواضع المشكوك في حلول النجس فيها، ما لم يتيقن به والله أعلم.

ويدل على هذا ترخيص المشايخ أبان بن وسيم وغيره رحمهم الله في مسائل كثيرة يطول [٣١١/أ] الكتاب بذكرها / وليس هذا الكتاب موضعاً لذلك، وبالله التوفيق.

الباب الثاني من الطهارة

التنظيف عن الفضلات الطاهرة، وهي نوعان: أوساخ وأجزاء.

النوع الأول: الأوساخ والرطوبات المرشحة وهي ثمانية:

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/١٢٩، ١٣٠).

الأول: ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن والقمل والتنظيف عنه مستحب بالغسل، وبالترجيل، والتدهين إزالة للشعث، وكان رسول الله ﷺ يدهن الشعر ويرجله غباً[١].

وقالت عائشة: كان النبي ﷺ يدني إلى رأسه فأرجله وهو معتكف. وكان عليه السلام يأمر بذلك ويقول: «ادهنوا غباً»[٢].

ويروى عنه أنه قال: «من كانت له شَعْرة فليكرمها»[٣]. أي ليصنها عن الأوساخ، ويروى أنه دخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال عليه السلام: «أما كان لهذا دهن يسكن به شعره»[٤].

وأصحابنا لا يستعملون ذلك على رؤوسهم حتى يحتاج إلى الترجيل والتدهين، وإنما ذلك على النساء فحق عليهن إكرام شعر رؤوسهن بالترجيل والتدهين وفرقه عند الامتشاط؛ لأن ذلك من سنن إبراهيم عليه السلام.

الثاني: ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذان والمسح يزيل ما ظهر منه، وأما ما يجتمع في قعر الصماخ وهي ثقبة الأذن فينبغي أن ينظف برفق عند الغسل؛ فإن كثرة ذلك ربما يضر بالسمع[٥].

الثالث: ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة الملتصقة بجوانبه ويزيل ذلك بالاستنشاق والاستنثار[٦] على ما سيأتي إن شاء الله.

الرابع: ما يجتمع على الأسنان وأطراف اللثات من الصفرة التي تعلوها فيزال بالسواك والمضمضة[٧] على ما يذكر إن شاء الله.

---

(١) قال العراقي في المغني (١/١٣٦): رواه الترمذي في الشمائل بإسناد ضعيف من حديث أنس: كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته. وفي الشمائل أيضاً بإسناد حسن من حديث صحابي لم يسم: أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غباً.

(٢) وقال أيضاً في المصدر السابق عن هذا الحديث: قال ابن الصلاح لم أجد له أصلاً، وقال النووي غير معروف، وعند أبي داود، والترمذي، والنسائي من حديث عبد الله بن مغفل النهي عن الترجل إلاّ غباً بإسناد صحيح.

(٣) وقال العراقي أيضاً في المصدر السابق: من حديث أبي هريرة وقال: به شعر فليكرمه، وليس إسناده بالقوي.

(٤) وقال في المصدر السابق أيضاً: رواه أبو داود والترمذي، وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد.

(٥) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/١٣٦).

(٦) راجع المصدر السابق.

(٧) راجع المصدر السابق.

الخامس: ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتعهد ذلك صاحبها، ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط، وفي الخبر: أن النبي عليه السلام كان لا يفارقه المشط والمدري [والمرآة][(١)] في سفر ولا حضر.

وهي سنة العرب. هكذا ذكر الغزالي في كتابه وزعم أنه عليه السلام كث اللحية قد ملأت ما بين منكبيه وأنه يسرحها في اليوم مرتين والله أعلم بهذا.

السادس: وسخ البراجم: وهي معاطف ظهور الأنامل، كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام.

وتقول: فقد الطعام أشد علينا من ريحه، فيجتمع لذلك في تلك الغضون وسخ، فأمرهم عليه السلام بغسل ذلك[(٢)].

السابع: تنظيف الرواجب[(٣)]: وهي رؤوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ، كانت العرب لا يحضرها المقراض في كل وقت فيجتمع فيها أوساخ فأمرهم النبي عليه السلام بتنظيف ما تحت الأظفار، ووقت لهم في قلم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة أربعين يوماً.

وجاء في الأثر: أن النبي عليه السلام استبطأ الوحي فلما هبط عليه جبريل عليه السلام فقال له: كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم، ولا تنظفون رواجبكم، و[قلحاً][(٤)] لا تستاكون مر أمتك بذلك.

ويقال لوسخ الظفر: الأُف، ولوسخ الأذن: التف، وقيل في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[(٥)]. أي لا تعبهما بما تحت الظفر من الوسخ. قيل: لا تتأذى بما تحت الظفر[(٦)].

---

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/١٣٦) وقال العراقي في الموضع السابق تعليقاً على الخبر: أخرجه ابن طاهر في كتاب صفة التصوف من حديث أبي سعيد. كان لا يفارق مصلاه سواكه ومشطه. رواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة وإسنادهما ضعيف.

(٢) راجع الإحياء (١/١٣٧).

(٣) قال العراقي في المغني (١/١٣٧) تعليقاً على الإحياء: حديث الأمر بتنظيف الرواجب ـ رواه ـ أحمد من حديث ابن عباس: أنه قيل له: يا رسول الله، لقد أبطأ عنك جبريل، فقال: «ولم لا يبطىء وأنتم لا تستنون ولا تقلمون أظفاركم ولا تقصون شواربكم ولا تنقون رواجبكم». وفيه إسماعيل بن عياش.

(٤) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/١٣٧).

(٥) سورة الإسراء الآية: ٢٣.

(٦) راجع إحياء علوم الدين (١/١٣٧، ١٣٨).

الثامن: الدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار / الطريق وذلك يزيله[٣١٣/أ] الحمام.

وقد روي أن أصحاب رسول الله ﷺ دخلوا حمامات الشام وقال بعضهم: نعم البيت بيت الحمام؛ يطهر البدن ويذكر النار، روي ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري فهذا تعرض لفائدته.

وقال آخرون: بئس البيت بيت الحمام؛ يبدي العورة ويذهب الحياء فهذا تعرض لآفاته. ولكن لا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفاته، بشرط أن يراعي داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات.

أما الواجبات: فصون عورته عن نظر الغير ومسه فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيده، وأن لا يدخل الرجل الحمام إلا بمئزر، وفي إباحة مس ما ليس بعورة لإزالة الوسخ احتمال، ولكن الأقيس التحريم، وكذلك الواجب عليه في عورة الغير أن يغض بصره عنها، وأن ينهى عن كشفها؛ لأن النهي عن المنكر واجب على قدر الطاقة، ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام.

وقال بعضهم: لا بأس بدخول الحمام ولكن بإزارين إزار للعورة، وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه.

وأما السنن فعشر وهي: النية يقصد بدخول الحمام التنظيف المحبوب تزيناً للصلاة، ولا يدخله لعاجل دنيا، ولا عابثاً لأجل هوى.

ثم [لا][1] يعطى لصاحب الحمام الأجرة قبل الدخول؛ فإن ما يستو فيه مجهول، وما ينتظره الحمامي مجهول أيضاً، فتسليم الأجرة دفع للجهالة وتطييب لنفسه، ثم يرفع رجله اليسرى عند الدخول، ويقول: /بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم أعوذ بالله من الرجس النجس،[٣١٤/أ] الخبيث المخبث الشيطان الرجيم.

ثم يدخل وقت الخلوة، أو يتكلف تخلية الحمام احترازاً عن النظر إلى عورات الناس، وتحفظاً من قلة الحياء بالنظر إلى أبدانهم مكشوفة.

ثم لا يعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق في الأول، وأن لا يكثر صب الماء بل

---

(١) ما بين المعقوفين يقتضيه السياق.

يقتصر على قدر الحاجة، فإنه المأذون فيه بقرينة الحال، والزيادة عليه لو علمها الحمامي لكرهها، ولا سيما الماء الحار، وله مؤنة وفيه تعب.

وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام، ويقدر نفسه محبوساً في البيت الحار ساعة، ويقيسه إلى جهنم، فإنه أشبه بيت بجهنم النار من تحت والظلام من فوق، ونعوذ بالله منها، بل العاقل لا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة؛ فإنها مصيره ومستقره، فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة، فإن المرء ينظر بحسب همته، فإنه إذا دخل بزاز أو نجار أو حيّاك أو بنّاء دار معمورة فإذا تفقدتهم رأيت البزاز ينظر إلى العرش يتأمل قيمتها، والحياك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها، والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها، والبنّاء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها.

فكذلك السالك لطريق الآخرة لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله له طريق عبرة، فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر إلى حيّه تذكر أفاعي جهنم، وإن نظر إلى صورة قبيحة تذكر الزبانية ومنكراً ونكيراً، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة / الصور، وإن رأى شيئاً حسناً [٣١٥/ب] تذكر نعيم الجنة، وإن سمع كلمة رد أو قبول تذكر أمره بعد الحساب من الرد والقبول، وما أجدر أن يكون هو الغالب على قلب العاقل إن لم يكن ممن اقفل قلبه وأعميت بصيرته.

ومن السنن أن لا يسلم عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام بل يسكت إن أجاب غيره وإن شاء قال: عافاك الله لا تبدأ الكلام، ولا بأس بالمصافحة.

ثم لا يكثر الكلام في الحمام، ولا يقرأ القرآن إلا سراً، ولا بأس بإظهار الاستعاذة من الشيطان، ويكره دخول الحمام بين العشاءين وقريباً من الغروب؛ فإن ذلك وقت انتشار الشياطين.

وقد رخّص بعضهم أن يدلكه غيره، ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة، فقد قيل: الماء الحار في الشتاء من النعيم الذي يُسأل عنه.

وعن ابن عمر قال: إن الحمام من النعيم الذي أحدثوه ذلك من جهة الشرع. وقيل: النورة في كل شهر مرة تطفىء الحرارة وتنقي اللون، وتزيد في الجماع. وقيل: نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء.

وقال بعضهم: بولة في الحمّام قائماً في الشتاء أنفع من شربة دواء وغسل الرجلين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس.

ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج. وكذلك شربه هذا حكم الرجال.

وأما النساء: فقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «لا يحل لرجل أن يدخل حليلته الحمّام وفي البيت مستحم»[١].

والمشهور أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر وحرام على المرأة دخول الحمام إلا نفساء أو مريضة.

روي عن عائشة رضي الله /عنها أنها دخلت حماماً من سقم بها. فإن دخلت لضرورة [٣١٦/أ] فلتدخل بمئزار سابغ، ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمّام فيكون معيناً لها على المكروه[٢].

النوع الثاني: ما يحذف من أجزاء البدن وهي ثمانية:

الأول: شعر الرأس يستحب حلقه لمن أراد التنظف وقد قال عليه السلام: «اللهم ارحم المحلقين». ثلاثاً. وقيل: والمقصرين؟ قال: «والمقصرين». وذلك عند الإحلال من الإحرام، وقال تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾[٣]. ولكن لا بأس بتركه لمن يدهنه ويمشطه، إلا إذا تركه قزعاً، أي تركه قطعاً متفرقة في الرأس؛ فإن ذلك منهي عنه، وهو دأب أهل الشطارة، وكذلك إرسال الذوائب على هيئة أهل الشرف، حيث صار ذلك شعاراً لهم؛ فإنه إذا لم يكن شريفاً صار ذلك تلبيساً.

الثاني: شعر الشارب، وقد قال ﷺ: «حفوا الشواب واعفوا اللحى»[٤].

وقوله: «حفوا الشوارب» أي اجعلوها حفاف الشفة أي حولها وحفاف كل شيء حوله.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾[٥].

---

(١) قال العراقي في المغني تعليقاً (١/١٣٩): رواه النسائي، والحاكم وصححه من حديث جابر من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام. وللحاكم من حديث عائشة: «الحمام حرام على نساء أمتي» قال صحيح الإسناد، ولأبي داود، وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر. فلا يدخلها الرجال بالإزار، وامنعوها النساء إلا من مريضة أو نفساء.

(٢) راجع في ما سبق إحياء علوم الدين (١/١٣٨، ١٣٩).

(٣) سورة الفتح الآية: ٢٧.

(٤) قال العراقي في المغني (١/١٤٠) متفق عليه من حديث ابن عمر بلفظ: «احفوا»، ولمسلم من حديث أبي هريرة: «جزوا»، ولأحمد من حديثه: «قصوا».

(٥) سورة الزمر الآية: ٧٥.

وفي لفظ آخر: «احفوا» وهذا يشعر بالاستئصال، وقوله: «حفوا» يدل على ما دون ذلك.

قال الله تعالى: ﴿إِن يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾[١]. أي يستقصى عليكم.

وأما حلق الشارب فلم يبلغنا فيه خبر، والإحفاء قريب من الحلق، وقد نقل عن بعض التابعين، والله أعلم: أنه نظر إلى رجل أحفى شاربه فقال: ذكرتني أصحاب رسول الله ﷺ.

وحكي عن المغيرة بن شعبة أنه قال: نظر رسول الله ﷺ وقد طال شاربي فقال: «تعال فقصه لي / على سواك»[٢]. [٣١٧/ب]

ورخص بعض علماء السلف في ترك السبالين وهما طرفا الشارب قال: لأن ذلك لا يستر الفم، ولا يبقى فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه، وزعم أن عمر فعل ذلك، وفعله غيره.

وقوله عليه السلام: «اعفوا اللحى». أي كثروها نظيره ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾[٣]. أي كثروا.

وفي الخبر: «أن اليهود يعفون شواربهم، ويقصون لحاهم فخالفوهم»[٤]. وكره بعض العلماء الحلق: ورآه بدعة.

الثالث: شعر الإبط، ويستحب نتفه في كل أربعين يوماً مرة، وذلك سهر على من تعوّد نتفه في الإبتداء، ولا بأس بحلقه على من تعوّد ذلك، إذ في النتف تعذيب وإيلام، والمقصود النظافة، وأن لا يجتمع الوسخ في خللها، ويحصل ذلك بالحلق، وقد حدّ بعضهم لنتف الإبط إذا ألصق الإنسان عضده إلى جنبه خرج الشعر من الجانبين والله أعلم.

الرابع: شعر العانة، ويستحب إزالة ذلك للرجال بالحلق، وللنساء بالنتف أو بالنورة

---

(١) سورة محمد الآية: ٣٧.

(٢) في الأصل: «سود» والتصويب من الإحياء والمغني (١/ ١٤٠) وقال العراقي: رواه أبو داود، والنسائي، والترمذي في الشمائل.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٩٥.

(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٤٠) وقال العراقي تعليقاً: رواه أحمد من حديث أبي أمامة: قلنا، يا رسول الله إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم، فقال: «قصوا سبالكم، ووفروا عثانينكم، وخالفوا أهل الكتاب». قلت: والمشهور أن هذا فعل المجوس ففي صحيح ابن حبان من حديث ابن عمر في المجوس: أنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم.

للجميع. ولا يتأخر عن أربعين يوماً، وقد حدّه بعضهم في ذلك إذا كان الشعر يدور بالإصبع.

وقد روي عن أبي عبيدة مسلم رحمه الله أنه قال: لا أعلم في قص الشارب وتقليم الأظافر، ونتف الإبط وحلق العانة حداً محدوداً إلا إذا طال فأزح ذلك عن نفسك. وقد قيل: إن دفن الشعر والأظفار بدعة، الله أعلم.

الخامس: تقليم الأظفار؛ وهو مندوب إليها لشناعة صورتها إذا طالت، ولما يجتمع فيها من الوسخ. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أبا هريرة قلّم أظفارك، فإن الشيطان يقعد على ما طال منها»[1]. ولو كان تحت الظفر وسخ / فلا يمنع ذلك صحة الصلاة؛ لأنه كان عليه [٣١٨/أ] السلام يأمر العرب بقلم الأظفار، وينكر ما تحت الأظفار من الأوساخ، ولم يأمرهم بإعادة الصلاة؛ إما لأنه لا يمنع وصول الماء، أو أنه يساهل فيه للحاجة لا سيما في أظفار الرجل، ولو أمر بذلك لكان فيه فائدة، وهو التغليظ والزجر عن ذلك.

قال في كتاب الغزالي: ولم أر في الكتب خبراً مروياً في ترتيب قلم الأظفار. قال: ولكن سمعت أنه ﷺ بدأ بمسبحته اليمنى، وختم بإبهام اليمنى، وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام، وفي اليمنى من المسبحة إلى الخنصر وختم بإبهام اليمنى[2].

قال في كتاب الغزالي: وأما أصابع الرجل فالأولى عندي إن لم يثبت فيه نقل أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى كما في التخليل والله أعلم.

قال: وفي كتاب الغزالي، واعلم أن العالم لا يكون وارثاً للنبي ﷺ إلا إذا اطّلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي إلاّ درجة واحدة وهي درجة النبوة الفارقة بين الوارث والموروث، إذ الموروث هو الذي حصل المال له باشتغاله به، واقتداره على تحصيله، والوارث هو الذي لم يشتغل بالتحصيل، ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعدما حصل له والله أعلم.

السادس والسابع: قطع زيادة السرة، وقلفة الحشفة.

وأما السرة: فتقطع في أول الولادة، وأما التطهير بالختان فعادة اليهود اليوم السابع من

---

(١) قال العراقي في المغني (١/ ١٤٠): رواه الخطيب في الجامع بإسناد ضعيف من حديث جابر: قصوا أظافيركم فإن الشيطان يجري ما بين اللحم والظفر.

(٢) قال العراقي في المغني (١/ ١٤٠): حديث البراءة في قلم الأظفار بمسبحة اليمنى.... لم أجد له أصلاً، وقد أنكره أبو عبد الله المازري في الرد على الغزالي وشنع عليه به.

الولادة، فينبغي أن يخالفوا بالتأخير إلى أن يشتد الولد، وذلك أحب وأبعد من الخطر.

[٣١٩/ب] وقد روي عن النبي عليه السلام / أنه قال: «الختان للرجل سنة، وللنساء مكرمة»[١]. وينبغي أن لا يبالغ في خفض المرأة، إذ قال ﷺ لأم عطية، وكانت تخفض: «يا أم عطية أشمي ولا تنهكي، فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج»[٢]. أي أكثر لماء الوجه ودمه وأحسن في جماعها.

انظر إلى جزالة لفظه عليه السلام في الكناية وإلى إشراق نور النبوة حتى انكشف له، وهو أميّ من هذا الأمر النازل قدره، ما لو وقعت الغفلة عنه خيف ضرره. فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ليجتمع لهم بيمن بعثه مصالح الدنيا والدين ﷺ.

الثامنة: ما طال من اللحية، وقد اختلفوا فيما طال منها، فقيل: إن قبض الرجل على لحيته وأخذ ما تحت القبضة فلا بأس.

وقد روي عن ابن عمر أنه فعل ذلك وجماعة من التابعين ورخص في الأخذ منها أبو عبيدة مسلم فيما وجدت عنه واستحسنه الشعبي، وابن سيرين فيما وجدت عنهما.

وقد زعم في كتاب الغزالي أن الحسن وقتادة كرها ذلك وقالا: تركها عافية أحب إلينا لقوله عليه السلام: «اعفوا اللحى».

والأمر في هذا قريب، إذ لم ينته عن تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب؛ فإن الطول المفرط قد يشوه الخلقة، ويطلق السنة المغتابين بالنسبة إليه فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية.

وعن النخعي أنه قال: عجبت لرجل عاقل طويل اللحية، كيف لا يأخذ من لحيته فيجعلها بين لحيتين؛ فإن التوسط في كل شيء حسن، ولذلك قيل: كلما طالت اللحية تشمر العقل[٣].

فصل

[٣٢٠/ب] وقال بعض العلماء في اللحية / عشر خصال مكروهة، وبعضها أشد من بعض وهي:

---

(١) قال العراقي في المغني (١/ ١٤٢): رواه أحمد والبيهقي من رواية أبي المليح بن أسامة عن أبيه بإسناد ضعيف.

(٢) وقال العراقي أيضاً في الموضع السابق: رواه الحاكم والبيهقي من حديث الضحاك بن قيس ولأبي داود نحوه من حديث أم عطية، وكلاهما ضعيف.

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٤٢).

خضابها بالسواد، وتبيضها بالكبريت، ونتفها، ونتف الشيب منها، والنقصان منها، والزيادة فيها، وتسريحها تصنعاً لأجل الناس، وتكرهها شعثة لإظهار الزهد، والنظر إلى سوادها عجباً بالشباب، وإلى بياضها تكبراً لعلو السن، وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبيهها بالصالحين.

أما الأول: وهو الخضاب بالسواد.

فقد نهى عنه لقول النبي عليه السلام: «خير شبابكم من تشبه بشيوخكم، وشر شيوخكم من تشبه بشبابكم»(١). والمراد بالتشبه بالشيوخ في الوقار والسكينة، لا في تبيض الشعر، ونهى عن الخضاب بالسواد وقال: «هو خضاب أهل النار»(٢).

وفي لفظ آخر: «الخضاب الأسود خضاب الكفار»(٣). ويقال تزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه، وكان يخضب بالسواد، فنصل خضابه وظهر شيبه فرفعه أهل المرأة إلى عمر فرد نكاحه، وأوجعه ضرباً وقال: غررت القوم بالشباب، ولبست عليهم شيبك، حكاه الغزالي في كتابه. ويقال: أول من خضب بالسواد فرعون لعنه الله. وفي كتاب الغزالي عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد، كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة»(٤).

الثاني: الخضاب بالصفرة والحمرة، وهو جائز تلبيساً على الكفار في الغزو والجهاد، فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم. وعن أبي عبيدة مسلم رضي الله عنه قال: سمعت أن رسول الله ﷺ لم يصبغ شعره قط بشيء. ويقال: إن أبا بكر / رضي الله [٣٢١/أ] عنه كان يصبغ، وفي بعض أثر بعض أصحابنا قال: لا بأس بصبغ اللحية بالكتم والحمرة.

وفي كتاب الغزالي وقد قال رسول الله ﷺ: «الصفرة خضاب المسلمين، والحمرة خضاب المؤمنين»(٥). وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة، وبالخلوق، والكتم للصفرة.

---

(١) قال العراقي في المغني (١/١٤٢): رواه الطبراني من حديث واثلة بإسناد ضعيف.
(٢) قال العراقي في الموضع السابق: رواه الطبراني، والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ: الكافر، قال ابن أبي حاتم: منكر.
(٣) قال العراقي في الموضع السابق: رواه الطبراني، والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ: الكافر، قال ابن أبي حاتم: منكر.
(٤) قال العراقي في المصدر السابق (١/١٤٣): رواه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس بإسناد جيد.
(٥) قال العراقي في المغني (١/١٤٣): رواه الطبراني، والحاكم بلفظ الإفراد من حديث ابن عمر، قال ابن أبي حاتم: منكر.

قال: وخضّب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو. وينشد:

يا خاضب الشيب بالحناء يستره أهلاً سألت له ستراً من النار
لن يرحل الشيب عن دار ألمّ بها حتى يرحل عنها صاحب الدار

وفي كتاب الغزالي قال: لا بأس بالخضاب بالسواد إذا صحت فيه النية[١]، وينشد:

تغطي الشيب جهلك بالخضاب لتبقى فيك أبهة الشباب
فكيف وقد كساك الشيب ثوباً كأبيض ما يكون من الثياب

وقد روي أن ابن عباس رضي الله عنه: كان يخضب لحيته بالكتم، وهو صبغ يؤتى به من بلد السودان فيما أظن والله أعلم.

الثالث: تبيضها بالكبريت استعجالاً، لإظهار علو السن توصلاً بذلك إلى التوقير وقبول الشهادة، والتصديق بالرواية عن الشيوخ، وترفعاً عن الشباب وإظهاراً لكثرة العلم، ظناً بأن ذلك يعطيه فضلاً، وهيهات فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلاً، فالعلم ثمرة العقل، وهي غريزة لا يؤثر الشيب فيها، ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة تؤكد حماقته.

وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم، كان عمر يقدم ابن عباس رحمه الله وهو حدث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم.

[٣٢٢/ب] وعن ابن عباس رضي الله /عنه أنه قال: ما أتى الله عز وجل عبده علماً إلا شاباً، والخير كله في الشباب ثم تلى قوله عز وجل: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[٢].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾[٣] الآية.
وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٤].

وكان أنس بن مالك يقول: فيما بلغنا قبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء. فقيل له: يا حمزة وقد أسنّ رسول الله ﷺ؟ فقال: لم يشنه الله تعالى بالشيب. فقيل: أو شين؟ فقال: كلكم يكرهه[٥]. ويقال: أن يحيى بن أكثم ولي القضاء وهو

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/١٤٣).
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٦٠.
(٣) سورة الكهف الآية: ١٣.
(٤) سورة مريم الآية: ١٢.
(٥) قال العراقي في المغني (١/١٤٣): متفق عليه من حديث أنس دون قوله: فقيل الخ، ولمسلم من حديثه: وسئل عن رسول الله ﷺ قال: ما شانه الله ببيضاء. =

ابن إحدى وعشرين سنة، فقال له رجل في مجلسه يريد أن يخجله بصغر سنه: كم سن القاضي أيّده الله؟ قال: مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله ﷺ إمارة مكة وقضاءها[١]. فأفحمه.

وروي عن بعض العلماء أنه قال: قرأت في بعض الكتب لا تغرنكم اللحى فإن التيس له لحية.

وعن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: إذا رأيت طويل القامة، صغير الهامة، عريض اللحية فاقض عليه بالحمق، ولو كان أميّة بن عبد شمس.

وعن أيوب السختياني أنه قال: أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه.

وعن علي بن الحسين أنه قال: من سبق إليه العلم قبلك فهو أمامك فيه، وإن كان أصغر سناً منك.

ويروى أنه قيل لأبي عمرو بن العلاء: أيحسن بالشيخ أن يتعلم من الصغير؟ قال: إن كان الجهل يقبح به، فالتعلم يحسن به[٢].

/ الرابع: نتف بياضها استنكافاً من الشيبة، وقد نهى عليه السلام عن نتف الشيب وقال: [٣٢٣/أ] «هو نور المؤمن»[٣]. هو في معنى الخضاب بالسواد.

وعن أبي عبيدة مسلم رحمه الله أنه قال: أكره نتف الشيب، قال: ولا يفعله إلا خسيس.

وعلة الكراهة ما سبق والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة عن النور[٤].

الخامس: نتفها أو نتف بعضها بحكم العبث والهوس وذلك مكروه ومشوه للخلقة، ونتف الفنيكين بدعة، وهما جنبتا العنفقة.

---

(١) ذكره العراقي في المغني (١٤٣/١) وزاد: يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله ﷺ قاضياً على أهل اليمن، ثم قال: رواه الخطيب في التاريخ بإسناد فيه نظر، وما ذكره ابن أكثم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فإنه كان حين ولاه ابن عشرين سنة بالنسبة إلى معاذ فإنما يتم له ذلك على قول يحيى بن سعيد الأنصاري، ومالك، وابن أبي حاتم أنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة. والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في الطاعون سنة ثمانية عشر. والله أعلم.

(٢) راجع إحياء علوم الدين (١٤٣/١، ١٤٤).

(٣) قال العراقي في المغني (١٤٤/١): رواه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٤) راجع إحياء علوم الدين (١٤٣/١، ١٤٤).

ويقال: شهد عند عمير بن عبد العزيز رجل كان ينتف فنيكيه فردّ شهادته.

وروي عن بعض قضاة المدينة أنه: رُدَّ شهادة من كان ينتف لحيته. قال: وأما نتفها في أول الشباب تشبيهاً بالمرد فمن المنكرات الكبار؛ فإن اللحية زينة للرجال. ويقال أن لله سبحانه ملائكة يقسمون والذي زين بني آدم باللحى وهي من تمام الخلقة، وبنا يتميز الرجال عن النساء.

وحكي عن أصحاب الأحنف أنهم قالوا: وددنا أن نشتري للأحنف لحية بعشرين ألفاً.

وعن شريح القاضي أنه قال: وددت لو أن لي لحية بعشرة آلاف، وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل، والنظر إليه بعين العلم، والوقار، والرفع في المجالس، وإقبال الوجه إليه، والتقديم على الجماعة ووقاية العرض، فإن من يشتم يعرّض باللحية إذا كان المشتوم بلا لحية.

[٣٢٤/ب] ويقال: إن أهل الجنة مرداً إلا هارون أخا موسى عليه السلام فإن /له لحية إلى سرته تخصيصاً له وتفضيلاً والله أعلم[١].

السادس: تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة، للتزيين للنساء والتصنع.

وعن كعب قال: يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة، ويعرقبون نعالهم كالمناجيل، أولئك لا خلاق لهم[٢].

السابع: الزيادة فيها، وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغ وهو من شعر الرأس، حتى يجاوز عظم اللحى أو ينتهي إلى نصف الخد وذلك يباين هيئة أهل الصلاح[٣].

الثامن: تسريحها لأجل الناس.

وقال بعض العلماء في اللحية شركان: تسريحها لأجل الناس، وتركها شعثة لإظهار الزهد[٤].

التاسع والعاشر: النظر إلى سوادها وبياضها بعين العجب وذلك مذموم في جميع أجزاء

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٤٤).
(٢) راجع المصدر السابق.
(٣) راجع المصدر السابق.
(٤) راجع المصدر السابق.

البدن، بل في جميع الأخلاق والأفعال وبالله التوفيق[١].

فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزيين والنظافة وقد حصل من ثلاث أحاديث من سنن الجسد إثنا عشر خصلة، خمس في الرأس، هي:

فرق شعر الرأس، والمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك على ما سيأتي شرحها في الوضوء إن شاء الله.

وثلاثة في اليد والرجل وهي:

تقليم الأظفار، وغسل البراجم، وتنظيف الرواجب.

وأربع في الجسد وهي:

تنظيف الإبط، والاستحداد، والختان، والاستنجاء بالماء على ما سيأتي إن شاء الله.

فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك[٢]، ولنقتصر الآن على هذا في تنظيف فضلات ظاهر البدن، ولنشرع الآن في طهارة الأحداث.

الباب الثالث
في طهارة الأحداث

وينحصر هذا الباب في أربعة فصول:

الأول: في سبب الوضوء وهو قضاء حاجة الإنسان.

الثاني: في كيفية الوضوء.

الثالث: في الغسل من الجنابة.

الرابع: في كيفية التيمم، وبالله التوفيق.

الفصل الأول: في آداب قضاء الحاجة

قال الله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾[٣]. تنبيهاً على أن البدء به قبل الطهارة، وفي الحديث: «إذا سمعتم النداء وحضر الخلاء فابدأوا بالخلاء». كل ذلك حث على فراغ الخاطر، والذي ينبغي لمن أراد قضاء الحاجة من البول والغائط أن يبتعد عن الناس في

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٤٤، ١٤٥).

(٣) سورة النساء الآية: ٤٣.

الصحراء، وأن يستتر بشيء إن وجده، وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس، وأن لا يستقبل الشمس والقمر والريح والطريق. وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلا إذا كان في بناء والانحراف أيضاً في البناء أحب إليّ وإن استتر في الصحراء براحلته فقد أجاز ذلك بعض العلماء، وأن يتقي الجلوس في متحدث الناس، وأن لا يبول في الماء الجاري، ولا الراكد، ولا تحت الشجرة المثمرة، ولا في الأجحرة، ولا في حريم المسجد، ولا المقبرة، ولا في حرث الزرع، ولا في طرقات الناس، ولا في مواضع المضرة، وأن يتقي البول في المكان الصلب، وأن يتقي مهاب الرياح في البول تنزهاً في رشاشه. وأن يتكىء في جلوسه على الرجل اليسرى، وإن كان في بنيان أو غار قدّم الرجل اليسرى في الدخول، واليمنى في الخروج، ولا يبول قائماً.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من حدّثكم أن رسول الله ﷺ كان يبول قائماً فلا تصدقوه[١].

[٣٢٦/ب] / ورخّص بعضهم في ذلك لعله الضرورة، ولا يبول في المغتسل قال عليه السلام: «فإن عامة الوسواس منه»[٢].

ولا يستصحب معه شيئاً عليه اسم الله عز وجل ورسوله عليه السلام، وأن لا يدخل بيت الماء حاسر الرأس، وأن يقول عند الدخول: بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم، وأن لا يخلط البول مع الغائط ما وجد إلى ذلك سبيلاً؛ لأنه فيما قيل يحجب الدعاء، وأن يعد النبل قبل الجلوس، وهي الحجارة الصغار للاستجمار، وأن لا يستنجي بالماء في موضع قضاء الحاجة، وأن يستبرىء من البول بالتنحنح والنثر ثلاثاً، وإمرار اليد على أسفل القضيب، ولا يكثر التفكر في الاستبراء فيتوسوس، ويشق عليه الأمر، وكان أخفهم استبراء أفقههم، فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه.

وفي الحديث عن سلمان رحمه الله قال: علمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام كل شيء حتى الخراءة أمرنا أن لا نستجمر بعظم ولا روث، ونهانا أن نستقبل القبلة ببول ولا غائط[٣].

---

(١) قال العراقي في المغني (١/ ١٣٠): رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وقال الترمذي هو أحسن شيء في هذا الباب وأصح.

(٢) قال العراقي في المصدر السابق: رواه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مغفل، قال الترمذي غريب. قلت: وإسناده صحيح.

(٣) قال العراقي في الموضع السابق: رواه مسلم.

ويقال: إن رجلاً من الأعراب خاصم صاحبه فقال: لا أحسبك تحسن الخراءة. فقال: بلى وأبيك، إني بها لحاذق، أبعد الأثر، وأعد المدر، واستقبل الشيح، واستدبر الريح، وأقعى إقعاء الظبي، وأجفل إجفال النعام[1].

وفي كتاب الغزالي قال: والإقعاء هاهنا أن يستوفز على صدور قدميه، والإجفال أن يرفع عجزه، وأن لا يسلم على من كان مشتغلاً بقضاء الحاجة ولا يرد إن سلم عليه ولا يقرأ القرآن، ولا يذكر اسم الله، فإذا فرغ فليستجمر بثلاثة أحجار غير / ملس ولا حرش، وقيل بالرخصة [٣٢٧/أ] بحجر واحد إذا كان له ثلاثة حروف، وإن لم يجد الحجر فالمدر، وإن لم يجده فالتراب، ولا يستجمر بعظم ولا روث ولا زجاج ولا فحم ولا ما له حرمة الطعام كقصب الزرع وشماريخ النخل، وغير ذلك، ولا بما له حرمة في الشرع كحجارة المصلى، واللوح وورق الكتب.

وكيفية الاستجمار: أن يأخذ الحجر بيمينه، ويمسك القضيب بيساره، ويمسح الحجر بقضيبه، ويحرك اليسار فيمسح ثلاثاً ثم يأخذ الحجر بيساره فيضعه على مقدم المقعدة في موضع النجاسة، ويمره بالمسح والإدارة إلى المؤخر، ويأخذ الحجر الثاني فيضعه على المؤخر، ويمر به إلى مقدم المقعدة، ويأخذ الثالث فيديره حول المسر به إدارة، وإن عسرت الإدارة ومسح من المقدم أو المؤخر أجزأه ذلك، والله أعلم ثم يقول عند القيام: الحمد لله الذي اطعمني طعاماً طيباً، واذاقني لذته وأذهب عني مضرته.

كيفية الاستنجاء: فإذا انقطعت الرصوبة بالاستجمار، انتقل إلى الاستنجاء بالماء، ولا بد من الجمع بين الأحجار والماء؛ فالأحجار لتخفيف العين عن الموضع، والماء للإنقاء وإزالة الأثر.

والمستحب في صفة إستعمال الماء: أن يصب الماء على اليد قبل مباشرتها النجاسة فيغسلها ثلاثاً ثم يجلس على المستحم متمكناً على غير موضع صلب أو مكان نجس لئلا يتطاير عليه من الغسالة شيء ثم يذكر الله تعالى مبتدئاً بغسل محل البول أولاً ثم ينتقل إلى محل الغائط، فيرسل الماء ويوالي الصب على يده اليسرى غاسلاً بها المحل، ويسترخي قليلاً ليتمكن من الإنقاء، ويجيد العرك / حتى ينقى وتزول اللزوجة، وتطمئن النفس، وتطيب ويزول [٣٢٨/أ] الشك عنها من غير تحديد عدد، لأن ذلك يختلف بالكثرة والقلة والغلظة والرقة. ثم ينفصل من المستحم بذكر الله تعالى، والدعاء إليه يقول: اللهم حصن فرجي بالإسلام، وطهر قلبي من

---

(١) في الأصل: «النعم» والتصويب من الإحياء (١/ ١٣١).

النفاق، وجسدي من النجاسات، وزوجني من الحور العين برحمتك يا أرحم الراحمين. وليحذر أن يتعرض للباطن بإدخال الإصبع فيه، فإن ذلك منبع الوسواس، وليعلم أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن، وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء، وإن كان يؤذيه ذلك فليرش الماء عليه حتى يقوي في نفسه ذلك ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس.

وفي الخبر أن النبي ﷺ فعل ذلك: أعني رش الماء، ذكر ذلك ابن جعفر العماني وغيره والله أعلم، ثم إذا فرغ من الاستنجاء انتقل عن مستحمه إلى موضع آخر للوضوء[1].

الفصل الثاني: في فضل الوضوء

وكيفيته قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[2] الآية.

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من توضأ فأسبغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من أمر الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[3].

وفي لفظ آخر: «ولم يسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه».

وعنه ﷺ من طريق جابر بن زيد عن أنس بن مالك أنه قال: ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع /به الدرجات» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إسباغ الوضوء في المكاره، ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلك الرباط». قالها ثلاثاً[4]. [٣٢٩/ب]

وعنه ﷺ من طريق جابر بن زيد رضي الله عنه عن أبي هريرة أنه عليه السلام قال: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع آخر قطر الماء، ثم إذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطش بهما، ثم كذلك حتى يخرج نقياً من الذنوب»[5].

---

(١) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٣١) بنحوه.

(٢) سورة المائدة الآية: ٦.

(٣) قال العراقي في المغني (١/ ١٣٤): رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق باللفظين معاً، وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله: بشيء من الدنيا، ودون قوله لم يسه فيهما، ورواه أبو داود من حديث زيد بن خالد: ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما. الحديث.

(٤) قال العراقي في المرجع السابق عن نحوه: رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٥) وعن نحوه قال العراقي في المغني (١/ ١٣٥): رواه أبو داود وابن ماجه من حديث الصنابحي إسناده صحيح ولكن اختلف في صحبته، وعند مسلم من حديث أبي هريرة وعمرو بن عنبسة نحوه مختصراً.

وفي حديث آخر: «ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له»[(١)].

وعنه عليه السلام أنه: توضأ مرة مرة فقال: «هذا وضوء لا يقبل الله سبحانه الصلاة إلاّ به». ثم توضأ مرتين مرتين، ثم قال: «من توضأ مرتين آتاه الله أجره مرتين»[(٢)].

وفي لفظ آخر: «مَنْ ضاعف، ضاعف الله له». ثم توضأ ثلاثاً ثلاثاً، فقال: «هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي، ووضوء أبي إبراهيم عليه السلام»[(٣)].

وعنه عليه السلام أنه قال: «من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات»[(٤)].

وعنه عليه السلام أنه قال: «الوضوء على الوضوء نور على نور»[(٥)].

وهذا حثٌ على تجديد الوضوء، ويروى: «أن الطاهر كالصائم».[(٦)].

وعنه ﷺ أنه قال: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء ثم قال: اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب، الجنة يدخل من أي باب شاء»[(٧)].

وعن عمر رضي الله عنه أنه / قال: الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان وعن مجاهد أنه [٣٣٠/أ] قال: من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه[(٨)].

وفي حديث الربيع عن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرىء توضأ فأحسن وضوءه، ثم توضأ فأحسن وضوءه، ثم صلى الصلاة إلاّ غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها».

---

(١) راجع التعليق على ما قبله.

(٢) قال العراقي في المغني (١/ ١٣٤): رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٣) قال العراقي في المغني (١/ ١٣٤): رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٤) وفي المرجع السابق أيضاً: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٥) وفيه أيضاً قال: لم أجد له أصلاً.

(٦) قال العراقي في المغني (١/ ١٣٥): رواه أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث الطاهر النائم كالصائم القائم وسنده ضعيف.

(٧) وفيه أيضاً قال: رواه أبو داود من حديث عقبة بن عامر وهو عند مسلم دون قوله: ثم رفع. هكذا عزاه المزي في الأطراف وقد رواه في اليوم والليلة من رواية عقبة بن عامر، وكذا رواه الدارمي في مسنده.

(٨) راجع كل ما سبق في الإحياء (١/ ١٣٤، ١٣٥).

وعنه عليه السلام أنه قيل له: كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك؟ قال: «إنهم يأتون غرّاً محجلين من أثر الوضوء». والله أعلم.

كيفية الوضوء: ثم إذا فرغ من الاستنجاء وأزال كل نجس كان في بدنه، فليشتغل بالوضوء، وقد روي أن النبي ﷺ لم ير قط خارجاً من الغائط إلاّ توضأ، ويستحب للإنسان أن يبتدىء بالسواك قبل الوضوء.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك»[١] فينبغي أن ينوي بالسواك تطهير فمه لقراءة الفاتحة وذكر اسم الله عز وجل في الصلاة، وقد قيل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاة على إثر السواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك»[٢].

وعنه ﷺ أنه قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة وكل وضوء»[٣].

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما لي أراكم تدخلون عليّ قلحاً، إستاكوا»[٤]. وقوله: «قلحاً» أي صفر الأسنان. وكان عليه السلام يستاك في الليلة مراراً[٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لم يزل عليه السلام يأمر بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء[٦].

[٣٣١/ب] وعنه / عليه السلام أنه قال: «عليكم بالسواك؛ فإنه مطهرة للفم ومرضات للرب»[٧].

---

(١) قال العراقي في المغني (١/ ١٣١): رواه أبو نعيم في الحلية من حديث علي، ورواه موقوفاً على عليّ وكلاهما ضعيف.

(٢) وقال في المرجع والموضع السابق: رواه أبو نعيم في كتاب السواك من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، ورواه أبو داود، والحاكم وصححه، والبيهقي وضعفه من حديث عائشة وضعفه بلفظ من سبعين صلاة.

(٣) قال العراقي في المغني (١/ ١٣٢): متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) وقال في المرجع السابق: رواه البزار والبيهقي من حديث العباس بن عبد المطلب وأبو داود، والبغوي من حديث تمام بن العباس والبيهقي من حديث عبد الله بن عباس وهو مضطرب.

(٥) وقال في المرجع السابق أيضاً: رواه مسلم من حديث ابن عباس.

(٦) وقال فيه أيضاً: رواه أحمد.

(٧) وفيه أيضاً قال: رواه البخاري تعليقاً موقوفاً من حديث عائشة والنسائي وابن خزيمة موصولاً قلت: وصل المصنف (أي الغزالي وكذا الجيطالي هنا) هذا الحديث بحديث ابن عباس الذي قبله وقد رواه من حديث ابن عباس الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان.

وعن علي أنه قال: السواك يزيد في الحفظ، ويذهب البلغم. وكان أصحاب النبي عليه السلام فيما بلغنا يروحون والسواك على أذانهم.

وكيفيته: أن يستاك بخشب الآراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يحسن، ويزيل القلح أعني صفرة الأسنان ويستاك طولاً وعرضاً، وإن اقتصر فعرضاً، ويستحب السواك عند كل صلاة، وعند كل وضوء وإن لم يصل عقيبه، وعند تغير رائحة الفم بالنوم، أو طول الأزم، أو أكل ما تكره رائحته. ثم عند الفراغ من السواك فليجلس للوضوء ويقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأن النبي عليه السلام قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»[1]. أي لا وضوء كاملاً، ويقول عند ذلك: أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون. ثم يغسل يديه ثلاثاً قبل أن يدخلهما في الإناء ويقول: اللهم إني أسألك اليمن والبركة، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ثم ينوي بالوضوء رفع الحدث واستباحة الصلاة يقول في نفسه: ارفع بوضوئي هذا جميع الأحداث، وأتوضأ للصلاة طاعة لله ولرسوله عليه السلام، ويستديم النية إلى غسل الوجه، فإن نسيها عند الوجه فقد شدد بعضهم في وضوءه، إنه لا يجزيه ثم يأخذ غرفة من الماء لفيه فيتمضمض ثلاثاً ويغرغر فاه بأن يرد الماء إلى الغلصمة إلاّ أن يكون صائماً فيرفق لئلا يبلع الماء. ويقول عند ذلك: اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك، وأطعمني من ثمار جنتك، ثم يأخذ غرفة أخرى لأنفه، ويستنشق ثلاثاً / بأن يصعد الماء بالنفس [٣٣٢/أ] إلى خياشمه، ويستنثر ما فيه ويقول في الاستنشاق: اللهم اشممني رائحة الجنة وأنت عني راض بفضلك، وفي الاستنثار يقول: اللهم إني أعوذ بك من روائح النار، ومن سوء الدار؛ لأن الاستنشاق إيصال الماء، والاستنثار إزالته. وإن أراد أن يجمع الفم والأنف جميعاً بالمضمضة والاستنشاق فإنه يجزيه ذلك، ويجعل إصبعه في الفم والأنف عند ذلك إن لم يكن له عذر يمنعه من خروج الدم من الفم أو جرح في أنفه. ثم يغترف غرفة لوجهه، فيغسله من مبدإ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقابل الذقن من الطول، ومن الأذن إلى الأذن في العرض.

وفي كتاب الغزالي قال: ولا تدخل في الوجه النزعتان اللتان على طرفي الجبين فهما من الرأس. قال: ويوصل الماء إلى مواضع التحذيف، وهو ما يعتاد الناس تنحية الشعر عنه، وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه مهما وقع طرف الخيط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة، وهما الحاجبان والشاربان والأهداب والعذاران؛ لأنها خفيفة في الغالب، والعذاران هما ما يواري الأذنين من ممتد اللحية. ويجب

---

(١) قال العراقي في المغني (١/١٣٢): متفق عليه من حديث أبي هريرة.

إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة أعني ما يقابل من الوجه، وأما الكثيفة فلا، وحكم العنفقة حكم اللحية في الكثافة والخفة ثم يغسل ما ذكرنا ثلاثاً، ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية، ويدخل الإصبع في محاجر العينين، وهو ما يبدو من النقاب منهما، وكذلك موضع الرمص[١] ومجتمع الكحل فينقي ذلك كله، فقد روي أنه عليه السلام فعل ذلك [٣٣٣/ب] / ويرجو عند ذلك خروج الخطايا من عينيه.

وكذلك عند كل عضو ويقول عند غسل الوجه: اللهم بيِّض وجهي بنورك يوم تبيَّض وجوه أوليائك، وأعوذ بك أن تسوِّد وجهي بظلماتك يوم تسوَّد وجوه أعدائك. وتخليل اللحية عند غسل الوجه مستحب، ثم يغسل يديه إلى مرفقيه ثلاثاً، ويحرِّك الخاتم إن كان في يده، ويطيل الغرَّة، ويرفع الماء إلى أعالي العضدين فإنهم يحشرون يوم القيامة غرّاً محجلين من آثار الوضوء كما ورد الخبر.

وعنه عليه السلام أنه قال: «من استطاع أن يطيل غرّته فليفعل»[٢].

وروي أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء ويبدأ باليمنى، ويقول: اللهم اعطني كتابي بيمني وحاسبني حساباً يسيراً. ويقول عند غسل الشمال: اللهم إني أعوذ بك أن تعطني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري. ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويمسح من مقدم رأسه، وقد قرن رؤوس أصابع يديه حتى يبلغ القفا، ثم يردهما إلى حيث بدأ، ثم يصل كفيه إلى صدغيه إلى عظم أعالي اللحية، ثم يردهما إلى فوق ذلك؛ لأن العلماء أنزلوا الرأس منزلة العظمين، وهما حد حلق المحرم رأسه، يفعل ذلك ثلاثاً. وإن مسح بعض رأسه أجزاه، ويقول عند مسح الرأس: اللهم غشني برحمتك، وأنزل عليّ من بركاتك واظللني تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك، ثم يمسح أذنيه ظاهرهما، وباطنهما بماء جديد أفضل وذلك بأن يدخل مسبحتيه في صماخي أذنيه، ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه، ثم يضع كفيه على ظاهر الأذنين استظهاراً [٣٣٤/ب] ويكرره ثلاثاً ويقول: اللهم اجعلني من / الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم اسمعني منادي الجنة مع الأبرار. ويستحب مسح رقبته بماء جديد؛ لأنه قيل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مسح الرقبة أمان من الغل يوم القيامة»[٣]. ويقول: اللهم حرّم شعري، وبشري من النار،

---

(١) قال العراقي في المغني (١/ ١٣٣): حديث إدخاله الإصبع في محاجر العينين وموضع الرمص. رواه أحمد من حديث أبي أمامة كان يتعاهد الماقين، ورواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف: «أشربوا الماء أعينكم».

(٢) قال العراقي في الموضع السابق: أخرجاه من حديث أبي هريرة.

(٣) قال العراقي في المصدر والموضع السابق: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عمر، =

وفك رقبتي من السلاسل والأغلال يوم الخزي والبوار. وليس بواجب استئناف الماء للأذنين، بل استحباب؛ لأنه قد روي عنه عليه السلام أنه مسح أذنيه مع رأسه، ولم يذكر عنه استئناف الماء لهما. ثم يغسل رجله اليمنى ثلاثاً ويخلل بخنصر اليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى، ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمنى، ويختم بالخنصر من اليسرى ويقول: اللهمّ ثبت قدمي على الصراط يوم تثبت أقدام الأبرار. ويقول عند غسل اليسرى: اللهم إني أعوذ بك أن تزل قدمي على الصراط يوم تزل أقدام المنافقين والكفار. ويبلغ بالماء إلى أنصاف الساقين ويبالغ في غسل بواطن القدمين كلتيهما، لقوله عليه السلام: «ويل للعواقب من النار، وويل لبطون الأقدام من النار»[١].

وذلك لمن ترك عرقوبيه وباطن قدميه في الوضوء. فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، سبحانك اللهم وبحمدك لا إلٰه إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي استغفرك وأتوب إليك فاغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم. ثم يزيد في الدعاء يقول: اللهمّ اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك / الصالحين، واجعلني أذكرك ذكراً كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلاً. يقال: أن [٣٣٥/أ] من قال الكلمات الأولى بعد الوضوء ختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلا يزال يسبح الله ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة. ويكره في الوضوء أمور منها: أن يزيد على الثلاث، وأن يسرف في صبّ الماء، وقد روي أن رسول الله ﷺ: توضأ ثلاثاً فقال: «من زاد فقد ظلم وأساء»[٢].

وعنه أيضاً قال: «سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور»[٣]. ويقال: من ضعف علم الرجل ولعه بالماء في الوضوء.

وقد روي أن عبد الله بن معقل سمع ابناً له وهو يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة. فقال: يا بني إذا سألت فاسأل الله الجنة، وتعوّذ به من النار؛ فإني سمعت

= وهو ضعيف.

(١) روى نحوه الستة، ومالك، وأحمد، والبيهقي، والدارمي، والدارقطني، وعبد الرزاق، وابن خزيمة، والحميدي وغيرهم.

(٢) قال العراقي في المغني (١/١٣٣): رواه أبو داود، والنسائي واللفظ له، وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) وقال في الموضع السابق أيضاً: رواه أبو داود، وابن ماجه وابن حبان، والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل.

النبي عليه السلام يقول: «يكون في آخر الزمان قوم يعتدون في الدعاء والطهور».

وقال بعض العلماء: أول ما يبدأ الوسواس من قبل الطهور، وعن الحسن قال: إن شيطاناً يضحك بالناس في الوضوء يقال له: الولهان.

وفي حديث الربيع رحمه الله عن النبي عليه السلام أنه قال: «إن لبدء الوضوء شيطاناً يقال له الولهان». قال الربيع: إنما قيل له الولهان؛ لأنه يلهي النفوس. ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء، وأن يتكلم في أثناء وضوءه، وأن يلطم وجهه بالماء لطماً.

وكره قوم التنشف وقالوا: الوضوء نور، قاله سعيد ابن المسيب والزهري ولكن قد روي عن معاذ رضي الله عنه أنه ﷺ: مسح وجهه بطرف ثوبه[١].

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنه عليه السلام كانت له منشفة[٢].

[٣٣٦/ب] / قال الربيع: قال أبو عبيدة رحمهما الله: المعمول [به] عندنا أن لا يمسح أعضاءه بعد الغسل، وهو إستحباب من أهل العلم في نيل الثواب ما دام الماء على أعضائه.

ويكره أيضاً أن يتوضأ من إناء صفر، وأن يتوضأ بالماء المشمس، وذلك من جهة الطب والله أعلم.

ومهما فرغ من وضوءه وأقبل على الصلاة ينبغي أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره، وهو موضع نظر الخلق فينبغي أن يستحي من مناجات الله تعالى من غير تطهير قلبه، وهو موضع نظر الربّ جلّ جلاله، وليتحقق أن طهارة القلب إنما هي بالتوبة والخلو عن الأخلاق المذمومة، وإن مثل من اقتصر على طهارة الظاهر كمثل من أراد أن يدعو ملكاً إلى بيته فتركه مشحوناً بالقذورات، واشتغل بتجصيص الظاهر البراني من الدار فما أجدره بالتعرض للبوار، والله أعلم وبه الحول والتوفيق[٣].

الفصل الثالث: في كيفية الغسل

ونذكر ما لا بد للمسترشدين منه قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَرُوا﴾[٤]. أي اغتسلوا.

---

(١) قال العراقي في المغني (١/ ١٣٤): رواه الترمذي وقال غريب وإسناده ضعيف.

(٢) وفي الموضع السابق أيضاً: رواه الترمذي وقال: ليس بالقائم، قال: ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب شيء.

(٣) راجع في هذا الباب إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٣١، ١٣٤).

(٤) سورة المائدة الآية: ٦.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «تحت كل شعرة جنابة فبلوا الشعر ونقوا البشر». فإذا أراد الإنسان الغسل من الجنابة بعد المراودة، وانقطاع الرطوبة فليقصد إلى موضع مستتر عن الناس، فليقعد على المستحم ويضع الإناء عن يمينه ثم يسمي الله عز وجل ويغسل يديه ثلاثاً ثم يستنجي كما وصفنا ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت به، ثم يتوضأ وضوء الصلاة كما سبق إلاّ غسل قدميه؛ فإنه يؤخرهما، وأن غسلهما ثم وضعهما على الأرض / كالإضاعة للماء [٣٣٧/أ] ثم يتمضمض، ويستنشق ثم يبدأ بأم رأسه فيغسله، ثم يبدأ بميامنه، ويصبّ الماء على شقه الأيمن ثلاثاً، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً، ثم يدلك ما أقبل من بدنه وما أدبر، ويخلل شعر الرأس، ويوصل الماء إلى منابت ما كثف منها أو خفّ، ويصب على ظهره وبطنه حتى يأتي على سائر جسده، ثم يتنحى عن موضعه فيغسل قدميه إلا أن يكون الموضع منحلراً فيغسل قدميه فيه أو في غيره وليتق أن يمس ذكره في أثناء الغسل، فإن فعل ذلك فليعد الوضوء، وإن توضأ بعد الغسل فحسن، وليس عليه ذلك إلاّ إن انتقض وضوءه الأول، ويتعهد معاطف البدن ويدخل يده في سرته، وليس عليه إلاّ غسل ما ظهر من بدنه، وليس على المرأة نقض ظفائر شعر رأسها إلا إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلل الشعر فلتنقضها والله أعلم[١].

فهذه سنة الغسل والوضوء ذكرنا منها ما لا بد منه لسالكي طريق الآخرة من علمه وعمله، وما سوى ذلك من المسائل التي يحتاج إليها في عوارض الأحوال، فليرجع فيها إلى كتب الفقه.

والواجب من جملة ما ذكرناه في الغسل أمران: النية، واستيعاب البدن بالغسل مع إمرار اليد، ومن الوضوء: النية، وغسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، ومسح ما ينطلق عليه الاسم من الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين.

وأما الترتيب والموالات فليستا واجبتين وما سوى هذا من المضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين وغير ذلك سنن واستحباب والله أعلم[٢].

والغسل الواجب / أربعة: الغسل بخروج المنيّ، ولالتقاء الختانين، والحيض، [٣٣٨/أ] والنفاس، وما عداه من الاغتسال سنة: كالغسل للجمعة، وللعيدين، وللإحرام، ولوقوف عرفة، ولمبيت المزدلفة، ولدخول مكة.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٣٥).

(٢) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٣٥).

وثلاثة: اغتسال أيام التشريق، ولطواف الوداع على قول، وللمشرك إذا أسلم غير جنب، وللمجنون إذا أفاق، ولمن غسل ميتاً، ولمن احتجم، فكل ما ذكرنا سُنة ومستحب وبالله التوفيق[١].

الفصل الرابع: في كيفية التيمم

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾[٢].

وقال عليه السلام: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً». وينبغي أن يقتصر في هذه الطهارة أيضاً على ما لا بد منه بسالك طريق الآخرة، اعلم أن من تعذر عليه استعمال الماء بفقده بعد الطلب أو بمانع منعه عن الوصول إليه من سبع أو عدو حابس له، أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو عطش رفيقه أو كان ملكاً لغيره، فامتنع من بيعه له إلا بأكثر من ثمن مثله، أو كان به جروح أو قروح أو مرض خاف من استعمال الماء معه فساد بعض أعضائه، ولم يكن له عزل ذلك الموضع، أو خاف تأخير البرء أو زيادة المرض، فإنه يصبر حتى يدخل وقت الصلاة المفروضة، فإن كان آيساً من استعمال الماء بأحد هذه الأعذار. فليقصد إلى التراب الطاهر الذي يصلح للحرث والنبات ويثور منه الغبار، فلينو النية في ذلك ويقول في نفسه: ارفع بتيممي هذا جميع الأحداث، وأتيمم للصلاة طاعة لله ولرسوله عليه السلام. وليقل: بسم الله، وليضع يديه مع كفيه وهما / يابستان مفرّقاً بين [٣٣٩/ب] أصابعه على التراب اليابس ثم يرفعهما ويقرن بعضهما إلى بعض، وينفضهما نفضاً خفيفاً فيمسح بهما وجهه مستوعباً له ماراً بيديه من أعلاه إلى أن يستوفيه، وليراع الوترة وهي ما بين المنخرين، ولا يتكلف إيصال الغبار إلى ما تحت الشعور خفّ أو كثف يحصل ما ذكرنا الضربة الواحدة، وليقل حين يرفعهما إلى الوجه: الله أكبر، ثم يردهما إلى التراب فيضرب بهما ضربة أخرى، ثم يرفعهما قارناً لهما من عند إبهاميه فيضع اليسرى على ظاهر اليمنى ويمر بها على ظاهر الكف ثم يعمل بكفه اليمنى على ظاهر كف اليسرى. كذلك وإن أخطأ شيئاً من مواضع الوضوء لم يصبه التراب، فقد أجزأه، وليس عليه أن يخلل بين أصابعه في التيمم فيما وجدت في الأثر؛ لأن هذا مسح لا غسل، فإذا صلى الفريضة بذلك التيمم فله

---

(١) راجع في الباب المصدر السابق.

(٢) سورة المائدة الآية: ٦.

أن يتنفل كيف شاء، فإن لم يجمع بين فرضين فينبغي أن يعيد التيمم للثانية والله أعلم[١].

فصـــل

ويجب على المتطهر بالماء، أو التراب عند فقد الماء أن يستصحب حال وضوئه أو تيممه عند فعل الصلاة، وإن طرأ عليه ما ينقض طهارته وجب عليه الإتيان بها وإلا بطلت صلاته لقوله عليه السلام: «لا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ». والذي ينقض الطهارة من الوضوء أو التيمم هو كل نجاسة تخرج من الجسد من أي موضع خرجت؟ وعلى أي جهة خرجت؟ سواء كانت من القبل مثل: البول، والمني، والمذي، والودي، والدم، أو كانت من الدبر: كالغائط والدم، والدابة، والحصاة، والريح وغيرها. أو سالت من الأنف: كالرعاف، أو من الفم / كالقيء والقلس أو سفحت من جرح أو قرح: كالدم والصديد الذي غلب عليه [٣٤٠/أ] الدم، أو من سائر الجسد: كالفصد والحجامة، وكذلك كل نجاسة من هذه الأنجاس أو غيرها تلاقي بدن المتوضىء من غيره، سواء لاقته بإختياره: كلمسه النجس الرطب، أو غسل ميتاً غير متولي، أو ما أشبه ذلك، أو لاقته بغير إختياره: كدابة تبول أو تذبح فيطير البول أو الدم إليه فيمس جسده. وكذلك لحم الخنزير، والمنجوس من الطعام والشراب، وما أشبه ذلك إذا مسّ بدنه.

وينقض الوضوء أيضاً زوال العقل بإغماء، أو جنون أو سكر، أو مرض برسام، أو نوم مضطجعاً وأشباه ذلك. وكذلك مس الفروج مباشراً بباطن كفه من غير حائل بينه وبين الفرج ينقض الوضوء خطأً كان أو عمداً، وهذا إذا مس الذكر، أو موضع الغائط من عورته، وكذلك عورة غيره تنقض الوضوء إذا مسها. وكذلك أبدان النساء الأجنبيات، إذا مس ذلك على غير سبيل المعالجة ما خلا الأمة؛ فإنه لا ينقض من مس بدنها إلاّ الفرج، وكذلك ذوات المحارم على هذا الحال، وإما إن قَبَّل زوجته أو سريرته فلا نقض عليه[٢]. وكذلك غيبة المسلم، وقول الكذب، وقذف المحصنات، وبهتان البريء، والنميمة، ولعن البهائم، والأطفال، وجميع من لا يستحق اللعن والشرك بالله، وتسمية الفروج بأقبح أسمائها كل ذلك ينقض الوضوء.

وكذلك الاستماع إلى جميع ما لا يحل استماعه: مثل غيبة المسلم، والسر من اثنين، واللهو والمزمار واستماع النوح، والغناء، وغير ذلك ينقض / الوضوء. [٣٤١/أ]

---

(١) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/١٣٦) بتوسع يسير.

(٢) كل ما قاله من ناحية مس المرأة أجنبية كانت أو من المحارم خالف فيه ابن حزم الذي يرى عكس ذلك رحمنا ورحمهما الله.

وكذلك النظر إلى عورات الآدميين غير نفسه أو زوجته أو سريرته ينقض الوضوء، وكذلك النظر في سر كتاب غير مباح كل هذا ينقض الوضوء عند أصحابنا والله أعلم.

قد ذكرنا من النجاسات، والفضلات، والطهارات الظاهرة على الأبدان ما لا بد منها لسالكي طريق الآخرة، وليتحققوا أن نجاسات الباطن، وفضلاته، وأوساخه من الأخلاق المذمومة، والاعتقادات الفاسدة التي يجب التنظف منها أكثر من أن تحصى وبالله التوفيق كملت أسرار الطهارة بحمد الله وحسن عونه والصلاة على محمد نبيه يتلوها أسرار الصلاة إن شاء الله.

قنطرة الصلاة في ذكر أسرارها وفضائلها

اعلم أن الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيّدة القربات، وغرَّة الطاعات قدّم الله تعالى فرضها على الصيام؛ لأن الصلاة أسهل عملاً، وأيسر فعلاً، وجعل الله لها شروطاً لازمة من رفع حدث، وإزالة نجس، كما قدمنا ليستديم العبد النظافة للقاء ربه والطهارة لأداء فرضه ثم ضمنها تعالى تلاوة كتابه المنزَّل ليتدبر ما فيه من أوامره ونواهيه، ويعتبر بإعجاز ألفاظه ومعانيه ثم علقها بأوقات راتبة، وأزمان مترادفة ليكون ترادف أزمانها، وتتابع أوقاتها سبباً لاستدامة الخضوع له، والابتهال إليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة / فيه، فإذا لم تنقطع الرغبة [٣٤٢/ب] والرهبة وضعفهما، يكون استيفاؤها على الكمال أو التقصير فيها عن حال الجواز، ثم من لطف الله سبحانه بخلقه أن جعل لهم من جنس كل فريضة نفلاً، وجعل لهم من الثواب قسطاً وندبهم إليه ندباً، وجعل لهم بالحسنة عشراً ليضاعف ثواب فاعله، ويضع العقاب عن تاركه، ونحن إن شاء الله في هذا الكتاب مقتصرون على ما لا بد للمكلف منه من أعمال الصلاة الظاهرة وأسرارها الباطنة، وكاشفون عن دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والإخلاص والنية ما لم تجر العادة بذكرها في كتب الفقه ومرتبون ذلك إن شاء الله على ستة أبواب[١]:

الباب الأول: في فضل المسجد، وفضل الأذان، وفضل الصلاة.

الباب الثاني: في تفسير الأعمال الظاهرة ومناهي الصلاة.

الباب الثالث: في كشف معاني أعمالها الباطنة الخفية.

الباب الرابع: في كيفية الإمامة فيها، وما على الأئمة.

الباب الخامس: في صلاة الجمعة، وسننها وآدابها المستحبة.

---

(١) رتب الغزالي ذلك في كتابه على سبعة أبواب راجع الإحياء (١/ ١٤٥).

الباب السادس: في الصلوات المسنونة، والنوافل المرغوب فيها.

الأول: في فضل المسجد، وفضل الأذان، وفضل الصلاة، وفضل الخشوع والركوع والسجود، وإتمام الأركان، وصلاة الجماعة.

فيشتمل هذا الباب على هذا الحال على ستة فصول:

الفصل الأول: في فضل الأذان

قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[١] الآية.

فقيل أنها نزلت في المؤذنين، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ﴾[٢] الآية.

أراد بالنداء الأذان، وعن ابن / عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاثة [٣٤٣/أ] يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ مما بين الناس: رجل قرأ القرآن إبتغاء وجه الله عز وجل، وأَمَّ به قوماً وهم به راضون، ورجل أذَّن في مسجد سبع سنين لا يأخذ على أذانه طعماً ودعا إلى الله ابتغاء وجهه، ورجل ابتلى بالرزق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عبادة ربه، وأدّى حق مولاه»[٣].

وعنه ﷺ أنه قال: «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس، ولا شيء إلاّ شهد له يوم القيامة»[٤].

وعنه ﷺ أنه قال: «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه»[٥].

وعن ابن عمر عنه ﷺ أنه قال: «المؤذن المحتسب كالشهيد المتشحط بدمه في سبيل الله، ما دام في أذانه ويشهد له كل رطب ويابس، فإذا مات لم يدّود في قبره».

وعن عبد الله بن مسعود رحمه الله أنه قال: لو كنت مؤذناً لما باليت أن لا أحج، ولا أعتمر، ولا أجاهد.

---

(١) سورة فصلت الآية: ٣٣.

(٢) سورة المائدة الآية: ٥٨.

(٣) قال العراقي في المغني عن نحوه (١/١٤٥): رواه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر مختصراً، وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف (أي الغزالي).

(٤) وقال في نفس الموضع: رواه البخاري من حديث أبي سعيد.

(٥) قال العراقي في المغني (١/١٤٦): رواه الطبراني في الأوسط، والحسن بن سعيد في مسنده من حديث أنس بإسناد ضعيف.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: لو كنت مؤذناً لكمل أمري، وما باليت أن لا أنتصب لقيام ليل، ولا صيام نهار، سمعت النبي ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين، اللهم اغفر للمؤذنين».

قال: فقلت: يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف، فقال: «كلا يا عمر سيأتي على الناس زمان يتركون الآذان على ضعفائهم فتلك لحوم حرمها الله على النار». يعني لحوم المؤذنين.

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: من صلى بأرض فلاة صلى على يمينه ملك وعن شماله ملك، فإذا أذّن وأقام صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة.

[٣٤٤/ب] وعن / النبي عليه السلام أنه قال: «الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن، اللهم ارشد الأئمة واغفر للمؤذنين».

ويقال: إن المؤذنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة، وعنه ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم الأذان فقولوا مثل ما يقول المؤذن»[١].

وفي حديث آخر: «ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله عز وجل وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة».

وعنه ﷺ أنه قال: «الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً غفر له».

وفي حديث آخر عنه عليه السلام أنه قال: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إلاّ حلت له الشفاعة يوم القيامة».

وروي أنه ﷺ كان إذا قال بلال: قد قامت الصلاة، قال عليه السلام: «أقامها الله وأدامها». وينبغي لمن سمع الأذان أن يقول كما يقول المؤذن إلاّ في الحيعلتين فإنه يقول فيهما: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) قال العراقي في المغني (١/١٤٦): متفق عليه من حديث أبي سعيد.

وفي قوله قد قامت الصلاة: أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض.

وفي التثويب: صدقت وبررت، وعند فراغ المؤذن من الأذان يدعو بالدعوة المتقدمة في الحديث.

وعن أم سلمة / رضي الله عنها أنه عليه السلام علّمها أن تقول عند أذان المغرب: اللهم [٣٤٥/أ] هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك فاغفر لي. وبالله التوفيق[١].

الفصل الثاني في فضل المسجد

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾: يعني المساجد، ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾: أي تكرم وتصان وتعظم، وقيل ترفع: تبنى ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[٣] الآية.

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «من بنى مسجداً لله تعالى ولو مثل مفحص قطاة بنى الله له تعالى قصراً في الجنة»[٤].

وعنه ﷺ أنه قال: «من أَلِفَ المسجد أَلِفَهُ الله تعالى»[٥].

وعنه ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان»[٦].

وفي بعض الكتب يقول الله عز وجل: «إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها هم عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور أن يكرم زائره»[٧].

---

(١) راجع في الباب إحياء علوم الدين (١/١٤٥، ١٤٦).

(٢) سورة التوبة الآية: ١٨.

(٣) سورة النور الآية: ٣٦.

(٤) رواه ابن ماجة من حديث جابر بسند صحيح، وابن حبان من حديث أبي ذر وهو متفق من حديث عثمان دون قوله ولو مثل مفحص قطاة، قاله العراقي في المغني (١/١٥١).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/١٥٢).

(٦) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه، والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد. قاله العراقي في المرجع السابق.

(٧) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي سعيد بسند ضعيف... وهو في الشُّعب نحوه موقوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ بإسناد صحيح، وأسند ابن حبان في الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه.

وعنه ﷺ أنه قال: «إن الحصاة لتناشد الذي أخرجها من المسجد».

وفي حديث آخر أنه قال: «عرضت على أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها».

وعنه ﷺ أنه قال: «يأتي في آخر الزمان ناس يأتون المساجد يقعدون فيها حلقاً حلقاً ذكرهم الدنيا، وحب الدنيا فلا تجالسوهم، فليس لله بهم من حاجة»(١).

[٣٤٦/ب] وفي الخبر: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما / تأكل البهائم الحشيش»(٢).

وعنه عليه السلام أنه قال: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث، أو يقم، يقولون: اللهم اغفر له وارحمه»(٣).

وفي حديث آخر: «لا يزال العبد في صلاة ما كان في مصلاه ينتظر الصلاة، تقول الملائكة: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه حتى ينصرف أو يُحْدِث» قيل: وما يحدث. قال: «يفسو أو يضرط».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من أتى المسجد لشيء فهو حظه».

وعنه عليه السلام أنه قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس»(٤).

وعنه عليه السلام أنه قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك فإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك».

وفي حديث آخر عن عمر بن العاص عنه عليه السلام أنه: كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم». قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: عصم مني سائر اليوم.

---

(١) رواه ابن حبان من حديث ابن مسعود، والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح الإسناد. قاله العراقي في المغني (١/١٥٢).
(٢) لم أقف له على أصل. قاله العراقي في المرجع السابق.
(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني (١/١٥١).
(٤) متفق عليه من حديث أبي قتادة. قاله العراقي في المصدر السابق.

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة على النار». تنزوي: أي تنضم وتنقبض.

وفي حديث جابر بن عبد الله أنه قال: أتانا رسول الله ﷺ في مسجدنا هذا وفي يده عرجون بن طاب: يعني نوعاً من ألوان الثمر قال: فنظر فرأى في قبلة المسجد نخامة، فأقبل عليها فحتها بالعرجون ثم قال: «أيكم أحب أن يعرض الله عز وجل عنه».

فقال: «إن أحدكم إذا قام يصلي فإن الله قبل وجهه فلا / يبصقن قبل وجهه، ولا عن يمينه وليبصق عن يساره تحت رجله اليسرى، فإن عجلت به بادرة فليقل بثوبه هكذا» ووضعه على فيه ثم دلكه «أروني غبيراً». [٣٤٧/أ]

فقام فتى من الحي يشتد إلى أهله فجاء بخلوق في راحته، فأخذه عليه السلام فجعله على رأس العرجون ثم لطخ به على أثر النخامة.

قال جابر: فمن هناك جعلتم الخلوق في مساجدكم. وعن النخعي أنه قال: كانوا يرون أن المشي في الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة(١).

وفي حديث النبي ﷺ أنه قال: «من غدا أو راح إلى المسجد لا يريد غيره ليتعلم خيراً أو يعلمه ثم يرجع إلى بيته، كان كالمجاهد في سبيل الله يرجع غانماً».

وقال عليه السلام: «رهبانية أمتي عمارة المساجد».

وعن الحسن بن علي أنه قال: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى خمس خصال: أخاً مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستطرفاً، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء.

وعنه عليه السلام أنه قال: «المساجد بيوت المتقين». وقال: «إنما جعلت لذكر الله والصلاة».

وعن أنس بن مالك أنه قال: من أسرج سراجاً في المسجد لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد وضوءه(٢).

وفي حديث الربيع عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «طهرت المساجد من ثلاثة: من

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ١٥٢).
(٢) راجع المصدر السابق.

أن ينشد فيها بالضالة، أو يتخذ فيها طريق، أو يكون فيها سوق».

وقال ابن عباس: ولا بأس من إنشاد الضالة على أبواب المسجد.

[٣٤٨/ب] وعن ميمونة مولاة النبي ﷺ، / أنها قالت: يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس.

قال: «أئتوه فصلوا فيه». وكانت البلاد إذ ذاك حرباً. «فإن لم تأتوه وتصلوا فيه، فابعثوا بزيت يسرج في قناديله». والله أعلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال النبي عليه السلام: «ما أمرت بتشييد المساجد».

ثم قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى، وفي حديث أنس عنه ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد».

وفي حديث أنس أنه قال: كان النبي ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، ثم أنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى بني النجار فقال لهم: «ثامنوني بحائطكم هذا».

فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله.

قال أنس: وكان فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل فأمر عليه السلام بالقبور فنبشت وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه حجارة.

وفي حديث ابن عمر أنه قال: إن مسجد النبي عليه السلام كانت سواريه على عهده من جزوع النخل، أعلاه مظلل بجريدة النخل، ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فبناها بجذوع النخل، وبجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة عثمان فبناها بالآجر فلم تزل ثابتة حتى الآن.

وفي حديث آخر: لم يزد فيه أبو بكر، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد النبي عليه السلام باللبن والجريد، وأعاد عمده.

قال مجاهد: عمده خشب فغيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده ـ / قال مجاهد: ـ من حجارة منقوشة، وسقَّفَهُ بالساج، والله أعلم. [٣٤٩/ب]

ويروى أن عليّاً كتب إلى بعض قضاته فقال: احذروا التزاويق والشرافات في المسجد؛ فإن المسجد جَمٌّ.

قيل: كالشاة الجماء التي لا قرون لها.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «جعلت لي الأرض مسجداً» الحديث.

وعن عطاء الخراساني أنه قال: ما من عبد سجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت.

ويقال: الصلاة في المسجد بأربع وعشرين صلاة، وفي المصلى باثنتي عشرة.

وفي الحديث: «الصلاة في مسجد النبي عليه السلام خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، وفي المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وفي بيت المقدس بخمسمائة صلاة». والله أعلم.

وعن أنس بن مالك أنه قال: ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر، إلا افتخرت على ما حولها من البقاع، واستبشرت بذكر الله عز وجل عليها إلى منتهاها من سبع أرضين، وما من عبد يقوم إلا تزخرفت له الأرض[١].

ويقال: ما من منزل نزله قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلعنهم.

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا مات العبد يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء، ثم قرأ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾[٢].

وقال ابن عباس: تبكي عليه الأرض أربعين صباحاً[٣]. والله أعلم.

الفصل الثالث في فضيلة الصلوات وعقوبتها

/ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٤] أي فرضاً موقوتاً. [٣٥٠/أ]

وقال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾[٥] الآية.

وقال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾[٦].

---

(١) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/١٥١، ١٥٢) في هذا الباب باختصار.
(٢) سورة الدخان الآية: ٢٩.
(٣) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/١٥١، ١٥٢) في هذا الباب باختصار.
(٤) سورة النساء الآية: ١٠٣.
(٥) سورة البقرة الآية: ٢٣٨.
(٦) سورة هود الآية: ١١٤.

وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[١].

وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام حين تكلم في المهد: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[٢].

وقال تعالى مخبراً عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾[٣] الآية.

وقال تعالى مخبراً عن الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾[٤] الآية.

في أمثال هذه مما يطول به الكتاب. وصح عن النبي عليه السلام أنه قال: «لكل شيء عمود، وعمود الدين الصلاة، وعمود الصلاة الخشوع، وخيركم عند الله أتقاكم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا إيمان لمن لا صلاة له، ولا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء ولا صلاة لمن لا صوم له، ولا صوم إلا بالكف عن محارم الله».

وعنه عليه السلام أنه قال: «الصلاة عماد الدين، فمن تركها فقد هدم الإيمان»[٥].

وقال: «بني الإسلام على خمس: على أن يوحد الله تعالى، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من هانت عليه صلاته، كان على الله أهون».

وعنه عليه السلام أنه قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟». قالوا: بلى يا رسول الله، قال عليه السلام: «إسباغ الوضوء عند المكاره، وكثرة الخطى إلى / المساجد في الظلمات، وإنتظار الصلاة بعد الصلاة». [٣٥١/ب]

وعنه عليه السلام أنه قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى

---

(١) سورة طه الآية: ١٣٢.
(٢) سورة مريم الآية: ٣١.
(٣) سورة مريم الآية: ٥٥.
(٤) سورة الأنبياء الآية: ٧٣.
(٥) قال العراقي في المغني (١٤٦/١): رواه البيقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عمر، قال الحاكم عكرمة لم يسمع من عمر، قال وررواه ابن عمر، ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسيط إنه غير معروف.

رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[(١)]. وعنه عليه السلام أنه قال: «الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء والقرآن حجة لك وعليك»[(٢)].

ومن أبي أمامة عنه عليه السلام أنه قال: «من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه كأجر الحاج المعتمر، وصلاة على أثر صلاة لا لغو فيها كتب في عليين».

وعنه عليه السلام أنه قال: «زكوا تفلحوا، صلوا تنجحوا، وصوموا تصحوا وسافروا تغنموا».

وعنه عليه السلام قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة الفجر فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون».

الربيع بن حبيب عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خمس صلوات كتبهن الله على العبد في اليوم والليلة، فمن جاء بهن لم يضيع من حقهن شيئاً جاء وله عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن نقص من حقهن شيئاً جاء وله عند الله عهد أن يدخله النار»[(٣)].

وعنه ﷺ من طريق سلمان الفارسي رحمه الله أنه قال: «الصلاة مكيال فمن وَفَّى وُفِّي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في المطففين». رواه جابر بن زيد عن سلمان موقوفاً.

وعنه ﷺ وقد ذكر أخوان عنده / هلك أحدهما فقال عليه السلام: «وما يدريكم ما بلغت [٣٥٢/أ] به صلاته، إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقى من درنه شيء». قالوا: لا شيء، قال ﷺ: «فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن، فإنكم لا تدرون ما بلغت به صلاته».

---

(١) أطراف الحديث عند: مسلم في الصحيح الطهارة (١٤، ١٥، ١٦) وابن ماجه في السنن (٥٩٨)، والترمذي في الجامع الصحيح (٢١٤)، والبيهقي (٢/٤٦٦).

(٢) أطرافه عند: مسلم في الصحيح الطهارة (ب ١ رقم ١٠٠)، والترمذي في الجامع الصحيح (٣٥١٧)، النسائي في المجتبى (الزكاة ب ١)، وابن ماجه في السنن (٢٨٠، ٤٢١٠)، والدارمي في السنن (١/١٦٧).

(٣) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (١٤٢٠)، والنسائي في المجتبى (١/٢٣٠)، وأحمد في المسند (٥/٣١٥، ٢١٩)، والبيهقي في السنن (١/٣٦١)، والحميدي في المسند (٣٨٩).

وعنه عليه السلام قال: «الصلاة علم الإيمان فمن حفظها وحافظ عليها لوقتها بحدودها، وفرائضها، وسننها فهو مؤمن».

وعنه عليه السلام قال: «بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونها»[١].

وعنه ﷺ أنه قال: «من لقي الله وهو مضيع للصلوات لم يعب الله عز وجل بشيء من حسناته».

وعنه ﷺ أنه سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «الصلاة لمواقيتها»[٢].

وعنه عليه السلام أنه قال: «من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كن له نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن ضيّعها حشر مع فرعون وهامان».

وعنه ﷺ أنه قال: «مفتاح الجنة الصلاة»[٣].

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما افترض الله عز وجل على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد وقائم وقاعد»[٤].

وعنه عليه السلام أنه قال: «من ترك الصلاة كفر»[٥]. وقال عليه السلام: «العهد الذي بيننا وبينكم تركهم الصلاة فمن تركها فقد كفر».

[٣٥٣/ب] وفي خبر آخر من طريق الربيع بإسناد عنه عليه السلام قال: «ليس بين / العبد والكفر إلا تركه الصلاة».

وعن علي بن أبي طالب وجماعة من الصحابة والتابعين والفقهاء أنهم قالوا: تارك الصلاة كافر.

وعن علي أيضاً: من ترك الصلاة فقد خرج من الإيمان.

---

(١) أطرافه عند: مالك في الموطأ (١٣٠)، والشافي في المسند (٥٢)، البيهقي في السنن (٥٩/٣).

(٢) قال العراقي في المغني (١٤٦/١): متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) رواه أبو داود الطيالسي من حديث جابر، وهو عند الترمذي ولكن ليس داخلاً في الرواية. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٤) لم أجده هكذا، وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر، وعند الحاكم من حديث ابن عمر. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٥) رواه البزار من حديث أبي الدرداء بإسناد فيه مقال. عن نحوه قاله العراقي في المغني (١٤٧/١).

أبو سفيان محبوب بن الرحيل العبدي رحمه الله عن المعتمر بن عمارة بن سالم بن ذكوان الهلالي قال: ما لقي الله عبد بذنب أعظم من ترك الصلاة.

وعن عمر بن الخطاب رحمه الله أنه قيل له: الصلاة يا أمير المؤمنين.

فقال وجرحه ينبعث دماً: نعم ولا حظّ في الإسلام لأحد ترك الصلاة.

وعن ابن مسعود رحمه الله قال: من لم يصل فلا دين له.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «من ترك الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمة محمد ﷺ»[١].

ويروى أن أول ما ينظر من عمل العبد يوم القيامة الصلاة، فإن وجدت تامة قبلت منه وقبل سائر عمله، وإن وجدت ناقصة ردت عليه ورُدَّ سائر عمله[٢].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يكتب إلى عماله أن: أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها فهو لما سواها أحفظ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

وقد عاب الله أقواماً وذمهم وتوعدهم بالوعيد الشديد، والعذاب الأليم بتضييعهم بعض حقوقها فكيف التارك لها؟ فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ إلى قوله: ﴿غَيًّا﴾[٣].

وعن عمر بن عبد العزيز قال: أضاعوها أي ضيّعوا حدودها ومواقيتها، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[٤] قيل: وادياً في جهنم.

وقال تعالى: / ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾[٥] الآية. [١/٣٥٤]

وقد أمر الله نبيه بجهاد العدو، ووضع السيف في أهل الكفر بالله، ولم يأمره بالكف عنهم إلا بعد تأدية الصلاة وقرنها بالإيمان به فقال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ﴾[٦] الآية.

---

(١) رواه أحمد، والبيهقي من حديث أم أيمن بنحوه ورجاله ثقات. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) رويناه في الطيوريات من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف، ولأصحاب السنن، والحاكم وصحح إسناده نحوه من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) سورة مريم الآية: ٥٩.

(٤) سورة مريم الآية: ٥٩.

(٥) سورة الماعون الآية: ٤.

(٦) سورة التوبة الآية: ٥.

وجاء عنه عليه السلام أنه: نهى عن قتل المصلين فثبت بدليل الخطاب قتل غير المصلين، فلعمري أن الذي عليه أكثر سلف الأمة من كل المذاهب إستتابة تارك الصلاة، فإن تاب وارتدع وصلى وإلا ضربت عنقه.

وعنه عليه السلام أنه قال: «يا أبا هريرة: مر أهلك بالصلاة؛ فإن الله تعالى يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب»[1].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه فيما بلغنا: إذا حضرت الصلاة قال: قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فاطفئوها[2].

وفي حديث أبي نر رضي الله عنه أنه قال: من تهاون بالصلاة ثلاثة أيام مع لياليها عاقبه الله بخمس عشرة خصلة ست في حياته، وثلاث عند موته، وثلاث في قبره وثلاث في المحشر.

أما اللواتي في الحياة: فينزع البركة من رزقه، وعمره، وينزع سيم الصالحين من وجهه، ولا يستجاب دعاؤه، ولا يجد ثواب عمله.

وأما اللواتي عند الموت: فأنه يموت جائعاً، عطشاناً، ذليلاً.

وأما اللواتي في القبر: فيضيق القبر وظلمته وعذابه في البرزخ حتى تقوم القيامة.

وأما اللواتي في المحشر: فإنه يسحب على وجهه ويعذب عذاباً أليماً، وينادي عليه مناد هذا جزاء من ضيّع ما افترض الله عليه.

[٣٥٥/ب] وعنه عليه / السلام أنه قال: «ما أعطى العبد خيراً من أن يؤذن له في ركعتين يصليهما».

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة مرضات الرب وحب الملائكة وسنة الأنبياء وأصل الإيمان، وإجابة الدعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرزق، وراحة الأبدان، وسلاح الأعداء، وكراهية الشيطان، وشفيع لصاحبها عند الموت، وسراج في القبر، وفراش لجنبه، وجواب منكر ونكير، ومؤنس معه، وزائر له في قبره، فإذا كانت القيامة صارت الصلاة ظلاً فوقه وتاجاً على رأسه، ولباساً على بدنه، ونوراً يسعى بين يديه، وستراً بينه وبين النار، وحجة بين يدي الرب تعالى، وثقلاً في الميزان، وجوازاً على

---

(١) لم أقف له على أصل. قاله العراقي في المغني (١/١٤٧).
(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (١/١٤٧).

الصراط، ومفتاحاً للجنة؛ لأن الصلاة تحميد، وتسبيح، وتمجيد، وتعظيم وقراءة ودعاء، فيها يتوصل العبد إلى الملك الأعلى وبها يصرف عنه البلاء».

كما حكي في الخبر: أن آدم عليه السلام نزلت به قرحة في إبهام رجليه ثم ارتفعت إلى قدميه ثم ارتفعت إلى ركبتيه ثم إلى حقويه، فقام يصلي فنزلت إلى ركبتيه، ثم قام يصلي فنزلت إلى قدميه ثم قام يصلي فذهبت من جميع جسده.

وعن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما توضأ عبد فأحسن الوضوء ثم أتى الصلاة إلا غفر الله له ما بينه وبين الصلاة الأخرى».

فالتمست ذلك في كتاب الله تعالى، فإذا هو في سورة المائدة في قوله: / ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى [٣٥٦/أ] ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾[(١)].

فعلمت أن تمام النعمة على المصلين تطهيرهم من الذنوب، وإتمام المغفرة.

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: حضرت الوفاة رجلاً من الأنصار فقال: من في البيت؟ فقالوا: أهلك وإخوانك وجلساؤك في المسجد. فقال: اقعدوني. فأسنده ابنه إلى صدره، ففتح عينيه وسلم على القوم فردوا عليه السلام وقالوا: خيراً. فقال: أما إني أحدثكم حديثاً ما حدثت به أحداً منذ سمعته من رسول الله ﷺ وما أحدثكم به إلا إيماناً واحتساباً: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد يصلي في جماعة المسلمين، لم يرفع رجله اليمنى إلا كتبت له حسنة، ولا يضع رجله اليسرى إلا محيت عنه سيئة حتى يأتي المسجد فليقترب أو يتباعد، فإذا صلى الصلاة انصرف وقد غفر له»[(٢)].

وكان عبد الله بن عمر فيما بلغنا يقول: إن خطايا الإنسان في رأسه فإذا سجد انحطت الذنوب والخطايا من رأسه.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «أول ما يحاسب عليه الناس يوم القيامة الصلاة يقول الله تبارك وتعالى للملائكة انظروا إلى صلاة عبدي فإن كانت تامة اكتبوها تامة، وإن كانت ناقصة قال: انظروا إلى ما له من تطوع، فإن كان له تطوع قال: اكملوا فرضه من تطوعه رحمة منه على عبده». يريد ما نقص منها سهواً والله أعلم[(٣)].

---

(١) سورة المائدة الآية: ٦.
(٢) طرف الحديث عند البيهقي في السنن (٢/ ١١١).
(٣) راجع هذا الباب في إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٤٦، ١٤٧) وفيه بعض ما هنا.

الفصل الرابع: في فضل الخشوع

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٢] في أمثالها من الآيات، ومعنى الخشوع: الخوف الثابت في القلب، فإذا كان القلب خاشعاً خائفاً، أورث ذلك تيقظاً فيه، وسكوناً في الجوارح كما قال عليه السلام وقد نظر إلى رجل يعبث بلحيته فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[٣].

وقال تعالى: ﴿أَقِمْ ٱلصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُنْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾[٥].

وقال عز وجل: ﴿لاَ تَقْرَبُوا ٱلصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[٦]. قيل: سكارى من كثرة الهمّ، وقيل: من حب الدّنيا، وقيل: إن المراد به ظاهره وفيه تنبيه على سكر الدّنيا إذ بُيِّن فيه الغلة فقال: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[٧]. فكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول في صلاته، وقال بعض العلماء: الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواها.

وعن عمر بن دينار قال: ليس الخشوع في الركوع والسجود، ولكنه السكون وحسن الهيئة في الصلاة. وقيل: هو أن لا ترفع بصرك عن موضع سجودك. وقال بعضهم: يحتاج المصلي إلى أربع خصال حتى يكون خاشعاً: إعظام المقام، وإخلاص المقال، واليقين التام، وجمع الهمة وهذا هو الأصل.

وقد روي عن النبي ﷺ: «من صلى ركعتين لم يحدث فيهما بشيء من الدنيا غفر له ما

---

(١) سورة البقرة الآية: ٤٥.
(٢) سورة المؤمنون الآية: ١.
(٣) رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبي شيبة في المصنف وفيه رجل لم يسم. قاله العراقي في المغني (١/ ١٥٠).
(٤) سورة طه الآية: ١٤.
(٥) سورة الأعراف الآية: ٢٠٥.
(٦) سورة النساء الآية: ٤٣.
(٧) سورة النساء الآية: ٤٣.

تقدم من ذنبه»[١]. وهو مروي في الصحيح وقال ﷺ فيما بلغنا: «إنما الصلاة تمسكن وتواضع / وتضرع وتبائس وتنادم وتقنع رأسك فتقول: اللهم اللهم، فمن لم يفعل فهي خداج»[٢]. [٣٥٨/أ]

وروي عن الله سبحانه في الكتب السالفة أنه قال: ليس كل مصل تقبل صلاته، إنما تقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتكبر عليّ، واطعم الجائع الفقير لوجهي.

وقال ﷺ: «إنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله تعالى»[٣]، فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود، والمطلوب عظمة، ولا هيبة، فما قيمة ذكرك. وقال ﷺ للذي أوصاه: «إذا صليت فصّل صلاة مودّع»[٤]. قيل: معناه مودع لنفسه، مودع لهواه، مودّع لعمره، سائراً إلى مولاه كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾[٥].

وقال ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً، والصلاة مناجات فكيف تكون مع الغفلة»[٦].

وعن بكر بن عبد الله أنه قال: من مثلك يا ابن آدم، إذا أردت أن تدخل على مولاك بغير إذن دخلت قيل: وكيف ذلك؟ قال: تسبغ وضوءك وتدخل محرابك، فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فكلمه بغير ترجمان[٧].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث صلة بن أشيم مرسلاً وهو في الصحيحين من حديث عثمان بزيادة في أوله دون قوله بشيء من الدنيا وزاد الطبراني في الأوسط إلاّ بخير. قاله العراقي في المغني (١/ ١٥٠).

(٢) رواه الترمذي، والنسائي، بنحوه من حديث الفضل بن عباس بإسناد مضطرب قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه ابن ماجه من حديث أبي أيوب، والحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص، وقال صحيح الإسناد والبيهقي في الزهد من حديث ابن عمر، ومن حديث أنس بنحوه. قال العراقي في المصدر السابق.

(٤) سورة الانشقاق الآية: ٦.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢٢٣.

(٦) رواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح، ورواه الطبراني في الكبير، وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي عباس بإسناد لين والطبراني من قول ابن مسعود من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر الحديث وإسناده صحيح. قاله العراقي في المغني (١/ ١٥٠).

(٧) ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ١٥٠).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت [٣٥٩/ب] الصلاة فكأنه لم يعرفنا، ولم نعرفه[١]. اشتغالاً بعظمة الله تعالى وعنه ﷺ: / «لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه».

وكان إبراهيم الخليل عليه السلام فيما بلغنا إذا قام إلى الصلاة يسمع اضطراب قلبه على ميلين.

وكان بعض العلماء إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته[٢].

ويروى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالحصى ويقول: اللهم زوجني من الحور العين. فقال له: بئس الخاطب أنت، تخطب الحور العين وأنت تعبث[٣].

ويروى أنه قيل لخلف بن أيوب: ألا يؤذيك الذباب في الصلاة فتطردها. فقال: لا أعوّد نفسي شيئاً يفسد عليّ صلاتي. قيل له: وكيف تصبر على ذلك؟ قال: بلغني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال: فلان صبور، ويفتخرون بذلك، فكيف وأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذبابة؟![٤].

ويروى عن مسلم بن يسار أنه: كان إذا أراد الصلاة قال لأهله: تحدثوا أنتم فإني لست أسمعكم[٥].

ويروى عنه أنه كان يصلي يوماً في جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك، ولم يشعر به حتى انصرف من الصلاة[٦].

وكان علي بن أبي طالب إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون. فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟! فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها[٧].

---

(١) رواه الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلاً كان النبي ﷺ إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحداً من الناس. قاله العراقي في المغني (١/ ١٥٠).
(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ١٥١).
(٣) راجع المصدر السابق.
(٤) راجع المصدر السابق.
(٥) راجع المصدر السابق.
(٦) راجع المصدر السابق.
(٧) راجع المصدر السابق.

وروي عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء. فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه / أنه قال: قال داود عليه السلام: إلٰهي من يسكن بيتك، [٣٦٠/أ] وممن تتقبل منه الصلاة؟ فأوحى الله تعالى إليه: إنما يسكن بيتي واتقبل الصلاة منه من تواضع لعظمتي، وقطع نهاره بذكري، وكَفَّ نفسه عن الشهوات من أجلي، يطعم الجائع، ويأوي الغريب، ويرحم المصاب، فذلك الذي يضيء نوره في السماء كالشمس إن دعاني لبيّته، وإن سألني أعطيته، اجعل له في الجهل علماً، وفي الغفلة ذكراً، وفي الظلمة نوراً، وإنما مثله في الناس كالفردوس في الجنان، لا تتيبس أنهارها، ولا تتغير ثمارها[٢].

ويروى عن حاتم الأصم أنه سئل عن صلاته، فقال: إذا حان وقت الصلاة اسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم في مصلاي فأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن يساري، وملك الموت ورائي وأظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف فأكَبِّر تكبيراً بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل، واركع ركوعاً بتواضع، وأسجد بتخشع وأجلس على التمام، وأتشهد بالسنة، وأتبعها بالإخلاص ثم لا أدري أقبلت مِنِّي أم لا[٣].

فصـــل

اعلم أرشدك الله وإيّانا لطاعته، أن الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله تعالى وعظمته، ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعاً في الصلاة، وفي غيرها بل في جميع خلواته فإن موجب الخشوع معرفة اطّلاع الله تعالى على العبد، ومعرفة جلاله، ومعرفة / تقصير [٣٦١/أ] العبد في حق عظمته تعالى، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع، وليست مختصة بالصلاة.

ولذلك روي عن بعضهم: أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله تعالى وخضوعاً له.

وفي كتاب الغزالي قال: وكان الربيع بن خُثيم[٤] فيما بلغنا من شدة غضه للبصر،

---

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) راجع المصدر السابق.
(٣) راجع المصدر السابق.
(٤) الإمام القدوة العابد أبو يزيد الثوري الكوفي أحد الأعلام، أدرك زمان النبي ﷺ، وأرسل عنه.. قيل توفي=

وإطراقه إلى الأرض، يظن بعض الناس أنه أعمى، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة، فإذا رأته جاريته قالت لابن مسعود ـ رحمه الله ـ صديقك ذلك الأعمى قد جاء. فكان يضحك ابن مسعود من قولها وكان إذا دقّ الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقاً غاضّاً بصره، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول: وبشر المخبتين أما والله لو رآك محمد ﷺ لفرح بك[١].

وفي لفظ آخر: لأحبك ومشى ذات يوم مع ابن مسعود على الحدادين، فلما نظر إلى الأكوار تنفخ، وإلى النيران تلتهب صعق وسقط وخرَّ مغشياً عليه. وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة، ولم يفق فحمله على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشياً عليه إلى الساعة التي صعق فيها، ففاتته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله الخوف.

وكان الربيع فيما بلغنا يقول: ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها إلا ما أقول، وما يقال لي، والله أعلم.

وروي عن أبي بلال مرداس[٢] رحمه الله: أنه اجتاز على أعرابي يهنأ بعيراً له بالقطران، فلما رآه سقط مغشياً عليه، فجعل الأعرابي يقرأ في أذنه ظن أنه مجنون، فلما أفاق قال له: ليس بي ما ظننت، ولكني رأيت القطران فتذكرت / قطران النار. فقال الأعرابي: لاَ جَرَمَ، لا أفارقك. [٣٦٢/ب]

وروي عن أبي بلال أيضاً أنه: مرّ بحدادين هو وصاحب له، فلما نظر إليهم غشي عليه، فلم يزل الرجل يرش على وجهه الماء حتى أفاق ثم سارا فاستقبلتهما امرأة جسيمة بهية ذات كسوة وهيئة فلما نظر إليها أبو بلال سقط مغشياً عليه، فلم يزل صاحبه يرش الماء على جهه حتى أفاق فسارا فبينما هما يسيران إذا استقبلهما رجل على برذون في هيئة عجيبة، خلفه غلمان فلما نظر إليه أبو بلال سقط مغشياً عليه، فلم يزل صاحبه يرش الماء على وجهه حتى أفاق، فقال له: يا أبا بلال يرحمك الله ما هذا الذي أرى؟ أما المرة الأولى: فقد علمت أنك عاينت النار بذلك، فحدّثني عنك حين رأيت المرأة والرجل؟ فقال: أما المرأة فإني لما رأيت عظمها وجسمها وما هي فيه ذكرت تقلبها في النار فكان ما رأيت. وأما الرجل

= الربيع بن خثيم سنة خمس وستين. قاله الذهبي في السير (٢٥٨/٤).

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية (١٠٦/٢)، وابن سعد في الطبقات (١٨٢/٦).

(٢) هو: مرداس بن محمد بن الحارث بن عبد الله بن أبي بُردة بن صاحب رسول الله ﷺ أبو موسى الأشعري. قال عنه الذهبي في سيره (٥٨٢/١٠) الإمام المحدث أحد علماء الكوفة... لينه الدارقطني.... وأظنه مات قبل الثلاثين ومائتين، وكان من أبناء التسعين.

فكنت أراه كثيراً وهو يشهد مجالس المسلمين، فذكرت سوابق الشقاء فكان ما رأيت.

وذكر في سيرة الأشياخ أن رجلاً من أهل تنضج[(١)] كان يصلي على ظهر دكان فعمل في باطنه الإسفنج فلم يشم رائحته اشتغالاً بما هو فيه.

وروي عن أم داود امرأة أبي هارون رحمه الله: أنها كانت تصلي فدخل الحنش في كمها، وخرج من الكم الآخر، ولم تكسر الصلاة. قالت: فحسيت لينه على فخذي.

وكان عامر بن عبد الله فيما ذكر في كتاب الغزالي: من خاشعي المصلين قال: وكان إذا صلى ضربت ابنته الدف، وتحدث النساء بما يردن في البيت، ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله. وقيل له ذات يوم: هل تحدث / نفسك بشيء؟ قال: نعم بوقوفي بين يدي الله عز وجل، [٣٦٣/أ] ومنصرفي إلى إحدى الدارين. قيل: فهل تجد شيئاً مما نجد من أمور الدنيا. فقال: لأن تختلف الأسنة فيّ أحب إليّ من أن أجد في الصلاة ما تجدون. وكان يقول فيما بلغنا: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. وكان مسلم بن يسار منهم، إذ لم يشعر فيما بلغنا بسقوط إسطوانة في المسجد.

وفي كتاب الغزالي قال: وتأكل طرف من أطراف بعضهم، واحتيج إلى القطع، ولم يمكن منه. فقيل: إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه، فقطعت وهو في الصلاة. وقال بعضهم: الصلاة من الآخرة، فإذا دخلت في الصلاة خرجت من الدنيا. وقيل لآخر: هل تحدث نفسك في الصلاة بشيء من أمر الدنيا؟ فقال: لا في الصلاة، ولا في غيرها.

فهذه صفة الخاشعين، فثبت بما ذكرنا من الأخبار، والحكايات أن الأصل في الصلاة الخشوع، وإحضار القلب على ما سيأتي إن شاء الله، وإن مجرد الحركات قليل الجدوى، والمنفعة في الآخرة، وبالله التوفيق.

الفصل الخامس: في فضل إتمام الأركان من الركوع والسجود

وغير ذلك في الصلاة، اعلم أنه لا يستحق ثواب الصلاة إلا المقيمون لها بحدودها، ووظائفها؛ لأن المصلين كثير والمقيمين قليل. ولذلك عظم الله سبحانه الصلاة فقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[(٢)] الآية.

---

(١) كذا في الأصل، والذي وقفت عليه في معجم البلدان: تَنْضُب: وقال: قرية من أعمال مكة بأعلى نخلة فيها عين جارية ونخل.

(٢) سورة البقرة الآية: ٤٥.

فكلما ذكر الله في كتابه صفة المؤمنين نسبهم في الصلاة إلى الإقامة بها، فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾(١) الآية.

وقال تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾(٢).

[٣٦٤/ب] الذين يقيمون الصلاة في أمثالها. وقال في المنافقين: / ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾(٣).

وقال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾(٤). في أمثالها، لأن الصلاة هي خدمة الله تعالى في أرضه تتضمن على جميع طاعات المتعبدين من الملائكة وغيرهم. ولذلك قيل: إن الله تعالى خلق سبع سموات وحشاها بالملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون وتَعبدهم بأنواع العبادات، فأهل سماء قيام حتى ينفخ في الصور، وأهل سماء ركع، وأهل سماء سجد، وأهل سماء مرخية الأجنحة من هيبة الله تعالى. وأهل عليين ومن حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين فجمع الله عبادتهم كلها على اختلافهم فيها للمسلمين في صلاة واحدة لينالوا حظاً من عبادة أهل السموات، وزادهم القرآن يتلونه فيها، فدلّ ما ذكرنا أن الصلاة أمر عظيم، وفرض جسيم، وأنها معدن البر، وأساس الخير، والإتيان بها على الكمال أمر شديد: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(٥).

ولذلك قال عيسى عليه السلام: مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى.

وعن يزيد الرقاشي أنه قال: كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة. وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة، وركوعهما وسجودهما واحد، وأن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض»(٦). قيل: أشار بذلك إلى الخشوع. وعنه ﷺ أنه قال: «لا ينظر الله عز وجل إلى عبد لا يقيم صلبه في ركوعه، وسجوده»(٧). وعنه

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٧٣.
(٢) سورة النساء الآية: ١٦٢.
(٣) سورة الماعون الآية: ٤.
(٤) سورة النساء الآية: ١٤٢.
(٥) سورة البقرة الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٦) رواه ابن المحبر في العقل من حديث أبي أيوب الأنصاري بنحوه، وهو موضوع، ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن ابن المحبر. قاله العراقي في المغني (١/١٤٧).
(٧) رواه أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح. قاله العراقي في المصدر السابق.

ﷺ أنه قال: «أما يخاف الذي يحول وجهه / في الصلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار»[1]. [٣٦٥/أ]

وعن ضمام بن السائب بإسناده إلى حذيفة بن اليماني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة، حتى يقول آخر هذه الأمة: ما فينا منافق، ولا كافر، وإنّا لأولياء الله حقاً، وحق على الله أن يدركهم الدجال».

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضه في الإسلام، وما أكمل لله صلاته. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها.

وروي عنه أنه رأى رجلاً لم يحسن صلاته، بقيام وركوع، وسجود، فعلاه بالدرة فقال: والله لا نتركك تظهر النفاق بين أظهرنا.

وسئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[2]. فقال: هو الذي يسهو عن صلاته فلا يدري على كم ينصرف عن شفع أم وتر. وأنكر عليه الحسن فقال: هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى يخرج.

وقال بعضهم: هو الذي إن صلاها في أول الوقت لم يفرح، وإن أخرها عن الوقت لم يحزن، فلا يرى تعجيلها بِراً ولا تأخيرها إثماً.

وعن مطرف بن عبد الله رفع الحديث إلى عبد الله بن مسعود قال: بينما هو جالس في مسجد الكوفة: إذ دخل رجل بعد العصر، فجعل يصلي ولم يحسن صلاته في قيام وركوع وسجود. فقال ابن مسعود: ألا من محتسب يقوم فيضرب عنق هذا؟!

وروي عن الحسن أنه قال: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع.

وقال بعضهم: إن العبد يسجد السجدة عنده / أنه تقرّب إلى الله تعالى بها، ولو قسمت [٣٦٦/أ] ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لهلكوا. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يكون ساجداً عند الله تعالى وقلبه مصغ إلى هوى، أو مشاهد لباطل قد استوى عليه.

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه نظر إلى رجل يصلي لا يقيم ظهره، فلما فرغ قال: أتألم

---

(١) رواه ابن عدي في عوالي مشايخ مصر من حديث جابر: ما يؤمنه إذا التفت...، قال منكر بهذا الإسناد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله وجهه وجه حمار». قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) سورة الماعون الآية: ٤.

ظهرك؟ قال: لا. قال: أما إنك لو مت على حالتك هذه كنت مخالفاً لسنة رسول الله عليه السلام.

وأحسب أني رأيت في بعض الآثار: أن رجلاً خفف ركوعه وسجوده فقال له ابن مسعود منذ كم تصلي هذه الصلاة؟ قال: منذ أربعين سنة أو ما شاء الله. فقال: له ما صليت منذ أربعين سنة.

وجاء عن النبي عليه السلام أنه قال: «من صلى الصلاة لوقتها، فأسبغ وضوءها، وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومن صلى الصلاة لغير وقتها، ولم يسبغ وضوءها، ولم يتم ركوعها، ولا سجودها، ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول: ضيّعك الله كما ضيعتني، حتى إذا كانت بحيث شاء الله لُفّت كما يُلَف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها»(١).

وروي عنه ﷺ أنه قال: «ما ترون في الشارب، والسارق، والزاني»؟ وذلك قبل أن ينزل فيهم قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هن فواحش وفيهن العقوبة، وأسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته» قالوا: وكيف يسرق صلاته؟ قال: «لا يتم ركوعها ولا سجودها»(٢).

والآثار والأخبار في تعظيم الصلاة كثيرة جداً ويكفي في ذلك تعظيم الله إياها في كتابه [٣٦٧/ب] / في غير موضع قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٣).

فبدأ أعمالهم بخشوع الصلاة، وختمها بالمحافظة عليها، ثم عاب الإنسان وذمَّهُ بالجزع، والهلع، والمنع للخير إلا أهل الصلاة فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾(٤) فوصفهم بحسن أعمالهم، فختمها بالمحافظة على الصلاة. فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾(٥).

ثم ندب إليها رسوله فقال: ﴿ٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ﴾(٦). ففي

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف، والطيالسي، والبيهقي في الشعب من حديث عبادة بن الصامت بسند ضعيف نحوه. قاله العراقي في المغني (١/١٤٨).
(٢) قال العراقي عنه مختصراً في المغني (١/١٤٨): رواه أحمد، والحاكم وصحح إسناده من حديث قتادة.
(٣) سورة المؤمنون الآية: ١.
(٤) سورة المعارج الآيتان: ١٩، ٢٢.
(٥) سورة المعارج الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.
(٦) سورة العنكبوت الآية: ٤٥.

تلاوة القرآن جميع الطاعة واجتناب جميع المعاصي، ثم خصّ الصلاة بالذكر، وأمره أن يأمر أهله بها فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[1].

ثم أمر المؤمنين فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[2] الآية. وكذلك لما أخبر عن المؤمنين الأولين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[3]. في أمثالها مما يطول به الكتاب.

وحضّ عليها رسول الله ﷺ في جميع حالاته حتى عند خروج نفسه فقال: «الصلاة الصلاة».

وفي لفظ آخر: «الصلاة الزكاة وما ملكت اليمين». ثم قال رفيع الدرجات: «هل بلّغت»؟[4]. ثم لم يتكلم بعدها فيما قيل، والله أعلم.

الفصل السادس: في فضل صلاة الجماعة والوعد في تاركها

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا في بدو، ولا تقام فيهم الصلاة إلا وقد استحوذ عليهم / الشيطان». [٣٦٨/أ]

ثم قال عليه السلام: «وعليك بالجماعة، وإنما يأكل الذئب القاصية»[5].

قال الراوي للحديث: يعني بالجماعة الصلاة في الجماعة.

وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً يصلي بالناس، ثم انطلق برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم»[6].

ومن طريق آخر قال عليه السلام: «لقد هممت أن آمر فتيتي فيجمعوا لي حزماً من حطب ثم أتى قوماً يصلون في بيوتهم ليست بهم علّة فاحرقها عليهم».

---

(١) سورة طه الآية: ١٣٢.

(٢) سورة البقرة الآية: ٤٥.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٧٠.

(٤) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن الأدب (١٣٤)، وأحمد في المسند (٦/ ٢٩٠)، الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٧)، ابن سعد في الطبقات (٢: ٢: ٤٤).

(٥) أطراف الحديث عند أبي داود في السنن (الصلاة ب ٤٧)، النسائي في المجتبى (٢/ ١٠٦)، الدارمي في السنن (١/ ٤٦١)، الحاكم في المستدرك (١/ ٢٤٦)، والبيهقي في السنن (٣/ ٥٤).

(٦) متفق عليه. قاله العراقي في المغني (١/ ١٤٨).

قيل للراوي: عن أبي هريرة الجمعة عَنِيَ أو غيرها. قال: صُمَّت أذناي إن لم أكن سمعت أبا هريرة يأثره عن رسول الله ﷺ ما ذكر الجمعة ولا غيرها.

وعن عبد الله بن مسعود رحمه الله قال: من سره أن يلقى الله مسلماً فليحافظ على الصلوات المفروضات حيث ينادي بهن في الجماعة، فإن الله تعالى شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولقد أتى علينا زمان، وما يتخلف عنهن إلا منافق، معلوم نفاقه، ولعمري لو صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم.

وفي لفظ آخر: لكفرتم. ولقد رأيت الرجل يتهادى بين اثنين حتى يقام في الصف.

وعن ابن عباس عنه ﷺ أنه قال: «من سمع المنادي فلم يمنعه من إتباعه عذر لم تقبل منه الصلاة التي صلى» قيل: وما العذر؟ قال: / «خوف أو مرض». فقال ابن مكتوم: يا رسول الله إني رجل ضرير شاسع الدار، ولي قائد لا يلائمني فهل لي من رخصة أصلي في بيتي؟ قال: «هل تسمع النداء»؟ قال: نعم. قال: «لا أجد لك رخصة». ويقال: كان بينه وبين المسجد واد من نخل فأمر عليه السلام أن يشد له حبل من بيته إلى المسجد، فكان يمشي إليه. [٣٦٩/ب]

ومن طريق آخر قال ابن مكتوم: يا رسول الله إن المدينة كثيرة السباع والهوام، فقال: «أما تسمع حي على الصلاة حي على الفلاح فحيهلا».

وأما فضلها فقد قال عليه السلام: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»(١).

وعن عثمان بن عفان عنه ﷺ أنه قال: «من صلى العشاء في جماعة كان كقيام ليلة».

وعن أُبيّ بن كعب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً الصبح فقال: «أشاهد فلان»؟ قالوا: لا، قال: «أشاهد فلان»؟ قالوا: لا قال: «إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموها ولو حبواً على الركب، وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة، ولو علمتم ما فضيلته، لابتدرتموه وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله».

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف، والطيالسي، والبيهقي في الشعب من حديث عباد بن الصامت بسند ضعيف نحوه.

وفي بعض آثار قومنا عن أبي سعيد الخدري عنه عليه السلام أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام بعد العصر، ومعه سبعون ألف ملك فقال لي: يا محمد إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: قد أهدى لك هدية / قال: فقلت يا جبريل وما هذه الهدية؟ قال: صلاة الوتر وصلاة [٣٧٠/أ] الخمس في الجماعة فقلت له: يا جبريل وما لأمتي من صلاتها في الجماعة؟ فقال: يا محمد إن كانا اثنين كتب الله لكل واحد منهما بكل ركعة ثواب مائة وخمسين صلاة، وإن كانوا ثلاثة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة ثلثمائة صلاة وإن كانوا أربعة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة ستمائة صلاة، وإن كانوا خمسة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة ثواب ألف صلاة ومائتي صلاة، وإن كانوا ستة كتب الله لكل واحد منهم لكل ركعة ثواب ألفي صلاة، وأربعمائة صلاة، وإن كانوا سبعة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة أربعة آلاف صلاة وثمانمائة صلاة، وإن كانوا ثمانية كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة ثواب تسعة آلاف صلاة وستمائة صلاة، وإن كانوا تسعة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة ثواب تسعة وعشرين ألف صلاة ومائتين صلاة، وإن كانوا عشرة كتب الله لكل واحد منهم ثواب ثمانية وثلاثين ألف صلاة وأربعمائة صلاة فإن زادوا على العشر فلو كانت البحار مداداً، والأشجار أقلاماً، والثقلان كتاباً لم يقدروا أن يكتبوا ثواب ركعة واحدة من صلاة الجماعة. يا محمد تكبيرة ركعة واحدة يكبّرها المصلي المؤمن مع الإمام خير له من مائة ألف دينار يتصدق بها على المساكين، وسجدة واحدة يسجدها المؤمن مع الإمام خير له من عبادة سنة، وركعة واحدة يركعها المؤمن مع الإمام خير له من عتق رقبة» والله أعلم.

وعنه ﷺ أنه قال: / «من صلى أربعين يوماً صلاة الصبح في جماعة لا تفوته منها تكبيرة [٣٧١/أ] الإحرام كتب الله له براءتين براءة من النفاق وبراءة من النار»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: من سمع المنادي ثم لم يجب لم يرد خيراً ولم يرد به.

وعن أبي هريرة أنه قال: لأن تمتلىء أذن ابن آدم رصاصاً مذاباً خير له من أن يسمع المنادي ثم لا يجيبه.

ويقال: إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدري فتقول لهم الملائكة: ما كانت أعمالهم؟ فيقولون: كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة ولا يشغلنا عنها

---

(١) رواه الترمذي من حديث أنس بإسناد رجاله ثقات قاله العراقي في المغني (١٤٨/١).

غيرها، ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال: كنا نتوضأ قبل الوقت، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشموس فيقولون بعد السؤال: كنا نسمع الأذان في المسجد.

ويروى أن النبي ﷺ قال: «أتاني آتيان في نومي فقالا: انطلق معنا فانطلقت معهما فأتياني على رجل مضطجع وإذا بآخر قائم على رأسه بصخره يهوي بها إلى رأسه فيشدخه بها، ثم يأخذها ويرجع بها إليه فما يصل إليه حتى يرجع رأسه كما كان يفعل به مثل المرة الأولى فقلت: سبحان الله ما هذا؟! فقالا لي: إنه كان ينام عن صلاة العتمة».

ويقال: صلاة العشاء تثقل على من كان قبلنا ويكره النوم قبلها والحديث بعدها لأنها كالطابع على العمل.

ويروى أن قوماً كانوا في سفر لا يستنزلون الله إذا نزلوا، ولا يستجمعون على إمام فعميت أبصارهم فنودوا ذلكم /بأنكم لا تستنزلون الله إذا نزلتم، ولا تستجمعون على إمام، [٣٧٢/ب] فتابوا إلى الله وتضرعوا فرد الله عليه أبصارهم.

ويقال عن سعيد بن المسيب أنه قال: ما أذن المؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد.

وعن محمد بن واسع أنه قال: ما أشتهي من الدنيا إلا ثلاثة: أخاً في الله إن تعوجت قوّمني، وقوتاً من الرزق عفواً بلا تباعة، وصلاة في جماعة يرفع عني سهوها ويكتب لي فضلها.

وعن الحسن قال: لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء.

وعن النخعي قال: مثل الذي يؤم بالناس بغير علم كمثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدري زيادته من نقصانه.

ويقال: من أخذ تكبيرة الإحرام مع الإمام كمن أنفق مائة ناقة سود الحدق.

ويروى أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتهم التكبير الأول، ويعزون سبعاً إذا فاتتهم الجماعة.

وفي حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من توضأ فأحسن وضوءه ثم راح فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله تعالى مثل أجر من صلاها أو حضرها ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[1]. والله أعلم[2].

---

(١) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٢/ ٣٨٠)، (٤/ ١١٧، ١٥١)، (٦/ ١٤٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٦٩)، والبغوي في شرح السنة (٣/ ٣٤٢).

(٢) راجع في الباب إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٤٨، ١٤٩).

الباب الثاني
في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة

اعلم أنه ينبغي للمصلي إذا فرغ من الوضوء وطهارة الخبث من البدن، والثياب، والمكان، ومن ستر العورة من السرة إلى الركبة للرجل، وجميع البدن للمرأة هذا أقل السترة، وإن كان الثوب واسعاً فليستر الرجل / ظهره، وعامة بدنه. فإن خرج إلى المسجد فليخرج بنيّة [٣٧٣/أ] الزيادة، ويدخل المسجد بنيّة العبادة، وينتصب للصلاة قائماً متوجهاً إلى القبلة بنيّة الخدمة لله تعالى بالعبودية مقراً له بالربوبية. وليقم الصلاة وليؤذن أولاً إن رجا من يصلي معه، ولينتصب للصلاة جاعلاً بين رجليه مقدار مسقط نعل أو أربعة أصابع يراوح بذلك بين قدميه، ولا يضمهما، فإن ذلك فيما بلغنا مما يستدل به على فقه الرجل، هذا ما يراعي في رجليه عند القيام. ويراعي في ركبتيه ومعقد حزامه الانتصاب، وأما رأسه فإن شاء تركه على استواء القيام، وإن شاء أطرقه قليلاً، والاطراق أقرب للخشوع، وأغض للبصر، وليكن بصره محصوراً على مصلاه في موضع سجوده، فإن لم يكن مصلاً فليقرب من جدار أو ليخط خطاً؛ فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرق الفكر. ولا يخالف بين رجليه ولا يقف على أطراف أصابع إحدى رجليه وذلك هو الصفن المنهي عنه، وليرسل يديه إرسالاً مع بدنه، وليتخشع لله بقلبه، وجميع جوارحه، وليستقبل القبلة بوجهه وقلبه، وليعلم أنه مأمور بالصلاة والتوجيه بها إلى القبلة. وليعرف صلاته تلك، ويومه، وشهره، وليرج ثواب الله في أداء فرضه خائفاً من عقابه في تضييع شيء من أوامره، فإذا استوى قيامه واستقباله، وتخشعه فليحضرٍ النية على أداء صلاة معينة حضرية أو سفرية ويقول: رب إني عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت / اللهم أعني على أداء فريضتك التي فرضت عليَّ أن أؤدي صلاة الظهر فريضة [٣٧٤/أ] افترضتها عليّ، ويقول بقلبه هذه الألفاظ ليتميز بقوله: أؤدي عن القضاء، وبالفريضة عن النفل، وبالظهر عن العصر. ولتكن معاني هذه الألفاظ حاضرة في قلبه، فإنها النية، والألفاظ مذاكرة، وليجتهد أن يستديم النية إلى آخر التكبير حتى لا تغرب عن قلبه، فإذا حضر هذه الألفاظ كما ذكرنا فإنه يقول: اللهم أعني على أداء فرضك الذي افترضت عليّ بأن أؤدي صلاة الظهر فريضة افترضتها عليّ في يوم معلوم، وشهر معلوم، متقرباً بها إليك، راجياً بها ثوابك، خائفاً بها من عقابك، مستقبلاً بها فرض قبلتك، وهي الكعبة التي هي قبلة لأهل المسجد الذي هو قبلة لأهل مكة التي هي قبلة لأهل الحرم الذي هو قبلة لأهل الأرض. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي

ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك الله أكبر. وينبغي له أن يضم الهاء من «الله» بضمة خفيفة من غير مبالغة ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو، وذلك ينساق إليه بالمبالغة، ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفاً كأنه يقول: اكبار، ويجزم التكبير ولا يضمه، فإذا كبّر. فليسكت مقدار ما يبلغ ريقه، وليقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويعجم الذال من أعوذ ثم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيمن سراً في قراءة السر / وجهراً في قراءة الجهر. ثم يقرأ فاتحة [٣٧٥/ب] الكتاب بتمام تشديداتها وحروفها جهراً في مواضع الجهر، وذلك في الصبح والركعتين الأولتين من المغرب، والعشاء، ثم يقرأ سورة إن قدر أو ثلاث آيات من القرآن فما فوقها بعد الفاتحة جهراً ومعنى الجهر تحريك اللسان بقطع الحروف حتى يسمع أذنيه.

وإن كان في صلاة السر اقتصر على الفاتحة وذلك في الظهر والعصر والركعة الأخيرة من المغرب والأخيرتين من العشاء، ومعنى السر تقطيع الحروف باللسان دون أن يسمع الأذن، وإن لم يحرك لسانه فذلك تكييف ولا تجزيه. والمستحب في قراءة الصبح أن يقرأ من طوال سور المفصل من سورة محمد عليه السلام إلى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[1]. ثم إلى عبس، ويقرأ في العتمة من عبس إلى: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾[2]. وفي المغرب من: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾[3] إلى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[4]. ويقرأ في الصبح في السفر من السور القصار من: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾[5] إلى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[6]. وإن قرأ بغير ما ذكرنا فجائز، ثم إذا فرغ من قراءة السورة فليفصل بين القراءة وتكبير الركوع بقدر قوله سبحان الله. ثم يركع بتكبير يمده إلى انتهاء الركوع، وليمد ظهره مستوياً رأسه مع عنقه كالصفيحة الواحدة، لا يكون رأسه اخفض ولا أرفع. وليضع كفيه على ركبتيه وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة، ولينصب ركبتيه ولا يثنيهما، وليجاف مرفقيه عن جنبيه، رالمرأة تضمهما. وليقل: سبحان ربي العظيم ثلاثاً، وإن زاد عن الثلاثة إلى سبعة فلا بأس إن لم يكن إماماً. ثم يرتفع / من الركوع إلى القيام معتدلاً حتى يرجع كل عضو إلى [٣٧٦/ب] مفصله وليقل: سمع الله لمن حمده إن كان وحده، وإن كان مع إمام فليقل: ربنا ولك الحمد

(١) سورة الملك الآية: ١.
(٢) سورة الفجر الآية: ١.
(٣) سورة القدر الآية: ١.
(٤) سورة الإخلاص الآية: ١.
(٥) سورة الزلزلة الآية: ١.
(٦) سورة الكافرون الآية: ١.

ثم يهوي إلى السجود مكبراً فيضع ركبتيه على الأرض ثم كفيه مكشوفة ثم جبهته، وليكن أول ما يقع على الأرض منه ركبتاه، ثم يداه، ثم بعد ذلك جبهته مع أنفه، وليجاف مرفقيه عن جنبيه، وبطنه عن فخذيه، والمرأة في جميع ذلك تضمها، وليضع يديه على الأرض بين أذنيه وركبتيه، وليضم أصابعهما ولا يفترش ذراعيه على الأرض كافتراش الكلب، وليوصل إلى الأرض أكثر أصابع رجليه، وليسبح ثلاثة يقول: سبحان ربي الأعلى وإن زاد على ثلاثة فحسن إلا إن كان إماماً فليقتصر على الثلاث ثم يرفع رأسه من السجود مكبراً حتى يطمئن جالساً معتدلاً حتى يرجع كل عضو إلى مفصله. وليقعد بين رجليه وظاهر اليسرى مما يلي الأرض، وليضع يديه على فخذيه منشورة أصابعهما ثم يرجع إلى السجود مرة ثانية، وليفعل فيها كما فعل في الأولى، ثم يقوم إلى الركعة الثانية ولا يعتمد على يديه في حين القيام إلا أن يكون شيخاً كبيراً فلا بأس، والذي ينبغي له أن يقوم من الأرض كقيام المهر إذا تمرغ في الأرض، ولا يقدم إحدى رجليه في حالة القيام، ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين القعود إلى انتهاء القيام، كما يمده في حال هبوطه إلى السجود مداً يستغرق ما بينهما، ثم يصلي الركعة الثانية كالأولى، ثم يجلس للتشهد واضعاً ظهر قدمه اليمنى في أخمص اليسرى، وظاهر اليسرى مما يلي / الأرض. [٣٧٧/أ]

وأما المرأة فلتفض إلى الإرض بأوراكها، وترد رجليها إلى الجانب الأيمن فليقرأ التحيات إلى التشهد، وليقم بالتكبير إلى إتمام الصلاة، ثم يفعل في بقية صلاته كما تقدم ثم يجلس في آخرها للتشهد حتى يتمها، ثم يسلم تسليمة واحدة يقول: السلام عليكم يصفح بها وجهه على اليمين، ثم الشمال وينوي به الخروج من الصلاة.

وقيل: ينوي به التسليم على الحفظة، ولا يسلم المأموم حتى يفرغ الإمام من التسليم، وليحذف السلام حذفاً ولا يمده فهو السنة فهذه هيئة صلاة المنفرد وبالله التوفيق[١].

فصل في المناهي الواردة في الصلاة

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الصفن والصفد في الصلاة:

فالصفن: هو رفع إحدى الرجلين مع القيام على أطراف أصابعها ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾[٢].

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/١٥٢، ١٥٤).
(٢) سورة صٓ الآية: ٣١.

وأما الصفد: فهو اقتران القدمين معاً، ومنه قوله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾[١].

ونهى عليه السلام في الصلاة عن إقعاء الكلب، وهو عند أهل اللغة أن يجلس الإنسان على مقعدتيه ناصباً ركبتيه، ويجعل يديه على الأرض كالكلب.

وعند أهل الحديث: أن يجلس على ساقيه جاثياً، وليس على الأرض إلا رؤوس أصابع الرجلين. ونهي عن التفات، ونقر الديك، وذلك في الركوع والسجود، ونهى عن النظر قبل الوجه، ونهى عن افتراش الذراعين في السجود كما يفعل الكلب.

ونهى عليه السلام عن لباس السدل، والكفت، وعن الاختصار، وعن الصلب، وعن المواصلة، وعن صلاة الحاقن، والحاقب، والحازق، وعن صلاة الجائع، والغضبان، والمتلثم وهو ستر الوجه.

[٣٧٨/ب] أما السدل: فمذهب أهل الحديث فيه فيما / ذكر في كتاب الغزالي هو أن يلتحف بثوبه، ويدخل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم، والقميص في معناه، ولا ينبغي أن يركع ويسجد ويداه داخل القميص. ورخص في ذلك آخرون وهو فعل الربيع رحمه الله فيما ذكر أبو سفيان محبوب بن الرحيل رحمه الله، ولباس السدل عند أصحابنا هو أن يضع وسط الإزار على رأسه، ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه، وقيل: هو لبس الإزار على الطول كما تسدل الدواب. والله أعلم.

وأما الكفت: فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود، وقد يكون الكفت في شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره، والنهي في هذا للرجال خاصة، وفي الحديث: «أمرت أن أسجد على سبعة آراب، ولا أكفت شعراً، ولا ثوباً»[٢].

وأما الاختصار: فهو أن يضع يديه على خاصرتيه ويجافي بين عضديه في القيام.

والصلب: في معناه فيما وجدت.

وأما المواصلة: فهي أربعة اثنان على الإمام وهو أن لا يصل قراءته بتكبيرة الإحرام ولا ركوعه بقراءته، واثنان على المأموم: وهو أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام، ولا تسليمه بتسليمه.

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٤٩.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس. قاله العراقي في المغني (١/ ١٥٧).

وأما الحاقن: فمن البول.

والحاقب: من الغائط.

والحازق: صاحب الخف الضيق، فإن كل ذلك يمنع الخشوع وفي معناه الجائع والمهتم.

وفهم نهي الجائع في قوله عليه السلام: «إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب»(١).

وفي الخبر: «لا يدخلن أحدكم الصلاة وهو متعصب(٢)، ولا يصلين أحدكم / وهو [٣٧٩/أ] غضبان». ولذلك قال الحسن: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع.

وفي الحديث: «سبع أشياء في الصلاة من الشيطان: الرعاف، والنعاس، والوسوسة، والتثاؤب، والحكاك، والالتفات إلى الشيء»(٣).

وزاد بعضهم: «السهو، والشك».

وقال بعض السلف: أربعة في الصلاة من الجفاء: الالتفات، ومسح الوجه، وتسوية الحصباء، وأن تصلي بطريق من يمر بين يديك.

ونهى أيضاً أن يشبك بين أصابعه، أو يفرقهما، أو يستر وجهه، أو يضع كفه على الأخرى، أو يدخلهما بين فخذيه في الركوع.

وحكي عن بعض الصحابة قال: كنا نفعل ذلك فنهينا عنه، ونهى عن صلاة الرجل وهو يدافع الأخبثين، وأن ينفخ في الأرض عند السجود للتطهير.

ويكره العبث بشيء من جوارحه، وأن يحمل في فمه أو في غيره ما يشغله عن الصلاة، وأن يسوي الحصباء بيده، فإنها أفعال مستغنى عنها. ولا يستند في قيامه إلى حائط فإن استند

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر. قاله العراقي في المرجع السابق.

(٢) كذا في الأصل وفي الإحياء والمغني (١٤٧/١): «مقطب». وقال العراقي: لم أجده.

(٣) رواه الترمذي من رواية عدي بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس، والتثاؤب، وزاد ثلاثة أخرى، وقال حديث غريب، ولمسلم عثمان بن أبي العاص: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي الحديث، وللبخاري من حديث عائشة في الالتفات في الصلاة، وهو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم، وللشيخين من حديث أبي هريرة: التثاؤب من الشيطان ولهما من حديث أبي هريرة: إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه صلاته حتى لا يدري كم صلى.

بحيث أنه لو سل ذلك الحائط سقط فقد بطلت صلاته. ولا يدخل أصبعه في أنفه، ولا في فيه، ولا في شيء من مغابن جسده، ولا يمس جسده حديد، ولا نحاس، ولا رصاص، ولا ذهب، ولا حرير. ولا يستقبل النائم، ولا الميت، ولا النار، ولا العجل، ولا جميع ما له صورة، وشرح هذه المعاني يطول، فليرجع فيه المسترشد إلى كتب الصلاة، أو سؤال أهل التقى من العلماء.

وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: إن في الصلاة اثني عشرة مسألة، يجمع ذلك أركان الصلاة، وبالله التوفيق[١].

فصـــل في تمييز فرائض الصلاة من سننها وفضائلها

[٣٨٠/ب] / اعلم أنَّا قد ذكرنا هيئة الصلاة هاهنا مشتملة على ما فيها من الفرائض والسنن والفضائل وذلك مما ينبغي لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها لأن الله تعالى قد أوجب علينا الصلاة وجعل لها أصولاً وأركاناً لا تتم إلا بها فمن ترك شيئاً منها عامداً انتقضت صلاته، وإن كان ساهياً إستدرك وسجد للسهو.

وسنّ فيها رسوله عليه السلام سنناً واجبات أكيدات، فمن تعمد ترك شيء منها عامداً أعاد صلاته، وإن سهى سجد للسهو، وجعل فيها فضائل مندوباً إليها من أحرزها أجر ومن تركها لم يؤزر وبالله التوفيق.

أما جملة فرائضها فعشرون منها عشرة قبل الدخول فيها، وعشرة بعد الدخول. فاللواتي قبل الدخول فيها:

إحداها: الطهارة من الأحداث، وإزالة النجس قبل الطهارة.

والثانية: طهارة الثوب.

والثالثة: طهارة البقعة المصلى عليها.

والرابعة: دخول الوقت لأدائها.

والخامسة: الستر للعورة من الركبة إلى السرة للرجل وللمرأة الحرة جميع جسدها ما خلا الوجه والكفين من زينتها.

والسادسة: القيام مع القدرة في حال فعلها.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين في هذا الباب (١/١٥٦، ١٥٨).

والسابعة: استقبال القبلة في جميعها.

والثامنة: النية بالقلب عند التلبس بها.

والتاسعة: استصحاب حكم النية في سائرها.

والعاشرة: العلم بكيفيتها.

وأما العشرة التي بعد الدخول فيها:

فإحداها: الإحرام بلفظ التكبير، أو ما يقوم مقامه عند بعضهم في أولها.

والثانية: القراءة بأم القرآن فصاعداً.

والثالثة: الركوع فيها.

والرابعة: الاعتدال في الركوع والرفع منه في قول بعضهم.

والخامسة: / السجود بعد الركوع. [٣٨١/أ]

والسادسة: الفصل بين السجدتين والاعتدال فيهما على قول بعضهم.

والسابعة: الجلوس بعده.

والثامنة: التحيات على اختلاف بعض العلماء في أيتها الفريضة الأولى أو الأخيرة منها.

والتاسعة: ترتيب الأفعال في جميعها.

والعاشرة: استصحاب الخشوع فيها من أولها إلى آخرها. وسننها عشرون أيضاً.

إحداها: الأذان لها في المساجد، وحيث الأئمة فرض على الكفاية، وسنة لكل أحد في خاصة نفسه للرجال دون النساء.

والثانية: الإقامة للصلاة في حق الرجال.

والثالثة: الصلاة بالجماعة.

والرابعة: التوجيه.

والخامسة: الاستعاذة بعد التكبير.

والسادسة: قراءة البسملة.

والسابعة: قراءة السور مع أم القرآن في الركعتين الأولتين من المغرب، والعشاء، ولركعتي الفجر.

والثامنة: الجهر بالقراءة في موضع الجهر، وهو فيما قدمنا مع صلاة الجمعة.

والتاسعة: الإسرار بفاتحة الكتاب في الظهر والعصر وآخر المغرب والعشاء.

والعاشرة: الإنصات لقراءة الإمام إذا جهر.

والحادية عشر: قراءة فاتحة الكتاب للمأموم وراء الإمام.

والثانية عشر: تكبير الركوع والسجود إلا عند الرفع من الركوع فيقول الإمام أو المنفرد: سمع الله لمن حمده ويقول المأموم: ربنا ولك الحمد.

والثالثة عشر: التعظيم في حال الركوع ثلاثاً.

والرابعة عشر: التسبيح في حال السجود ثلاثاً.

والخامسة عشر: السجود على سبعة آراب.

والسادسة عشر: التحيات مع الإسرار بها.

والسابعة عشر: التسليم منها.

[٣٨٢/ب] والثامنة عشر: التيامن بالسلام على اليمين / ثم اليسار.

والتاسعة عشر: الدعاء بعد الصلاة.

والعشرون: الصلاة على النبي عليه السلام.

وفضائلها عشر:

إحداها: الأذان للمسافر.

والثانية: الإقامة للنساء.

والثالثة: توجيه إبراهيم عليه السلام.

والرابعة: إطالة القراءة في الصبح، وتخفيفها في المغرب، وتوسطها في العشاء.

والخامسة: مباشرة الأرض بالجبهة والكفين عند السجود مع إيصال الأنف.

والسادسة: التجافي في الركوع والسجود بالضبعين عن الجانبين.

والسابعة: الدنو من السترة للإمام، والمنفرد.

والثامنة: الصلاة أول الوقت.

والتاسعة: وضع البصر في موضع السجود.

والعاشرة: المشي إليها بالوقار والسكينة. والله أعلم.

فصــل

فإن قال قائل: تمييز فرائض الصلاة عن سننها معقول إذ تفوت صحتها بترك ركن من أركانها دون بعض سننها.

فأما تمييز السنن عن الفضائل فغير معقول؛ لأنه إن كان الكل مأموراً به فما معنى سجود السهو لجبر السنة دون الفضيلة، فإن كان العقاب يتوجه لترك السنة فهي لاحقة بالفرض، وإن كان لا يتوجه فما معنى تمييزها عن الفضيلة، إذ كان العقاب لا يتوجه إلى ترك الكل، والثواب مرجو على الكل.

فاعلم أن اشتراك الجميع في الثواب والعقاب، والاستحباب لا يدفع تفاوت درجاتها، وسينكشف لك ذلك بمثال ذكره الغزالي في كتابه قال: وذلك أن الصلاة كأنها صورة صورها الشرع، وتعبدنا باكتسابها، ولا تكون كاملة إلا بمعان باطنة، وأركان ظاهرة كما أن الإنسان صورة صوّرها الله سبحانه، ولا يكون إنساناً كاملاً إلا بمعان باطنة، وأعضاء ظاهرة فالمعنى / الباطن هو الحياة والروح. [٣٨٣/أ]

والأعضاء الظاهرة قسمان: بعضها ينعدم الإنسان بانعدامها كالقلب، والدماغ، والكبد، وكل عضو تفوت الحياة بفواته.

والقسم الثاني: أعضاء لا تفوت الحياة بفواتها، ولكن تفوت بها منافع الحياة: كالعين، واليد، والرجل، واللسان. وبعضها لا تفوت الحياة بفواتها، ولا تبطل منافعها، ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين واللحية والأهداب، وحسن اللون. وبعضها لا يفوت بها الحسن والجمال ولكن يفوت بها الكمال: كاستقواس الحاجبين، وسواد شعر اللحية وتناسب خلقة الأعضاء، وامتزاج الحمرة بالبياض في اللون فهذه درجات، فكذلك العبادة صورة صورها الشرع، وأمرنا الله بامتثالها فروحها وحياتها الباطنة هي الخشوع، والإخلاص، والنية، وحضور القلب كما سيأتي إن شاء الله فنحن الآن في أجزائها الظاهرة، والركوع، والسجود، والقيام، وسائر الأركان تجري منها مجرى القلب، والدماغ، والكبد في صورة الإنسان إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها.

والسنن التي ذكرناها من الإسرار، والإجهار، والتكبير في الركوع، والسجود، والتعظيم، والتسبيح، وسائرها يجري منها مجرى اليدين، والعينين، والرجلين لا تفوت الصلاة بفواتها بالسهو كما لا تفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء، ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه، فكذلك من اقتصر على فرائض الصلوات دون سننها لا

تقبل منه، فلذلك يجبر نقصانها بسجود السهو؛ لأن من أهدى إلى ملك من الملوك جارية حيّة [٣٨٤/ب] مقطوعة الأطراف / مشوهة الخلقة فقد استخف بالملك، وتعرض للعقوبة.

وأما الفضائل والهيئات من إتمام الصلاة، وهيئة اللباس وأول الوقت وسائر ذلك من الفضائل التي هي وراء السنن فتجري مجرى أسباب الحسن من الحاجبين، واللحية، والأهداب، وحسن اللون.

وأما الهيئات، ولطائف الأداب في تلك السنن من إطالة القراءة والتفكر فيها، وطول السجود، والدعاء، غير ذلك فهي مكملات للصلاة تجري مجرى استقواس الحاجبين، وإستدارة اللحية، وغيرها من أسباب الحسن والجمال، فالصلاة عندك قربة وتحفة تتقرب بها إلى ملك الملوك وتتحفه بها إلى ملك الملوك، وتتحفه بها كجارية يهديها طالب القربة إلى بعض السلاطين يتقرب بها إليه، وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فإليك الخيرة في تحسين صورتها، أو تقبيحها فإن أحسنت فلنفسك، وإن أساءت فعليها. ولا ينبغي أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يتيمز لك السنة عن الفرض ثم يتعلق بفهمك إنه يجوز تركها إذ كانت فضيلة، ولا تستدرك إذا كانت أكيدة، إذ لا عقاب عليها فتتركها، فإن ذلك يشبه قول الطبيب إن عمش العينين، وتشويه الخلقة لا يبطل وجود الإنسان، ولكنه لا يقبله السلطان إذا أهدي إليه بل ربما يعاقب مهديه إليه إذ كان ذلك استخفافاً بحقه فهكذا ينبغي أن تفهم مراتب السنن، والهيئات، والفضائل فكل صلاة لا يتم الإنسان ركوعها، وسجودها فهي التي تخاصم صاحبها في الدنيا قبل خصومة الرب تعالى يوم العرض الأكبر إذ [٣٨٥/ب] ورد / في الحديث أنها تقول: «ضيّعك الله كما ضيعتني» فطالع الأخبار، والآيات التي أوردناها في إتمام أركان الصلاة يظهر لك وقعها. وسنشير بعد هذا إن شاء الله إلى شرح معانيها الباطنة، وفهم أسرارها الخفية ما تزداد به يقيناً إن شاء الله، وبه الحول، والتوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1].

الباب الثالث

في الشروط الباطنة من أعمال القلب في الصلاة

وهذا الباب يشتمل على ثلاثة فصول:

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/١٥٨، ١٥٩).

إحداها: في ذكر ارتباط الصلاة بالخشوع، وحضور القلب.

الفصل الثاني: في معانيها الباطنة، وحدودها، وأسبابها، وعلاجها.

الفصل الثالث: فيما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة وبالله التوفيق.

الفصل الأول: في بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِذِكْرِيٓ﴾[(١)].

فظاهر الأمر الوجوب والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته، كيف يكون مقيم الصلاة لذكره تعالى؟ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾[(٢)].

نهي ظاهره التحريم، وقوله عز واجل: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[(٣)].

تعليل لنهي السكران، وهو مطرد في الغافل المستغرق الهمة في الوسواس وأفكار الدنيا.

وقوله عليه السلام: «إنما الصلاة تمسكن وتواضع»[(٤)]. حصرها بالألف واللام، وكلمة إنما للتحقيق، والتوكيد وقد فهم الفقهاء من قوله: إنما الشفعة فيما لم يقسم الحصر بين الإثبات والنفي.

وقوله ﷺ: «من لم تنهه /صلاته عن الفشحاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً [٣٨٦/أ] وصلاة الغافل لا تمنع من فحشاء الوساوس»[(٥)].

وعنه عليه السلام أنه قال: «كم من قائم حظه من صلاته التعب، والنصب، وما أراد به إلا الغافل عن الاخلاص، وغيره من معاني الصلاة»[(٦)].

---

(١) سورة طه الآية: ١٤.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٠٥.
(٣) سورة النساء الآية: ٤٣.
(٤) رواه الترمذي والنسائي بنحوه من حديث الفضل بن عباس بإسناد مضطرب، قاله العراقي في المغني (١/١٥٠).
(٥) وفيه أيضاً: رواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح، وورواه الطبراني في الكبير وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي عباس بإسناد لين والطبراني من قول ابن مسعود من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر.... الحديث وإسناده صحيح.
(٦) روى نحوه ابن ماجه عن أبي هريرة والنسائي، وأحمد وإسناده حسن.

وقوله عليه السلام أيضاً: «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها»[(١)].

والتحقيق فيه أن المصلي يناجي ربه عز وجل كما جاء في الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «للمصلي ثلاث خصال؛: البر يتناثر على رأسه من عنان السماء إلى مفرق رأسه، والملائكة تحف به من لدن قدميه إلى أعنان السماء، وملك ينادي لو يعلم هذا العبد من يناجي ما انفلت». في أمثاله من الأحاديث، والكلام مع الغفلة ليس بمناجات البتة.

وبيانه أن الزكاة وإن غفل الإنسان عنها فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس؛ لأنها إخراج مال محبوب إلى النفس. وكذلك الصوم، قاهر للهوى، كاسر للشهوة التي هي آلة الشيطان عدو الله فلا يبعد أن يحصل منها المقصود إذا صحت النية في بدء الأمر مع الغفلة في سائر عملها.

وكذلك الحج أفعال شاقة شديدة، وفيها من المجاهدة ما يحصل بها الابتلاء والامتحان، كان القلب حاضراً مع أفعاله، أو لم يكن إذا صحت النية في ابتدائه.

وأما الصلاة فليس فيها إلا ذكر، وقراءة، وركوع، وسجود، وقيام، وقعود.

أما الذكر: فإنه محاورة، ومناجات فلا يخلو أن يكون المقصود منه كونه خطاباً أو محاورةً امتحاناً للقلب بالخضوع أو يكون المقصود منه الحروف، والأصوات امتحاناً للسان بأعمال التصويت كما تمتحن المعدة والفرج /بالإمساك في الصوم، وكما يمتحن البدن بمشاق [٣٨٧/ب] الحج، ويمتحن القلب بمشقة إخراج الزكاة، وانقطاع المال المعشوق، ولا شك أن هذا القسم باطل، فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل؛ إذ ليس فيه امتحان من حيث أنه عمل، بل المقصود من حيث أنه نطق، ولا يكون نطقاً إلا إذا أعرب عما في الضمير، ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب، فأي سؤال في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[(٢)]. إذا كان القلب غافلاً، وإذا لم يقصد كونه تضرعاً، ودعاءً؟ فأي مشقة في حركة اللسان به مع الغفلة لا سيما بعد إعتياد اللسان، ذلك هذا حكم الأذكار، بل أقول لو حلف الإنسان وقال: لأشكرن فلاناً، وأثنى عليه، وأسأله حاجة ثم خرجت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في

---

(١) لم أجده مرفوعاً وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب ولابن المبارك في الزهد موقوفاً على عمار: لا يكتب للرجل من صلاته ما سهى عنه. قاله العراقي في المغني (١/ ١٦٠).

(٢) سورة الفاتحة الآية: ٦.

النوم، فيبعد أن يقال إن هذا برّ في يمينه، ولو جرى هذا على لسانه في ظلمة، وذلك الإنسان حاضر، وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لما صار باراً في يمينه، إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه، ما لم يكن حاضراً هو في قلبه، ولو جرت هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر في بياض النهار إلا أن المتكلم غافل عنه لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار، ولم يقصده بالخطاب عند نطقه لم يصر باراً في يمينه، ولا شك في أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد، والثناء، والتضرع، والدعاء، والمخاطب هو الله عز وجل، وقلبه محجوب عنه بحجاب الغفلة. فلا يراه ولا يشاهده، بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت / لتصقيل القلب، وتجديد ذكر الله تعالى ورسوخ عقد الإيمان [٣٨٨/أ] بذلك، هذه أحكام القراءة والذكر، وبالجملة فهذه الخاصية لا سبيل إلى إنكارها في النطق، وتمييزها عن الفعل.

وأما الركوع والسجود: فالمقصود التعظيم بهما قطعاً، ولو جاز أن يكون لله عز وجل بفعله، وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظمّاً لصنم موضوعاً بين يديه، وهو غافل عنه أو يكون معظّماً للحائط الذي بين يديه وهو غافل عنه، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس، وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به، ثم يجعل عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام، ويقدم على الحج وسائر العبادات، ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص، ما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة، بلا أن يضاف إليها مقصور المناجات. فأما إذا أضيف إليها حضور القلب بالمناجات فحينئذٍ تقدم على الصوم، والزكاة، والحج، وغيره من القربات والضحايا التي هي مجاهدة النفس لتعظيم الملك الأعلى، قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾[1]. أي الصفة التي استوليت على القلب وغلبت عليه حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة منكم، فكيف الأمر في الصلاة؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب. فإن قال قائل: فإن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها فقد خالفت به إجماع الفقهاء، فإنهم لم يشترطوا حضور القلب إلا عند تكبيرة الإحرام.

فاعلم أنه قد تقدم في قنطرة العلم أن الفقهاء لا ينظرون / في الباطن، ولا يشقون عن [٣٨٩/أ] القلوب، ولا في طريق الآخرة بل يبنون ظاهر أحكام الدنيا على ظاهر أعمال الجوارح، وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان بفعل الصلاة.

---

(١) سورة الحج الآية: ٣٧.

فأما إنه هل ينفع في الآخرة؟ فليس ذلك من حدود الفقه بعلم الأحكام الظاهرة، على أنه لا يمكن إدِّعاء الاجماع في هذا إذ نقل عن الحسن أنه قال: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع.

وعن سفيان الثوري أنه قال: كل صلاة امرؤ لم يخشع فيها القلب فسدت.

وعن معاذ بن جبل: إذا عرف المصلى من على يمينه وشماله متعمداً وهو في الصلاة فلا صلاة له.

وروي أيضاً مسنداً عن جابر بن زيد رحمه الله أنه قال: أجمع علم العلماء على أن: ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها»[١].

ورفع أيضاً مسنداً إلى النبي ﷺ وادّعى مثل هذا الإجماع عبد الواحد بن زيد فيما ذكر الغزالي في كتابه.

وروي عن عمار بن ياسر رحمه الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد ليصلي الصلاة ولا يكتب له منها نصفها، ولا ثلثها، ولا ربعها، إلى عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»[٢].

وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهباً فكيف لا يتمسك به، وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورعين وعن علماء الآخرة المحتاطين أكثر من أن يحصى.

والحق: الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار، والآيات ظاهرة في هذا الشرط إلاَّ أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقيد بقدر قصور الخلق فلا يمكن أن يشترط على الناس / إحضار [٣٩٠/ب] القلب في جميع الصلاة، فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلاّ الخاشعين المخلصين، وقليل ما هم، وإذا لم يكن اشتراط ذلك في جميع الصلاة لضرورة العجز فلا بد أن يشترط منه ما ينطلق عليه الاسم، ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات لحظة تكبيرة الإحرام، فاقتصر الشرع في التكليف على ذلك، ونحن مع ذلك نرجو إن شاء الله أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك لها بالكلية، فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً وأحضر القلب لحظة، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسيّاً صلاته باطلة عند الله تعالى، ولكن له أجر ما

---

(١) سبق التعليق عليه قبل قليل.

(٢) رواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان من حديث عمار بن ياسر بنحوه. قاله العراقي في المغني (١/١٦١).

يحسب فعله، وعلى قدر قصوره وعذره، ومع هذا الرجاء فنخشى أن يكون حال الساهي أشد من حال التارك، وكيف لا والذي يحضر خدمة الملك ويتهاون بالحضرة، ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالاً من الذي يعرض عن الخدمة، وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر مخطر في نفسه، فإليك الخيرة بعد في الاحتياط، والتساهل، ومع فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما افتوا به من الصحة مع الغفلة فإن ذلك من ضرورة الفتوى كما سبق التنبيه عليه. ومن عرف سر الصلاة، علم أن الغفلة تضادها فلنقتصر على هذا القدر من البحث، فإن فيه مقنعاً للمريد الطالب لطريق الآخرة.

وأما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن، وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة، فإن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير فالنقصان منه هلاك، فبقدر الزيادة عليه / تنبسط الروح في أجزاء الصلاة، وكم من حيّ لا حراك به قريب من ميت، فصلاة [٣٩١/أ] الغافل في جميعها إلاّ عند التكبير كحيّ لا حراك به، وبالله التوفيق(١).

الفصل الثاني: في بيان المعاني الباطنة التي بها تتم حياة الصلاة

اعلم أن هذه المعاني تكثر العبارات عنها، ولكن يجمعها ستة جمل وهي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم والهيبة، والرجاء، والحياء.

فلنذكر تفاصيلها، ثم أسبابها، ثم العلاج في اكتسابها فيشتمل حينئذٍ هذا الفصل على ثلاث جمل.

الأولى: في تفصيل هذه المعاني.

الثانية: في أسمائها.

الثالثة: في علاج اكتسابها.

الجملة الأولى: في التفاصيل وفيها ستة أقسام:

القسم الأول في حضور القلب: ومعناه تفريغ القلب عن غيرها هو ملابس له، ومتكلم به، فيكون العمل بالفعل والقول مقروناً بهما، ولا يكون الفكر جارياً في غيرهما، ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه. وكان في قلبه ذكر لما هو فيه، ولم تكن فيه غفلة عن كل شيء هو مشتغل به، فقد حصل حضور القلب.

---

(١) راجع هذا الباب في كتاب الإحياء (١/١٥٩، ١٦١).

القسم الثاني في التفهم لمعنى الكلام: وهو أمر وراء حضور القلب فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً في معنى اللفظ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو المراد بالتفهم، وهذا أمر يتفاوت الناس فيه؛ وإذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن، والتسبيحات، فك من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء صلاته، ولم تكن قبل ذلك حضرت بقلبه. فمن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها / تفهم أمور، [٣٩٢/ب] تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة.

الثالث التعظيم: هو أمر وراء حضور القلب، والفهم، إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه، ومتفهم لمعناه، ولا يكون معظماً له فالتعظيم زائد عليهما.

الرابع الهيبة: وهي زيادة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشأه التخويف، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً، والمخافة من العقرب وسوء الخلق من العبد، وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسة لا يسمى مهابة، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة، فالهيبة خوف مصدره الإجلال.

الخامس الرجاء: ولا شك أنه زائد، فكم من معظم ملكا من الملوك يهابه إذ يخاف سطوته، ولكن لا يرجو مبرته، والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله عز وجل، كما أنه خائف لتقصيره عقاب الله عز وجل.

السادس الحياء: هو زائد على الجملة، لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب، ويتصور التعظيم، والخوف، والرجاء من غير حياء، حيث لا يكون توهم تقصير، وارتكاب ذنب وبالله التوفيق(١).

الجملة الثانية: في أسباب هذه المعاني الستة:

أما حضور القلب: فإن سببه الهمة، فإن قلبك تابع لهمك، فلا يحضر إلا فيما يهمك، ومهما أهمك أمر حضر القلب شاء أم أبَى فهو مجبول عليه، ومسخر فيه فالقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً، بل كان حاضراً فيما الهمه مصروفة إليه من أمور الدنيا فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة والهمة / لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن [٣٩٣/ب] الغرض المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان، والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى، وأن الصلاة

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٦١، ١٦٢).

وسيلة إلى الآخرة. فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا، ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن يقدر على مضرتك، ومنفعتك فإذا كان لا يحضر عند المناجات مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت، والنفع والضر، فلا تظنن أنه سبباً سوى ضعف الإيمان، فاجتهد الآن في تقوية الإيمان وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع إن شاء الله تعالى.

وأما التفهم: فإن سببه بعد حضور القلب إدمان الفكر، وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر الشاغلة هو قطع موادها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره، فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة، فلذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

وأما التعظيم: فهي حالة للقلب تتولد في القلب من معرفتين:

أحدهما: معرفة جلال الله عز وجل وعظمته، وذلك من أصول الإيمان، فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه.

والثانية: معرفة حقارة النفس وخستها، وكونه عبداً مسخراً مربوباً، فيتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار / والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة [٣٩٤/أ] النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره إلا من على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة، ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله؛ لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس، وحاجتها لم تقترن إليه.

وأما الهيبة والخوف: فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله تعالى وسطوته، ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالات به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص ذلك من ملكه مثقال ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء، والأولياء من المصائب، وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض، وبالجملة كلما ازداد العلم بالله تعالى إزداد الخشية والهيبة.

وأما الرجاء: فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه، ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقين بوعده، والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة.

وأما الحياء: فاستشعاره التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله تعالى، ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس، وآفاتها، وقلة إخلاصها وخبث دخلها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله سبحانه، والعلم بأنه مطَّلِعٌ على السريرة، وخطرات القلب، وإن دقت وخفيت وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعثت منها بالضرورة حالة تسمى الحياء، فهذه أسباب / هذه الصفات فكل ما طلب تحصيله فعلاجه [٣٩٥/ب] إحضار سببه ففي معرفة السبب معرفة العلاج، ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين أعني به هذه المعارف التي ذكرناها، ومعنى كونها يقيناً إنتفاء الشك، واستيلاؤها على القلب كما سبق في باب اليقين والله أعلم[1].

فصــل

اعلم أن القلب يخشع بقدر اليقين، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه.

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذ ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل، وناجني بقلب وجل ولسان صادق[2].

وروي أنه أوحى إليه: قل لعصاة أمتك يذكروني؛ فإني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته، فإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة. هذا في عاص غير غافل فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان؟!

وباختلاف المعاني التي قدمنا ذكرها في القلوب انقسم الناس إلى: غافل لا يتمم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة منها، وإلى من يتمم ولم يغلب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها، بحيث لا يحسى ما يجري بين يديه. ولذلك لم يحس مسلم بن يسار فيما بلغنا سقوط إسطوانة في المسجد اجتمعت الناس عليها، وبعضهم يحضر الجماعة / مدة، ولم [٣٩٦/ب] يعرف قط من على يمينه ويساره.

وما روي من أن وجيب قلب إبراهيم عليه السلام كان يسمع على ميل، وجماعة كانت

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٦٢، ١٦٣).
(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ١٦٣).

تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم وكل ذلك غير مستبعد؛ فإن أضعافه مشاهدة في همم بني الدنيا، وخوف ملوك الدنيا مع ضعفهم، وعجزهم، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم، حتى يدخل الواحد منهم على ملك أو وزير ويحدثه بمهمة ويخرج من عنده، ولو سئل عن من حوله، أو عن ثوب الملك، لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همه بنفسه عن ثوبه وعن الحاضرين حوله، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[1] فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه، وخشوعه، وتعظيمه، فإن موضع نظر الله سبحانه القلوب دون سائر الحركات. ولذلك قال بعض الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعيم بها، واللذة. ولقد صدق؛ فإنه يحشر كلٌ على ما مات عليه، ويموت على ما عاش عليه، ويراعي في ذلك حال قلبه لا حال شخصه، فمن صفات القلوب تصاغ الصور يوم القيامة في الدار الآخرة، ولا ينجو منها إلا من أتى الله بقلب سليم وبالله التوفيق[2].

الجملة الثالثة:

في بيان الدواء النافع في حضور القلب: اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظماً لله عز وجل، وخائفاً منه، وراجياً ومستحيياً من تقصيره، ولا ينفك من هذه الأحوال بعد إيمانه، وإن كان قوتها بقدر قوة يقينه، فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسم الخاطر / وغيبة القلب عن المناجات، والغفلة عن الصلاة، ولا يلهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة [٣٩٧/أ] الشاغلة، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه، وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً.

أما الخارج: فما يقرع السمع أو يظهر للبصر؛ فإن ذلك قد يتخطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجز منه الفكرة إلى غيره، ويتسلسل فيكون الإبصار سبباً للأفكار ثم تصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض فمن قويت رتبته وعلت همته لم يلهه ما يجري على حواسه، ولكن الضعيف لا بد أن يتفرق به فكره. وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يقصر نظره في موضع سجوده، أو على طرف أنفه، وأن يقرب من غض البصر حتى لا يحقق النظر، أو يصلي في بيت مظلم، أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه، أو يقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره. ويحترز من الصلاة على الشوارع والطرق، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة، وعلى الفرش المصنوعة، ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت مظلم صغير، سعته بقدر

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٣٢.

(٢) راجع إحياء علوم الدين في الفصل (١/ ١٦٣).

السجود، ليكون ذلك أجمع للهمم، والأقوياء كانوا يحضرون المساجد، ويغضون البصر، ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كمال الصلاة في أن يعرفوا من على يمينهم وشمالهم.

وكان ابن عمر لا يدع في موضع الصلاة مصحفاً ولا سيفاً إلا نزعه، ولا كتابة إلا محاها.

[٣٩٨/ب] وأما الأسباب الباطنة: فهي أشد؛ فإن من تشعبت به / الهموم في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب، وغض النظر لا يغنيه في ذلك، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف في الشغل فهذا طريقه أن يرد النفس قهر إلى فهم ما يقرأه في الصلاة، ويشغلها به عن غيره أو يعينه على ذلك بأن يستعد له قبل تكبيرة الإحرام ولو بطرفة عين ذكر الآخرة، وموقف المناجات، وخطر المقام بين يدي الله سبحانه، والعرض عليه، وهول المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة من جميع ما يهمه فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره.

قال الأوزاعي: كانوا يستحبون ذكر المعاد وشبهه عند حضور الصلاة فإنه قلما قام رجل إلى الصلاة وقلبه مشغول بشيء إلا غلب عليه في صلاته.

وقد روي عن النبي عليه السلام قال لعثمان بن شيبة: «إني نسيت أن أقول لك تخمر القربتين[1] اللتين في البيت». أو قال: «القدر الذي في البيت». فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم.

فهذا طريق تسكين الأفكار، فإن كان لا يسكن هائج أفكاره بهذا الدواء المسكن، فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقطع مادة الداء من أعماق العروق، وذلك أن ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن إحضار القلب، ولا شك أنها تعود إلى مهماته، وأنها إنما صارت مهما بشهواته، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات بقطع تلك العلائق، فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه، وجند إبليس عدوه، فإمساكه / أضر عليه من إخراجه، فيتخلص عنه [٣٩٩/ب] بإخراجه كما روي أنه ﷺ لما لبس الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم فصلى بها ثم نزعها بعد صلاته وقال: «اذهبوا بها إلى أبي جهم؛ فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي، وأتوني

---

(١) في الأصل: «القرآن الذي في البيت» والتصويب من المغني، وقال العراقي فيه (١/ ١٦٤): رواه أبو داود من حديث عثمان الحجبي وهو عثمان بن طلحة كما في مسند أحمد ووقع للمصنف (أي الغزالي) أنه قال ذلك لعثمان بن شيبة (كما هنا عند الجيطالي) وهو وهم.

بأنبجانية له»[١]. وهي كساة لأبي جهم، وأمر ﷺ بتجديد شراك نعله ثم نظر إليه في الصلاة إذ كان جديداً فأمر أن ينزع عنه، ويرد الشراك الخلق. وكان ﷺ قد اتخذ نعلاً، فأعجبه حسنها فسجد وقال: «تواضعت لربي عز وجل كي لا يمقتني»[٢]. ثم خرج فدفعها إلى أول سائل لقيه، ثم أمر علياً فيما بلغنا أن يشتري له نعلين سبتيين جرداوين فلبسهما.

وكان ﷺ في يده خاتم ذهب قبل التحريم، وكان على المنبر فرماه وقال: «نظرت إليه ونظرت إليكم»[٣].

وروي أن طلحة صلى في حائط له فيه شجر فأعجبه دبسي طار في الشجر يلتمس مخرجاً، فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدر كم صلى؟ فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة، ثم قال: يا رسول الله هو صدقة ضعه حيث شئت[٤].

وعن رجل آخر: أنه صلى في حائط له، والنخل مطوقة بثمرها، فنظر إليه فأعجبه، فلم يدر كَمْ صلى، فذكر ذلك لعثمان، فقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الله. فباعه عثمان بخمسين ألفاً. فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكرة، وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة، وهذا هو الدواء القامع / لمادة العلة، ولا ينبغي غيره. وأما الذي ذكرناه من التلطف بالتسكين [٤٠٠/أ] والرد إلى فهم الذكر، فإنه إنما ينفع في الشهوات الضعيفة، والهمم التي لا تشغل إلاّ حواشي القلب.

فأما الشهوة القوية المرهقة: فلا ينفع معها التسكين بل لا تزال تجاذبها، وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي جميع صلواتك في شغل المجاذبة، ومثال ذلك: كمثل رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره فكانت أصوات العصافير تشوش عليه، فلم يزل يطيرها بعصى هي في يده ويعود إلى فكره، فتعود العصافير ويعود إلى تطييرها بالعصا، فقيل له: إن هذا أسير السواني ولا ينقطع فإن أردت الخلاص فاقلع الشجرة. فكذلك شجرة الشهوة إذا اشتعلت في القلب

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) أخرجه أبو عبد الله بن حقيق في شرف الفقراء من حديث عائشة بإسناد ضعيف. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه النسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح وليس فيه بيان أن الخاتم كان ذهباً ولا فضة إنما هو مطلق. قاله العراقي في المغني (١/ ١٦٥).

(٤) رواه مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأنصاري فذكره بنحوه. قاله العراقي في الموضع السابق.

وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار، وكانجذاب الذباب إلى الأنجاس والأقذار، والشغل يطول في دفعها؛ فإن الذباب كلما ذُبَّ آب، ولأجله سمي ذباباً. فكذلك الخواطر وهذه الشهوات كثيرة، وقلَّ ما يخلو العبد منها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأساس كل نقصان، ومنبع كل فساد، ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها ليتزودها وليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجات في الصلاة؛ فإن من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرة عينه، فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه، ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة، ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة فهذا / هو [٤٠١/ب] الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع فبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالاً حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدِّثون فيهما أنفسهم بشيء من أمر الدنيا فعجزوا عن ذلك، وذلك لا مطمع فيه لأمثالنا، وليته يسلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها عن الوسواس لنكون ممن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثال: الماء الذي يصب في قدح فيه خل فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج الخل لا محالة ولا يجتمعان. فنسأل الله العفو والعافية مما ابتلينا به من الشهوات إنه مقيل العثرات[١].

الفصل الثالث من هذا الباب: في بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من الأعمال

اعلم أيها المسترشد لسلوك طريق الآخرة أنه ينبغي لك أن لا تغفل أولاً عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها.

أما الشروط والسوابق: فهي الأذان، والطهارة، وستر العورة، واستقبال القبلة، والانتصاب قائماً، والنية.

أما الأذان: فإذا سمعت نداء المؤذن فاحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة؛ فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر، فاعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته مملوء بالفرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار، فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٦٥).

ولذلك قال ﷺ: «[بها][1] أرحنا يا بلال».

قيل في كتاب الغزالي معناه: ارحنا بالصلاة، وبالنداء إليها، إذ كانت قرة عينه / فيها ﷺ. [٢/٤٠٢أ]

وأما في الطهارة: فإذا أتيت بها في مكانك وهو طرفك الأبعد، ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب، ثم في بشترك وهو قشرك الأدنى، فلا تغفلا عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيراً بالتوبة، والندم على ما فرط منك، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهر بها باطنك فإنه موقع نظر معبودك.

وأما ستر العورة: فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق؛ فإن ظاهر بدنك موقع نظر الخلق فما رأيك في عورات باطنك؟ وفضائح سريرتك التي لا يطلّع عليها إلاّ ربك عز وجل؟

فاحضر تلك الفضائح ببالك، وطالب نفس بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر، وإنما يسترها الندم والحياء والخوف، فتستعد في إحضارها في قلبك، بانبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما فتذل بها نفسك، ويستكن تحت الخجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله عز وجل قيام العبد المجرم الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

وأما الاستقبال: فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى أمر الله عز وجل ليس مطلوباً منك؟

هيهات، فلا مطلوب سواه، وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن، وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها، والتفاتاتها، إلى جهاتها استتبعت القلب وانفلتت به عن وجه الله عز وجل، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك.

واعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالصرف / عن غيره، فكذلك القلب لا [٢/٤٠٣أ] ينصرف إلى الله عز وجل إلا بالتصريف عن ما سوى الله تعالى، وقد قال النبي ﷺ: «إذا قام

---

(١) ما بين المعقوفين من الإحياء، والمغني (١/١٦٥) وقال العراقي: رواه الدارقطني في العلل من حديث بلال، ولأبي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم بإسناد صحيح.

العبد إلى صلاته فكان هواه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم ولدته أمه»[١].

وأما الانتصاب قائماً: فإنما هو مثول بالشخص، والقلب بين يدي الله عز وجل، وليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مطأطئاً مستكيناً، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرىء عن الترأس والتكبر، وليكن على قلبك هاهنا ذكر خطر المقام بين يدي الله عز وجل، وهول المطلع عند التعرض للسؤال، واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطلع عليك. فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله وعظمته تعالى، بل قدّر في دوام قيامك في صلواتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من قومك وأهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح؛ فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك، وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع، وإذا أحسست من نفسك بالتماسك، عند ملاحظة عبد مسكين، فعاتب نفسك وقل لها: إنك تدعين معرفة الله تعالى وحبه، أفلا تستحيين من اجترائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده، وتخشى الناس ولا تخشاه وهو أحق أن تخشاه. ولذلك لما قال أبو هريرة: كيف الحياء من الله؟ فقال ﷺ: «فاستحي منه كما / تستحي [٤٠٤/ب] من الرجل الصالح من أهلك»[٢].

وأما النية: فاعزم على إجابة الله عز وجل في امتثال أمره بالصلاة، وإتمامها، والكف عن نواقضها، ومفسداتها، والإخلاص بجميع ذلك لوجه الله سبحانه، رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقربة، متقلداً للمنة منه تعالى؛ لإذنه لك في المناجات مع سوءِ أدبك، وكثرة عصيانك وعظم نفسك، قدّر مناجاته وانظر من تناجي وكيف تناجي، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف.

وأما التوجيه: فأول كلماته قولك: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وليس المراد بالوجه: وجه ظاهر البدن؛ فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة، والله سبحانه مقدس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك إليه. وإنما وجه القلب هو الذي يتوجه به إلى فاطر السموات والأرض، فانظر إليه أهو متوجه إلى أمانيك وهممك في البيت والسوق متبع

---

(١) قال العراقي في المغني (١/١٦٦): لم أجده.

(٢) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشُّعب من حديث سعيد بن زيد مرسلاً بنحوه، وأرسله البيهقي بزيادة ابن عمر في السند، وفي العلل للدارقطني عن ابن عمر له وقال: إنه اشبه بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة. قاله العراقي في المصدر السابق.

للشهوات؟ أو مقبل على فاطر السموات والأرض؟ إياك أن يكون أول مفاتحتك للمناجات بالكذب والاختلاف، ولا ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه، فاجتهد في الحال في صرفه إليه، وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقاً.

وإذا قلت: حنيفاً ومعناه مسلماً مائلاً عن غير الله إليه فينبغي أن تخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً، فاجتهد في أن تعزم / عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال. [٤٠٥/أ]

فإذا قلت: وما أنا من المشركين، فاخطر ببالك الشرك الخفي فإن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[١].

أنزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس فكن متفياً من هذا الشرك وغيره، واستشعر الخجلة في قلبك، إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة من هذا الشرك؛ فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه.

وإذا قلت: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، فاعلم أن هذا حال عبد مفقود عن نفسه، موجود لسيده، فإنه إن كان يصدر في إفعاله عن رضاه وغضبه في قيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت، فكان جميع ذلك لأمور الدنيا لم تكن ملائماً للحال، فاجتهد لإخلاص جميع أفعالك وأحوالك لله تعالى والتبرىء عن حولك وقوتك إلاّ له تعالى.

وأما التسبيح: في قولك: سبحانك اللهم، فاعتقد تنزيه الله تعالى عن جميع نقائص الصفات، في قولك: تبارك اسمك وتعالى جدك: اعتقد تعظيم الله ووصفه بجميع محامد الصفات وكمال الذات، ولا إله غيرك: اعتقد وحدانيته وإفراده عن خلقه بالألوهية والعبادة وأنه لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه في اسم ولا صفة ولا ذات ولا فعل إلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وأما التكبير: فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه / قلبك، وإن كان في قلبك شيء هو [٤٠٦/أ] أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب كما يشهد على المنافقين إنهم لكاذبون إذ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله فأنت أطوع له منك لله عز وجل، فقد اتخذته إلٰهاً وكبّرته فيوشك أن يكون قولك: الله أكبر، كلاماً بمجرد اللسان وقد تخلف القلب عن مساعدته، وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار، وحسن الظن

---

(١) سورة الكهف الآية: ١١٠.

بكرم الله تعالى وعفوه، واعتقد بالتكبير تعظيم الله عن كل شيء، وحرِّم على نفسك ما كان حلالاً لك في غير الصلاة.

وأما الاستعاذة: فإذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسداً لك على مناجاتك مع الله سبحانه، وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها، وأن استعاذتك بالله منه أن يعيذك منه هو ترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال له: أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت في مكانه غير هارب منه، فإن ذلك لا ينفعه، بل لا يعيذه إلا بتبديل المكان والهرب، فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محارب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله تعالى من شر الشيطان وحصنه لا إلٰه إلا الله، إذ قال الله عز وجل [٤٠٧/ب]فيما روي /عنه: «لا إلٰه إلا الله حصني»[١].

والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه، فأما من اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الرحمٰن.

واعلم أن من مكايده شغله إياك في الصلاة بفكر الآخرة، وتدبير فعل الخيرات ليمنعك بذلك عن فهم ما تقرأ من القرآن، لأن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس، فإن حركة اللسان غير مقصودة، بل المقصود معانيها، والله أعلم.

وأما القراءة: فالناس فيها ثلاثة: رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجة أصحاب اليمين، ورجل سبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه.

ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب. وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. فانوبه التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه وافهم أن معناه أن: الأمور كلها بالله وأن المراد بالاسم هاهنا هو المسمى، وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان الحمد لله معناه: أن الشكر لله إذ النعم كلها من الله، ومن يرى من غير الله عز وجل نعمة، أو

---

(١) رواه الحاكم في التاريخ، وأبو نعيم في الحلية من طريق أهل البيت من حديث علي بإسناد ضعيف جداً، وقول أبي منصور الديلمي إنه حديث ثابت مردود عليه. قاله العراقي في المغني (١/١٦٧).

يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث أنه مسخر له من قبل الله تعالى ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر إلتفاته إلى غير الله تعالى، فإذا قلت: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فاحضر في قلبك أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث به رجاؤك، ثم استشعر في قلبك التعظيم والخوف بقولك ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

/ أما العظمة، فلأنه لا ملك إلا الله، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو [٤٠٨/أ] مالكه ثم جدد الاخلاص بقولك: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.

وجدد العجز والاحتياج والتبرىء عن الحول والقوة بقولك: ﴿إِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلاّ بإعانته، وأنّ له المنّة، إذ وفقك لطاعته، واستخدمك لعبادته، وجعلك أهلاً لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين. ثم إذا فرغت من التفويض بقولك: بسم الله، وعن التحميد، وعن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعين بسؤالك، ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

الذين يسوقنا إلى جوارك، ويفضي بنا إلى مرضاتك وزد ذلك شرحاً وتفصيلاً، وتأكيداً واستشهاد بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين وأمثالهم من الضالين، وبالله التوفيق.

فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله فيهم: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، قال عليه السلام: «فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقول الله تعالى: حمدني عبدي، فيقول العبد ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيقول الله: أثنى عليّ عبدي وهو معنى قوله: سمع الله لمن حمده».

قال عليه السلام: «فيقول العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيقول الله: مجّدني عبدي، فيقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فيقول الله: هذه بيني وبين / عبدي، ولعبدي ما سأل، فيقول [٤٠٩/أ] العبد: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فيقول الله: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل»[1].

واعلم أنه لو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته، فناهيك به غنيمة، فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه من سورة كما

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني (١/١٦٨).

سيأتي بعد ذلك في موضعه إن شاء الله، فلا تغفل عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه وأخبار أنبيائه، وذكر منته وإحسانه، ولكل واحد حق: فالرجاء حق الوعد، والخوف حق الوعيد، والعزم حق الأمر، والترك حق النهي، والاتعاظ حق الموعظة، والشكر حق ذكر المنة، والاعتبار حق أخبار الأنبياء عليهم السلام.

فهكذا كان حال السلف الصالح عند قراءة القرآن، وفي الحديث عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ فابتدأ بسورة البقرة، فكان لا يمر بآية العذاب إلا استعاذ؛ ولا بآية الرحمة إلا سأل، ولا بآية تنزيه إلا سبح.

وعن أبي بلال مرداس بن حدير رحمه الله أنه كان يقول: ما أتيت على آية من القرآن فيها ذكر خطيئة كنت عملت بها إلا استغفرت الله تعالى منها. قال: وإنّي لأحفظ كل شيء تكلمت به منذ أصبحت مخافة أن اخطىء والله أعلم.

وعن الحسن أنه قال: ما قرأت آية فجاوزتها حتى تدبرت فيما أنزلت وما عُنِي بها.

وقال قتادة: لم يجالس أحد هذا القرآن إلاّ قام بزيادة أو نقصان، قال الله سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ إلى قوله: ﴿خَسَارًا﴾[1].

[٤١٠/ب] ويقال: إن الملائكة تكتب صلوات / الناس بالزيادة والنقصان بقدر الخشوع فيها، فينبغي للإنسان أن يتفهم معاني القرآن تعظيماً لله عز وجل، أو تنزيه أو خبر عن من أهلكه الله تعالى فإن استطاع أن يموت فليمت وإلا فليتماوت.

ويروى أن زرارة بن أوفى أمّ في صلاة الفجر فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾[2] الآية، خرّ ميتاً.

وكان إبراهيم النخعي إذا مر بمثل قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾[3]. يغض صوته كالمستحي تنزيهاً وخضوعاً لله عن أن يذكره بشيء لا يليق به.

وكان بعضهم إذا سمع قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ﴾[4]. اضطرب حتى تضطرب أوصاله.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٢.
(٢) سورة المدثر الآية: ٨.
(٣) سورة المؤمنون الآية: ٩١.
(٤) سورة الانشقاق الآية: ١.

رؤي ابن عمر يصلي ويتأوه حتى لو رآه من يجهله لقال: أصيب الرجل وذلك فيما بلغنا عند قراءته: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ﴾[1] الآية. وقال بعضهم: رأيت ابن عمر يصلي مغلوباً عليه[2].

وحق له أن يحترق بوعد سيده ووعيده؛ لأنه عبد ذليل مذنب بين يدي رب جليل محسن.

وتكون هذه المعاني على قدر درجات الفهم، ويكون الفهم بحسب وفور العلم، وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر، والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات، هذا حق القراءة وهو حق الأذكار، والتسبيحات أيضاً، ويستعين على الفهم بترك العجلة في القراءة قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[3].

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[4].

وكانت قراءة رسول الله فيما بلغنا مفسره حرفاً حرفاً يمد بها صوته، وذلك أقرب للتأمل والفهم، / والله أعلم. [٤١١/أ]

وأما دوام القيام: فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعت واحد من الحضور، قال عليه السلام: «إن الله تعالى مقبل على المصلي ما لم يلتفت»[5].

وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة القلب عن الالتفات إلى غير الصلاة، فإن التفت [إلى غيره][6] فذكره باطلاع الله عليك، وإقباله إليك فكيف أنت تتهاون بمناجاته بالغفلة والإعراض عنه، وقبّح ذلك عليه حتى يعود إلى الصلاة، وألزم الخشوع للقلب حتى لا يلتفت فإن ثمرة الخشوع الإخلاص عن الالتفات ظاهراً وباطناً، فمهما خشع الباطن خشع الظاهر.

وقد قال ﷺ لما رأى مصلياً يعبث بلحيته: «أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه فإن الرعية تتبع لحكم الراعي».

---

(١) سورة الفرقان الآية: ١٣.

(٢) في الأصل: «مقلوليا» والتصويب من الإحياء (١/١٦٨).

(٣) سورة المزمل الآية: ٤.

(٤) سورة صٓ الآية: ٢٩.

(٥) رواه أبو داود والنسائي والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي ذر، قاله العراقي في المغني (١/١٦٩).

(٦) ما بين المعقوفين من الإحياء (١/١٦٩).

وقد ورد في الدعاء: «اللهم اصلح الراعي والرعية»[١]. قيل: أراد القلب والجوارح.

وكان الصديق رضي الله عنه في الصلاة كأنه وتد، وكان ابن مسعود كأنه ثوب ملقى، وابن الزبير كأنه عود، وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه تظنه حائطاً، فكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك؟ عند من يعرف جلاله وعظمته ومن يطمئن بين يدي غير الله عز وجل خاشعاً، وتضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى، ولا تخشع فإنما ذلك لقلة معرفته بجلال الله تعالى، وقصور علمه باطِّلاعه تعالى / على سره وضميره. [٤١٢/ب]

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ﴾[٢]. قال: قيامه، وركوعه، وسجوده، وجلوسه والله أعلم[٣].

وأما الركوع والسجود: فينبغي أن تجدد ذكر كبرياء الله تعالى وعظمته، وأنت متذلل متواضع ناكس رأسك عند ربك، كأنك في عرضة القيامة مع المجرمين ناكسي رؤوسهم عند ربهم وتجتهد في ترقيق قلبك، وتجديد خشوعك في ركوعك، وتستشعر ذلك وعز مولاك، واتضاعك، وعلو ربك وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة، فإنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار، ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه أرحم الراحمين راحم ذلك ومؤكد للرجاء في نفسك، وتقول: سمع الله لمن حمده، أي أجاب الله لمن شكره ثم تردف ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد فتقول: ربنا ولك الحمد، ثم تردف ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد فتقول: ربنا ولك الحمد، ثم تهوي إلى السجود، وهو أعلى درجات الخضوع والاستكانة، فمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب. وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فافعل؛ فإنه أجلب للخضوع وأذل على التواضع والذل.

وقد جاء في الحديث ما تقرب العرب إلى الله تعالى بشيء أفضل من سجود خفي، وأقرب ما يكون من ربه تعالى إذا كان ساجداً وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ﴾[٤].

---

(١) لم أقف له على أصل وفسره المصنف (أي الغزالي) بالقلب والجوارح (وكذا قاله الجيطالي). قاله العراقي في المغني (١/١٦٩).

(٢) سورة الشعراء الآيتان: ٢١٨، ٢١٩.

(٣) راجع الإحياء للغزالي (١/١٦٩).

(٤) سورة العلق الآية: ١٩.

وقيل في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[١].

قيل: هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود. وقيل: هو نور الخشوع؛ فإنه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح إن شاء الله.

وقيل: هي الغرر التي تكون في وجوههم / يوم القيامة من أثر الوضوء. [٤١٣/أ]

وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مرافقتك في الجنة، قال عليه السلام: «أَعْنِّيَ بكثرة السجود».

وروي عن علي بن عبد الله بن عباس: أنه كان يسجد كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السَّجاد.

وروي أن عمر بن عبد العزيز: كان لا يسجد إلاّ على التراب، ثم إذا وضعت نفسك بالسجود موضع الذل فقد وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت وإليه رددت، فعندها جدد على قلبك عظمة الله سبحانه فقل: سبحان ربي الأعلى، وأكده بالتكرار فإنّ المرة الواحدة ضعيفة الأثر. فإذا رق قلبك وظهر ذلك، فليصدق رجاؤك في رحمة ربك فإن رحمته تسارع إلى الضعف والانكسار لا إلى الترفع والاستكبار، فارفع رأسك من السجود مكبِّراً، ثم أكِّد التواضع بالتكرار. فعد إلى السجود ثانياً كذلك.

وأما التشهد: فإذا جلست فاجلس متأدباً، وصرِّح بأن جميع ما تدلي به من الصلوات والطيبات أي الأخلاق الطاهرة لله تعالى، وكذلك التحيات ومعناه الملك لله وأحضر في قلبك النبي ﷺ بشخصه الكريم، وقل: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه، ثم سلم على نفسك وجميع عباد الله الصالحين تعم به كل عبد صالح من سكان السموات والأرضين، وارج من الله سبحانه أن يرد عليك سلاماً وافياً بعدد عباده الصالحين ثم تشهد له بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي / الشهادة، ومستأنفاً للشهادة بالجنة والنار والموت والبعث، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[٢] ثم اقصد عند التسليم السلام على الملائكة الكرام الكاتبين وسائر المسلمين الحاضرين فانو بالسلام أيضاً الخروج من الصلاة، واستشعر شكر الله تعالى على توفيقه لك لإتمام هذه الطاعة، وتوهم أنك مودّع لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش [٤١٤/أ]

---

(١) سورة الفتح الآية: ٢٩.
(٢) سورة الحج الآية: ٧.

لمثلها، ثم تستغفر الله ثلاثاً، روي ذلك عنه عليه السلام وتعقد ذلك استغفاراً من تقصيرك في صلاتك وسائر ذنوبك ثم انصب في الدعاء بالتواضع والخشوع وارغب إلى ربك بالتضرع والابتهال، والصدق الرجاء بالإجابة وأشرك في دعائك سائر المؤمنين والمؤمنات وتقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام فحينا بالسلام وادخلنا دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد، اللهم اعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

في أمثالها من الدعاء ثم اشعر قلبك الاشفاق والوجل والحياء من التقصير في الصلاة، وخَفْ أن لا تقبل صلاتك وأن تكون ممقوتاً بذنب ظاهر أو باطن ترد من أجله صلاتك في وجهك وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله.

كان بعض علماء السلف إذا صلى مكث ما شاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة، وكان بعضهم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض. فهذا تفضيل صلاة الخاشعين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1]، و﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[2] وهم الذين يناجون الله عز وجل على قدر / إستطاعتهم في العبودية، فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة فبالقدر الذي [٤١٥/ب] يتيسر له منها ينبغي أن يفرح، وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر، وفي مداومة ذلك ينبغي أن يجتهد.

وأما صلاة الغافلين فإنها مخطرة إلاّ أن يتغمد الله برحمته، والرحمة واسعة، والكرم فائض فنسأل الله أن يغمرنا برحمته، ويتغمدنا بمغفرته، إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته.

وفي كتاب الغزالي[3] قال: اعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات، وإخلاصها لله تعالى عن شوائب العاهات والمبطلات، وأداءها بشروطها الظاهرة والباطنة من الخشوع والتعظيم وغير ذلك من المعاني المتقدمة. قال: فالإتيان بها على ما ذكرنا سبب لحصول أنوار في القلب، تكون تلك الأنوار مفاتيح لعلوم المكاشفة، فأولياء الله المكاشفون[4] بملكوت

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٩.
(٢) سورة المعارج الآية: ٢٣.
(٣) سورة راجع الإحياء (١/ ١٧٠).
(٤) لفظ أو اصطلاح صوفي إلا أنه لا يريد به ما يذهب إليه صوفية اليوم من إدعاء علم الغيب لسبق رده عليهم في شطحاتهم.

السموات والأرض وأسرار الربوبية، إنما يكاشفون بما في الصلاة ولا سيما ما في السجود إذ يتقرب به العبد من الله تعالى. كما قدمنا فينكشف الأمر لكل مصلٍّ على قدر صفاء قلبه عن كدورات الدنيا حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه، وينكشف لبعضهم بمثال كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة، والشيطان في صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها والله أعلم.

وقال: ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالغيب ويصدق به إلا أن يشاهد ذلك بالتجربة.

ويقال: مكتوب في التوراة يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصلياً باكياً فأنا الله الذي اقتربت من / قلبك وبالغيب رأيت نوري قال: فكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذي [١٦/٤١٦] يجده المصلي من دنو الرب سبحانه من القلب. قال: وإن لم يكن هذا الدنو هو القرب بالمكانية فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة. ويقال: إن العبد إذا صلى ركعتين عجب منه عشر صفوف من الملائكة، كل صف منها عشرة آلاف، وباهى الله عز وجل به مائة ألف ملك.

قال: وذلك أن العبد قد يجمع فيهما بين القيام والقعود والركوع والسجود، وقد فرق ذلك على أربعين ألف ملك فالقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وهكذا الراكعون والقاعدون قال: فإن ما رزق الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم مستمر على حال واحد لا يزيد ولا ينقص ولذلك قالوا: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[1]. وفارق الإنسان الملائكة في الرقي من درجة إلى درجات فإنه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى، فيستفيد بقربه مزيداً الدية إذ باب المزيد مسدود على الملائكة وليس لكل واحد منهم إلا رتبته التي هي وقف وعبادته التي هو مشغول بها، لا ينتقل إلى غيرها، ولا يفتر عنها ولا يستحسرون ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[2].

ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلوات، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[3]. فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقرونة بالخشوع، ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً فقال تعالى في آخرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الصافات الآية: ١٦٤.
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٢٠.
(٣) سورة المؤمنون الآيات: ١، ٢، ٩، ١٠، ١١.
(٤) سورة المؤمنون الآيات ١، ٢، ٩، ١٠، ١١.

[٤١٧/ب] ثم قال في ثمرة تلك الصفات: ﴿أُولَئِكَ هُمُ / الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١]. فوصفهم بالفلاح أولاً وبوراثة الفردوس آخراً. وما عندي أن هذه رمة اللسان مع غفلة القلب تنتهي إلى هذا الحد، ولذلك قال تعالى في أضدادها: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[٢] الآية. فالمصلون في الحقيقة هم ورثة الفردوس، وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون لدنوه وقربه من قلوبهم فنسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، فهيهات ما بيننا وبينهم، ونحن نرغب إلى الله تعالى أن يعيذنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان ذو الفضل والإحسان[٣].

فصل

ويروى عن أبي الدرداء أنه قال: من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل فيها بقلب فارغ. وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس، ويروى أن عمار بن ياسر رحمه الله صلى صلاة فخففها فقيل له: خففت يا أبا اليقظان. فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإني بادرت سهو الشيطان، إن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليصلي الصلاة ولا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها»[٤].

وكان يقول: «إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها». ويقال: إن طلحة، والزبير، وطائفة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة، وقالوا: نبادر بها وسوسة الشيطان.

واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب دون بعض كما دلت الأخبار عليه، إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل[٥].

[٤١٨/ب] وفي الخبر: /عن عيسى عليه السلام أنه قال: يقول الله عز وجل بالفرائض: نجا مني عبدي، وبالنوافل يتقرب إلي عبدي.

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١، ٢، ٩، ١٠، ١١.
(٢) سورة المدثر الآيتان: ٤٢، ٤٣.
(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٧٠، ١٧١).
(٤) رواه أحمد بإسناد صحيح.. وهو عند أبي داود والنسائي. قاله العراقي في المغني (١/ ١٧٢).
(٥) رواه أصحاب السنن، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة: إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته..... الحديث. قاله العراقي في المصدر السابق.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: لا ينجو مني عبدي إلا بأداء ما افترضت عليه»[(١)].

وروي: أن النبي ﷺ صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انفتل قال: «ماذا قرأت»؟ فسكت القوم، فسأل أُبيَّ بن كعب فقال: قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما أدري أنسخت أم رفعت؟ فقال: «أنت لها يا أُبيّ». ثم أقبل على الآخرين فقال: «ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم، ونبيهم بين أيديهم لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم، ألا إن بني إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن قل لقومك تحضروني أبدانكم وتعطوني ألسنتكم وتغيبون عني قلوبكم باطلاً ما ترهبون»[(٢)].

وهذا يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وفهمه بدل عن قراءته السورة بنفسه، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا قُرِىءَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾[(٣)]. وذلك خاص في قراءة السورة وراء الإمام والله أعلم.

فدلت هذه الأحاديث مع ما سبق أن الأصل في الصلاة الخشوع وحضور القلب وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في الآخرة والله أعلم[(٤)].

مسألـة

ومن كتاب المحاسبي قلت: ما المحافظة على الصلوات؟ قال: القيام عليها في أول أوقاتها بشدة مخافة وخضوع والتهيء لها قبل الدخول فيها بأحسن زينة من الوقار والسكينة فإذا استفتح جمع همه، واحضر ذهنه واشعر قلبه تعظيم من قام بين يديه. قلت: وكيف الاخلاص فيها وفي غيرها من الأعمال؟

قال: / الاخلاص ضربان: [٤١٩/أ]

أحدهما: التوحيد لله وأن لا يراد بالعمل غيره، والآخر العمل من كل آفة تنقص فضله من الإصغاء والالتفات وحديث النفس بغيره، فإذا تحفظ فيه تم ثوابه إن شاء الله.

---

(١) لم أجده قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة مرسلاً، وأبو منصور الديلمي من حديث أُبيّ بن كعب، ورواه النسائي مختصراً من حديث عبد الرحمن بن أبزى بإسناد صحيح. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٢٠٤.

(٤) راجع إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٧٢، ١٧٣).

قلت: أَكُلّ حديث يعرض في الصلاة ينقص منها؟

قال: يعرض فيها من حديث النفس ضربان، وآخر من خواطر الوسواس:

فأما ما كان من حديث النفس فيكون على تعمد وسهو، فما كان من تعمد، فإن صاحبه قد أساء وعليه الاستغفار لما مضى.

والسهو ضربان:

أحدهما: سهو أداه إليه حديث النفس متعمداً فملوم عليه.

والثاني: سهو صار إليه بغير تعمد، فذلك موضوع عنه، إذ لم يتعمده، وأما ما كان من خواطر الشيطان فموضوع عنه ما لم يكن له تابعاً، فإن أصغى إليه بهواه فليكن عنه راجعاً، وللنفس عنه رادعاً، وبالله التوفيق.

الباب الرابع
في صلاة الإمامة وما على الإمام من وظائفها

قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿ٱلَّذِي يَرَاكَ حِيْنَ تَقُومُ﴾ يعني وحدك في الصلاة ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ﴾[١].

يعني في الجماعة، وفي الحديث عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أمّ الناس فأصاب الوقت فله ولهم، ومن انقص من ذلك شيئاً فعليه ولا عليهم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن من أشراط الساعة أن يتدافع أهل المساجد ولا يجدون إماماً يصلي بهم»[٢]. ويقال: إن قوماً تدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخسف بهم.

وأما ما روي من مدافعة الإمام بين الصحابة فسببه فيما وجدت إيثارهم من رأوه أولى بها أو خوف الخطر من ضمان الصلاة، فإن الأئمة / ضمناء وكان من لم يتعود ذلك ربما يشوش [٤٢٠/ب] عليه الإخلاص في الصلاة حياء من المقتدين به لا سيما في جهره بالقرآن فكان الاحتراز ممن احترز عنها من أسباب هذا الجنس والله أعلم[٣].

---

(١) سورة الشعراء الآيتان: ٢١٨، ٢١٩.

(٢) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (٥٨١)، أحمد في المسند (٦/ ٣٨١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٢٩).

(٣) راجع الباب بتوسع في إحياء علوم الدين (١/ ١٧٣).

فصــــل: فيما على الإمام من الوظائف في الصلاة وقبلها

اعلم أن على الإمام وظائف قبل الصلاة والقراءة في أركان الصلاة وبعد السلام.

أما الوظائف قبل الصلاة فست:

إحداها: أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه، فإن اختلفوا كان النظر وإن كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أولاً.

وفي الحديث: «ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رؤوسهم: العبد الآبق، وامرأة زوجها عليها ساخط، وإمام قوم هم له كارهون»(١).

وكما ينهى عن التقدم مع كراهيتهم، فكذلك ينهى عنه إن كان وراءه من هو أفقه وأفضل منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم إذا كان قائماً بشروط الإمامة، وعرف ذلك من نفسه. والله أعلم.

الثانية: إذا خُيِّر المريد للآخرة بين الآذان والإمامة فاختلف السلف في ذلك وقال آخرون: الآذان أولى لما في الإمامة من خطر الضمان، ولأنه عليه السلام قال: «اللهم ارشد الأئمة واغفر للمؤذنين»(٢).

والمغفرة أولى بالطلب، فإن الرشد يراد للمغفرة، ولما ورد في الحديث أن: «من أذن في مسجد سبع سنين فقد وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاماً أُدخل الجنة بغير حساب»(٣). وغير هذا مما تقدم في فضل الأذان. قالوا: ولذلك نقل عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم يتدافعون الإمامة.

وفي كتاب الغزالي قال: والصحيح / أن الإمامة أفضل إذ واظب عليها رسول الله ﷺ، [٤٢١/أ] وأبي بكر، وعمر، وغيرهما من الأئمة. نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر كما أن رتبة الإمارة والخلافة أفضل لقوله ﷺ: «ليوم واحد من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة»(٤).

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي أمامة، وقال: حسن غريب، وضعفه البيهقي. قاله العراقي في المغني (١/ ١٧٣).

(٢) جزء من حديث رواه البخاري من حديث لأبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث ابن عباس بالشطر الأول نحوه، قال الترمذي: حديث غريب. قاله العراقي في المغني (١/ ١٧٣).

(٤) رواه الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ ستين، قاله العراقي في المصدر السابق.

ولكن فيه خطر ولذلك وجب تقديم الأفضل والأفقه وعنه عليه السلام أنه قال: «أئمتكم وفدكم إلى ربكم فإن سركم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم»[١].

وقال بعض السلف: ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين، لأن هؤلاء قاموا بين يدي الله عز وجل وبيني خلقه هذا بالنبوة، وهذا بالعلم، وهذا بعماد الدين وهي الصلاة.

وبهذه الحجة احتج الصحابة في تقديم أبي بكر رضي الله عنه للخلافة، إذ قالوا: نظرنا فإذا الصلاة عماد الدين، فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا، والله أعلم.

الثالثة: أن يراعي الإمام أوقات الصلاة فيصلي في أوائلها ليدرك رضوان الله سبحانه ففضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا هكذا روي عن رسول الله ﷺ فيما بلغنا[٢].

وفي الحديث: «إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها، ولم تفته وما فاته من أول وقتها خير من الدنيا وما فيها»[٣].

ولا ينبغي أن تؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجمع، بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت؛ فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة.

[٤٢٢/ب] وقد قيل: كانوا إذا حضر إثنان في الجماعة / لم ينتظروا الثالث، وإذا حضر أربعة في الجنازة لم ينتظروا الخامس.

وروي أن رسول الله ﷺ: كان في بعض أسفاره فتأخر عن صلاة الفجر للطهارة، فلم ينتظروه وتقدم عبد الرحمن بن عوف رحمه الله فصلى بهم، حتى فاتت رسول الله ﷺ ركعة فقام يقضيها قال: فاشفقنا من ذلك فقال ﷺ: «قد أحسنتم هكذا افعلوا»[٤].

---

(١) رواه الدارقطني، والبيهقي، وضعف إسناده من حديث ابن عمر، والبغوي، وابن قانع، والطبراني في مجامعهم، والحاكم من حديث مرثد نحوه وهو منقطع، وفيه يحيى بن يحيى الأسلمي وهو ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/ ١٧٤).

(٢) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه الدراقطني من حديث أبي هريرة نحو بإسناد ضعيف، قاله العراقي بالمصدر السابق.

(٤) متفق عليه من حديث المغيرة قاله العراقي في المغني (١/ ١٧٥).

وقد تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء عليه السلام وهم في الصلاة فقام إلى جانبه.

وليس على الإمام انتظار المؤذن، وإنما على المؤذن إنتظار الإمام للإقامة، فإذا حضر فلا ينتظر غيره، والله أعلم.

الرابعة: أن يؤم لوجه الله تعالى مخلصاً ومؤدياً أمانة الله تعالى سبحانه في طهارته، وجميع شروط صلاته أما الإخلاص فبأن لا يأخذ عليها أجرة، فقد روي أن النبي ﷺ أمر عثمان بن أبي العاص الثقفي فقال: «واتخذوا مؤذناً لا يأخذ على الأذان آجراً»[1].

والأذان طريق إلى الصلاة فهي أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر.

وفي كتاب الغزالي قال: فإن أخذ رزقاً من السجد وقد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو من آحاد الناس فلا يحكم بتحريمه ولكنه مكروه والكراهية في الفرائض أشد منها في التراويح، ويكون له أجرة على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة.

وأما الأمانة: فهي الطهارة باطناً عن الفسوق والكبائر وعن الإصرار على الصغائر، فالمترشح للإمامة ينبغي أن يحترز عن ذلك جهده، فإنه كالوفد والشفيع للقوم / فينبغي أن يكون [٤٢٣/أ] خير القوم وأفضلهم.

وكذلك الطهارة عن الحدث والخبث لا بد أن يكون طاهراً متطهراً وذلك أيضاً أمانة لا يطلع عليه سواه فإن أحدث في صلاته بحديث يبني فيه فليأخذ بيد من يقرب منه وليستخلفه وليخرج فيتوضأ ثم يرجع فليدخل في الصلاة.

وفي كتاب الغزالي قال سفيان: صل خلف كل بار، وفاجر إلاّ مدمن خمر أو معلن بالفسوق، أو عاق لوالديه، أو صاحب بدعة، أو عبد آبق.

الخامسة: أن لا يُكَبِّر حتى تستوي الصفوف، فليلتفت يميناً وشمالاً فإن رأى خللاً أمر بالتسوية.

قيل: كانوا يتحادون بالمناكب ويتضامون بالكعاب ولا يعجل المأمومين بالتكبير حتى

---

(١) رواه أصحاب السنن، والحاكم وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي، قاله العراقي في المصدر السابق.

يستعدوا للصلاة، وكذلك المؤذن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس.

ففي الخبر: ليتمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكِلُ من طعامه، والمعتصر من اعتصاره، وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين وأمر بتقديم العَشاء على العِشاء طلباً لفراغ القلب.

السادسة: أن من يرفع صوته بتكبيرة الإحرام وسائر التكبيرات وينوي الإمامة ويقول: أؤدي هذه الصلاة الأولى أو غيرها فريضة افترضتها علي بجميع من له صلاة وبكل من يصلي هذه الصلاة خلفي في هذا اليوم ليوم كذا فيبني بعد هذا على اعتقاد المنفرد كما تقدم وعليه في القراءة ثلاث وظائف.

أولها: أن يكون له في القيام للقراءة سكتتان، ورد بهما الحديث عن رسول الله ﷺ من طريق سمرة بن جندب وعمران بن حصين عنه عليه السلام.

[٤٢٤/ب] أحدهما: إذا كبّر يسكت مقدار / ما يبلع ريقه. وقيل: مقدار ما يقول: سبحان الله.

والثانية: بعد الفراغ من الفاتحة في صلاة السر أو إذا فرغ من السورة قبل أن يركع؛ لأنه قد نهى عليه السلام عن المواصلة.

الثانية: ينبغي الإطالة بالقراءة في صلاة الفجر، والتغليس بها سنة، ولا بأس بالخروج منها مع الأسفار، ولا بأس أن يقرأ فيها بأواخر السور، لأن ذلك لا يتكرر على الأسماع كثيراً يكون أبلغ في الوعظ وأدعى إلى التفكر. وإنما كره بعض العلماء قراءة بعض السور وقطعها وقد روي أنه ﷺ قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع.

وروي أنه ﷺ قرأ في ركعتي الفجر آية من البقرة وهي قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[1] الآية.

وفي الثانية: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾[2]. رواهما في كتاب الغزالي قال: وسمع بلالاً يقرأ من هاهنا وهاهنا فسأله عن ذلك فقال: اخلط الطيب بالطيب. فقال: «أحسنت»[3].

ويستحب التوسيط في قراءة العشاء بأوساط سور المفصل، وفي المغرب بأواخر المفصل.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٥٣.

(٣) رواه أبو داود في السنن من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح نحوه، قاله العراقي في المغني (١/ ١٧٦).

ويقال: إن النبي عليه السلام قرأ في المغرب سورة (والمرسلات).

وبالجملة: التخفيف أولى ولا سيما إذا كثر الجمع لقوله عليه السلام: «إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء»[١].

وروي أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يصلي بقوم العشاء فقرأ البقرة، فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه. فقالوا: نافق الرجل فتشاكيا إلى رسول الله ﷺ فزجر عليه السلام معاذاً وقال: «أفتان أنت يا معاذ اقرأ بسورة سبح والسماء والطارق، / والشمس وضحاها»[٢]. [٤٢٥/أ]

الثالثة: الجهر بالقراءة في موضع السورة، والإسرار بها مع الفاتحة فقط ما خلا الاستعاذة فإنه يسر بها على كل حال، والجهر بالفاتحة والسورة إنما يكون في الصبح وأولتي المغرب والعشاء وكذا المنفرد، ولكنه خلف الإمام يقتصر على قراءة الفاتحة سراً، ويستمع بعد ذلك لقراءة الإمام سراً. والله أعلم.

وعليه في الأركان ثلاث وظائف:

أولها: يخفف في تسبيح الركوع والسجود فلا يزيد فيه على ثلاث، وقد روي عن أنس أنه قال: ما رأيت أخف صلاة من رسول الله ﷺ في تمام نعمه[٣].

روي أيضاً عن أنس بن مالك: أنه لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال: ما صليت وراء أحد أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الشاب. قال: فكنا نسبح وراءه عشراً عشراً[٤].

وروي أيضاً مجملاً أنهم قالوا: كنا نسبح وراء رسول الله ﷺ في الركوع والسجود عشراً[٥]. وهذا حسن، ولكن الثلاث إذا كثرت الجماعة أحسن، وأما إذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالعشر هذا وجه الجمع بين الروايات، وليقل الإمام عند رفع رأسه من الركوع: سمع الله لمن حمده.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني (١/ ١٧٧).
(٢) متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر السماء والطارق وهي عند البيهقي. قاله العراقي في المصدر السابق.
(٣) متفق عليه قاله العراقي في المصدر السابق.
(٤) رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد وضعفه ابن القطان. المصدر السابق.
(٥) لم أجد له أصلاً إلا في الحديث الذي قبله وفيه: فمررنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات. العراقي في المصدر السابق.

الثانية: ينبغي للمأموم أن لا يسابق الإمام، بل يكون تبعاً له في المقال، والفعال، ولا يهوي إلى السجود إلا إذا وصلت جبهة الإمام إلى الأرض، ولا الركوع حتى يستوي الإمام راكعاً لقوله عليه السلام: «الإمام يركع قبلكم ويسجد قبلكم».

[٤٢٦/ب] ويقال: هكذا كان اقتداء الصحابة به عليه السلام والتشديد / في تكبيرة الإحرام وفي الركوع والسجود والرفع منهما، وفي التسليم فإن سبقه المأموم إلى أحد هذه الوجوه متعمداً انتفضت صلاته وناسياً فليرجع إلى اتباعه.

وقد قيل: إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام طائفة: بخمس وعشرين صلاة، وهم الذين يكبرون ويركعون ويسجدون بعد الإمام.

وطائفة: بصلاة واحدة وهم الذين يساوونه في الركوع والسجود وغير ذلك.

وطائفة: بلا صلاة وهم الذين يسبقون الإمام والله أعلم.

ووظائف التحليل ثلاث:

أولها: أن ينوي بالتسليم السلام على الحفظة وهم الملائكة عليهم السلام وسائر المؤمنين.

وقيل: ينوي به الخروج من الصلاة، ولا ينبغي أن يجهر المصلي بقراءة التحيات بل يُسِّر بها؛ فإن ذلك هو السنة.

الثانية: أن يتحول الإمام إذا سلّم فيصلي النافلة في موضع آخر.

روي أن ذلك فعل رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وفي الخبر أن رسول الله ﷺ لم يكن يقعد إلاّ قدر قوله: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

وإن كان خلف الإمام نسوة فلا يقم حتى ينصرفن. وقد استحب بعضهم أن يصلي سبحة المغرب في موضع الفريضة، ذكر ذلك في كتاب الصلاة لأهل المغرب من أصحابنا والله أعلم.

الثالثة: ينبغي إذا قام أن يقبل بوجهه على الناس، ويكره للمأموم القيام قبل انتقال الإمام.

وفي كتاب الغزالي:

[٤٢٧/ب] وروي عن طلحة والزبير أنهما صليا خلف إمام فلما سلما قالا / للإمام: ما أحسن

صلاتك وأتمها إلاّ شيئاً واحداً؟ إنك لما سلمت لم تنفتل بوجهك. ثم قالا للناس: ما أحسن صلاتكم إلاّ أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم ثم ينصرف الإمام حيث شاء عن يمينه أو شماله واليمين أفضل، ثم إذا دعا فلا يخص نفسه بالدعاء دون القوم بل يأتي بلفظ الجمع فيقول: اللهم اغفر لنا، ولا يقول: اغفر لي، في أمثالها، والله أعلم.

هذا ما على الإمام من وظائف الصلاة ـ اختصرنا ذلك من كتاب الغزالي[١] مخافة التطويل ـ إذ كان هذا موجوداً في كتب الصلاة، وبالله التوفيق.

الباب الخامس
في فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها[٢]

وهذا الباب يشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: في فضل الجمعة

اعلم أن يوم الجمعة يوم عظيم، عظّم الله تعالى به الإسلام وخصّ به المسلمين وقال تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[٣].

حرّم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعي للجمعة، وقال ﷺ: «إن الله فرض عليكم الجمعة في يومي هذا في مقامي هذا»[٤].

وعنه عليه السلام أنه قال: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه»[٥].

وفي لفظ آخر: «فقد نبذ الإسلام وراء ظهره».

ويروى عن مجاهد أنه قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: يا ابن عباس ما تقول في رجل يقوم الليل ويصوم النهار، ولا يحضر جمعة ولا جماعة ويموت على ذلك؟ قال: هو في النار. قال: فاختلف إليه شهراً / يسأله عن ذلك ويقول: هو في النار. [٤٢٨/أ]

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٧٥، ١٧٨).
(٢) من كتاب الغزالي.
(٣) سورة الجمعة الآية: ٩.
(٤) رواه ابن ماجة من حديث جابر بإسناد ضعيف. قاله العراقي (١/١٧٨).
(٥) رواه أحمد، واللفظ له وأصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبي الجعد الضمري. قاله العراقي في المغني (١/١٧٨).

وفي الخبر: أن أهل الكتابين أعطوا يوم القيامة فاختلفوا فيه، فصرفوا عنه، وهدانا الله له فأخّره لهذه الأمة، وجعله عيداً لهم فهم أولى الناس به سبقاً، وأهل الكتابين لهم تبع[١].

وفي حديث أنس عن النبي عليه السلام أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام وفي كفه مرآت [بيضاء][٢] فقال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك، قلت: فما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير ساعة من دعا فيها بخير هو له قسم أعطاه الله أو ليس له قسم ذخر له ما هو أعظم منه أو تعوذ من شر هو مكتوب عليه إلا أعاذه الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا».

وعنه ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط إلى الأرض، وفيه تيب عليه، وفيه تقوم الساعة»[٣].

وفي الخبر: أن لله عز وجل في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار.

وروى أنس أن النبي ﷺ قال: «إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام»[٤].

وعنه ﷺ: «إن الجحيم تسعر في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء فلا تصلوا هذه الساعة إلا في يوم الجمعة؛ فإنه صلاة كله فإن جهنم لا تسعر فيه»[٥].

وعن كعب قال: إن الله عز وجل فضّل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة. ويقال: إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضاً يوم الجمعة، فتقول: سلام سلام يوم صالح.

[٤٢٩/ب] وعنه /ﷺ أنه قال: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقي فتنة القبر»[٦]، والله أعلم[٧].

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) ما بين المعقوفين من الإحياء والمغني (١٧٩/١) وقال العراقي: رواه الشافعي في المسند، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه في التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٤) رواه ابن حبان في الضعفاء، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث عائشة، ولم أجده من حديث أنس. المصدر السابق.

(٥) رواه أبو داود في السنن من حديث أبي قتادة وأعله بالانقطاع. المصدر السابق.

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث جابر، وهو والترمذي نحوه مختصراً من عبد الله بن عمر، وقال غريب ليس إسناده بمتصل. قلت: وصله الترمذي الحكيم في النوادر. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٧) راجع الباب في إحياء علوم الدين (١٧٨/١، ١٧٩).

الفصل الثاني: في آدابها

وتنحصر آدابها في عشر جمل على ترتيب العادة:

الأولى: ينبغي للمريد أن يستعد لها يوم الخميس عزماً عليها واستقبالاً لفضلها فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر من يوم الخميس لأنها ساعة قويلت بالساعة المبهمة في يوم الجمعة.

وعن بعض السلف أنه قال: إن لله عز وجل فضلاً سوى أرزاق العباد لا يعطي من ذلك الفضل إلا مَنْ سأله عشية الخميس ويوم الجمعة، ويغسل في هذا اليوم ثيابه ويبيضها، ويعد الطيب إن لم يكن عنده ويفرغ قلبه من الاشتغال التي تمنعه من البكور إلى الجمعة، وينوي في هذه الليلة صوم يوم الجمعة، فإن له فضلاً عظيماً، ويقال: من صامه كمن صام خمسين ألف سنة، ويقال: من صامه فإنه يبعد عن النار مسافة طيران فرخ الغراب منذ خرج من البيضة حتى يموت هرماً. وقيل: يجعل بينه وبين النار خندق مسافته ما بين مطلع الشمس إلى مغربها. ويقال: من صام أربعين جمعة غفرت ذنوبه، والله أعلم.

ولكن يقال: صوم الجمعة مفرداً مكروه حتى يضم إليه الخميس والسبت. ويقال: إن النبي عليه السلام نهى عن صوم يوم الجمعة إلا أن يتقدمه يوم أو يتأخره يوم، والله أعلم.

وينبغي أن يشتغل بإحياء ليلة الجمعة بالصلاة وقراءة القرآن ويستحب عليها فضل يوم الجمعة ويجامع أهله في الليلة / أو في يوم الجمعة فقد استحب ذلك وحملوا عليه قول النبي [٤٣٠/أ] عليه السلام: «رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل»(١). أي حمل أهله على الغسل، وقيل معناه: غسل ثيابه، فروي بالتخفيف واغتسل جسده. وبهذا يتم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا: ما هذا اليوم؟

الثانية: إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر، وإن كان لا يبكر فأقربه إلى الرواح أحسن ليكون أقرب عهداً بالنظافة فالغسل مستحب استحباباً مؤكداً وبعض ذهب إلى وجوبه، ورووا في ذلك أن النبي عليه السلام قال: «غسل يوم الجمعة واجب»(٢).

والمشهور في الحديث: «من أتى الجمعة فليغتسل». وكان أهل المدينة فيما بلغنا:

---

(١) رواه أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث أوس بن أوس: «من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر» الحديث الترمذي وحسنه. قاله العراقي في المغني (١/ ١٨٠).

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد. المصدر السابق.

يتسابُّون فيما بينهم فيقولون: لأنت شر ممن لا يغتسل.

ويروى أن عمر رحمه الله قال لعثمان لما دخل عليه وهو يخطب: ما هذه البدعة؟! ـ منكراً عنيه ترك البكور ـ فقال: ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت. فعرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان.

ويما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل»[1]. ويقال: معنى الحديث: من توضأ فبها ونعمت: أي فقد أخذ بالرخصة ونعمت الرخصة، ومن اغتسل للجنابة فليفض الماء على بدنه مرة أخرى على نيّة غسل الجمعة، فإن اكتفى بغسل واحد أجزأه، والله أعلم.

الثالثة: الزينة وهي مستحبة في هذا اليوم وهي في ثلاث: الكسوة، والنظافة، وتطييب الرائحة.

[٤٣١/ب] **أما النظافة:** فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما تقدم / في الطهارة.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله منه عز وجل داء وأدخل فيه شفاء. فإن كان قد دخل الحمام في الخميس والأربعاء فقد حصل المقصود، ويتطييب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده ليغلب به الروائح الكريهة، ويوصل به الروح والراحة إلى مشام الحاضرين في جواره، وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه[2]. روي ذلك في الأثر، وقال بعض العلماء: من نظّف ثوبه قلّ همه، ومن طاب ريحه زاد عقله.

وأما الكسوة: فأحبها البيض من الثياب، إذ أحب الثياب إلى الله عز وجل البيض، ولا يلبس ما فيه الشهرة.

وفي كتاب الغزالي قال: لبس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر إليه. قال: لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله ﷺ.

قال: والعمامة مستحبة في هذا اليوم.

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي من حديث سمرة. المصدر السابق.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني (١/ ١٨١).

قال: وروى واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة»(١).

قال: فإن أكربه الحر فلا بأس بنزعها قبل الصلاة وبعدها، ولكن لا تنزع في وقت الصلاة وعند صعود الإمام المنبر في خطبته والله أعلم.

الرابعة: ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين، ويدخل وقت البكور بطلوع الفجر، وفضل البكور عظيم وينبغي أن يكون في سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناوياً للاعتكاف في المسجد للصلاة قاصداً للمبادرة إلى إجابة نداء الله عز وجل إلى الجمعة / والمسارعة إلى [٤٣٢/أ] مغفرته ورضوانه وقد قال ﷺ: «من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرَّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما أهدى دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما أهدى بيضة، فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام، فمن جاء بعد ذلك فإنما جاء بحق الصلاة ليس له من الفضل شيء»(٢).

والساعة الأولى إلى طلوع الشمس، والثانية إلى ارتفاعها، والثالثة إلى إنبساطها حين ترمض الأقدام، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال وفضلها قليل، ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه.

وعنه عليه السلام قال: «ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا الإبل في طلبهن: الأذان، والصف الأول، والغدو إلى الجمعة»(٣).

قال بعضهم: أفضلهن الغدو إلى الجمعة.

وفي الخبر: إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من

---

(١) رواه الطيالسي، وابن عدي وقال: منكر من حديث أبي الدرداء، ولم أره من حديث واثلة. المصدر السابق.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وليس فيه: ورفعت الأقلام وهذه اللفظة عند البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قاله العراقي في المغني (١/ ١٨٢).

(٣) رواه أبو الشيخ في ثواب الأعمال من حديث أبي هريرة: ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن ما أخذن إلا بالاستهام عليها حرصاً على ما فيهن من الخير والبركة. قال: والتهجير إلى الجمعة في الصحيحين. من حديث: لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه. قاله العراقي في المصدر السابق.

فضة وأقلام من ذهب يكتبون الأول فالأول على مراتبهم.

وجاء في الأثر: أن الملائكة يتفقدون العبد إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضاً عنه ما فعل فلان، وما الذي أخره عن وقته. فيقولون: اللهم إن كان أخره فقر فأغنه، وإن أخره مرض فاشفه، وإن أخره شغل ففرغه لعبادتك، وإن أخره لهو فأقبل بقلبه على طاعتك.

قال: وكان يرى في القرن الأول سحراً أو بعد الفجر الطرقات مملوءة من الناس يزدحمون فيها إلى الجامع كأيام / العيد حتى اندرس ذلك. فقيل: أول بدعة حدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجامع. [٤٣٣/ب]

قال: وكيف لا يستحي المؤمن من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحد، وطلاب الدنيا كيف يبكرون إلى درجات الجامع للبيع والربح فلم لا يسابقهم طالب الآخرة.

وروي أن ابن مسعود رضي الله عنه دخل بكرة فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور فاغتم بذلك وجعل يقول لنفسه معاتباً لها: رابع أربعة وما رابع أربعة ببعيد.

الخامسة: في هيئة الدخول فينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس، ولا يمر بين أيديهم، وفي البكور يسهل عليه ذلك، فقد ورد وعيد شديد في تخطي الرقاب، وهو أن يجعل جسراً يوم القيامة يتخطاه الناس[١].

وروى ابن جريج مرسلاً: أن النبي ﷺ بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس فلما قضى عليه الصلاة والسلام صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال: «يا فلان ما منعك أن تجمع اليوم معنا»؟. فقال: يا نبي الله قد جمعت. فقال عليه السلام: «أولم أرك تتخطى رقاب الناس»؟! أشار به إلى[٢] أنه أحبط عمله.

هكذا ذكر في كتاب الغزالي قال: وفي الحديث مسنداً أيضاً قال: «ما منعك أن تصلي معنا»؟ قال: أولم ترني؟ قال عليه السلام: «رأيتك أتيت وآذيت»[٣]. أي تأخرت عن البكور

---

(١) رواه الترمذي وضعفه، وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس، قاله العراقي في المغني (١/ ١٨٣).

(٢) في الأصل: «بما لي». والتصويب من الإحياء (١/ ١٨٣) وقال العراقي في تعليقه: رواه ابن المبارك في الرقائق.

(٣) رواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان، والحاكم من حديث عبد الله بن بسر مختصراً. العراقي في المغني (١/ ١٨٣).

وآذيت الحضور. قال: ومهما كان الصف الأول متروكاً خالياً فله أن يتخطى رقاب الناس؛ لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة.

وعن الحسن أنه قال: تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجامع يوم الجمعة، فإنه لا حرمة لهم، وإذا لم يكن في المسجد إلاّ من يصلي فينبغي /ألا يسلم عليهم، [٤٣٤/أ] فإنه تكليف جواب في غير محله.

السادسة: أن لا يمر بين يدي الناس ويجلس هو إلى قريب من أسطوانة أو حائط حتى لا يمر بين يدي المصلين فإن ذلك مكروه، وإن كان لا يقطع الصلاة إذ قال ﷺ: «لأن يقف الرجل أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدي المصلي»[١].

وعنه ﷺ أنه قال: «لأن يكون الرجل رماداً رميماً تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدي المصلي»[٢].

وسوى في حديث آخر بيني المار والمصلي حيث صلى على الطريق أو قصر في الدفع فقال: «لو يعلم المار بين يدي المصلي والمصلي ما عليهما في ذلك لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه»[٣].

والأسطوانة والحائط والمصلى المفروش فيه حدّ المصلي فمن إجتاز به فينبغي أن يدفعه قال ﷺ: «ليدفعه فإن أبَى فليقاتله فإنه شيطان»[٤].

قال: وكان أبو سعيد الخدري يدفع من يمر بين يديه حتى يصرعه فربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه مروان فيخبره أن النبي ﷺ أمره بذلك، فإن لم يجد اسطوانة فلينصب بين يديه شيئاً طوله قدر الذراع ليكون ذلك علامة لحده.

السابعة: أن يطلب الصف الأول، فإن فضله كثير كما تقدم، وفي الخبر: «من غسل

---

(١) رواه البزار من حديث زيد بن خالد، وفي الصحيحين من حديث أبي جهم: أن يقف أربعين. قال أبو النضر لا أدري أربعين يوماً أو شهراً أو سنة، وابن ماجه، وابن حبان من حديث أبي هريرة مائة عام، المصدر السابق.

(٢) رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان، وابن عبد البر في التمهيد موقوفاً على عبد الله بن عمر، وزاد: متعمداً. المصدر السابق.

(٣) رواه هكذا أبو العباس محمد بن يحيى السراج في مسنده من حديث زيد بن خالد بإسناد صحيح. المصدر السابق.

(٤) متفق عليه. المصدر السابق.

واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع كان له كفارة ما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام»[١].

وفي لفظ آخر: غفر الله له إلى الجمعة الأخرى. وقد اشترط في بعضها إن لم يتخط رقاب الناس قال: ولا يغفل عن الصف الأول إلا بثلاثة أمور:

أولها: كأنه يرى بقرب الخطيب منكراً يعجز عن تغييره من لبس حرير من الإمام أو غيره أو صلاة / في سلاح كثير شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك مما يجب عليه الإنكار من أجله، [٤٣٥/ب] فالتأخر له أسلم وأجمع للهمم، فعل ذلك فيما بلغنا جماعة من العلماء طلباً للسلامة.

وقيل لبعضهم: نراك تبكر وتصلي في آخر الصفوف. فقال: إنما يراد قرب القلوب لا قرب الأجساد، أشار به إلى أن ذلك أسلم لقلبه.

قال: ونظر سفيان الثوري إلى شعيب بن حارث عند المنبر يستمع إلى الخطبة من أبي جعفر فلما فرغ من الصلاة قال: شغل قلبي قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاماً ما يجب عليك إنكاره فلا تقوم به؟

قال: ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد. قال: يا أبا عبد الله أليس في الخبر أذن واستمع؟ قال: ويحك ذلك. للخلفاء الراشدين المهتدين، وأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عز وجل.

وعن سعيد بن عامر قال: صليت إلى جنب أبي الدرداء فجعل يتأخر في الصفوف حتى كنا في آخر صف، فلما صلينا قلت له: أليس يقال خير الصفوف أولها؟ فقال: نعم إلاّ أن هذه أمة مرحومة منظور إليها من بين سائر الأمم، فإن الله عز وجل إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر لمن وراءه من الناس، وإنما تأخرت رجاء أن يغفر لي بواحد منهم ينظر الله إليه[٢].

وفي بعض الروايات أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك فمن تأخر على هذه النية إيثاراً وإظهاراً لحسن الخلق فلا بأس. وعند هذا يقال: الأعمال بالنيات.

الثاني: أنه إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقتطعة عند المسجد للسلاطين فالصف الأول / محبوب وإلاّ فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة. [٤٣٦/ب]

---

(١) رواه الحاكم من حديث أوس بن أوس، وأصله عند أصحاب السنن. المصدر السابق.

(٢) لم أجده، قاله العراقي في المغني (١/ ١٨٤).

وقيل: كان الحسن وبكر المزني لا يصليان في المقصورة ورأوا أنها قصرت على السلاطين وهي بدعة أحدثت بعد رسول الله ﷺ في المساجد.

ووجدت في كتاب المبرد: أن الحجاج بن عبد الله وهو أحد الثلاثة الذين اتفقوا على قتل علي بن أبي طالب، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان في ليلة واحدة. قال: فأتى الحجاج معاوية وهو يصلي فضربه مدبراً ففلق أليتيه. فقال: قتلتك يا عدو الله. فقال معاوية: كلا يا ابن أخي إن عمك أحمش من ذلك. قال: فلما أخذ قال: الأمان والبشارة، قتل علي في هذه الصبيحة فاستبقوني به. حتى جاء الخبر فقطع معاوية يده ورجله وأمر حينئذٍ باتخاذ المقصورة. فقيل لابن عباس: ما تأويل المقصورة؟ قال: يخافون أن يبتهضه الناس فيقال: البأس بالباء، والمقصورة: بيت يتخذ في الجامع تصلي فيه السلاطين خاصة. ولذلك كرهت العلماء الصلاة فيه؛ لأن المسجد مطلق لجميع الناس.

وقد روي أيضاً أن أنس بن مالك، وعمران بن الحصين صليا في المقصورة طلباً للقرب ولم يكرها ذلك، والله أعلم.

ولعل الكراهة تختص بحالة التخصيص والمنع وأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يوجب كراهة، والله أعلم.

الثالث: أن المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل.

وعن الثوري أنه كان يقول: الصف الأول هو الخارج بين يدي المنبر وهو المتجه؛ لأنه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب، ويسمع ولا يبعد أن يقال: الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا يراعى هذا المعنى. /وتكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة من [٤٣٧/أ] المسجد، وكان بعض الصحابة فيما بلغنا يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب، والله أعلم.

الثامنة: أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام، ويقطع الكلام أيضاً بل يشتغل بإجابة المؤذن، ثم باستماع الخطبة.

وفي كتاب الغزالي قال: وقد جرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين.

قال: ولم يثبت له أصل في أثر ولا خبر لكنه إنْ وافق سجود تلاوة القرآن فلا بأس أن يمد الدعاء؛ لأنه وقت فاضل. قال: ولا يحكم بتحريم هذا السجود، لأنه لا سبب لتحريمه.

قال: وقد روي عن عليّ وعثمان من استمع وانصت فله أجران، ومن لم يستمع وانصت

فله أجر واحد، ومن سمع ولغى فعليه وزران، ومن لم يسمع ولغى فعليه وزر واحد.

وعنه ﷺ أنه قال: «من قال لصاحبه والإمام يخطب انصت أو مه فقد لغى، ومن لغى والإمام يخطب فلا جمعة له»[١]. وهذا يدل على أن الإسكات ينبغي أن يكون بالإشارة أو رمي حصاة لا بالنطق.

وفي حديث أبي ذر رحمه الله لما سأل أُبيًا والنبي عليه السلام يخطب فقال: متى أنزلت هذه السورة؟ فأومىء إليه أن اسكت، فلما نزل رسول الله ﷺ قال له أُبيٌّ: اذهب فلا جمعة لك. فشكاه أبو ذر إلى رسول الله ﷺ، فقال: «صدَّق أُبيٌّ»[٢]. وإن كان بعيداً من الإمام، فلا ينبغي أن يتكلم في العلم وغيره بل يسكت، وإذا كانت الصلاة مكروهة في وقت خطبة الإمام فالكلام أولى.

التاسعة: أن يراعي في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيرها، فإذا سمع قراءة الإمام فلا يقرأ [٤٣٨/ب] /سوى الفاتحة. ثم إذا فرغ من الجمعة قرأ سورة الحمد سبع مرات قبل أن يتكلم، و﴿قل هو الله أحد﴾، والمعوذتين سبعاً سبعاً، فروي عن بعض السلف أن: من فعله عُصِمَ من الجمعة إلى الجمعة وكان حزراً له من الشيطان.

ويستحب أن يقول بعد صلاة الجمعة: اللهم يا غني يا حميد يا مبدىء يا معيد يا رحيم يا ودود، أغنني بحلالك عن حرامك، وبفضلك عن من سواك. يقال: من داوم على هذا الدعاء أغناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب. قال: ثم صلي بعد الجمعة ست ركعات فقد روي عن ابن عمر أنه ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين.

وعن أبي هريرة عنه أربعاً، وعن علي وابن عباس ستاً، والكل صحيح فيما بلغنا في أحوال مختلفة والأكمل أفضل والله أعلم.

---

(١) رواه الترمذي، والنسائي عن أبي هريرة، دون قوله: ومن لغى فلا جمعة له. قال الترمذي حديث حسن صحيح وهو في الصحيحين بلفظ: إذا قلت لصاحبك. وأبو داود من حديث علي: «من قال: صه فقد لغى ومن لغى فلا جمعة له». قاله العراقي في المغني (١/ ١٨٤، ١٨٥).

(٢) رواه البيهقي وقال في المعرفة إسناده صحيح، وأبو داود، وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بسند صحيح أن السائل له أبو الدرداء، وأبو ذر، ولأحمد من حديث أبي الدرداء: أنه سأل أبياً، ولابن حبان من حديث جابر أن السائل عبد الله بن مسعود، ولأبي يعلى من حديث جابر قال: قال سعد بن أبي وقاص لرجل لا جمعة لك، فقال له النبي ﷺ: لم يا سعد؟ قال: لأنه كان يتكلم وأنت تخطب، فقال: صدق سعد. المصدر السابق.

العاشرة: أن يلازم المسجد حتى يصلي العصر، فإن أقام إلى الغرب فهو الأفضل.

يقال: من صلى العصر في الجامع كان له ثواب الحج. ومن صلى المغرب كان له ثواب العمرة، فإن لم يأمن التصنع ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيما لا يعني فالأفضل أن يرجع إلى بيته ذاكراً لله عز وجل مفكراً في آلائه شاكراً على توفيقه خائفاً من تقصيره مراقباً لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تفوته الساعة الشريفة. ولا ينبغي أن يتكلم في الجامع ولا غيره من المساجد بحديث الدنيا، وقد جاء في الحديث: «يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم أمر دنياهم فلا تجالسوهم فليس لله تعالى بهم من حاجة»[1]، والله أعلم[2].

الفصل الثالث: في شروط الجمعة وحكمها

أما حكمها: فقد اتفقت الأمة على أن حكم الجمعة الوجوب، وأنها تصلى خلف /الإمام العادل في الأمصار السبعة التي مصرّها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واختلفوا فيها [٤٣٩/أ] خلف الجبابرة: فذهب أكثر الإباضية إلى إيجابها خلفهم في الأمصار السبعة.

وذهب بعضهم إلى أنها لا تصلى خلف الجبابرة، وقد ذكرت هذا في كتابنا المسمى بقواعد الإسلام مشروحاً بأدلته واختلاف الناس في ذلك، وما اعتمد عليه أصحابنا فلا معنى لإعادته هاهنا؛ إذ ليس هذا الكتاب موضوعاً لتفريع مسائل الفقه، وإنما هو موضوع لما لا بد منه من حدود الفرائض وغيرها ظاهراً وباطناً.

وأما شروط وجوب الجمعة عند أصحابنا فهي: عشرة: البلوغ، والعقل، والإسلام، والذكورية، والصحة، والحرية، والإقامة، والإمام، والمصر، والجماعة.

وقد شرحتها في كتاب القواعد فلا نعيدها هاهنا. وبالجملة: فلا تجب الجمعة إلّا على بالغ عاقل مسلم. ذكر صحيح حر مقيم في مصر تحت حكم سلطان سعه جماعة من الناس، ولا تجب على طفل، ولا على مجنون، ولا على أنثى، ولا على مريض، ولا على عبد ولا على مسافر، ولا على من كان في غير مصر من الأمصار السبعة على قول بعض علمائنا، ولا على من كان في غير أرض تقام فيه الحدود بالسلطان، ولا على من كان في غير جماعة، هذه،

---

(١) رواه البيهقي في شُعب الإيمان من حديث الحسن مرسلاً وأسنده، والحاكم من حديث أنس وصحح إسناده، وابن حبان من حديث ابن مسعود. المصدر السابق.

(٢) راجع الباب في إحياء علوم الدين (١/ ١٨٠، ١٨٥).

شروط الوجوب مجملة هاهنا مشروحة في غير هذا الكتاب، والله أعلم.

وأما شروط صحة صلاة الجمعة فهي كسائر شروط الصلوات إلا أنها تتميز عنها بستة شروط:

أحدها: الوقت: فلو وقع تسليم الإمام منها في وقت العصر لكانت الجمعة فائتة في قول بعضهم وعليه أن يتمها ظهراً.

الثاني: المكان: فلا تصح في الصحاري والبوادي وبين /الخيام، بل لا بد من بقعة جامعة لأبنية لا تنقل تجمع جمعة ممن تلزمهم الجمعة بحضور سلطان أو بإذنه. [٤٤٠/ب]

الثالث: العدد: وقد اختلف فيه من اثنين بالإمام إلى أربعين رجلاً ممن تلزمهم ذكوراً مكلفين، لا يظعنون عنها شتاءً ولا صيفاً.

الرابع: الجماعة: فلو صلوا فرادى لا تصح جمعتهم.

الخامس: أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى في ذلك البلد إلا عند الضرورة.

السادس: الخطبة: لأنه إذا لم تكن الخطبة صلوا الظهر أربعاً، وهما خطبتان بينهما جلسة خفيفة، وقد اتفق جمهور العلماء على أن وقت الأذان هو إذا جلس الإمام على المنبر فإذا قال المؤذن: لا إله إلا الله، أخذ الإمام في الخطبة، ولا ينزل حتى يقول المؤذن: قد قامت الصلاة فيدخل الإمام فيها، والله أعلم هذه شروط صحة الصلاة والله أعلم[1].

الفصل الرابع: في سننها وفضائلها

أما السنن المختصة بها: فقد ذكرت في الجمل المتقدمة وهي الغسل عند الرواح لها، ولا يجزي إلاّ بعد الصبح والطيب، والسواك، والتجمل في اللباس، والبكور، والإنصات للإمام والاستقبال له بالوجه والجهر بالقراءة في الصلاة والله أعلم.

أما فضائلها: فالتهجير لها، وصلة الغسل بالرواح لها، واستعمال خصال الفطرة فيها: من قص الشارب، ونتف الإبط، والاستحداد، وتقليم الأظفار، والاقتصار في الخطبة مع بلاغة واختصار، وقراءة آية، ولا يستعمل فيها غريب اللغة، ولا يتمطى، ولا يتغنى، وليتكىء على سيف أو عصى أو نحوه. ولتكن مشتملة على الذكر، والثناء على الله تعالى والشهادتين،

---

(١) راجع الباب في إحياء علوم الدين (١/١٧٩، ١٨٠).

والتذكير، والدعاء، والصدقة قبلها، وحضور مجلس العلم قبل الصلاة بكرة، أو بعدها، أو بعد / العصر، ولا يحضر مجلس القصاص. [٤٤١/أ]

وقد روي عن أنس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَٱنتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[١].

قال: إما أنه ليس بطلب دنيا، ولكن عيادة مريض، وحضور جنازة، وتعلم علم، وزيارة أخ في الله، وقد سمى الله تعالى العلم فضلاً في مواضع قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[٢].

وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾[٣]. يعني علماً، وينبغي أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة التي ورد الخبر بها: لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه إياه.

وفي خبر آخر: لا يوافقها عبد يصلي فاختلف فيها، فقيل: أنها عند طلوع الشمس، وقيل: عند الزوال، وقيل مع الأذان، وقيل: إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة.

وقيل: إذا قام الناس إلى الصلاة، وقيل آخر: وقت العصر، وقيل: عند غروب الشمس.

ويقال: كانت فاطمة رضي الله عنها تراعي ذلك الوقت فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس، وتخبر بأن تلك الساعة هي المنتظرة.

وقد روي عن كعب الأحبار: أنها في آخر ساعة من يوم الجمعة، فقال أبو هريرة: كيف والنبي عليه السلام يقول: «لا يوافقها عبد يصلي» ولات حين صلاة؟ فقال كعب: ألم يقل: «من قعد ينتظر الصلاة فهو في صلاة»؟ قال: بلى. فقال: تلك صلاة، فسكت أبو هريرة[٤].

وقال بعض العلماء: هي مبهمة في جميع اليوم والليلة مثل ليلة القدر حتى تكثر الرغبة في مراقبتها. وقيل: أنها تنتقل في ساعة يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر، وهذا هو الأشبه، ولكن

---

(١) سورة الجمعة الآية: ١٠.

(٢) سورة النساء الآية: ١١٣.

(٣) سورة سبأ الآية: ١٠.

(٤) قال العراقي (١/١٨٧): وقع في الإحياء أن كعباً هو القائل إنها آخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبد الله بن سلام، وأما كعب فإنما قال: إنها في كل سنة مرة، ثم رجع، والحديث رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان من حديث أبي هريرة، وابن ماجه نحوه من حديث عبد الله بن سلام.

[٤٤٢/ب]ينبغي للإنسان أن يصدق بقوله عليه السلام: «إن لربكم في دهوركم نفحات / ألا فتعرضوا لها»[1].

ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام، فينبغي أن يكون العبد متعرضاً لها بإحضار القلب وملازمة الذكر، والنزوع عن وسواس الدنيا فعساه أن يحظى بشيء من تلك النفحات والله أعلم.

ويستحب أيضاً إكثار الصلاة فيه على النبي ﷺ، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «من صلى عليّ في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة». فقيل له: وكيف نصلي عليك؟ فقال: «تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي ثم تعقد واحدة». وينبغي أن يضيف إليه الاستغفار فإنه مستحب أيضاً في هذا اليوم.

ويستحب أيضاً أن يكثر فيه قراءة القرآن وخصوصاً سورة الكهف.

وقد روي عن ابن عباس وأبي هريرة أنهما قالا: من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يومها أعطى نوراً من حيث يقرأها إلى مكة، وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام، وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وعوفي من الداء والذبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال[2].

ويستحب أن يختم القرآن في يوم الجمعة أو ليلتها إن قدر، ولتكن ختمة القرآن في ركعتي الفجر إن قرأ في الليل أو في ركعتي المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم.

وقيل: وكان العابدون يستحبون أن يقرأوا يوم الجمعة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[3] ألف مرة.

ويقال: إن قرأها في في عشر ركعات أو عشرين ركعة فهو أفضل من ختمة، وكانوا يصلون على النبي عليه السلام ألف مرة ويقولون: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر، والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن ولابن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أنس، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة، واختلف في إسناده. قاله العراقي في المغني (١/١٨٦).

(٢) لم أجده من حديثهما. قاله العراقي في المغني (١/١٨٧).

(٣) سورة الإخلاص الآية: ١.

أكبر ألف مرة، وإن قرأ المسبحات الست في يوم الجمعة أو ليلتها فذلك حسن / جميل. [٤٤٣/أ]

ويقال: إن النبي عليه السلام لم يكن يقرأ سوراً بأعيانها إلاّ في يوم الجمعة أو ليلتها كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[١]، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢]. وفي صلاة العشاء سورة الجمعة، وسورة المنافقين.

وروي أنه كان يقرأهما في ركعتي الجمعة، وكان يقرأ في الصبح يوم الجمعة بسورة سجدة لقمان وسورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ﴾[٣] والله أعلم وأحكم.

ويستحب أيضاً إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يركع أربع ركعات يقرأ فيهن: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٤]. مائة مرة في كل ركعة خمسين مرة فقد نقل عن رسول الله ﷺ أن: من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له، ولا يدع ركعتي التحية. وإن كان الإمام يخطب، ولكن يخفف قيل: أنه عليه السلام أمر بذلك، وقيل: أنه سكت للداخل حتى صلاهما[٥].

ولذلك قال بعضهم: إن سكت له الإمام صلاهما، ويقال: أنه يستحب في هذا اليوم أن يصلي أربع ركعات بأربع سور: الأنعام، والكهف، وطه، ويّس، فإن لم يحسن قرأ يّس، والسجدة ولقمان، وسورة الدخان، وسورة الملك، ولا يدع أيضاً قراءة هذه الأربع سور في ليلة الجمعة ففيها فضل كثير، ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن، ويكثر من سورة الإخلاص.

ويستحب أن يصلي فيه أيضاً صلاة التسبيح[٦] كما سيأتي إن شاء الله في باب صلاة التطوعات.

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «صلها في كل جمعة»[٧].

---

(١) سورة الكافرون الآية: ١.
(٢) سورة الإخلاص الآية: ١.
(٣) سورة الإنسان الآية: ١.
(٤) سورة الإخلاص الآية: ١.
(٥) رواه الدارقطني من حديث أنس وقال أسنده عبيد بن محمد ووهم فيه والصواب عن معتمر عن أبيه مرسلاً. قاله العراقي في المغني (١/١٨٨).
(٦) رواه أبو دواد، وابن ماجة، وابن خزيمة، والحاكم من حديث ابن عباس، وقال العقيلي وغيره: ليس فيها حديث صحيح. قاله العراقي في المصدر السابق.
(٧) رواه أبو دواد، وابن ماجة، وابن خزيمة، والحاكم من حديث ابن عباس، وقال العقيلي وغيره: ليس فيها =

فكان ابن عباس فيما بلغنا لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال، وكان يخبر عن جلالة فضلها.

وقيل: الأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد صلاة الجمعة إلى العصر لاستماع العلم، وبعده إلى المغرب / للتسبيح والاستغفار. [٤٤٤/ب]

وتستحب الصدقة في هذا اليوم أيضاً؛ لأنها مضاعفة فيه إلاّ من سأل، والإمام يخطب فهذا مكروه.

ومن العلماء من كره الصدقة على سؤال الجامع الذين يتخطون رقاب الناس إلا إن سأل في مكانه قائماً أو قاعداً من غير تخطي.

وعن كعب الأحبار: أنه قال: من شهد الجمعة، ثم انصرف وتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة، ثم رجع فركع ركعتين يتم فيهما ركوعهما وخشوعهما، ثم يقول: اللهم إني أسألك باسمك الله الرحمن الرحيم، وباسمك الذي لا إلٰه إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم لم يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه.

وقال بعض السلف فيما بلغنا: من أطعم: مسكيناً يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحداً ثم قال حين سلم الإمام: بسم الله الرحمن الحي القيوم أسألك أن تغفر لي وترحمني وأن تعافيني من النار، ثم دعا بما بدا له استجيب له والله أعلم.

والذي ينبغي لمريد الآخرة أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه من أوراد العبادة ولا يبتدىء فيه السفر.

وقد روي أن من سافر ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه، وهو بعد طلوع الفجر عند بعضهم حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت.

وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد ليشربه أو ليسبله حتى لا يكون مبتاعاً في المسجد فإن البيع والشراء فيه مكروه، وقالوا: لا بأس أن يعطي القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد.

وبالجملة فينبغي أن يزيد في يوم الجمعة في أوراد العبادة وأنواع الخيرات فإن الله سبحانه

= حديث صحيح. قاله العراقي في المصدر السابق.

إذا أحب / عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقته استعمله فيها بسيء [٤٤٥/أ] الأعمال ليكون ذلك أوجع في عقابه وأشد لمقته لحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت الفاضل وبالله التوفيق[١].

مسألة

حُقَّ على من حضر الصلاة إذا رأى غيره يسيء الصلاة أن ينكر عليه فإن صدر عن جهل رفق بالجاهل وعلمه، فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور فقد قال ﷺ: «ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه»[٢]. ولا يكون له الويل إلا بترك الفريضة.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: من رأى من يسيء صلاته ولم ينهه فهو شريكه، وجاء في الحديث: أن بلالاً كان يسوي الصفوف ويضرب عراقبهم بالدُّرة[٣].

وينبغي أن يعاتب تارك الجماعة والمتخلف عنها، وقد كان الأولون يبالغون في الإنكار على ذلك، ويستحب أن يقصد يمين الصف، ولذلك تزاحم الناس عليه في زمان رسول الله ﷺ فقيل له: تعطلت الميسرة. فقال عليه السلام: «من عَمَّر ميسرة المسجد كان له كفلان من الأجر»[٤]. والله أعلم وأحكم[٥].

الباب السادس
في المندوب إليه من الصلوات

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى أربعة أقسام: سنن، ومرغوبات، ومتطوعات، ومستحبات.

أما السنن: فهو ما نقل عن رسول الله ﷺ المواظبة عليها والأمر بها / وذلك كصلاة الوتر [٤٤٦/أ] وصلاة الميت، وركعتي الفجر، وركعتي المغرب، وركعتي الطواف، وصلاة العيدين.

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٨٨، ١٨٩).
(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/ ١٩٢).
(٣) لم أجده. قاله العراقي في المصدر السابق.
(٤) رواه ابن ماجة من حديث ابن عمر بسند ضعيف. المصدر السابق.
(٥) راجع إحياء علوم الدين (١/ ١٩٢).

وأما المرغوبات: فهي صلوات ورد الخبر بفضلهن، ولم يرد بالمواظبة عليهن وذلك: كصلاة الضحى، وصلاة الكسوف والخسوف، والزلزلة، وصلاة الاستسقاء، وتحية المسجد.

وأما المتطوعات: فكركعات النوافل قبل الظهر وبعدها، وقبل العصر، وقبل العشاء وبعدها، وكقيام الليل، وإحياء ما بين المغرب والعشاء، وركوع السحر.

وأما المستحبات: فهي ما وراء هذه الصلوات المذكورة مما لم يرد في عينه خبر، ولكنه يتطويع به العبد رغبة في مناجات الله تعالى لقوله عليه السلام: «الصلاة خير موضوع فمن شاء فليقلل ومن شاء فليكثر»[١].

ومن هذا النوع: صلاة التسبيح، وصلاة الاستغفار، وصلاة الأجر، وصلاة الدهر وصلاة الرجاء، وركعتان بعد الوضوء لئلا يتعطل، وركعتان عند الدخول في المنزل، وركعتان عند الخروج منه وعند السفر، والقدوم منه، وصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة، وأشباه ذلك، وقد ذكرنا هذه الصلوات وفضائلها، وشرحنا جميع ذلك في كتابنا المسمى: بقواعد الإسلام، ولكنا نذكر هاهنا فضائل صلوات الأيام السبعة ولياليها لكل يوم وليلة منقول من كتاب الغزالي، وبالله التوفيق.

أما الأيام فنبدأها بيوم الأحد: وفي كتاب الغزالي قال: وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وآمن الرسول مرة كتب الله عز وجل له بعدد كل نصراني ونصرانية حسنات وأعطاه الله ثواب نبي وكتب له حجة وعمرة، وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله في الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر»[٢].

وعن علي بن أبي طالب عنه عليه السلام أنه قال: «وحّدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد؛ فإنه سبحانه واحد لا شريك له فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة: قرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب، وتنزيل السجدة، وفي الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك، ثم يتشهد ويسلم، ثم قام فصلى ركعتين آخرتين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة ويسأل الله حاجته كان حقاً على الله أن يقضي حاجته»[٣].

---

(١) رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث أبي ذر. قاله العراقي في المغني (١/١٩٦).
(٢) ذكره أبو موسى المديني من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/١٩٨).
(٣) ذكره أبو موسى المديني فيه بغير إسناد. المصدر السابق.

يوم الاثنين: روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من صلى يوم الإثنين عند إرتقاع النهار ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وآية الكرسي مرة، وقل هو الله أحد مرة، والمعوذتين مرة، فإذا سلّم استغفر الله تعالى عشر مرات، وصلى على رسوله عليه السلام عشر مرات، غفر الله تعالى له ذنوبه كلها»(١).

وروي عن أنس بن مالك عنه عليه السلام أنه قال: «من صلى يوم الإثنين اثنتي عشر ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب، وآية الكرسي مرة، ثم إذا فرغ قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ اثنتي عشر مرة، واستغفر الله اثنتي عشر مرة، نودي به يوم القيامة: أين فلان بن فلان ليقم فليأخذ ثوابه من الله عز وجل فأول ما يعطى من الثواب ألف حُلَّة ويتَّوج، ويقال له: ادخل الجنة فيستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يشيعونه حتى يدور /على ألف قصر من نور [٤٤٨/أ] يتلألأ»(٢).

يوم الثلاثاء: روى زيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار».

وفي حديث آخر: «عند إرتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب، وآية الكرسي مرة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً، فإن مات إلى سبعين يوماً مات شهيداً وغفر له ذنوبه سبعين سنة»(٣).

الأربعاء: أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب، وآية الكرسي مرة و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات والمعوذتين ثلاث مرات نادى به ملك عند العرش يا عبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك، ودفع الله سبحانه عنه عذاب القبر وضيقه وظلمته، ودفع عنه شدائد يوم القيامة ورفع له من يومه عمل نبي»(٤).

الخميس: عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى يوم الخميس

(١) ذكره أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعاً، وهو حديث منكر. قاله العراقي في المصدر السابق.
(٢) ذكره أبو موسى المديني بغير سند وهو منكر. راجع المصدر السابق.
(٣) ذكره أبو موسى المديني بسند ضعيف، ولم يقل عند انتصاف النهار ولا عند ارتفاعه. المصدر السابق.
(٤) ذكره أبو موسى المديني، وقال رواته ثقات، والحديث مركب، قلت: بل فيه غير مسمى، وهو محمد بن حميد الرازي أحد الكذابين. قاله العراقي في المغني (١/١٩٩).

بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ في الأولى: بفاتحة الكتاب وآية الكرسي مائة مرة، وفي الثانية: بفاتحة الكتاب مرة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرة، ويصلي عليّ مائة مرة أعطاه الله ثواب من صام رجب وشعبان، ورمضان وكان له من الثواب مثل حاج البيت، وكتب له بعدد كل من آمن بالله سبحانه وتوكّل عليه حسنات»[١].

[٤٤٩/ب] **الجمعة**: روي / عن عليّ عن النبي ﷺ أنه قال: «في يوم الجمعة صلاة ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قيد رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ فأسبغ الوضوء وصلى سبحة الضحى ركعتين إيماناً واحتساباً كتب الله له مائتي حسنة، ومحى عنه مائتي سيئة، ومن صلى أربع ركعات رفع الله له في الجنة أربعمائة درجة، ومن صلى ثمان ركعات رفع الله تعالى له في الجنان ثمانمائة درجة، وغفر له ذنوبه كلها، ومن صلى اثنتي عشرة ركعة كتب الله له ألفاً ومائتي حسنة ومحى عنه ألفاً ومائتين سيئة، ورفع عنه في الجنة ألفاً ومائتين درجة»[٢].

وعن نافع عن ابن عمر عنه ﷺ أنه قال: «من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة يقرأ في كل ركعة الحمد لله، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يُرى له»[٣].

السبت: روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾ ثلاث مرات فإذا فرغ قرأ آية الكرسي كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة، ورفع له بكل حرف أجر سنة وأعطاه الله بكل حرف أجر سنة، وأعطاه الله بكل حرف أجر شهيد وكان تحت ظل عرش الله مع النبيين والشهداء»[٤].

وأما الليالي: فليلة الأحد: روي فيها عن أنس بن مالك عنه ﷺ أنه قال: «من صلى ليلة [٤٥٠/ب] الأحد عشرين ركعة يقرأ في كل ركعة الحمد لله مرة، / وقل هو الله أحد خمسين مرة، والمعوذتين خمسين مرة ويستغفر الله لنفسه ولوالديه والمؤمنين مائة مرة، ويصلي على النبي مائة مرة، ويتبرأ من حوله وقوته ويلتجىء إلى حول الله وقوته ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن آدم صوفة الله وفطرته، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله

---

(١) ذكره أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً، المصدر السابق.

(٢) لم أجد له أصلاً وهو باطل. المصدر السابق.

(٣) رواه الدراقطني في غرائب مالك، وقال: لا يصح وعبد الله بن وصيف مجهول، والخطيب في الرواية عن مالك وقال: غريب جداً ولا أعرف له وجهاً غير هذا. المصدر السابق.

(٤) ذكره أبو موسى المديني في كتاب وظائف الليالي والأيام بسند ضعيف جداً. المصدر السابق.

ومحمداً حبيب الله كان له من الثواب بعدد من ادَّعَى لله ولداً، وبعدد من لم يدعه لله تعالى، ويبعثه الله عز وجل يوم القيامة مع النبيين وكان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة مع النبيين»[١].

ليلة الإثنين: روي عن الأعمش عن أنس قال قال رسول الله: «من صلى ليلة الإثنين أربع ركعات يقرأ في الركعة الأولى الحمد لله، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات، وفي الركعة الثانية يقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مرة، وفي الثالثة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مرة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاثين مرة، وفي الرابعة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مرة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أربعين مرة ثم يسلم، ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمساً وسبعين مرة، ويستغفر لنفسه، ولوالديه والمؤمنين خمساً وسبعين مرة ثم يصلي على محمد ﷺ خمساً وسبعين مرة، ثم يسأل الله حاجته كان حقاً على الله أن يعطيه ما سأل وهي تسمى صلاة الحاجة»[٢].

ليلة الثلاثاء: يصلي ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوِّذتين خمس عشر مرة، ويقرأ بعد التسليم آية الكرسي خمس عشرة مرة / ويستغفر الله [٤٥١/أ] سبحانه خمس عشرة مرة.

ليلة الأربعاء: روي عن فاطمة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من صلى ليلة الأربعاء ست ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[٣] الآية، فإذا فرغ من صلاته قال سبعين مرة: جزى الله عنا محمد ما هو أهله، غفر الله له ذنوبه سبعين سنة، كتب له براءة من الله»[٤].

ليلة الخميس: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب، وآية الكرسي خمس مرات، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمس مرات، والمعوذتين خمس مرات، فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تعالى خمس عشرة مرة وجعل ثوابه لوالديه فقد أدى حقهما وإن كان عاقاً لهما فأعطاه الله تعالى ما يعطي الصديقين والشهداء»[٥].

---

(١) ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد، وهو منكر، وروى أبو موسى من حديث أنس في فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات، وكلاهما ضعيف جداً. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٠٠).

(٢) ذكره أبو موسى المديني هكذا عن الأعمش بغير إسناد وأسند من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثاً في صلاة ست ركعات فيها وهو منكر. المصدر السابق.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٢٦.

(٤) ذكره أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٠٠).

(٥) ذكره أبو موسى المديني، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف جداً وهو منكر. قاله =

ليلة الجمعة: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى ليلة الجمعة ما بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إحدى عشرة مرة فكأنما عبد الله تعالى اثنتي عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلها»[(١)].

وعن أنس عنه ﷺ أنه قال: «من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الأخيرة في جماعة، وصلى ركعتي السنة، ثم صلى بعدهما عشر ركعات يقرأ في كل ركعة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مرة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين مرة مرة، ثم يوتر بثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة فكأنما أحيا ليلة القدر»[(٢)].

[٤٥٢/ب] وعنه /ﷺ أنه قال: «أكثروا من الصلاة عليّ في الليلة الغرّاء، واليوم الأزهر وليلة الجمعة ويوم الجمعة».

ليلة السبت: عن أنس عنه ﷺ أنه قال: «من صلى ليلة السبت ما بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة، بني له قصر في الجنة وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وتبرأ من اليهود وكان حقاً على الله أن يغفر له»[(٣)] والله أعلم وأحكم.

فصــل

ومن المرغوبات فيها أيضاً صلاة رجب، وصلاة شعبان.

أما صلاة رجب: فقد ذكر في كتاب الغزالي عن النبي عليه السلام أنه قال: «ما من أحد يصوم أول خميس من رجب، ثم يصلي بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة، يفصل بين كل ركعتين بتسليمة، يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة، و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[(٤)] ثلاث مرات، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ اثنتي عشرة مرة، فإذا فرغ من صلاته صلى عليَّ سبعين مرة

= العراقي في المغني (١/ ٢٠١).

(١) باطل لا أصل له، المصدر السابق.

(٢) باطل لا أصل له، وروى المظفر بن الحسين الأرجاني في كتاب فضائل القرآن، وإبراهيم بن المظفر في كتاب وصول القرآن للميت من حديث أنس: من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيهما بفاتحة الكتاب، و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ خمس عشر مرة، وقال إبراهيم بن المظفر خمسين مرة أمنه الله من عذاب القبر، ومن أهوال يوم القيامة، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من هذا الوحه، ومن حديث ابن عباس أيضاً، وكلها ضعيفة منكرة، وليس يصح في أيام الأسبوع ولياليه شيء، والله أعلم. المصدر السابق.

(٣) لم أجد له أصلاً. المصدر السابق.

(٤) سورة القدر الآية: ١.

يقول: اللهم صلى على النبي الأمي وعلى آله ثم يسجد ويقول في سجوده سبعين مرة: سبُّوح قدّوس رب الملائكة والروح، ثم يرفع رأسه ويقول سبعين مرة: رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت العلي الأعظم، ثم يسجد سجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى، ثم يسأل الله حاجته في سجوده، فإنها تقضى إن شاء الله».

قال عليه السلام: «لا يصلي أحد هذه الصلاة إلا غفر الله له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر، وعدد الرمل، ووزن الجبال وورق الأشجار، ويشفع في سبعمائة من أهل بيته»[1].

قال: وذكر أن أهل القدس بأجمعهم يواظبون / عليها ولا يستحبون تركها، والله أعلم. [٤٥٣/أ]

وأما صلاة شعبان: ففي كتاب الغزالي أنها في ليلة الخامس عشر منه يصلي مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات.

قال: وإن شاء عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرة.

قال: وكان السلف يصلون هذه الصلاة، وربما صلوها جماعة.

قال: وروي عن الحسن أنه قال: حدثني ثلاثون من أصحاب النبي عليه السلام: أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله عز وجل إليه سبعين نظرة، يقضي له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة[2].

وأما صلاة الحاجة: فإنه يقال: إذا ضاق بالإنسان الأمر، ومست حاجته في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه فليُصَلِّ هذه الصلاة.

فقد روي عن وهب بن الورد أنه قال: أن من الدعاء الذي لا يرد أن يصلي العبد اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة بأم القرآن، وآية الكرسي، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإذا فرغ خرّ ساجداً وقال: سبحان الذي لبس العز. وقال به: سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذي أحصى كل شيء علمه، سبحان ذي المن والفضل، سبحان ذي العز والكرم، سبحان ذي الطول والقدرة.

أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك الأعظم، وجدِّك

---

(١) أورده رزين في كتابه وهو حديث موضوع. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٠٣).

(٢) حديث صلاة ليلة النصف من شعبان حديث باطل، رواه ابن ماجه من حديث علي: إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها، وإسناده ضعيف. المصدر السابق (١/ ٢٠٤).

الأعلى وكلماتك التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، أن تصلى على محمد، ثم يسأل حاجته التي لا معصية فيها تجاب إن شاء الله.

[٤٥٤/ب] قال: قال وهب: وبلغنا أنه كان يقال: /لا تعلموها سفهاءكم فيتعاونون بها على معصية الله عز وجل[1].

كملت قنطرة أسرار الصلاة بحمد الله وحسن عونه
والصلاة على محمّد نبيه عليه السلام تتلوها قنطرة الصوم إن شاء الله

(١) راجع في الفصل إحياء علوم الدين (١/٢٠١، ٢٠٤).

القنطرة الرابعة

قنطرة أسرار الصوم(١)

الحمد لله الذي أعظم على عباده المِنّة بأن جعل الصوم لأوليائه من الشيطان حصناً وجنة، وفتح لهم من أجله أبواب الجنة، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم هي الشهوات المستكنة، وأن بقمعها تصبح النفس مطمئنة، والصلاة على نبينا محمد قائد الحق وممهد السنة، وعلى آله وصحبه أهل العقول المرجحة.

أما بعد: فإن الله سبحانه فرض على عباده الصيام وقدمه على زكاة الأموال لتعلق الصيام بالأبدان، فكان في إيجابه الصوم عليهم حثاً على رحمة الفقراء وإطعامهم وسد جوعاتهم لما قد قاسوه من شدة المجاعة في حال صومهم، ثم لما في الصوم من قهر النفس، وإذلالها، وكسر الشهوة المستولية عليها وإعلام النفس بأنها محتاجة إلى يسير من الطعام والشراب تسد بها فاقتها.

فكان الصوم على هذا المعنى قمعا للشهوات ووسيلة الرحمة والعطف على ذوي الحاجات؛ إذ قال ﷺ: «معاشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم / يستطع [٤٥٥/أ] فليصم فإن الصوم له وجاء». يعني خصاء وذلك كناية عن كسر الشهوة.

وقيل ليوسف عليه السلام: أتجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

والصوم سبب للجوع الذي هو منبهة على رحمة الفقراء، وباب للعبادة التي هي وسيلة السعداء، ومقمعة للشيطان الذي هو أعدا الأعداء، إذ بواسطة الشهوة يتوصل إلى الإغواء وإضلال الأشقياء، وإذ عظمت منفعته للعباد وجلّت مرتبته في الشرع الذي هو زاد المعاد.

فلنرسم فيه خمسة أبواب:

---

(١) وأسراره من كتاب الغزالي وغيره.

الأول: في فضيلته.

الثاني: في شروطه الواجبة وسننه المرتبة.

الثالث: في مفسداته ولوازم إفساده.

الرابع: في أسراره الباطنة.

الخامس: في صوم التطوع وفضيلته.

الباب الأول
في فضل الصوم

اعلم أن الصوم دعامة من دعائم الدين، وركن من أركان الإسلام لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[1] الآية.

ولقوله عليه السلام: «بُنِيَ الإسلام على خمس...». فذكر فيهن الصوم.

ولقوله عليه السلام: «الصوم نصف الصبر»[2] و«الصبر نصف الإيمان»[3]. فكان الصوم على هذا المعنى ربع الإسلام، ثم هو متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان؛ إذ قال تعالى فيما حكى عنه نبيه عليه السلام: «كل حسنة يعملها ابن آدم بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم؛ فإن الصوم لي وأنا أجزي به الجنة، فارق عبدي شهوته وطعامه وشرابه من أجلي»[4].

[٤٥٦/ب] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ / حِسَابٍ﴾[5]. والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب. وناهيك في معرفة فضله قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[6].

وعنه ﷺ من طريق أبي هريرة أنه قال: «أعطيت أمتي في شهر رمضان خمس خصال لم

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٨٣.

(٢) رواه الترمذي وحسنه من حديث رجل من بني سليم، وابن ماجه من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني (١/٢٣١).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن. المصدر السابق.

(٤) أخرجاه من حديث أبي هريرة. المصدر السابق.

(٥) سورة الزمر الآية: ١٠.

(٦) أخرجاه من حديثه وهو بعض الذي قبله. المصدر السابق.

تعطها أمة قبلهم: خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا، وتصفد فيه مردة الشياطين فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون في غيره ويزين الله تعالى جنته في كل يوم منه، ويقول: يوشك عبادي الصالحون أن تلقى عنهم المؤنة والأذى ويصير إليك ويغفر لهم في آخر ليلة منه». قيل: يا رسول الله أهي ليلة القدر؟ قال: «لا ولكن العامل إنما يوفى أجره آخر عمله»[١].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الجنة لتتزين من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان، فإذا كان أول ليلة من شهر رمضان هبت ريح من تحت العرش يقال لها: المثيرة، فتصفق ورق الجنة، وحلق المصاريع، فيسمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أحسن منه، فتتزين الحور العين حتى يقمن بين شرافات الجنة فينادين: هل من خاطب إلى الله فنزوجه منا، ثم يقلن: يا رضوان، فيجيبهن بالتلبية، فيقول: يا خيرات حسان، هذه أول ليلة من شهر رمضان ويقول الله تعالى: يا رضوان افتح أبواب الجنة للصائمين من أمة محمد عليه السلام / ويا جبريل اهبط إلى الأرض فصفد مردة الشياطين وغلهم بأغلال، ثم [٤٥٧/] أقذف بهم في البحر حتى لا يفسدوا على أمة محمد صيامهم، ولله عز وجل في كل يوم من رمضان عند طلوع الشمس وعند الإفطار ألف ألف عتيق يعتقهم من النار عبيد وإماء، ويعتق في آخر الشهر مثل ما أعتق من أول إلى آخره وله ملك ينادي من تحت العرش· هل من تائب يتاب عليه؟ هل من داع يستجاب له هل من مظلوم ينصره الله هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى سؤاله». ويقال: «إذا كان ليلة القدر يأمر الله جبريل عليه السلام فيهبط في كبكبة من الملائكة إلى الأرض ومعه لواء أخضر فيركزه على ظهر الكعبة فيسلمون تلك الليلة على كل قائم وقاعد ومصل وذاكر من أمة محمد عليه السلام ويصافحونهم ويؤمنون على دعائهم حتى يطلع الفجر فينادي جبريل يا معشر الملائكة الرحيل فيقولون: يا جبريل ما فعل الله عز وجل في حوائج أمة محمد عليه السلام؟ فيقول: إن الله تعالى نظر إليهم وعفا عنهم وغفر لهم إلاّ أربعة، قالوا: ومن هم؟ قال: مدمن على خمر، وعاق لوالديه، وقاطع الرحم، ومشاحن». قيل: يا رسول الله ومن المشاحن؟ قال: «الذي لا يكلم أخاه، فإذا كانت ليلة الفطر سميت تلك الليلة ليلة الجائزة فيبعث الله الملائكة في غداة الفطر فيقومون على أفواه السكك فينادون بصوت يسمعه جميع الخلائق إلا الجن والإنس، فيقولون لأمة محمد عليه السلام: اخرجوا

---

(١) أطراف هذا الحديث عند: أحمد في المسند (٢/ ٢٩٢)، ابن حجر في المطالب العالية (٩٣٢)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ١٤٢).

[٤٥٨/ب] إلى ربكم يعطي الجزيل ويغفر العظيم فإذا برزوا في مصلاهم يقول / الله تعالى: يا ملائكتي ما جزاء الأخير إذا عمل عمله؟ قالوا: جزاؤه توفية أجره، فيقول الله عز وجل: يا ملائكتي إني جعلت ثوابهم من صيامهم رمضان وقيامهم رضاي ومغفرتي فيقول تعالى: يا عبادي سلوني فوعزتي وجلالي لا تسألوني اليوم شيئاً لدينكم ودنياكم إلا أعطيته لكم».

وعنه ﷺ أنه قال: «الصوم جُنَّة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يفسق، ولا يجهل، وإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل: إني صائم إني صائم»[١].

وعن سلمان الفارسي رحمه الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك شهر فيه ليلة القدر هي خير من ألف شهر جعل الله صيامه فريضة وقيامه تطوعاً، من تقرب فيه إلى الله عز وجل بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة، وهو شهر المواساة يزداد فيه في رزق المؤمن وشهر أوله رحمة ووسطه مغفرة وآخره عتق من النار، من فطّر فيه صائماً كان كمن أعتق رقبة وغفرت ذنوبه سقاه ربه من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة قالوا: يا رسول الله ليس كلنا ما يجد ما يفطر به الصائم؟ قال عليه السلام: يعطي الله هذا الثواب من فطّر صائماً على مذقة لبن أو تمرة أو شربة من ماء، ومن أشبع فيه صائماً كان ذلك مغفرة لذنوبه وعتقاً لرقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء، ومن [٤٥٩/ب] خفف فيه عن مملوكه أعتقه الله من النار، فاستكثروا فيه من أربع / خصال: خصلتان ترضون بهما ربكم، وخصلتان لا غنى لكم عنهما فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله، وتستغفرون لذنوبكم، وأما الخصلتان اللتان لا غنى لكم عنهما: فتسألون الله الجنة وتتعوذون به من النار».

وعنه ﷺ أنه قال: «نوم الصائم عبادة وصمته تسبيح، ودعاؤه مستجاب وعمله مضاعف»[٢].

وعن أبي مسعود الأنصاري أنه قال: من صام رمضان في إنصات، وسكوت، وذكر الله

---

(١) أخرجاه من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٣٥).

(٢) رويناه في أمالي ابن مندة من رواية ابن المغيرة القواس عن عبد الله بن عمر بسند ضعيف، ولعله عبد الله بن عمرو، فإنهم لم يذكروا لابن المغيرة رواية إلا عنه، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبد الله بن أبي أوفى وفيه سليمان بن عمرو النخعي أحد الكذابين. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٣٢).

عز وجل، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه، ولم يرتكب فيه فاحشاً إلا انسلخ عنه رمضان حين ينسلخ وقد غفرت ذنوبه كلها وبني له بكل تسبيحة وتهليلة بيت في الجنة من زمرد، في جوفها ياقوتة حمراء في جوف تلك الياقوتة خيمة من در مجوفة فيها زوجة من الحور العين.

وعن ابن مسعود أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو يعلم العباد ما في رمضان لتمنوا أن يكون السنة كلها». فقال رجل من خزاعة: حدثنا يا رسول الله بما فيه فقال: «إن الجنة لتتزين لرمضان من الحول إلى الحول، فإذا كانت أول ليلة هبت ريح من تحت العرش فصفقت ورق الجنة فتنظر الحور إليها فيقلن: يا رب اجعل لنا في هذا الشهر من عبادك أزواجاً تقرّ أعيننا بهم وأعينهم بنا، فما من عبد صام رمضان إلاّ زوّج زوجة من الحور العين في خيمة من دُرّ مجوفة كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾[1]. وعلى كل امرأة منهن سبعون حلة ليس فيهن حلة على لون الأخرى وتعطى سبعين لوناً من الطيب وكل امرأة منهن على /سرير من ياقوت أحمر منسوج بالدر عليه سبعون فراشاً بطانتها من استبرق لكل امرأة سبعون [٤٦٠/أ] وصيفة، هذا في كل يوم صامه من رمضان سوى ما عمل من الحسنات».

وعنه عليه السلام أنه قال: «شهر رجب شهر أمتي وفضله على سائر الشهور كفضل أمتي على سائر الأمم، وشعبان شهري وفضله على سائر الشهور كفضلي على سائر الأنبياء، ورمضان شهر الله وفضله على سائر الشهور كفضل الله تعالى على خلقه».

وعنه عليه السلام أنه قال: «للجنة باب يقال له الريان: لا يدخله إلا الصائمون»[2].

وعنه عليه السلام قال: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه»[3].

وعنه عليه السلام أنه قال: «لكل شيء باب، وباب العبادة الصوم»[4]. وقال: «نوم الصائم عبادة».

وروي عن وكيع في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[5].

قال: هي أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب.

---

(١) سورة الرحمن الآية: ٧٢.

(٢) أخرجاه من حديث سهل بن سعد. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٣٢).

(٣) أخرجاه من حديث أبي هريرة. المصدر السابق.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد، ومن طريقه أبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف. المصدر السابق.

(٥) سورة الحاقة الآية: ٢٤.

وقد جمع رسول الله ﷺ في رتبة المباهات بين الزهد في الدنيا وبين الصوم، فقال: «إن الله تعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول: أيها الشاب العابد التارك شهوته لأجلي المبذل شبابه لي أنت عندي كبعض ملائكتي»[١].

وقال عليه السلام في الصائم: «يقول الله عز وجل: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي»،

وقيل في قوله عز وجل: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أخفي لَهُم مِن قرّة أعْيُن جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُون﴾[٢].

قيل: عملهم الصيام لأنه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣].

[٤٦١/ب] فيفرغ للصابر / جزاؤه ويجازف جزافاً فلا يدخل تحت وهم وتقدير، وجدير بأن يكون كذلك؛ لأن الصوم إنما كان لله تعالى ومشرفاً بالنسبة إليه وإن كانت العبادة كلها له، كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له وإنما كان كذلك لمعنيين:

أحدهما: أن الصوم كف وترك، وهو في نفسه سرٌ ليس فيه عمل مشاهد، فجميع الطاعات يشاهدها الخلق ويراها إلا الصوم؛ فإه لا يراه إلا الله عز وجل، لأنه عمل في الباطن بالصبر المجرد.

والثاني: أنه قهر لعدو الله عز وجل الذي هو الشيطان فإن وسيلته إلى إهلاك الإنسان هي الشهوات وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، ولذلك قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالعطش والجوع»[٤].

وعنه ﷺ أنه قال لعائشة رضي الله عنها: «داومي قرع باب الجنة». قالت: بماذا؟ قال ﷺ: «بالجوع»[٥].

فلما كان الصوم قمعاً ففي قمع عدو الله نصرة لله تعالى ونصر الله موقوف على مَنْ نصره، قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٦].

---

(١) رواه ابن عدي من حديث ابن مسعود بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٣٢).
(٢) سورة السجدة الآية: ١٧.
(٣) سورة الزمر الآية: ١٠.
(٤) متفق عليه من حديث صفية دون قوله: فضيقوا مجاريه بالجوع. المصدر السابق.
(٥) لم أجد له أصلاً. المصدر السابق.
(٦) سورة محمد الآية: ٧.

والبداية بالجهد من العبد والجزاء بالهداية من الله تعالى ولذلك قال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إن الله لا يُغير ما بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسهم﴾[٢] وإنما التغيير بكثرة الشهوات التي هي مراتع الشيطان ومرعاهم وما دامت مخصبة لم ينقطع ترددهم، وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله تعالى، وكان محجوباً عن لقائه إذ قال عليه السلام فيما روي عنه: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم / لنظروا إلى ملكوت السماء»[٣]. [٤٦٢/أ]

فمن هاهنا صار الصوم باب العبادة وجنة لأهل الزهادة، ولن ينال فضله إلا من عرف حرمته، وصان فيه لسانه عن قبيح الكلام وفضوله، وتحفظ فيه عن الكذب ومجاريه، واحترز من الغيبة والنميمة وسائر مساوئه، وحفظ جوارحه كلها من المعاصي ظاهراً وباطناً، وأصلح طعمته التي بها صلاح قلبه الذي عليه المدار وكان خائفاً من رد صومه وسائر عمله عليه وراجياً لقبوله بفضل الله وإحسانه إليه وبالله التوفيق[٤].

الباب الثاني
في الشروط الواجبة وسننه المرتبة

وفي هذا الباب فصلان:

أحدهما: في شروطه الواجبة.

والثاني: في سننه المشروعة فيها.

الفصل الأول: في الواجبات

وهي ستة:

أحدها: مراقبة الشهر في أوله وذلك برؤية الهلال، فإن غمّ فباستكمال ثلاثين يوماً من شعبان. ونعني بالرؤية العلم بدخول الشهر، ويحصل ذلك بقول عدل واحد، ولا يثبت هلال شوال إلاّ بقول عدلين إحتياطاً للعبادة، ومن سمع ذلك من عدل ووثق بقوله وغلب على ظنه

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

(٢) سورة الرعد الآية: ١١.

(٣) رواه أحد من حديث: أبي هريرة بنحوه. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٣٣).

(٤) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٣١، ٢٣٣).

صدقه لزمه الصوم، وإن لم يقض به القاضي.

الثانية: النية لصومه، وقد اختلف فيها على قولين: قال بعضهم: لا بد في كل ليلة من نيّة معيّنة جازمة.

وقال آخرون: تكفيه نية واحدة من أول ليلة من الشهر، ولو نوى الصوم بالنهار لم يجزه للفرض ولا للتطوع، وكذلك لو نوى الصوم مطلقاً أو صوم الفرض مطلقاً لم يجزه حتى ينوي صوم رمضان فريضة من الله عز وجل عليه.

[٤٦٣/ب] ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غداً إن كان من رمضان لم يجزه؛ لأنها ليست / بجازمة إلاّ أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل، فاحتمال غلط العدل أو كذبه لا يبطل الجزم، وكذلك إذن استند إلى إستصحاب حال: كالشك في الليلة الأخيرة من رمضان فذلك لا يمنع جزم النية.

وكذلك إن استند إلى اجتهاده: كالمحبوس في المطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده، فشكه لا يمنعه من النية، ومهما كان شاكاً ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان، فإن النية محلها القلب والقلب لا يتصور فيه جزم القصد(1) مع الشك، كما لو قال في وسط رمضان أصوم غداً إن كان من رمضان، فإن ذلك لا يضره ترديد لفظ.

ومحل النية لا يتصور فيه تردد بل هو قاطع بإنه من رمضان، ومن نوى ليلاً ثم أكل لم تفسد نيته. ولو نوت في الحيض ثم طهرت قبل الفجر صح صومها.

الثالثة: الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمداً مع ذكر الصوم، ويفسد صومه بالأكل والشراب والسعوط من الأنف عمداً، ولا يفسد بالفصد والحجامة والاكتحال وإدخال المرود في الأذن والإحليل إلاّ أن يقطر فيه ما يبلغ المثانة.

ويكره الاحتقان في الدبر، وأما ما يصل جوفه من غير قصد من غبار الطريق، أو ذبابة تسبق إلى جوفه، أو ماء سبق إلى جوفه بالمضمضة فلا يفطر بذلك إلا إذا بالغ في المضمضة، أو كان ذلك لغير الوضوء فينبغي أن يكون مفطراً يومه ذلك لأنه متعرض للإفطار وهو المراد بقولنا عمداً.

وأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناسي فإنه لا يفطر، ولكن يستحب له إعادة يوم مكانه. وأما من أكل عامداً / في طرفي النهار ثم ظهر له أنه أكل بالنهار بالتحقيق فعليه [٤٦٤/ب]

(١) في الأصل: «القضي» والتصويب من الإحياء (١/ ٢٣٣).

قضاء ذلك اليوم، وإن بقي على حكم ظنه واجتهاده فلا قضاء عليه، ولا ينبغي أن يأكل في طرفي النهار إلا بغالب ظن واجتهاد أنه من الليل والله أعلم.

الرابعة: الإمساك عن الجماع وحَدُّهُ تغييب الحشفة، وإن جامع ناسياً فليعد يوماً مكانه، وكذلك الإمساك عن الاستمناء وهو إخراج المَنِيّ واجب عليه الإمساك عنه سواء لقصد الجماع أو لغيره فإن فعل فقد افطر، ولا يفطر بقبلة زوجته ولا مضاجعتها ما لم ينزل المَنِيّ دون المذي والودي لكن يكره، إلا أن يكون شيخاً كبيراً أو مالكاً لإربه فلا بأس بالتقبيل وتركه أحوط وأحسن وإذا كان يخاف الإنزال بالتقبيل ثم قَبَّل فسبق المَنِيّ منه أفطر لأنه متعرض له.

الخامسة: الاغتسال من الجنابة قبل طلوع الفجر، فإن جامع أو احتلم ففرط في الغسل حتى الفجر فقد أفطر وإن لم يفطر فعليه يوماً مكانه. وكذلك إن فرط في الغسل نهاراً فقد أفطر وإن اغتسل في حين علمه بالجنابة فلا يفطر، وكذلك إن كان له عذر في إستعمال الماء للغسل ففرط في التيمم حتى أصبح أو في النهار مقدار ما يغتسل فيه فقد افطر بانهدام ما مضى من صومه يقضيه بلا كفارة.

السادسة: الإمساك عن الكذب والغيبة والنميمة وقول الشرك وبهتان البريء وقذف المحصن وأشباه ذلك من جميع الكبائر. فإن كذب أو اغتاب مسلماً أو قذف محصناً أو لعن غير المستحق أو ارتد إلى الشرك فقد انهدم صومه، وكذا / إخراج القيء عمداً يفسد الصوم، [٤٦٥/أ] وأما إن ذرعه القيء فلا يفطر بذلك، وكذلك إذا ابتلع نخامة أو بلغماً فلا يفطر، إلاَّ إن ابتلع ذلك بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عند بعضهم[١].

وأما شروط صحة الصوم فهي خمسة: الإسلام والعقل، والبلوغ، والطهارة من الحيض والنفاس والقدرة على الصوم، وقد شرحنا هذه الشروط في كتاب القواعد، ولذلك اقتصرنا هاهنا على ما لا بد للإنسان منه.

الفصل الثاني: في سننه المشروعة فيه

وهي ستة أيضاً وهي: تأخير السحور، وتعجيل الإفطار وينبغي أن يكون بالتمر واللبن قبل الصلاة، وترك السواك بعد الزوال رطباً كان أو يابساً لئلا يقطع خلوف فم الصائم الذي هو عند الله أطيب من ريح المسك. وكذلك الاستنقاع في الماء نهاراً لكسر العطش مكروه، ومن

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٣٣، ٢٣٤).

سننه أيضاً القيام في ليالي رمضان بالجماعة في المساجد، وترك المبالغة في المضمضة والاستنشاق لقوله عليه السلام: «إذا توضأت فأبلغ إلا أن تكون صائماً»[١].

ومن فضائل رمضان مدارسة القرآن فيه، والاعتكاف في المسجد لا سيما في العشر الأواخر من رمضان وهي عادة رسول الله ﷺ فيما بلغنا: كان إذا دخلت العشرة الأواخر طوى الفراش وشد المئزر فدأب وأدأب أهله[٢]. أي أداموا التعب في العبادة إذ فيها ليلة القدر والأغلب أنها في أوتار العشر وأشبه الأوتار ليلة: إحدى، وثلاث، وخمس، وسبع، وليكن الاعتكاف متتابعاً، ولا يخرج من المسجد إلاّ / لضرورة: من قضاء حاجة للإنسان، أو [٤٦٦/ب] إغتسال، أو تطهر للصلاة، وأشباه ذلك مما لا بد منه، ولا ينبغي أن يعرج على شغل آخر سوى ما هو فيه لما روي أن النبي عليه السلام: كان لا يخرج إلا لحاجة الإنسان ولا يسئل عن المريض إلاّ ماراً[٣]، والله أعلم.

الباب الثالث
في مفسداته ولوازم إفساده

أما مفسدات الصوم فهي: ترك الواجبات المتقدمة بنفسها من النية، وسائر الإمساكات عن المفطرات لأنه لما كان عقد النية للصوم شرطاً في صحته، كان قطع النية عن الصوم أو إهماله في بدء الأمر بغير نية مبطلاً للصوم، وكذلك إمساك الجوارح من جميع ما يفسده شرط في صحته وإطلاقها مبطل له أيضاً، وكذلك الغسل من الجنابة والحيض والنفاس شرط في صحة الصوم، وترك الغسل مبطل له، وبالله التوفيق.

وأما لوازم الإفطار فأربعة: القضاء، والكفارة، والفدية والإمساك بقية النهارة تشبيهاً بالصائمين.

أما القضاء: فوجوبه عام على كل موّحد مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر وهم خمسة أصناف:

---

(١) أحمد في المسند (٤/ ٣٣) بنحوه.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحيا الليل، وأيقظ أهله وجد وشد المئزر. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٣٤).

(٣) متفق على الشطر الأول من حديث عائشة، والشطر الثاني رواه أبو داود بنحوه بسند لين. المصدر السابق.

أحدهم: المقيم إذا أفطر بعذر لضرورة التنجية فعليه قضاء ما أكل، وإن أفطر بغير عذر فعليه قضاء ما مضى.

والثاني: الحائض.

والثالث: النفساء يقضيان ما أكلا في شوال أو في غيره.

والرابع والخامس: المريض والمسافر يقضيان ما أكلا إذا لم يضيعا حتى يستهل عليهما هلال رمضان المقبل. واختلف / في المشرك يسلم نهاراً في بعض رمضان فقيل: عليه قضاء ما [٤٦٧/أ] مضى، وقيل: لا شيء عليه، وكذلك الصبي والمجنون يبلغ هذا ويفيق هذا في بعض رمضان فأكثر القول أنه: لا قضاء عليهما، وصوم القضاء مشروط فيه التتابع فإن أفطر فيه متعمداً انهدم ما مضى ولا كفارة عليه.

وأما الكفارة: فلا تجب إلا في الجماع، أو الاستمناء نهاراً، أو الأكل والشراب متعمداً، وما عدا هذه الوجوه من تضييع الغسل ليلاً حتى أصبح أو نهاراً قدر ما يغتسل فيه ففيه الانهدام لما مضى ولا كفارة فيه.

والكفارة أقل ما قيل فيها: عتق رقبة، فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين، فإن عجز فإطعام ستين مسكيناً أكلتين مادومتين حتى يشبعوا ويقولوا: شبعنا، وإن شاء اكتال لكل مسكين مدين وهما نصف صاع النبي عليه السلام، وقيل: هو مخيّر في هذه الكفارة، وقيل: هي على الترتيب، والله أعلم.

وأما الفدية: فتجب على الحامل والمرضع، والشيخ الهرم، والعجوز الهرمة، والمريض المدنف الذي لا يرجى برؤه، فيجب على هؤلاء الفدية بإطعام مسكين كل يوم غداء وعشاء، أو فطور أو سحور إلا أن الحامل تطعم من مالها والمرضع تطعم من مال زوجها، ثم تقضيان بعد ذلك إذا أمنتا على ولديهما، والمريض والمسافر إذا ضيّعا القضاء حتى يدخل عليهما رمضان المقبل يطعمان أيضاً عن كل يوم من الماضي مسكيناً ثم يقضيانه بعد انسلاخ هذا الحاضر صوماً وبالله التوفيق.

وإن لم يطعما فليوصيا به عند / حضور الموت أو قبل ذلك، والله أعلم. [٤٦٨/أ]

وأما الإمساك لبقية النهار: فيجب على من عصى بالإفطار، أو بالجماع، أو أفطر يوم الشك ثم صحّ أنه من رمضان، أو الصبي يبلغ أو المجنون يفيق، أو المشرك يسلم فهؤلاء يجب عليهم الإمساك إذا انتقلوا عن حالتهم الأولى نهاراً في رمضان، ولا يجب على الحائض

والنفساء إذا طهرتا في بقية النهار، ولا على المسافر إذا قدّم من سفره مفطراً، وإن كان ينبغي لهؤلاء أن يُتِمُّوا بقية النهار صوماً، والصوم في السفر أفضل من الإفطار فيه إلا أن لم يطق، ولكن لا يفطر يوم يخرج وكان مقيماً في أوله، ولا يوم يقدم إذا قدم صائماً من وراء فرسخين، ولا يفطر المسافر إلاّ بتبييت نية الإفطار من الليل مع مجاوزة فرسخين في غير اليوم الذي خرج فيه، وكذلك المريض لا يفطر إلا بالنية من الليل مع العجز عن الصوم إلاّ إن طرأ عليه المرض فاضطر فله أن ينجي نفسه إلى الليل ثم يصبح على نية الإفطار إن لم يطق الصوم، وبالله التوفيق[1].

الباب الرابع
في أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم أن الصوم في لغة العرب الإمساك مجملاً سواء كان الإمساك عن الطعام أو الكلام أو غيرهما، تقول: صامت الريح إذا أمسكت عن الهبوب، وصامت الخيل: إذا أمسكت عن الجري، والصوم في الشرع: الإمساك عن المفطرات بنية مخصوصة في زمان مخصوص.
فانقسم الناس في الصوم على ثلاثة أقسام:

[٤٦٩/ب] **أحدها**: صوم السفهاء / الجاهلين.

والثاني: صوم الأتقياء الصالحين.

والثالث: صوم الأولياء الصديقين.

أما صوم السفهاء الجاهلين: فهو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع وإطلاق الجوارح والنميمة والأيمان الكاذبة والفحش وغير ذلك من موبقات اللسان، ولا يحفظ بصره عن النظر إلى العورات ومحاسن الناس الأجنبيات وغير ذلك من أصناف نظر الشهوات، ولا يحفظ سمعه عن استماع الغيبة وغير ذلك من جميع المحرم من الكلام؛ لأن كل ما حرم التلفظ به حرم الإصغاء إليه، وكذلك لا يحفظ حلقه من أكل الحرام عند الإفطار من الصوم، وكذلك سائر الجوارح من اليد والرجل لا يحفظهما عن المعاصي، بل يطلقهما على مقتضى شهوته ثم يفطر وقت الإفطار على الحرام.

مثال هذا الصائم مثال من يبني قصراً ويهدم مَصراً، وفي مثله قال النبي ﷺ: «كم من

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٣٤) باختصار عما هنا.

صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش»[1] فقيل: هو الذي يفطر على الحرام.

وقيل: هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ثم يفطر على لحوم الناس بالغيبة، وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام.

وأما صوم الأتقياء الصالحين: فهو إمساك الجوارح عن الآثام، وتمامه ستة أمور:

الأول: حفظ اللسان عن الكذب وغيبة المسلم، والنميمة بين الناس، وأضاف فواحش اللسان من هذيان الكلام والتغني وغير ذلك، ثم إلزامه السكوت أو يشغله بذكر الله وتلاوة / القرآن فهذا صوم اللسان؛ لأنه إن لم يمسك لسانه عن كبائر اللسان من الكذب والغيبة [٤٧٠/أ] والنميمة فقد بطل صومه لما روي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خمس يفطِّرن الصائم: الغيبة، والنميمة، والكذب، واليمين الكاذبة، والنظر بشهوة»[2].

وفي حديث الربيع بن حبيب رضي الله عنه بإسناده إلى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الغيبة تفطر الصائم وتنقض الوضوء».

وفي الأثر أن الخصال الخمس المتقدمة في الحديث «يفطِّرن الصائم وينقضن الوضوء ويهدمن الأعمال هدماً». وعن سفيان الثوري أنه قال: الغيبة تفسد الصوم.

وفي كتاب الغزالي: عن ليث عن مجاهد قال: خصلتان تفسدان الصيام: الغيبة والكذب[3].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما صام من ظل يأكل لحوم الناس».

وفي حديث آخر: «من لم يدع فعل المنكر». أو قال: «فعل المعاصي فليس بالله حاجة أن يدع له طعامه وشرابه».

وفي كتاب الغزالي قال: وجاء الخبر: أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فاجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستاذنانه في الإفطار فأرسل إليهما قدحاً وقال لهما: «قيئا فيه ما أكلتما فقاءت أحدهما بضعة لحم غريضاً

---

(١) رواه النسائي، وابن ماجه من حديث أبي هريرة. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٣٦).

(٢) رواه الأزدي في الضعفاء من رواية جابان عن أنس، وقوله جابر تصحيف، قال أبو حاتم الرازي هذا كذاب. المغني (١/ ٢٣٥).

(٣) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٣٥).

ودماً غبيطاً، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه» فعجب الناس من ذلك فقال عليه السلام: [٤٧١/ب] «هاتان صامتا عما أحل الله فافطرتا على ما حرّم الله عليهما قعدت أحدهما إلى / الأخرى فجعلتا تغتابان الناس فهذا ما أكلتا من لحومهم»[١].

الأمر الثاني: غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم وما لا يحل النظر إليه وإلى كل ما يشغل القلب ويصد عن ذكر الله تعالى، قال الله سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[٢] الآية.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «النظرة إلى ما لا يحل سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفاً من الله تعالى آتاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[٣].

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: إياكم والنظرة؛ فإنها تزرع في القلب الشهوة وكفى بصاحبها فتنة.

وقال عليه السلام: «خمس يفطرن الصائم» فذكر فيهن النظر لشهوة.

وفي أثر الفقهاء: خمس يفطرن الصائم منهن النظر إلى ما لا يحل من الفروج فصوم العين إمساكها عن النظر الحرام، والله أعلم.

الثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه؛ لأن كل ما حرم القول به حرم الإصغاء إليه، ولذلك سوى الله تعالى بين المستمع وآكل السحت فقال: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[٤].

وقال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[٦].

ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[٧].

---

(١) رواه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ، الحديث بسند فيه مجهول. المغني (١/ ٢٣٥).
(٢) سورة النور الآية: ٣٠.
(٣) رواه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة. عن نحوه العراقي في المصدر السابق.
(٤) سورة المائدة الآية: ٤٢.
(٥) سورة المائدة الآية: ٦٣.
(٦) سورة النساء الآية: ١٤٠.
(٧) سورة النساء الآية: ١٤٠.

ولذلك قال ﷺ: «المغتاب والمستمع شريكان في الإثم»[1]. فالسكوت عن إنكار الغيبة وأنواع المنكر حرام كما أن فعله حرام.

الرابع: كف بقية الجوارح من اليد والرجل عن استعمالهما في المعاصي والمكاره، وكف البطن عن أكل الشبهات وقت الإفطار، فلا معنى للصوم عن الحلال والإفطار على الحرام، وقد تقدم / مثل هذا الصائم، وهو كمن يبني قصراً ويهدم مصراً، وقد ذهب ما شاء الله [٤٧٢/أ] من العلماء إلى إبطال الصوم للمفطر على الحرام مع تضعيف الكفارات عليه والله أعلم.

وذلك لأن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لا بنوعه فالصوم إنما هو تقليل للطعام لتضعف شهوته فالتقليل من الطعام دواء، والكثرة منه داء، وتارك الاستكثار من الدواء خوفاً من ضرره إذا تناول من السم كان سقيماً هالكاً، فالحرام سم مهلك للدين والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره وقصد الصوم تقليله. ولذلك قال عليه السلام: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش»[2].

الخامس: أن لا يستكثر من أكل الحلال وقت الإفطار حتى يمتلىء؛ فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال، وكيف يستفيد من الصوم قهر الشيطان وقهر الشهوة إذا تدارك الصائم عند إفطاره، ما فاته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه في ألوان الطعام، حتى استمرت العادات من الناس أن يدخر أحدهم جميع الأطعمة لرمضان فيأكل من الطعام فيه ما يأكل في عدة أشهر.

ومعلوم أن مقصود الصوم: الخوى وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى، وإذا دبغت المعدة ضحوة النهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها، وقويت رغبتها، ثم أطعمت من اللذات واشبعت من الشهوات زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وانبعثت من الشهوات ما عسى أن تكون ساكنة على حالتها لو تركت على عادتها فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في قود الإنسان إلى الشرور ولن / يحصل ذلك إلا بالقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان [٤٧٣/أ] يأكلها كل ليلة لو لم يصم.

فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلة، فإنه لا ينتفع بصومه، بل من

---

(١) غريب، وللطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة. المغني للعراقي (١/٢٣٦).

(٢) ذكر العراقي نحوه في المغني (١/٢٣٦) وقال: رواه النسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار؛ حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه، ويستديم في ليله قدرة وقوة من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده من العبادة فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء، وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[١].

ثم قال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٢].

ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلة من الطعام فهو عن ذلك محجوب، ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب عن قلبه ما لم يخل همته عن غير الله عز وجل، وذلك هو الأمر المطلوب من الإنسان المكلف المملوك المستعبد لربه تعالى وبالله التوفيق. ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام وسيأتي له مزيد بيان إن شاء الله.

السادس: أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أَتُقِبِّلَ صَومه فهو من المقربين أم رُدَّ عليه فهو من الممقوتين، وليكن كذلك في آخر كل عبادة فرغ منها بل في جميع حالاته.

وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن أنه مرَّ بقوم يوم العيد وهم يضحكون فقال: إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق أقوام فغاروا وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم / الذي فاز فيه المسارعون، وخاب فيه المبطلون[٣]، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. [٤٧٤/ب]

وفي كتاب الغزالي: أي لكان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود يسد عليه باب الضحك. وعن الأحنف بن قيس أنه قيل له: إنك شيخ كبير فإن الصيام يضعفك. فقال: إني لأعده لشر يوم طويل، فالصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه. فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم وبالله التوفيق.

أما صوم الأولياء الصديقين: فهو صوم القلب وإمساكه عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالتفكر فيما سوى الله

---

(١) سورة الدخان الآية: ٣.

(٢) سورة الدخان الآية: ٤.

(٣) في الأصل: المباطلون. والتصويب من الإحياء (١/ ٢٣٦).

تعالى واليوم الآخر بالتفكر في الدنيا إلاّ دنيا تراد للدين، فإن ذلك زاد الآخرة، وليس من الدنيا حتى قال أرباب القلوب: من تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل وقلة اليقين برزقه الموعود، لأنه قيل: سيئات الصديقين حسنات الأبرار الصالحين.

فهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين الذين أقبلوا على الله عز وجل بكلية قلوبهم وأعرضوا عما سواه بجميع هممهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1].

فهؤلاء هم الذين راعوا من الصوم ما يقع به من الله لهم القبول الذي هو وسيلتهم إلى وصول المقصود ففهموا أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أوصاف الله عز وجل وهو الصمد؛ لأنه تعالى الصمد الذي يطعم ولا يطعم، والاقتداء بالملائكة / في الكف عن الشهوات [٤٧٥/أ] بحسب الإمكان فإن الملائكة منزهون عن الشهوات، والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته، وهي أيضاً دون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه، وكونه مبتلى بمجاهدته فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل سافلين والتحق بجملة البهائم، وكلما قمع شهوته ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة الذين هم مقربون من الله تعالى، والذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله تعالى بقربهم، فإن الشبيه من الشبيه قريب وليس القرب بالمكان بل بالصفات على قدر الإمكان. فإذا كان سر الصوم هذا عند أهل الألباب وأصحاب القلوب، فأي منفعة في تأخير أكلة، وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات طوال النهار. وإن كان فيه كثير منفعة وجدوى، فأي معنى لقوله عليه السلام: «رب صائم حظه من صومه الجوع والعطش»[2].

ولهذا قال أبو الدرداء فيما روي عنه: يا حبذا صوم الأكياس وفطرهم كيف يعيبون صوم الحمقى وسهرهم، ولذرة من ذي يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين.

ولذلك قال بعض العلماء: كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم، فالمفطر الصائم هو الذي يحفظ جوارحه عن المعاصي، ويأكل ويشرب.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٩١.

(٢) سبق التعليق عليه قبل قليل.

والصائم المفطر هو الذي يجوع ويعطش ويطلق جوارحه في المعاصي، ومن فهم معنى [٤٧٦/ب] الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع، وأفطر بمواقعة الآثام / كمن مسح على عضو من أعضاءه في الوضوء ثلاث مرات فقد وافق في ظاهر العدد إلا أنه ترك الفرض الذي هو الغسل فصلاته مردودة عليه بجهله، ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه مرة مرة فصلاته متقبلة منه لإحكامه الأصل وإن ترك الفرع، ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات فجمع بين الأصل والفرع وهو الكمال، وقد قال ﷺ: «إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته».

ولما تلى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾. وضع يده على سمعه وبصره فقال: «السمع أمانة والبصر أمانة»[١].

فلولا أنهما من أمانات الصوم لما قال عليه السلام: «وإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل: إني صائم» أي أني أودعت لساني لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك، فإذن قد ظهر أن لكل عبادة ظاهراً وباطناً وقشراً ولُبّاً، ولقشورها درجات، ولكل درجة طبقات، وإليك أيها المسترشد الخيرة الآن في أن تقنع بالقشر عن اللباب، أو تتحيز إلى حيز ذوي العقول والألباب، والله نسأله العون والتوفيق[٢].

الباب الخامس
في فضيلة التطوع بالصيام

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة وفواضل الأيام بعضها توجد في كل سنة، وبعضها توجد في كل شهر، وبعضها توجد في كل أسبوع.

أما في السنة بعد أيام رمضان: فيوم عرفة ويوم عاشوراء، والعشر الأوائل من ذي [٤٧٧/ب] الحجة، والعشر الأوائل من المحرم / وجميع الأشهر الحرم وهم: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وأما ما يتكرر في كل شهر: فأول الشهر، ووسطه، وآخره، والأيام البيض وهم: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر. وأما في الأسبوع: فالإثنين والخميس.

---

(١) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة دون قوله: السمع أمانة. قاله العراقي في المغني (١/ ٢٣٧).

(٢) راجع إحياء علوم الدين (١/ ٢٣٦، ٢٣٧).

فهذه الأشهر الحرم والأيام هي زمن الصيام بعد رمضان وهي أوقات فاضلة يستحب فيها الصوم وتكثير الخيرات ليضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات ونحن نحصرها إن شاء الله في خمسة فصول ليسهل على الطالب قصدها، ويتحصل للراغب فضلها.

الفصل الأول: في فضيلة يوم عرفة

اعلم أن صوم يوم عرفة مستحب لمن ليس واقفاً بعرفة وهو حاج، لما روي عن النبي عليه السلام أن سئل عن صوم يوم عرفة فقال: «يكفر السنة الماضية والآتية»[(١)].

وفي حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: «من صام يوم عرفة غفر الله له سنة خلفه وسنة أمامه».

وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال: صوم يوم عرفة كفارة ستين سنة قبله وسنة بعده.

وروي عن عطاء ومجاهد أنهما قالا: كنا لا نصوم عرفة حتى بلغنا أنه كفارة لهذه السنة والسنة الماضية وصمناه.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما من يوم في السنة أحب إلي أن أصومه من يوم عرفة. وروي أنه دخل عليها رجلان يوم عرفة فقالت: يا جارية أخرجي لهما عسلاً فلولا إني صائمة لذقته فقال: يا أم المؤمنين /إنما منعنا من صيام هذا اليوم أنّا خفنا أن يكون يوم [٤٧٨/أ] النحر. قالت: غداً يوم ينحر الناس وجماعة المسلمين.

وأما من وقف بعرفات فلا يستحب له صيام يوم عرفة لئلا يضعفه عن الوقوف والدعاء والذكر، لأن رسول الله ﷺ ترك صومه ليتأسى بذلك أهل الموسم كما ورد في الحديث: أن أناساً تماروا عند أم الفضل بنت الحارث والدة ابن عباس رضي الله عنه في صيام رسول الله ﷺ فقال بعضهم: هو صائم. وقال آخرون: ليس بصائم. قال: فبعثت إليه أم الفضل بقدح من لبن وهو واقف على بعيره فشرب. وإنما فعل ذلك عليه السلام للرفق بالناس الذين أجهدهم السفر فخاف عليهم أن يضعفوا عن الوقوف والذكر.

وأما من قوي على صيامه هناك فصيامه أفضل لما روي عن القاسم بن محمد: أن عائشة كانت تصوم يوم عرفة، قال القاسم: ولقد رأيتها عشية يوم عرفة يدفع الإمام ثم تقف حتى يبيض ما بينها وبين الناس من الأرض ثم تدعو بشراب ثم تفطر والله أعلم.

---

(١) أطراف هذا الحديث عند: مسلم في الصحيح (الصيام ١٩٧)، وأحمد في المسند (٥/٢٩٧)، والبيهقي في السنن (٤/٢٨٣)، والبغوي في السنة (٦/٣٤٣).

الفصل الثاني: في يوم عاشوراء

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون فنحن نصومه. فقال عليه السلام: «نحن أولى بموسى منكم». فأمر بصيامه[1].

وفي حديث عائشة قالت: كان يوم عاشوراء يوم تصومه قريش في الجاهلية، فكان النبي عليه السلام يصومه / في الجاهلية، فلما قدم المدينة صامهن وأمر الناس بصيامه، فلما فرض [٤٧٩/ب] رمضان كان هو الفريضة وترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه، ولكن في صيامه ثواب وأجر عظيم.

وعنه عليه السلام أنه قال: «يوم عاشوراء يوم كانت الأنبياء يصومونه فصوموه أنتم».

وعن أبي موسى أنه قال: يوم عاشوراء يوم تعظمه اليهود تتخذه عيداً، فقال عليه السلام: «صوموه أنتم».

وعن الأسود بن يزيد أنه قال: سألت عبيد بن عمير عن صوم يوم عاشوراء فقال: إن قوماً أذنبوا فتابوا فيه فتيب عليهم، فإن استطعت ألا يمر عليك إلا وأنت صائم فافعل.

وعن قتادة أنه قال: صوم يوم عاشوراء كفارة لما أضاع الرجل من زكاة ماله.

قال بعض العلماء: يريد أنه أخَّر إخراجها عن وقت وجوبها بجهالة، ولم يرد أنه لم يخرجها قال: لأنه لا يجوز أن تسقط نافلة فرضاً بإجماع.

وعن الزهري: أنه كان يأمر بإفطار رمضان في السفر، ويصوم يوم عاشوراء، فقيل له في ذلك، فقال: إن رمضان له عدة من أيام أخر، وإن يوم عاشوراء يفوت.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن صوم يوم عاشوراء فقال للسائل: «احتسب على الله كفارة سنة».

وعنه عليه السلام من طريق ابن عباس أنه قال: «من صام يوم عاشوراء كتب الله له عبادة ستين سنة صيامها وقيامها، ومن صام يوم عاشوراء أعطي ثواب عشرة آلاف ملك، ومن صام يوم عاشوراء أعطي ثواب ألف شهيد، ومن صام يوم / عاشوراء أعطي ثواب كل حاج ومعتمر [٤٨٠/ب]

---

(١) أطراف الحديث عند البخاري في الصحيح (٥/ ٩٠)، مسلم في الصحيح (٧٩٥)، أبي داود في السنن (٢٤٤٤).

ني ذلك العام، ومن أفطر عنده مؤمن في يوم عاشوراء فكأنما أفطر عنده جميع أمة محمد ﷺ ومن أطعم فيه جائعاً فكأنما أطعم جميع فقراء أمة محمد ﷺ، وأشبع بطونهم، ومن مسح فيه على رأس يتيم رفعت له بكل شعرة درجة في الجنة». قالوا: يا رسول الله فضّل الله يوم عاشوراء على الأيام؟ قال: «نعم خلق الله السموات يوم عاشوراء، وفيه خلق الجبال، وفيه خلق اللوح وفيه خلق القلم، وفيه خلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه خلقت حواء، وفيه ولد إبراهيم، وفيه نجاه الله من النار، وفيه أغرق فرعون، وفيه كشف البلاء عن أيوب، وفيه تاب الله على آدم، وفيه غفر ذنب داود، وفيه رد ملك سلمان، وفيه ولد عيسى، وفيه رفعه الله تعالى، وفيه أيضاً رفع إدريس، وفيه ولد النبي عليه السلام، وفيه تقوم الساعة».

ومن طريق آخر عنه ﷺ أنه قال: «في اليوم العاشر من المحرم يكسى البيت، وفيه استوت سفينة نوح على الجودي، وفيه حجت الملائكة البيت المعمور، وفيه تاب الله على قوم يونس، وفيه أخرج الله يوسف من الجب، وفيه كسر إبراهيم الأصنام، وفيه جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وفيه أخرج الله يونس من بطن الحوت، وفيه عبر موسى البحر، وفيه أخرج الله يوسف من السجن، وجمع بينه وبين أبيه وفيه رد الله على يعقوب بصره، فمن صام ذلك اليوم فكأنما حج واعتمر /سبعين مرة، وأنفق سبعين ألفاً في سبيل الله، وكأنما صام [٤٨١/أ] سبعين ألف سنة».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من وسع على عياله ليلة عاشوراء وسّع الله عليه سائر السنة. قال الراوي: فجربنا ذلك فوجدناه حقاً، واختلفوا أي يوم فقيل: هو العاشر من المحرم. وقيل اليوم التاسع منه.

ولذلك كان بعض الصحابة يصوم يوماً قبله، وكان ابن عباس فيما بلغنا يصوم يوم عاشوراء، ويوالي بين اليومين خشية أن يفوته، وقيل: أنه كان يقول: صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود، والله أعلم.

الفصل الثالث: في العشر الأوائل من ذي الحجة

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[2]. وهي الأوائل من ذي الحجة.

---

(١) سورة الفجر الآية: ٢.

(٢) سورة الحج الآية: ٢٨.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام». يعني أيام العشر، قيل ولا الجهاد يا رسول الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»[١].

وفي حديث آخر: «إلا من عقر جواده وأهرق دمه». وقيل في قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾[٢]. إنها عشر أول من ذي الحجة، وفيهم كلّم الله موسى، وقرّبه نجياً وكتب الألواح له فيهن، وعن أبي الدرداء أنه قال: عليكم بصوم أيام العشر وأكثروا الدعاء والاستغفار والصدقة فيها فإني سمعت النبي عليه السلام يقول: «الويل لمن حرم أيام العشر، وعليكم بيوم التاسع خاصة / فإن فيه من الخيرات أكثر من أن يحصيها العادون». [٤٨٢/ب]

وعن عائشة رضي الله عنها أن شاباً كان صاحب سماع، فكان إذا أهلّ هلال ذي الحجة أصبح صائماً فارتفع الخبر إلى رسول الله ﷺ فدعاه فقال له: «ما حملك على صوم هذه الأيام»؟ فقال له: يا نبي الله بأبي أنت وأمي إنها أيام المشاعر وأيام الحج فعسى الله أن يشركني في دعائهم، قال عليه السلام: «فإن لك بكل يوم تصومه عدل مائة رقبة، ومائة بدنة، ومائة فرس تحمل عليها في سبيل الله، فإذا كان يوم عرفة فلك فيه عدل ألفي رقبة، وألفي بدنة، وألفي فرس تحمل عليها في سبيل الله».

وفي حديث آخر: «ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذي الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر». قيل: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال: «ولا والجهاد إلا من عقر جواده وأهرق دمه».

قال: وبلغنا أن الله تعالى أهدى إلى موسى بن عمران عليه السلام خمس دعوات في أيام العشر جاء بهن جبريل عليه السلام:

أولهن: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة دون قوله: قيل ولا الجهاد؟ الخ، وع". البخاري من حديث ابن عباس: «ما العمل في أيام أفضل من العمل في هذه العشر»، قالوا: ولا الجهاد. قال: «ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء». قاله العراقي في المغني (٢٣٨/١).

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٤٢.

والثانية: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

والثالثة: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

[٤٨٣/أ] والرابعة: هي الأولى مع /زيادة وهو حي لا يموت.

والخامسة: حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى.

وذكر أن هذه الكلمات أنزلت في الإنجيل، وأن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن فضلهن وذكر لهم من الفضل والثواب لمن قرأهن في أيام العشر ما لا يقدر على وصفه أحد والله أعلم.

وفي بعض الأثر: أن رجلاً قالهن في أيام العشر فرأى في المنام كأن في بيته خمس طبقات من نور بعضها فوق بعض.

وفي الخبر: أن النبي عليه السلام قال في الأيام العشر: «أكثروا فيهن التكبير والتسبيح والتهليل والتحميد».

فكان ابن عمر فيما بلغنا يكبّر فيهن على فراشه ومجلسه، وعطاء بن أبي رباح يكبّر في العشر في الطريق، وفي الأسواق.

قال بعض العلماء: من كبّر في نفسه كان أفضل إلا إن أراد إظهار الشريعة وتذكير الناس فلا بأس به والله أعلم.

الفصل الرابع: في صوم أيام من المحرم

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من صام ثلاثة أيام من شهر المحرم كتب الله له عبادة تسعمائة سنة».

ويروى عن القاسم بن محمد سئل عن هذه الأيام الثلاثة فقال: اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من المحرم.

وعن أبي هريرة أن رجلاً سأل النبي عليه السلام فقال: أي الصوم أفضل؟ فقال عليه السلام: «شهر الله الذي تدعونه المحرم».

وفي حديث آخر: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله تعالى المحرم»(١). ولأنه [٤٨٤/ب] ابتداء / السنة فبدأها على الخير أفضل وأرجى لدوام بركته.

وعنه ﷺ أنه قال: «صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين مرة من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام»(٢).

وفي الحديث: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر حرام: الخميس، والجمعة، والسبت كتب الله له بكل يوم عبادة سبعمائة سنة»(٣).

وروي عن النعمان بن سعيد أنه سأل علياً فقال: أخبرني عن شهر أصومه بعد شهر رمضان. قال: فصم المحرم فإنه شهر الله تبارك وتعالى، فيه تاب الله على قوم ويتوب على قوم.

ويقال: في اليوم الثالث من المحرم إستجاب الله لزكرياء عليه السلام، ويستحب صومه لأن الإجابة ترجى فيه لمن صامه والله أعلم(٤).

الفصل الخامس: في الترغيب في صيام رجب وشعبان والأيام البيض وغير ذلك

وعن أنس بن مالك أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل شهر رجب قال: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان»(٥).

وعنه ﷺ أنه قال: «رجب شهر الله الأصم فمن صام يوماً منه كان كصيام سنة، ومن صام منه سبعة أيام غلقت عنه أبواب جهنم السبعة، ومن صام منه ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية، ومن صام منه خمسة عشر يوماً نادى مناد من عند العرش استأنف العمل فقد [٤٨٥/ب] كفيت ما مضى، ومن زاد زاد الله / له».

ويقال: في رجب حمل الله نوحاً عليه السلام في السفينة، فصامه نوح وأمر من معه أن

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة قاله العراقي في المغني (٢٣٨/١).

(٢) لم أجده هكذا، وفي المعجم الصغير للطبراني من حديث ابن عباس: من صام يوماً من المحرم فله بكل يوم ثلاثين يوماً. العراقي في المصدر السابق.

(٣) ذكره الأزدي في الضعفاء من حديث أنس. المصدر السابق.

(٤) راجع في الباب الإحياء (٢٣٧/١، ٢٣٨).

(٥) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٢٥٩/١)، العجلوني في كشف الخفا (٢١٣/١)، الذهبي في الميزان (٢٨٢٤)، ابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٠٣).

يصومه، وجرت به السفينة ستة أشهر وآخر ذلك يوم عاشوراء، وفيه استقرت السفينة على الجودي فصامه نوح وأصحابه شكراً لله تعالى.

وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعظم الليالي أربعة: ليلة الفطر وليلة الأضحى، وأول ليلة من رجب وليلة النصف من شعبان». وزاد بعضهم: «ليلة عاشوراء».

ويقال: من قام ليلة من هذه الليالي وصام يومها كتب الله له أجر شهيد في حياته وبعد موته.

وعنه ﷺ أنه قال: «رجب شهر الله وشعبان شهري ورمضان شهر أمتي». قيل: يا رسول الله ما معنى قولك: شهر الله؟ قال: «لأنه شهر مخصوص بالمغفرة، فيه تحقن الدماء وفيه تاب الله على أنبيائه، وفيه انقذ أولياءه من أيدي أعدائه». ثم قال عليه السلام: «من صامه يستوجب من الله ثلاثة أشياء: مغفرة لجميع ما سلف من ذنوبه، وعصمة فيما بقي من عمره، وأمناً من العطش يوم العرض الأكبر». فقام شيخ ضعيف فقال: يا رسول الله أنا أعجز عن صيامه كله فقال له عليه السلام: «صم أول يوم منه وأوسط يوم منه وآخر يوم منه؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها / فإنك تعطى ثواب من صامه كله»[1]. [٤٨٦/أ]

وأما شعبان: فقد روي أن أسامة بن زيد قال: يا رسول الله رأيتك تصوم شعبان صوماً لا تصومه إلاّ في رمضان فقال عليه السلام: «شهر يغفل الناس عنه بين رجب وشهر رمضان ترفع فيه أعمال الناس فأحب أن لا يرفع عملي إلا وأنا صائم».

وعنه عليه السلام أنه قال: «شعبان شهري فمن صام فيه ثلاثة أيام لحبي وإختياري لهذا الشهر كان معي في الجنة كهاتين» ثم قرن بين الوسطى والسبابة.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله عليه السلام يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيته استكمل صيام شهر قط إلا رمضان وما رأيته في شهر أكثر صياماً منه في شعبان[2].

---

(١) أطراف الحديث عند: العجلوني في كشف الخفا (١/ ٥١٠، ٥٨٠)، الشوكاني في الفوائد المجموعة (١١٦)، ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٢٤، ٢٠٥).

(٢) أخرجاه من حديث عائشة، وابن عباس دون ذكر القيام والنوم، والبخاري من حديث أنس: كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئاً، ويصوم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئاً، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلاّ رايته ولا نائماً إلا رأيته. المغني (١/ ٢٣٩).

وفي حديث آخر عنها أنها قالت: كان عليه السلام يصوم شعبان كله حتى يصله برمضان.

وعنه عليه السلام أنه قال: «من صام أول خميس من شعبان وخميساً من وسطه وآخر خميس منه كان حقاً على الله أن يدخله الجنة». والله أعلم.

وأما الأيام البيض: فإنها الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من كل شهر، وكان النبي عليه السلام يصومها ويقول: «تعدل صيام الدهر».

[٤٨٧/ب] وروي عن ابن /عباس رضي الله عنه: أن رجلاً سأله عن الصيام فقال: لأحدثنك حديثاً هو عندي من التحف المخزونة إن أردت صيام داود خليفة الرحمن قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل الصيام صيام أخي داود عليه السلام كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وإن أردت صيام ابنه سليمان كان يصوم ثلاثة أيام من أول الشهر، وثلاثاً من وسطه، وثلاثاً من آخره، وإن أردت صيام عيسى عليه السلام فإنه كان يصوم الدهر فلا يفطر ويقوم الليل فلا ينام، وكان يلبس الشعر ويأكل الشعير ويبيت حيث أمسى ولا يحبس شيئاً، وكان رامياً إذا أراد الصيد لم يخط، وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فمن كانت له إليه حاجة قضاها، وكان ينظر إلى الشمس فإذا رآها قد غربت قام فصفن بين قدميه قائماً ليلته حتى يراها قد طلعت فكان هذا شأنه حتى رفعه الله، وإن أردت صيام أمه مريم فإنها كانت تصوم يومين وتفطر يوماً»[1]، وإن أردت صيام خير البشر النبي العربي القرشي أبي القاسم ﷺ وعلى سائر الأنبياء والرسل فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول: «هي صيام الدهر وهو أفضل الصيام».

[٤٨٨/ب] وروي عن كريب أنه قال: أرسلني ابن عباس وناس /من الصحابة إلى أم سلمة يسألونها أيُّ الأيام كان النبي عليه السلام فيهن أكثر صياماً؟ فقالت: أكثر ما يصوم من الأيام يوم السبت ويوم الأحد ويقول: «إنهما يوما عيد للمشركين فأنا أحب أن أخالفهم».

وعن عائشة أيضاً عنه عليه السلام أنه كان يصوم من الشهر: السبت، والأحد، والإثنين، ومن الشهر الآخر: الثلاثاء، والأربعاء، والخميس.

ومما يستحب صومه أيضاً يوم سابع وعشرين من رجب، ويوم خامس وعشرين من ذي القعدة. يقال: فيه أنزلت الكعبة على آدم عليه السلام، وأنزلت معها الرحمة فترجى فيه الرحمة لمن صامه والله أعلم.

---

(١) طرفه عند ابن حجر في المطالب (١٠٢٨)، المتقي الهندي في الكنز (٢٤٦٢٩)، وقال العراقي في المغني (٢٣٩/١) أخرجاه من حديث عبد الله بن عمرو.

وأما صوم الدهر: فهو شامل لما قدمنا من صيام عدد الأيام، وغيرها من الشهور، وقد كره ذلك بعضهم لقوله عليه السلام: «من صام الدهر فلا صام ولا أفطر»(١). والصحيح أنه إنما يكره لشيئين:

أحدهما: أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهي الدهر كله.

والآخر: أن يرغب عن سنة رسول الله ﷺ في صومه بعض الأيام وإفطاره في بعضها، ثم يجعل هو صيام الدهر حجراً لازماً لنفسه، ولا يفطر فيه مع أن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تمتثل عزائمه فأما إذا لم يكن شيء من هذين الأمرين ورأى الإنسان /صلاح نفسه في صيام الدهر فليفعل ذلك ولا بأس به فقد روي عن جماعة من الصحابة [٤٨٩/أ] والتابعين أنهم فعلوه.

وقد روي عن النبي عليه السلام من طريق أبي موسى الأشعري أنه قال: «من صام الدهر كله ضيقت عنه جهنم»(٢). قيل: معناه لم يكن له فيها موضع.

وروي عن عبد الله بن عمر عنه ﷺ أنه قال: «صوم نوح عليه السلام الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصيام داود نصف الدهر، وصيام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر».

فصوم داود عليه السلام هو أشد على النفس وأقوى في قهرها، لأن العبد فيه بين صبر يوم وشكر يوم.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «عرضت عليّ خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها وقلت: يا رب أجوع يوماً وأشبع يوماً، أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت»(٣).

ولهذا قال عليه السلام: «أفضل الصيام صوم أخي داود عليه السلام فإنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً».

---

(١) الأحاديث الدالة على كراهية صيام الدهر رواه البخاري، ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو في حديث له لا صام من صام الأبد، ولمسلم من حديث أبي قتادة قيل: يا رسول الله كيف بمن صام الدهر قال: لا صام ولا أفطر، والنسائي نحوه من حديث عبد الله بن عمر، وعمران بن حصين، وعبد الله بن الشخير. قاله العراقي في المغني (١/٢٣٨).

(٢) رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، وابن حبان، وحسنه أبو علي الطوسي. قاله العراقي في المغني (١/٢٣٩).

(٣) رواه الترمذي من حديث أبي أمامة بلفظ عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً. وقال حسن. قاله العراقي في المصدر السابق.

ومن ذلك منازلته ﷺ عبد الله بن عمر في الصوم حين قال له: «ألم أخبرك أنك تقوم الليل وتصوم النهار»؟ قال: بلى، قال: «فلا تفعل نم وقم وصم وافطر فإن لنفسك عليك حقاً ولضيفك عليك حقاً وأنه عسى أن يطول بك عمر فحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة فذلك صيام الدهر فالحسنة بعشر أمثالها». قال: إني أجد قوة، قال: «/ صم من كل جمعة ثلاثة أيام». قال: إني أطيق أكثر من ذلك، قال: «صم صيام نبي الله داود عليه السلام». قال: وما صوم داود؟، قال: «نصف الدهر، وهو أعدل الصيام عند الله تعالى»(١). [٤٩٠/ب]

وقد روي أنه ﷺ، ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضان، ومن لا يقدر على صوم الدهر أو نصفه فلا بأس بثلثه وهو أن يصوم يوماً ويفطر يومين، فإذا صام ثلاثة أيام من أول الشهر وثلاثاً من أوسطه وثلاثاً من آخره فهو ثلث واقع في الأوقات الفاضلة، فإن صام الإثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث، فإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الإنسان معنى الصوم، وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهمة لله عز وجل فإذا فهم ذلك فلينظر إلى أحواله فقد يقتضي الحال دوام الصوم، وقد يقتضي دوام الإفطار ما خلا الفريضة من الصوم، وقد يقتضي مزج الإفطار بالصوم فإذا فهم المعنى وتحقق جده في سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه، وذلك لا يوجب ترتيباً مستمراً.

ولذلك روي أنه عليه السلام كان يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم، وينام حتى يقال لا يقوم، ويقوم حتى يقال لا ينام(٢). وذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحقوق الأوقات.

[٤٩١/ب] وقد كره العلماء أن يوالي الإنسان بين الإفطار/ أكثر من أربعة أيام تقديراً ليوم العيد مع أيام التشريق وذكروا أن ذلك يقسي القلب ويولد رديء العادات ويفتح أبواب الشهوات، ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق لا سيما من يأكل في اليوم والليلة مرتين أو أكثر والله نسأله التوفيق لما يحبه ويرضاه من القول والعمل(٣).

اعلموا أرشدكم الله أني إنما أوردت الأحاديث المتقدمة في فضل صلاة الأيام والليالي

---

(١) أخرجاه من حديثه. المصدر السابق.

(٢) أخرجاه من حديث عائشة، وابن عباس دون ذكر القيام والنوم، والبخاري من حديث أنس: كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئاً ويصوم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئاً وكان لا تشاء تراه من الليل مصلياً إلاّ رأيته ولا نائماً إلاّ رأيته. المصدر السابق.

(٣) راجع في الباب إحياء علوم الدين (١/ ٢٣٨، ٢٣٩).

وغير ذلك من أحاديث فضل العلم والتعلم، وما أوردت من الأحاديث هاهنا في فضل رمضان وغيره من الأيام المتقدمة، وما سنورده في الفضائل إن شاء الله وإن كان أكثرها غير مستفيض عند أصحابنا، ولا موثوق بصحتها، فإني إنما فعلت ذلك لحديث رأيته في آثار أصحابنا عن أبي عبيدة مسلم رحمه الله وذلك أنه قال: بلغني عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: من بلغه حديث في الرغائب والفضائل في العمل فاجتهد فيه. قال: فإن كان الحديث عن نحو ما بلغه كان له أجران: أجر حفظه الحديث وطاعته فيه، وأجر عمله به، وإن كان الحديث على غير ما بلغه كان له أجره على نحو ما بلغه؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين فلا يذهب أجر إجتهاده لله، ونصيحته لربه ما لم يكن إجتهاده في بدعة.

قال الشيخ أبو عبيدة رحمه الله فيما وجدت /عنه: اعلم أن المسلم إذا رزقه الله نفساً [٤٩٢/أ] طيبة مستقيمة على طاعة الله كلما بلغه شيء يتقرب به إلى الله اجتهد فيه فيكون مأجوراً على نحو ما تقدم. قال: وإذا كان للإنسان نفس خبيثة مل العمل لله واستثقل العبادة فكان أكثر همه في الجدال والمراء فإذا بلغه حديث فيه الرغبة في العمل عارضه بالقياس.

وقال: إن هذا ليس بصحيح؛ لأن رأيه وما يوافق هواه ما ليس فيه العمل بطاعة الله تعالى. وأيضاً فإني وجدت في كتب فقهاء قومنا أنهم استسهلوا في نقل أحاديث الرغائب والمواعظ. وقالوا: لأن ذلك حث على طاعة الله تعالى ودعاء إليه ورووا في ذلك حديثاً عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال عني خيراً قلته أو لم أقله فأنا قلته».

ورووا عن أبي هريرة عنه عليه السلام أنه قال: «ما بلغكم عني من قول حسن قلته أو لم أقله فأنا قلته». قالوا: إنما تشدد الأئمة من أهل العلم في أحاديث الأحكام التي بنيت عليها قواعد الإسلام التي فيها الأوامر والنواهي والحلال والحرام والحدود والفرائض ولعمري لكذلك ينبغي أن تكون. ورووا أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «من حدَّث عني حديثاً /لم أقله [٤٩٣/أ] مما فيه دعاء إلى الله عز وجل فأنا قلته فإني إنما بعثت لذلك»[١]. والله أعلم.

وينبغي لسامع هذه الفضائل المروية في الأحاديث المتقدمة إذا سمع ما فيها من عظيم الثواب أن لا يستوحش من مثله، ولا يرد ذلك إلى عقله؛ لأن الذي أعد الله سبحانه لأوليائه المخلصين من الثواب المتصل غير المقطوع أعظم من كل منظور إليه ومسموع.

---

(١) نحو طرفه عند: ابن الجوزي في الموضوعات (١/٩٨)، ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٢/٤٩١)، والمتقي الهندي في الكنز (٢٩٢١٣، ٢٩٤٨٤).

وقد قال عليه السلام حكاية عن ربه عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». فأن يقع ما سمع وريء مما لم يسمع ولم ير، وثواب الله تعالى لعباده على قدر كرمه تعالى لأعلى قدر عمل العبد ومنزلته، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

وكل ما ورد في هذه الأحاديث وشبهها من قوله: أعطي مثل ثواب أيوب، أو مريم أو غيرهما من الشهداء والأنبياء. فإنما معنى ذلك في شيء دون شيء، وفي العمل المذكور، خاصة إذا سلم من الآفات وحفظ منها في جميع الحالات؛ لأنه غير جائز أن يكون لأحد من أتباع الأنبياء مثل ثواب الأنبياء عليهم السلام.

وقد قال عليه السلام: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى»[2].

[٤٩٤/ب] وهل يتوهم متوهم أن يكون أحد / ممن آمن بالنبي عليه السلام وأتبعه أن يكون معه في درجته، ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾[3] الآية. فلو كان المعنى على ظاهر الآية لاقتضى أنهم في درجات الأنبياء.

ولهذا قال عليه السلام حين وصف كتاب الله تعالى أن لكل آية ظاهراً وباطناً وقال: «لن يتفقه أحدكم كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة».

فالتأويل المتقدم من الباطن الذي هو على غير تأويل معنى الظاهر، وكذلك حديث الرسول عليه السلام له أيضاً ظاهر وباطن ووجه وقفاً وإنما هلك من هلك باتباع الظواهر، وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كملت قنطرة أسرار الصوم

وتتلوها قنطرة الزكاة في الجزء الثاني

---

(١) سورة السجدة الآية: ١٧.

(٢) البخاري في الصحيح (٧/ ٦٨، ٨/ ١٠)، أبو داود في السنن (٥١٥٠)، البيهقي في الكبرى (٦/ ٢٨٣)، ابن حجر في المطالب (٢٥٣٣، ٢٥٣٧)، الطبراني في الكبير (٦/ ٢١٣، ٨/ ٣٥١).

(٣) سورة النساء الآية: ٦٩.

فهرس محتويات
الجزء الأول
مـــن
قناطر الخيرات

فهرس المحتويات

قنطرة الإيمان والتوحيد

قنطرة الصلاة

قنطرة أسرار الصوم